@ketab_n
3.5.2014

رِوَايَة

أليف شَافَاك

تَرجَمَة
د. محمد درويش

شرف

دار الآداب

أليف شافاك

شـــــرف

ترجمة: د. محمَّد درويش

روايـة

دار الآداب ـ بيروت

Twitter: @ketab_n

شـــرف

Twitter: @ketab_n

شـرف
أليف شافاك / كاتبة تركيّة
الطبعة الأولى 2013
ISBN 978-9953-89-271-9
حقوق الطبع محفوظة
Honor by Elif Shafak
Copyright © 2012 Elif Shafak
http://www.elifshafak.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana.adab@hotmail.com
rana.adab@gmail.com
info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

Twitter: @ketab_n

الإهـداء

عندما كنتُ في السابعة من عمري، كنّا نقطن في بيت أخضر.

وكان أحد جيراننا، وهو خيّاط ماهر، اعتاد ضرب زوجته. وكنّا نستمع في الأماسي إلى الصياح والبكاء والسباب. وفي الصباحات، كنّا نواصل حياتنا كالمعتاد. وكان الحيّ بأكمله يتظاهر بأنّه لم يسمع شيئًا ولم ير شيئًا..

إنّ هذه الرواية مهداة إلى أولئك الذين يسمعون والذين يرون.

(المؤلفة)

Twitter: @ketab_n

على قدْر ما كان يتذكّر، كان الإحساس يراوده بأنّه أمير البيت، وأنّ أمّه هي المتعهّدة به، الغامضة، والحامية المشغولة البال.

جَيْ. إم. كوتزي: العالم الآخر:

مشاهد من حياة رعويّة

Twitter: @ketab_n

مقدّمة المترجم

أليف شافاك... عين على الأقلّيّات

يزداد اهتمام الروائيّين في عالمنا المعاصر بأحداث العالم، أموغلةً في القدم كانت أم قريبة من عصرنا الحديث، على نحوٍ لم يعرفه الأدب الروائي من قبل. ولعلّ هذا الاهتمام، الذي ينصبّ أساسًا في أحوال الأقلّيّات القوميّة والعرقيّة والدينيّة، يجد له أصدقَ تعبير. في روايات الأديبة التركيّة أليف شافاك، التي تبدو وقد وطّدت العزم على السير في طريق الكشف عن أوضاع الأقلّيّات في غير مكان، وإن كانت تركيا هي البلد المفضّل لديها، لما تنطوي عليه من تاريخ حافل بالأسرار والأعاجيب، من أيّام الإمبراطوريّة العثمانيّة وحتى ظهور الدولة التركيّة الحديثة في بواكير القرن العشرين.

قدّمَتْ أليف شافاك قراءات ناضجة في الكثير من خصوصيّات الأقلّيّات. فهي ترجع إلى الماضي القديم المؤطَّر بأطره الثقافيّة والبيئيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة، لتقدِّمه في قوالب

Twitter: @ketab_n

روائيّة تثير إعجاب القارئ، لما تتمتّع به كتاباتها من رؤًى ثقافيّة واسعة الآفاق ومن زاد معرفي متنوّع الأبعاد، محيلةً القارئ على مصادر تاريخيّة وسياسيّة واجتماعيّة وثقافيّة (أدبيّة: شعريّة وروائيّة ونثريّة؛ فكريّة: فلسفيّة ونفسيّة؛ ودينيّة: صوفيّة وقرآنيّة)، تنقّب فيها مثلما ينقّب عالم الآثار في أرض قاحلة بحثًا عن كنوز آثاريّة لا تقدَّر بثمن ولا يعرف قيمتها إلّا الذين أفنوا أعمارهم في دراستها وجلاء عظمتها.

وإذا كانت أليف شافاك تهوى دائمًا العودة إلى الماضي لتنهل منه شخوصَ رواياتها (وهو ما فعلته في روايتها «أربعون قاعدة للحبّ» الصادرة بترجمتنا عن دار الآداب، والتي قدَّمت فيها رؤيتها المعاصرة إلى العلاقة السرمديّة التي ربطت جلال الدين الرومي بشمس التبريزي)، فإنّها عادت إلى التاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي مرّة أخرى (في روايتها «لقيطة إسطنبول» الصادرة أيضًا بترجمتنا عن دار الآداب) لتقدّم لنا رؤيتها ـ على لسان شخوصها ـ إلى الصراع الدامي بين السلطنة العثمانيّة والأقلّيّة الأرمنيّة في وقت كان العالم كلّه منهمكًا بأحداث الحرب العالميّة الأولى وما أفرزته من نتائج مدمِّرة على صعيد وضع الأقلّيّات في الدول المتحاربة في أقلّ تقدير وخيبات أمل مريرة عاشتها تلك الأقلّيّات ولا تزال تعيشها حتى يومنا هذا، حتى باتت بؤرَ صراعٍ لا سبيل إلى إطفاء جذوته المستعرَة على مرّ الأيّام والسنين.

وها هي أليف شافاك تقدّم في رواية «شرف» صفحة أخرى من

Twitter: @ketab_n

صفحات البؤس الاجتماعي والإثني والقومي، على المستوى الثقافي والنفسي والاقتصادي الذي يمتدّ في أجزاء من تركيا المعاصرة تعيش فيها أقلّيّة كرديّة بكلّ ما تحتفظ به من قيم وعادات متأصّلة، في الزواج وغسل العار والعلاقات الاجتماعيّة، وهي أجزاء تبدو للقارئ متخلّفة تخلّفًا شاملاً، زمانيًّا ومكانيًّا، وإنْ كانت الأحداث تدور في الماضي القريب، وتتنقّل بين أكثر من بلد.

لقد تمكّنت الروائيّة أليف شافاك، التركيّة المولودة في ستراسبورغ والمتنقّلة في عديد من البلدان الأوروبيّة والمستقرّة زمنًا في الولايات المتّحدة قبل انتقالها مؤخّرًا للعيش في إنكلترا، من توظيف ثقافتها السياسيّة والفكريّة (بحكم دراستها الجامعيّة العليا: الماجستير والدكتوراه) وانفتاح أُفُقها الفكري على الثقافات العالميّة وتاريخ الشعوب، من تقديم أدب روائي فريد في أسلوبه، مذهل في معالجته الأحداث، وهي تتناول هذه الأحداث بتقنيّة تتّضح فيها مؤثّراتُ كبار أدباء العالم، وبخاصّة جيمس جويس ووليم فوكنر وغيرهما من الروائيّين الذين باتت أساليبهم الروائيّة وتقنيّاتهم الحداثويّة بصمةً لا تُمحى في مسيرة الأدب الروائي العالمي، والذين تجد فيهم أليف شافاك مرجعًا في السرد الروائي المعاصر والحديث فَتَحَ الأبواب واسعة أمام تطوّرات جديدة ومبتكَرة لتبقى للرواية مكانتُها المتميِّزة والسامية في عالم يزداد فيه الاهتمام بالأدب الروائي على مرّ الأيّام.

تجدر الإشارة إلى أنّ أليف شافاك تكتب أعمالها بالتركيّة أو

Twitter: @ketab_n

الإنكليزيّة، وقد كتبت رواياتها الثلاث الآنفة الذكر: «أربعون قاعدة للحبّ» و«لقيطة إسطنبول» و«شرف»، باللغة الإنكليزيّة مباشرة، فكان أسلوبها باهرًا وتقنيّتها الروائيّة لا تضاهى، الأمر الذي يدل على عمق دراستها اللغة الإنكليزيّة وتمكّنها من مفرداتها الفصحى والعامّيّة على حدٍّ سواء.

الدكتور محمد درويش

بغداد/٢٠١٢

Twitter: @ketab_n

أسماء

لندن ١٢ أيلول ١٩٩٢

توفّيت والدتي مرّتين، فآليت على نفسي ألّا أجعل حكايتها في طيّ النسيان، ولكنّني لم أستطع قطّ أن أجد الوقت أو الإرادة أو الشجاعة على كتابتها، حتى وقت قريب في الأقلّ. لا أظنّني سأصبح أديبة حقيقيّة، وهو أمر لا بأس به في الوقت الراهن. لقد بلغت من العمر ما يجعلني راضيةً عن نقاط ضعفي وعن إخفاقاتي، ولكن يتعيّن عليّ أن أَحكي الحكاية وإنْ لشخص واحد، وعليّ أن أرسلها إلى ركن من أركان الكون حيث يمكنها أن تطفو بعيدًا عنّا في حرّيّة. أنا مَدينة لأمّي بهذه الحرّيّة، ويتعيّن عليّ إنهاؤها في هذا العام قبل أن يطلق سراحه من السجن.

بعد بضع ساعات سوف أرفع حلاوة السمسم من فوق الحاجب الحديدي وأتركها كي تبرد بالقرب من حوض غسيل الأواني، وأقبّل زوجي متظاهرة بأنّني لم أشاهد نظرة القلق البادية في عينيه، ثم أغادر المنزل من بعد ذلك رفقةَ ابنتيَّ التوأمين

Twitter: @ketab_n

ـ البالغتين من العمر سبع سنوات، واللتين تفصل بينهما أربعُ دقائق ـ لنذهب إلى حفلة عيد ميلاد. سوف تتشاجران في الطريق ولكنّني لن أنهرهما، وسوف تتساءلان إنْ كان ثمّة مهرّج في الحفلة أو ساحر، وهذا أفضل.

سوف أقول لهما:

ـ مثل هاري هوديني.

ـ هاري من؟

ـ قالت هوديني أيّتها الغبيّة!

ـ من هو يا أمّي؟

شيء مؤذٍ. ألمٌ يشبه لسعةَ نحلة. ليس ألمًا ظاهريًّا بل أشبه بحرقة داخليّة متزايدة في شدّتها. وسوف أدرك، كما أدركت مرّات ومرّات في كثير من المناسبات السابقة، أنّهما لا تعرفان شيئًا عن تاريخ أسرتهما، لأنّني لم أخبرهما إلّا قليلاً جدًّا. يومًا ما، عندما تكونان مستعدّتين، عندما أكون أنا مستعدّة.

بعد أن أوصل الفتاتين، سوف أتجاذب أطرافَ الحديث برهةً وجيزةً مع بقيّة الأمّهات الحاضرات. وسوف أذكّر مضيفَ الحفل بأنّ إحدى ابنتيَّ لديها حساسيّة تجاه المكسّرات، ولكنْ نظرًا لصعوبة التمييز بين التوأمين، فإنّه يستحسن وضعهما تحت المراقبة والتأكّد من عدم تناول أيٍّ واحدة منهما طعامًا يحتوي على المكسّرات، ومن ضمن ذلك قالب حلوى عيد الميلاد. أعرف أنّ هذا غير منصف لابنتي الأخرى، لكنْ يحدث أحيانًا هذا الشيء بين الأبناء، أعني الظلم.

Twitter: @ketab_n

وبعد ذلك سوف أعود أدراجي إلى سيّارتي، وهي سيّارة حمراء اللون من طراز أوستن مونتيغو أسوقها أنا وزوجي بالتناوب. المسافة من مدينة لندن إلى شروزبيري تستغرق ثلاث ساعات ونصف الساعة. ربّما أضطرّ إلى التوقّف للتزوّد بالوقود قبل أن أصل مدينة برمنغهام. وسوف أبقي صوت المذياع عاليًا، فذلك يسهم في طرد الأشباح بعيدًا، أعني الموسيقى.

فكّرت مرّات ومرات في أن أقتله، فوضعت خططًا معقّدة تضمّنت استخدام المسدّسات، أو السمّ، أو حتى السكّين ـ عدالة شعريّة إلى حدٍّ ما. وفكّرت أيضًا في العفو عنه، عفوًا حقيقيًّا وخالصًا، ولكنّني لم أحقّق أيّ شيء من هذا كلّه في نهاية الأمر.

* * *

عندما أصل شروزبيري، سوف أترك السيّارة أمام محطّة القطار وأسير مسافة خمس دقائق حتى أصل مبنى السجن المكسوَّ بالسخام. وسوف أخطو من فوق الشارع أو أتّكئ على الجدار في الجهة المقابلة للبوّابة الرئيسة منتظرةً خروجه. لا أدري كم سيستغرق منّي هذا كلّه. ولا أدري أيضًا كيف سيكون ردّ فعله عندما يراني؛ فأنا لم أزره منذ أكثر من عام بعد أن كنت أتردّد عليه في انتظام ولكنّني توقّفت عن زيارته بعد أن اقترب موعد إطلاق سراحه.

في لحظة من اللحظات سوف تُفتح البوّابة الضخمة من الداخل، وسوف يخرج، وسوف يرفع بصره وينظر إلى السماء المُعْتِمة وهو الذي لم يألف رؤية مثل هذا الفضاء الشاسع الممتدّ من فوق رأسه بعد أربع عشرة سنة أنفقها في السجن. أتخيّله وقد

Twitter: @ketab_n

رمشَتْ عيناه لضوء النهار مثل مخلوق من مخلوقات الظلام. وسوف أحافظ على هدوئي في تلك الأثناء، وسوف أعدّ حتى العشرة أو المائة أو الثلاثة آلاف. لن يعانق أحدنا الآخر، ولن نصافح يدينا، وسنكتفي بإيماءة مشتركة وتحيّة هي الأشدّ اقتضابًا، وبصوتين هامسين مختنقين. وعندما نصل المحطّة، سوف يثب داخلَ السيّارة، وسوف تستبدّ بي الدهشة لرؤيته نشيطًا قويًّا. على أيّة حال، لا يزال شابًّا.

إن شاء أن يدخّن سيكارة فإنّني لن أمانع، وإن كنت أكره الرائحة ولا أسمح لزوجي بأن يدخّن داخل السيّارة أو في المنزل. سوف نمضي بالسيّارة على امتداد الريف الإنكليزي، ونجتاز مروجًا هادئة وحقولاً واسعة. وسوف يستفسر عن أحوال ابنتيَّ وسأخبره أنّهما على ما يرام وأنّهما تكبران في سرعة. وسوف يبتسم وإن كان لا يملك أدنى فكرة عن الأبوّة. ولن أسأله عن أيّ شيء مقابل أسئلته.

سوف أصطحب شريط كاسيت للاستماع إليه، شريطًا يضمّ أفضل أغنيات فريق آبا ـ كلّ الأغنيات التي كانت تدندنها أمّي أثناء الطبخ أو التنظيف أو الخياطة: «تيك تشانص أون مي» و«ماما ميا» و«دانسنغ كوين» و«ذا نيم أوف ذا غيم». إنّني واثقة في أنّها تراقبنا. الأمّهات لا يذهبن إلى الجنّة بعد وفاتهنّ، بل يحصلن على إذن خاصّ من الله للبقاء في الجوار مدّة أطول للعناية بأطفالهنّ، بغضّ النظر عمّا مرَّ بهنّ أثناء حياتهنّ القصيرة الفانية.

ولدى وصولنا ساحة برانزبري في لندن، سوف أفتّش عن فسحة لإيقاف السيّارة وأنا أتذمّر في داخلي. سوف تمطر السماء

Twitter: @ketab_n

قطرات صغيرة بِلَّوْرِيّة. وأخيرًا سنعثر على فسحة أحشر فيها السيّارة بعد مناورات طويلة. يمكنني أن أضلّل نفسي بأنّني سائقة ماهرة حتى يصل الأمر إلى إيقاف السيّارة في موقف السيّارات. أفكّر إن كان سيسخر منّي لأنّني سائقة سيّارة كغيري من النساء، وقد سخر منّي يومًا ما.

سوف نسير معًا في متّجه المنزل، الشارع هادئ وساطع من أمامنا ومن ورائنا. وسوف نقارن في لحظة عابرة محلّتنا ببيتنا العتيق في حيّ هاكني، البيت الكائن في شارع لافيندر غروف، ونتعجّب كيف باتت الأمور مختلفة اليوم، وكيف تَقَدَّمَ الزمان إلى أمام حتى في وقت لم نتمكّن فيه نحن من التقدّم.

عندما ندخل الدار سنخلع أحذيتنا وننتعل الخُفّ ـ خفًّا أسود كلاسيًّا له، كمثل ما يستعمله زوجي، وخفًّا خمريّ اللون ومزيّنًا بكرات أماميّة لي، وسوف تتلوّى عضلات وجهه لرؤيته، ولكي أريح بال، سوف أخبره أنّه هديّة من ابنتيَّ، وعندئذٍ سوف يسترخي مدركًا أنّه ليس خفّها، أمّا التشابه فمصادفة محضة.

سيراقبني من عتبة الباب وأنا أعدّ الشاي الذي سأقدّمه مع الحليب وكمّيّات كبيرة من السكّر، هذا إنْ لم يكن السجن قد غيّر من عاداته. ثم سوف أقدّم حلاوة السمسم، وسوف نجلس معًا على مقربة من النافذة وفي يدينا كوبان وطبقان من الخزف الصيني، كأنّنا غريبان مهذّبان، نرقب المطر من على نبات البنفسج في حديقتي الخلفيّة. سوف يُثني على إعداد الحلاوة وسيقول إنّه اشتاق كثيرًا لحلاوة السمسم، وإنْ كان سيمتنع في أدب جمّ عن تناول شيء آخر. وسأقول له إنّني أتبع الوصفات التي تعدّها والدتي

Twitter: @ketab_n

بحذافيرها ولكنّ النتائج لا تأتي بالجودة التي تعدّها هي نفسها. وعندئذٍ سيلتزم الصمت. سنتبادل النظرات الطويلة، ويستقرّ صمت ثقيل الوطأة في الجوّ. ثم يطلب الإذن قائلاً إنّه يشعر بالتعب وإنّه يفضّل أن يستريح إن كان ذلك ممكنًا. سوف أقوده إلى غرفته وأغلق الباب في بطء.

سأتركه في ذلك المكان. في غرفة من غرف منزلي ليست بعيدة وليست أقرب ممّا ينبغي. سوف أحتجزه بين هذه الجدران الأربعة، بين الحبّ والكراهية، عاجزًا عن الحيلولة بيني وبين الإحساس بكليهما، ساكنًا إلى ما لا نهاية في علبة داخل فؤادي.

إنّه أخي.

إنّه قاتل.

* * *

Twitter: @ketab_n

أسماء مثل مكعّبات سكّر

قرية على مقربة من نهر الفرات ١٩٤٥

عندما وُلدتْ بمبي، بلغ الحزن بنازي حدًّا جعلها تنسى كلّ آلامها طوال الاثنتي عشرة ساعة الماضية. كان الدم ينضح من بين ساقيها وحاولت النهوض والخروج. هذا ما قاله الحاضرون في غرفة الولادة في ذلك اليوم المفعم بالنشاط.

ولكنْ على قدْر ما كانت ترغب في الخروج، فإنّها لم تستطع الذهاب إلى أيّ مكان. فقد اضطرّت وسط دهشة النساء في الغرفة ودهشة زوجها بيرزو، الذي كان منتظرًا في باحة الدار، إلى العودة إلى السرير بعد أن استبدّت بها موجة جديدة من التقلصات. وبعد ثلاث دقائق برز رأسُ طفل ثانٍ، كثيف الشعر، محمرّ البشرة، مبلَّلٌ ومتغّضن. بنت ثانية، ولكنّها أصغر حجمًا.

لم تحاول نازي الهروبَ في هذه المرّة، بل اكتفت بإطلاق تنهيدة ودفنتْ رأسها في الوسادة والتفتت نحو النافذة المفتوحة كأنّها تجاهد من أجل أن تسمع همسة القدَر في الريح، همسة رقيقة

Twitter: @ketab_n

رقّةَ الحليب. وفكّرت: لو أنّها أصغت في اهتمام شديد فلربّما سمعت جوابًا صادرًا عن السماوات. على أيّة حال لا بدّ من سبب، من مبرِّر لا تعرفه ولكنّه بالتأكيد واضح لله: لماذا رزقهما بابنتين أخريين فضلاً على البنات الستّ السابقات ولم يرزقهما حتى الآن بولد واحد.

زمَّت نازي شفتيها مثل حافّة قماش مطويّة، ووطّنت نفسها على عدم التفوّه بأيّة كلمة إلى أن يوضح لها الله توضيحًا كاملاً ومقنعًا، الدافعَ من وراء أفعاله. وكان فمها مطبقًا حتى في نومها. وفي غضون الأيّام والليالي الأربعين التي أعقبت ذلك، لم تتفوّه بكلمة واحدة، حتى عندما كانت تطهو الحمّص مستخدمةً إلية خروف، أو عندما كانت تحمّم بناتها الستّ الأخريات في دلو كبيرةٍ ودائريّةٍ ومصنوعة من الصفيح، أو عندما كانت تعدّ الجبنة وتضع فيها الثوم والأعشاب، أو عندما سألها زوجها عن الاسم الذي تحبّ أن تسمّي به المولودتين الجديدتين... ظلّت صامتة صمْتَ المقبرة القريبة من التلال حيث دُفن كلّ أسلافها وحيث ستُوارى الثرى بدورها يومًا ما.

كانت قرية كرديّة نائية كالحة، تخلو من الطرقات والكهرباء، ولا أثر فيها لمدرسة أو لطبيب. وقلّما كانت أخبار العالم الخارجي تتغلغل في عزلتها: عواقب الحرب العالميّة الثانية أو القنبلة الذرّيّة... من الأمور التي لم يسمع بها القرويّون، ولكنّهم على الرّغم من ذلك كانوا مقتنعين أنّ ثمّة أشياء غريبة حدثت في الكون، بمعنى خارج حدود شواطئ نهر الفرات. ولمّا كان العالم كما هو عليه، فإنّ الرغبة كانت معدومة في محاولة اكتشافه. فكلّ ما هناك

Twitter: @ketab_n

وكلّ ما سيكون، موجود في هذا الزمان والمكان. فأبناء الجنس البشري قُدِّر عليهم أن يكونوا مستقرِّين استقرارَ الشجر والجلاميد، إلّا إذا كنت واحدًا من هؤلاء الثلاثة: صوفيًّا جوّالاً ضيَّع ماضيه، أو أحمق فقد عقله، أو مجنونًا فقد حبيبته.

وإذا ما تركنا الدراويش وغريبي الأطوار والعشّاق جانبًا، فإنّ بقيّة الناس لا يرون ما يثير الدهشة، بل يعتقدون أنّ كلّ شيء يجري كما هو مقدّر عليه. فما من شيء يحدث في ركن ما حتى يتناهى إلى مسامع الآخرين في سرعة. الأسرار نوع من البذخ الذي لا يقدر عليه سوى الأغنياء، وفي هذه القرية التي تُسمّى «مالا جار بايان» (منزل الرياح الأربع)، لا يوجد أثر لأيّ غنيّ.

كان شيوخ القرية، وأكبرهم سنًّا ثلاثة رجال قصار القامة كئيبو المظهر، أنفقوا معظم أوقاتهم في المقهى الوحيد مستغرقين في التفكير في الحكمة الإلٰهيّة وفي غباء الساسة. وكانوا يرشفون شايهم في أقداح رقيقةٍ رقّةَ قشور البيض، هشّةٍ هشاشة الحياة نفسها. ولمّا سمعوا عن العهد الذي قطعَتْه نازي على نفسها بعدم الكلام والتزام الصمت، قرّروا أن يقوموا بزيارتها.

قال الرجل الأوّل الذي بلغ من الكِبَر مبلغًا كبيرًا، ويمكن لأقلّ نسمة هواء أن تطرحه أرضًا:

ـ جئنا لنحذّركِ بأنّك توشكين أن تقترفي إثمًا لا يقرّه الدين.

وقال الرجل الثاني الذي لم يكن في فمه سوى عدد قليل من الأسنان:

ـ كيف يمكنك أن تتوقّعي من الله عزّ وجلّ أن يكشف لك عن خططه في حين أنّنا نعرف أنّه لم يكلّم إلّا الأنبياء؟ المؤكّد أنّ

Twitter: @ketab_n

أولئك الأنبياء لم تكن من بينهم أيّة امرأة.

أمّا الرجل الثالث، فلوّح بيديه الجامدتين الكثيرتي العقد كأنّهما جذور إحدى الأشجار وقال:

ـ يريد الله أن يسمعك وأنت تتكلّمين. ولو شاء غير ذلك لجعل منك سمكة.

أصغت نازي وهي تمسح عينيها بحافّتي منديل رأسِها بين الفينة والفينة، وتخيّلت لحظةً من الزمان أنّها انقلبت سمكةً ـ سمكة كبيرة بنّيّة اللون تسبح في النهر، تلمع زعانفُها تحت أشعّة الشمس، رُقَطُها السود محاطة بهالات شاحبة اللون. ولم تعرف إلّا القدر اليسير عن أنّ أطفالها وأحفادها سوف يشعرون في مراحل مختلفة من حياتهم أنّهم مرتبطون بمختلف أنواع الأسماك، وأنّ صلة ما بالمملكة الكائنة تحت الماء سوف تظلّ قائمة في الأسرة على مدى الأجيال القادمة.

وقال الرجل الأوّل:

ـ تكلّمي! إنّ بقاء مَن هي مِن جنسك ساكتة منافٍ للطبيعة. وما ينافي الطبيعة يناقض إرادة الله.

ولكن نازي لبثت صامتة لا تتفوّه بأيّ شيء.

ولمّا انصرف الضيوف الشيوخ، اقتربت نازي من المهد الذي كانت تنام فيه الطفلتان، وكان الوميض المنبعث من الموقد قد أضفى على الغرفة لونًا ذهبيًّا انعكس بدوره على بشرتي الطفلتين فبدتا مثل ملاكين. رقّ قلبها، واستدارت إلى بناتها الستّ اللواتي كنّ مصطفّات إلى جانبها بدءًا بأطولهنّ قامةً وانتهاءً بأقصرهنّ، وقالت في صوت أجشّ وعميق:

Twitter: @ketab_n

ـ أعرف ماذا سأسمّيهما.

فهتفت البنات مسرورات عندما سمعن والدتهنّ تتكلّم من جديد:

ـ أخبرينا يا أمّاه!

تنحنحت نازي وقالت في نبرة تشوبها الهزيمة:

ـ هذه بخت والثانية بس.

فردّدت الفتيات في صوت واحد:

ـ بخت وبسّ.

ـ نعم يا أطفالي.

قالت نازي ذلك وتلمّظت، كأنّ الاسمين تركا طعمًا واضحًا مميَّزًا على لسانها، لاذعًا وحامضًا. بخت وبس باللغة الكرديّة قدر وياطر باللغة التركيّة، وبخت وكفاية بأيّة لغة أخرى محتملة. وسيكون هذا هو أسلوبها في الإعلان أمام الله أنّها وإن كانت مؤمنة بقدَرها مثل أيّ امرأة مسلمة صالحة، إلّا أنّها حصلت على نصيبها من البنات، وأنّها في حَمْلها القادم، الذي سيكون الأخير لأنّها ستبلغ الحادية والأربعين وتتجاوز مرحلة شبابها، ترجو من الله أن يرزقها بولد ولا شيء غير الولد.

في ذلك المساء، وعندما رجع الأب إلى المنزل، هرعت البنات نحوه لتبلغه الخبر السعيد:

ـ بابا، بابا! لقد تكلّمت ماما!

وعلى قدر ما انتاب السرور بيرزو عندما علم أنّ زوجته تكلّمت من جديد، إلّا أنّ غشاوة علت وجهه لمّا عرف الاسمين اللذين أطلقتهما زوجته على المولودتين الجديدتين. فما كان منه إلّا

Twitter: @ketab_n

أن هزَّ رأسه ولبث صامتًا ثواني معدودة شابها الارتباك.

وأخيرًا تمتم كأنّه يكلّم نفسه:

ـ بخت وبس، لكنّكِ لم تسمّي الطفلتين حقًّا، بل أرسلت طلبًا إلى السماوات.

حدّقت نازي إلى قدميها وأنعمت النظر في إصبع قدمها البارزة من تحت ثقب في جورب صوفي.

ومضى بيرزو يقول:

ـ إنّ الأسماء المنطوية على أحاسيس تنمّ عن الامتعاض قد تكون مهينة للخالق. ما الذي يدفعك إلى جعله يصبّ جامّ غضبه علينا؟ يُستحسن بك الالتزام بالأسماء الاعتياديّة والبقاء في الجانب الآمن.

بعد أن تفوّه بيرزو بهذا الكلام أعلن أنّ لديه خيارات أخرى يفكّر فيها: بمبي وجميلة ـ اسمان يشبهان مكعّبات السكّر التي تذوب في شايك، حلوة وطيّعة، بلا أيّ حافّات حادّة.

على الرّغم من أنّ قرار بيرزو كان حاسمًا ونهائيًّا، إلّا أنّ خيارات نازي لم يهمل شأنُها، إذْ ستبقى عالقة في ذاكرة الجميع، مرتبطة بشجرة العائلة مثل طيّارتين من ورق عالقتين بين الأغصان. وهكذا أصبحت التوأمان معروفتين بمجموعة من الأسماء: بمبي قدر وجميلة ياطر ـ قدر بمبي وكفاية جمال. مَن كان في وسعه أن يقول إنّ هذه الأسماء سوف تطبع على صفحات الجرائد يومًا ما في جميع أنحاء العالم؟

* * *

Twitter: @ketab_n

ألـــوان

قرية على مقربة من نهر الفرات، ١٩٥٣

هامت بمبي حبًّا بالكلاب منذ نعومه أظفارها، وأحبّت طريقتها في فهم أرواح البشر حتى وهي نائمة مغمضة العينين. وكان معظم الراشدين يعتقدون أنّ الكلاب لا تفهم كثيرًا، ولكنّها اعتقدت أنّ ذلك ليس صحيحًا؛ فهي تفهم كلّ شيء ولكنّها مسامِحة فحسب.

ثمّة نوع واحد من الكلاب استهواها على وجه الخصوص، له أذنان طويلتان وخطم طويل وباللونين الأبيض والأسود. كان ذلك الكلب مخلوقًا طيّب السريرة يروقه أن يطارد الفراشات ويمارس اللعب ويأكل كلّ شيء تقريبًا. وكانوا يسمّونه «قطمير»، وأحيانًا «كوتو» أو «دودو». كان اسمه متغيّرًا على الدوام.

وفي يوم من الأيّام، بدأ الكلب يتصرّف تصرّفًا غريبًا على حين بغتة، كأنّ جنّيّة مشاكسة تلبّسته. ولمّا حاولت بمبي أن تُربِّتَ على صدره وثب عليها نابحًا وعضَّ يدها. لم يكن الجرح البالغ الذي تسبّب فيه مبعثَ قلق، وإنّما سلوكُه. وفي وقت لاحق، انتشر مرض

Twitter: @ketab_n

داء الكَلَب في المنطقة، فألحّ عليها شيوخ القرية الثلاثة أن تذهب إلى أحد الأطبّاء، وإن كان أقرب طبيب يبعد مسافة ستّين ميلاً.

وهكذا، استقلّت البنت بمبي ووالدها بيرزو أوّل حافلة صغيرة، ثم حافلة كبيرة، وتوجّها إلى مدينة أورفه الكبيرة.

ولمّا فكّرت بمبي أنّها سوف تكون بعيدة عن أختها التوأم جميلة يومًا كاملاً، فقد سرت في أوصالها قشعريرة باردة. ولكنّها من جهة أخرى فرحت، لأنّ والدها سيكون في رفقتها وحدها. كان بيرزو رجلاً متين البنيان، قوي العضلات، صارم الملامح، وله شارب كثّ ويدا فلّاح وشعر أشيب عند صدغيه. وكانت عيناه البندقيّتان الغائرتان توحيان بالعطف والحنان. وإذا ما استثنينا الأوقات التي يحتدّ فيها مزاجه، فإنّه رابط الجأش، هادئ عادةً ـ وإنْ كان يشعر بحزن عميق لأنّه لم يُرْزَق بولد يحمل اسمه إلى أقصى أقاصي الأرض. وعلى الرّغم من أنّه كان رجلاً قليل الكلام، نادر الابتسام، إلّا أنّه كان يعامل أطفاله بأفضل ممّا تعاملهم زوجته. وكانت بناته الثماني يتنافسن من أجل الحصول على حبّه وعطفه، مثل دجاج يلقط حفنة من الحبوب.

كان السفر إلى المدينة مسلّيًا ومشوّقًا، أمّا الانتظار في المستشفى فلم يكن كذلك على الإطلاق؛ فأمام باب غرفة الطبيب كان ثلاثة وعشرون مريضًا في الانتظار. وقد عرفت بمبي العدد معرفة دقيقة لأنّها، بخلاف بقيّة فتيات القرية اللواتي كنّ في الثامنة من أعمارهنّ، كانت وجميلة قد التحقتا بالمدرسة، التي كانت مبنًى متداعيًا من طبقة واحدة، وفي قرية أخرى يستغرق الذهاب إليها سيرًا على الأقدام أربعين دقيقة، وكانت تستطيع القيام بعمليّة العدّ.

Twitter: @ketab_n

كان ثمّة موقد في وسط حجرة الدرس ينفث دخانًا أكثر ممّا يرسل دفئًا وحرارة. وكان الأطفال الأصغر سنًّا يجلسون إلى جانب منه، في حين يجلس الأطفال الأكبر سنًّا في الجانب الآخر. ولمّا كانت النوافذ لا تُفتح إلّا نادرًا، فقد كان الهواء في داخل الحجرة نتنًا، ثقيلاً مثل نشارة الخشب.

قبل أن تبدأ بمبي بالذهاب إلى المدرسة، كانت تظنّ ظنًّا قويًّا أنّ كلّ الناس على وجه البسيطة يتكلّمون اللغة الكرديّة، ولكنّها أدركت الآن أنّ الأمر ليس كذلك، بل إنّ عددًا غير قليل من الناس لم يكن يفقه شيئًا من اللغة الكرديّة، مثل معلّم المدرسة على سبيل المثال، الذي كان رجلاً قصير الشعر يميل إلى الصلع وتنبعث من عينيه نظرة ملؤها الحزن والهمّ، وكأنّه مشتاق للحياة التي خلّفها من ورائه في إسطنبول وممتعض من إرساله إلى هذه البقعة المنسيّة. وكان يستاء كثيرًا وينزعج عندما يكتشف أنّ التلاميذ لا يفهمون ما يقول، أو عندما يطلقون نكتة باللغة الكرديّة فلا يفهمها. ولهذا السبب طرح مؤخّرًا مجموعة من القواعد والتعليمات: كلّ من يتفوّه بكلمة كرديّة واحدة سوف يعاقب بالوقوف على قدم واحدة بجانب السبّورة وظهرُه إلى بقيّة التلاميذ. وهكذا، وقف معظم التلاميذ تلك الوقفة بضع دقائق ليعفى عنهم من بعد ذلك، شريطةَ عدم تكرار الغلطة. ولكن بين حين وآخر، كان أحد التلاميذ ينسى نفسه أثناء النهار، فيُحكم عليه بالوقوف ساعات على قدم واحدة. غير أنّ هذه التعليمات ولّدت ردّ فعل مختلفًا في نفس التلميذتين التوأمين، ففي حين صمتت جميلة صمتًا تامًّا ورفضت الكلام بأيّ لغة مهما كانت، فإنّ بمبي بذلت قصارى جهدها للتفوّق في اللغة التركيّة،

Twitter: @ketab_n

مُوَطِّنةً نفسَها على تعلّم لغة المعلّم والتأثير فيه من خلال ذلك.

في هذه الأثناء كانت الأمّ نازي لا تفهم شيئًا من تعلّم هذا العدد الكبير من الكلمات والأعداد التي لا فائدة ترجى منها ما دام أنّ البنات سوف يتزوّجن قبل أن يمضي وقت طويل. بيد أنّ زوجها أصرَّ على تعليم بناته.

وكانت نازي تقول متذمّرة:

ـ في كلّ يوم تسير الفتاتان هذه المسافة الطويلة ذهابًا وإيابًا، وقد بَلِيَتْ أحذيتهنّ. لماذا؟

وكان بيرزو يجيب:

ـ كي يتمكّنّ من قراءة الدستور.

فتسأله مرتابة:

ـ وما الدستور؟

ـ إنّه القانون أيّتها الجاهلة! الكتاب الضخم! ثمّة أشياء مسموح بها وأشياء أخرى ممنوعة، وإذا لم تعرفي الفرق بين الاثنين فسوف تتورّطين في مشكلة.

وهكذا، أغلقت نازي فمها وإن لم تكن قد اقتنعت بعد، وقالت:

ـ وكيف سيساعد ذلك في زواج بناتي؟

ـ تعرفين؟ إذا ما عاملهنّ أزواجهنّ يومًا ما معاملة سيّئة فإنّهنّ لن يكنّ مضطرّات إلى تحمّل ذلك، بل يمكنهنّ أن يأخذن أطفالهنّ معهنّ ويتركن بيوتهنّ.

ـ آه! وإلى أين سيذهبن؟

Twitter: @ketab_n

لم يسبق لبيرزو أن فكّر في ذلك، فقال:

ـ في إمكانهنّ اللجوء إلى بيت أبيهنّ بالتأكيد.

ـ هه! أهذا هو السبب الذي يدفعهنّ إلى المشي مشيًا ثقيلاً كلّ تلك المسافة الطويلة يوميًّا ويملأن أدمغتهنّ بكلّ ذلك الهراء؟ كي يعدن إلى البيت الذي ولدن فيه؟

قال بيرزو في حدّة:

ـ اذهبي واصنعي لي شايًا. أنت امرأة ثرثارة.

فتمتمت نازي وهي في طريقها إلى المطبخ:

ـ معاذ الله! ما من ابنة من بناتي تهجر زوجها، وإذا ما فعلت ذلك فسوف أبرحها ضربًا حتى وإن كنت ميتة في ذلك الوقت، إذْ سأعود إليها في صورة شبح!

كان هذا التهديد نبوءة، على الرّغم من أنّه كان تهديدًا أجوف ومتهوّرًا، إذْ إنّ نازي ستعود بعد وفاتها بوقت طويل لتلازم بناتها كظلّهنّ، وإنْ بدرجات متباينة. على أيّة حال، كانت امرأةً عنيدة، صعبة المراس، لا تقْدر على النسيان، ولم تسامح أحدًا ـ على العكس من الكلاب.

أثناء الانتظار في المستشفى، حدّقت بمبي بعينيها الطفوليّتين إلى الرجال والنساء المصطفِّين في الممرّ، وكان بعضهم يدخّن السكائر والبعض الآخر يأكل أقراص الخبز التي أحضرها معه من البيت، بينما ينشغل قسم ثالث بتضميد الجروح أو البكاء والعويل في ألم. وكانت تخيّم على الجميع رائحة نتنة ثقيلة ـ رائحة عرق ومعقِّمات وشراب السعال.

Twitter: @ketab_n

شعرت البنت وهي تراقب حالة كلّ مريض، بإعجاب شديد بالطبيب الذي سوف تقابله، وفكّرت أنّ رجلاً يمكنه أن يوفّر العلاج لهذا العدد الكبير من الأمراض لا بدّ أن يكون رجلاً خارقًا، عرّافًا، ساحرًا، مشعوذًا دائمَ الشباب بأصابع مدهشة... وفي الوقت الذي حان دورهما، كانت مفعمة بحبّ الاستطلاع وهي تسير من خلف أبيها داخل عيادة الطبيب.

كان كلّ شيء داخل العيادة أبيض اللون، وكان البياض يختلف عن رغوة الصابون التي تتشكّل على سطح النافورة عندما كنّ يغسلن ثيابهنّ، ويختلف أيضًا عن الثلج المتراكم خارج البيت في ليلة شتاء، أو مصل اللبن الذي يخلطونه بالثوم لصنع الجبنة. كان بياضًا لم يسبق لها أن شهدت مثله من قبل ـ قاسيًا وغريبًا، بياضًا دفعَتْها برودتُه إلى الارتعاش. الكراسي والجدران وبلاط الأرضيّة وسرير الفحص الطبّي، وحتى الأكواب والمباضع، كانت مطليّة بهذا اللون. لم يخطر ببال بمبي أنّ الأبيض يمكن أن يكون مريبًا ومحيِّرًا وبعيدًا ومظلمًا إلى هذه الدرجة.

وممّا زاد في دهشتها أكثر، أنّ الطبيب كان امرأة، ولكنّها امرأة مختلفة عن أمّها وخالاتها وجاراتها، ومثلما كانت الغرفة غارقة في غياب اللون، فإنّ الطبيبة الواقفة أمام عينيها لم تكن تتّصف بأيّ من الصفات التي كانت مألوفة عند بمبي، فمن تحت الصدريّة البيضاء الطويلة كانت الطبيبة ترتدي تنّورة رماديّة اللون لا تتجاوز في الطول ركبتيها، وجوربين من أجمل أنواع الصوف وأرقّها، وتحتذي حذاء جلديًّا طويل الرقبة، وكانت تضع نظّارة مربّعة الشكل فتبدو أشبه ببومة رديئة الطبع. لم تكن الطفلة قد رأت من قبل بومة رديئة الطبع،

Twitter: @ketab_n

ولكن المؤكّد أنّ مثل هذه البومة تبدو بهذا الشكل. كم هي مختلفة عن النساء اللواتي يعملن في الحقول من الفجر وحتى الغروب وتعلو وجوههنّ الغضون بسبب الشمس وإنجاب الأطفال حتى يكتفين بما رُزقن من أبناء. ها هي أمام أنثى اعتادت أن ينتظر منها الناس، وبضمنهم الرجال، كلَّ كلمة تتفوّه بها، كما أنّ بيرزو نفسه خلع قبّعته وخفض من كتفيه في حضرتها.

لم تنظر الطبيبة إلى الأب والابنة إلّا نظرة واحدة عابرة، خاطفة، كأنّ وجودهما أثقلها ـ بل وأثار حزنها. الواضح أنّهما كانا آخرَ من تريد أن تعالج من الناس في نهاية يوم شاقّ وجهيد. لم تتكلّم كثيرًا معهما، بل تركت الممرّضة توجّه الأسئلة الضروريّة: ما شكل الكلب؟ هل كان يرغو ويُزْبِد؟ هل كان يسلك سلوكًا غريبًا لدى رؤيته الماء؟ هل عضّ شخصًا آخر من سكّان القرية؟ هل جرت معاينته بعد ذلك؟

كانت الممرّضة تتكلّم في سرعة كبيرة، كأنّ ثمّة ساعة مثبّتة في مكان ما والوقت ينفد. وشعرت بمبي بالفرح والسرور لعدم مجيء والدتها معهما، لأنّها لا طاقة لها بمتابعة الحديث، ولتفوّهت بأشياء غير صحيحة ملؤها الخوف والتوجّس.

وفي حين انشغلت الطبيبة في كتابة الوصفة الدوائيّة، حقنت الممرّضة الطفلة بحقنة في بطنها، ما دفعها إلى البكاء بأعلى صوتها، وظلّت تواصل البكاء بكاء مرًّا عندما خرجت رفقةَ والدها من العيادة إلى الممرّ، فضاعف من همومها اهتمام الغرباء بها. وفي تلك اللحظة، اعتدل الأب واستقام وعاد إلى هيئته المعروف بها، وهمس في أذنها بأنّه سيصحبها إلى دار السينما إذا ما هدأت

Twitter: @ketab_n

وتصرّفت تصرُّفَ البنات العاقلات.

وسرعان ما لزمت بمبي الصمت وومضت عيناها بالأمل، لأنّ كلمة «سينما» بدت لها أشبه بحلوى مغلّفة لا تعرف ما في داخلها، ولكنّها كانت متأكّدة من أنّها تحتوي على شيء لذيذ.

* * *

في المدينة مسرحان، أكبرهما يرتاده السياسيّون الذين يزورون المدينة أكثر ممّا يرتاده موسيقيّوها وممثّلوها، فيه كانت الجماهير تحتشد قبل الانتخابات وبعدها، وتُلقى الخطب الحماسيّة وتنطلق الوعود والدعايات في الجوّ مثل نحل طنّان.

أمّا المكان الثاني فكان أكثر تواضعًا ولكنّه كان يحظى بشعبيّة لا تقلّ عن المكان الأوّل، وكانت تُعرض فيه أشرطة سينمائيّة من مختلف الأشكال بفضل ما يتمتّع به صاحب المسرح من أذواق، والذي كان يفضّل المغامرات على الشتائم السياسيّة، وكان يدفع للمهرّبين عمولات كبيرة ليأتوا له بالأشرطة السينمائيّة الحديثة، فضلاً على التبغ والشاي وغيرهما من البضائع المهرّبة والممنوعات. وهكذا، شاهد أهالي مدينة أورفه عددًا من الأشرطة السينمائيّة من تمثيل جون وين، مثل: (رجل من الآمو) و(يوليوس قيصر) إضافة إلى (حمّى الذهب) وغيرها من الأشرطة التي يشارك فيها رجل مضحك ذو شارب أسود.

في هذا اليوم، كان الشريطُ السينمائي قيدَ العرض هو أحد الأشرطة التركيّة المصنوعة بالأسود والأبيض، وقد شاهدته بمبي من البداية وحتى النهاية فاغرة فاها إلى حدّ ما، فقد كانت البطلة فتاة فقيرة، حسناء المظهر، مغرمة بفتى ثري جدًّا ومدلَّل جدًّا

Twitter: @ketab_n

أيضًا، ولكنّه تغيّر في ما بعد. هكذا كان سحر الحبّ، ففي حين استخفّ الآخرون ـ وأوّلهم والدا الفتى ـ بالعاشقَيْن الشابّين وتآمروا للتفريق بينهما، فإنّ العاشقين كانا يلتقيان سرًّا على ضفاف النهر حيث يمسك أحدهما بيد الثاني ويغنّيان أغاني حزينة جدًّا.

كانت بمبي تحبّ كلّ ما يخصّ السينما ـ الردهة المزخرفة والستائر السميكة الفضفاضة والظلمة الحالكة المستحبّة. ولم تستطع الانتظار كي تخبر جميلة عن هذه الأعجوبة الجديدة. وفي طريق العودة غنّت بمبي في الحافلة أغنية الشريط السينمائي المتكرّرة مرّات ومرّات.

اسمك محفور في قدَري

وحبّك يجري في أوردتي

وإذا ما ابتسمْتَ لأحد غيري

فسوف أنتحر أو يقتلني حزني.

وبينما كانت بمبي تهزّ شفتيها وتصفّق بيديها، صفّق بقيّة المسافرين وفرحوا. ولمّا التزمت الصمت أخيرًا، بسبب التعب لا غير، ضحك بيرزو وتغضّنت المساحات المحيطة بعينيه.

وقال وقد شابت صوتَه مسحةٌ من الفخر:

ـ يا لابنتي الموهوبة.

دفنت بمبي وجهها في صدر والدها العريض وتنشّقت رائحة زيت الخزامى الذي كان يعطّر به شاربه. سوف تكون تلك اللحظة واحدة من أسعد لحظات حياتها وإن كانت لا تدري.

* * *

Twitter: @ketab_n

عندما عادا أدراجَهما إلى المنزل، وجدا جميلة في حالة بالغة السوء ـ متورّمة العينين، منتفخة الأوداج. كانت قد أنفقت النهار كلّه منتظرة بجانب الشبّاك تعبث بشعرها وتقضم شفتها السفلى، وعلى حين بغتة، ومن دون مسوّغ واضح، أطلقت صرخة رهيبة ولم تتوقّف عن العويل والبكاء على الرّغم من محاولات أمّها وأخواتها لتهدئة خاطرها.

وسألت بمبي:

ـ متى بدأت جميلة بالبكاء؟ في أيّة ساعة؟

فكّرت نازي برهة وجيزة وقالت:

ـ عصرًا على ما أظنّ. لماذا تسألين؟

لم تجب بمبي، فقد تعلّمت ما تريد معرفته: لقد بكت الأختان التوأم في الوقت نفسه، وإن كانت أميال طويلة تفصل بينهما، في اللحظة التي حُقنت فيها بالحقنة عند الطبيبة. الناس يردّدون أنّ التوأمين ليستا سوى جسدين بروح واحدة، ولكنّهما كانتا أكثر من ذلك. كانتا جسدًا واحدًا وروحًا واحدة: بخت وبس، فإذا ما أغمضت إحداهما عينيها فإنّ الأخرى تصاب بالعمى، وإذا ما تعرّضت إحداهما للأذى، فإنّ الأخرى تنزف دمًا، وإذا ما راودت إحداهما كوابيس، فإنّ قلب الثانية يخفق خفقانًا قويًّا داخل صدرها.

في تلك الأمسية، أوضحت بمبي لجميلة كيف كانت الرقصات في الشريط السينمائي. وبدأت الفتاتان تقلّدان البطلة، فتدوران وتتبادلان القبلات والعناق كأنّهما عاشقان، وتقهقهان.

ويتناهى إلى سمعهما صوت نازي قويًّا تشوبه مسحة من

Twitter: @ketab_n

الاحتقار والازدراء وهي تذرّي الرزّ في صينيّة مسطّحة:

ـ ما كلّ هذه الضجّة؟

فتتّسع عينا بمبي استياءً وتقول:

ـ أنا وأختي نرقص لا غير.

فتمضي نازي في الكلام:

ـ وما سبب الرقص؟ ربّما قرّرتما أن تتحوّلا إلى غانيتين.

لم تكن بمبي تعرف معنى كلمة «غانية» ولم تتجرّأ على السؤال عن معناها، وانتابها إحساس بالنفور والامتعاض، وتساءلت عن السبب الذي يجعل والدتها لا تستمتع بالغناء والأغاني على النحو الذي كان يستمتع به ركّاب الحافلة. ما السبب الذي يجعل الناس الغرباء تمامًا أكثر تسامحًا من أقرب الناس؟ كانت لا تزال تفكّر في السؤال عندما انساب إلى سمعها صوت جميلة وهي تخطو إلى أمام كأنّما تعترف بذنب وتهمس:

ـ معذرة يا أمّاه. لن نكرّر ذلك ثانية.

حدجت بمبي أختها وشعرت أنّها غدرت بها.

ـ إنّني أقول ذلك لمصلحتك. فإذا ما ضحكْتِ اليوم كثيرًا فسوف تبكين غدًا كثيرًا. يُستحسن الشعور بالحزن اليوم بدلاً من الغد.

فقالت بمبي:

ـ لا أفهم السبب الذي يمنعنا من الضحك اليوم وغدًا وبعد غد.

حان الآن دور جميلة كي تعبس ويتجهّم وجهها، لأنّ وقاحة أختها لم تكن مفاجأة لها فحسب، وإنّما وضعتها أيضًا في موقف حرج، فحبست أنفاسها وخشيت عواقب الأمور: الشوبك، فعندما

Twitter: @ketab_n

كانت إحداهما تتجاوز حدودها، كانت الأمّ تضرب كلتيهما بالشوبك الخشبي في مطبخها، ولكنّها لم تكن تضربهما على وجهيهما ـ لأنّ جمالَ البنت وحُسْنها مَهْرُها ـ، بل على ظهريهما ومؤخّرتيهما. وقد استغربت الفتاتان كثيرًا، لأنّ هذه الأداة التي طالما كانت مبعث نفورهما واشمئزازهما، كانت تصنع في الوقت نفسه الفطائر المنتفخة التي تعجبهما كثيرًا.

بيد أنّ نازي لن تعاقبهما في ذلك المساء وإنّما هزّت رأسها وأشاحت بنظرها جانبًا ـ كأنّها تتوق إلى أن تكون في مكان آخر. ولمّا تحدّثت من جديد، كان صوتها هادئًا وقالت:

ـ حياء البنت سترة وحشمتها زينة. تذكّرا هذا الكلام، فإذا ما ضاع الحياء فلن تساوي إحداكما أكثر من قرش مثلوم. العالم قاسٍ ولن يرحم أحدًا.

تخيّلت بمبي أنّها ترمي بقطعة نقد معدنيّة إلى الهواء ثم تراقبها وهي تحطّ في راحة كفّها. ثمّة وجهان دائمًا، وجهان لا غير: الربح أو الخسارة، الكرامة أو الخزي، وليس من عزاء إلّا القليل لمن يخسر.

واستأنفت نازي كلامها قائلة:

ـ ويرجع سبب ذلك إلى أنّ النساء خُلقن من مادّة بالغة الرقّة، في حين خلق الرجال من مادّة سميكة، يَصْعُب سبْرُ غورها. هكذا خلق الله الجنسين: جنس يتفوّق على الآخر. أمّا السبب الذي جعل الله يفعل ذلك فهذا ما لا ينبغي للبشر أن يجادلوا في شأنه. المهمّ هو أنّ اللون الأسود لا يُظهِر البقع، على العكس من اللون الأبيض الذي يكشف عن أصغر ذرّة من الوساخة. وعلى الأساس نفسه،

Twitter: @ketab_n

فإنّ النساء اللواتي تشوب سمعتهنّ أيّة شائبة سرعان ما ينكشف أمرهنّ ويصبحن منبوذات ومنفصلات عن الأخريات، تمامًا مثلما تُفصل القشور عن الحبوب. ومن هنا، فإنّ العذراء تفقد كلّ شيء إذا ما سلّمت نفسها لرجل، وإنْ كان يحبّها. أمّا الرجل فلا يفقد أيّ شيء.

هكذا كانت الأحوال في البلدة عندما وُلدت البخت بمبي والبس جميلة، وكان «الشرف» يمثّل أكثر من كلمة، بل كان اسمًا من الأسماء. في إمكانك أن تسمّي ابنك «شرف» ما دام أنّه ولد، لأنّ الرجال شرف: كبار السنّ والشيوخ وحتى تلاميذ المدرسة الصغار الذين لا تزال تفوح منهم رائحة حليب أمّهاتهم. أمّا النساء، فلم يكن لهنّ شرف بل لديهنّ عوضًا عن ذلك العار. وكما يعرف كلّ فرد، فإنّ كلمة عار تشكّل اسمًا بائسًا لا يمكن لواحدة أن تُسمّى به.

تذكّرت بمبي وهي تصغي لأمّها، البياضَ الناصع لعيادة الطبيبة، وسرعان ما عاودها ذلك الإحساس بفقدان الراحة، لكن ذلك الإحساس كان أشدّ وأقوى الآن، وفكّرت في بقيّة الألوان، كالأزرق الحلزوني والأخضر الفستقي والبنّي البندقي وغيرها من الموادّ والأنسجة، كالمخمل والغبردين. ثمّة تنوّع شديد في العالم أكثر ممّا هو فوق صينيّة عليها رزّ بلا قشور.

وسوف تكون واحدةً من عديد المفارقات في حياة بمبي عندما تردِّد أمام ابنتها قسمة الكلمات نفسها التي كانت تكره سماعها من أمّها نازي، تردّدها كلمة كلمة بعد سنوات طويلة... في إنكلترا.

* * *

Twitter: @ketab_n

إسكندر... إسكندر

قرية على مقربة من نهر الفرات ١٩٦٢ ــ ١٩٦٧

كانت بمبي امرأة ذات أفكار لا سند لها، ومخاوف لا أساس لها. ولم يكن هذا الجانب من شخصيّتها شيئًا تطوَّر بمرور السنين وإنّما كانت قد انقلبت على حين بغتة إلى مؤمنة بالخرافات، بين يوم وليلة: الليلة التي وُلد فيها إسكندر.

كانت بمبي في السابعة عشرة من عمرها عندما أصبحت أمًّا ــ شابّة حسناء، وَجِلَة. كانت في حجرة تسبح في ضوء قاتم، تحدّق إلى المهد كأنّها غير مصدّقة أنّ هذا الرضيع ذا الأصابع الورديّة الهشّة والبشرة الشفّافة والبقعة الأرجوانيّة على أنفه الدقيق، قد تحدّى كلّ العوائق وبقي في قيد الحياة، وسوف يكون من الآن فصاعدًا طفلَها، مِلْكَها وحدها. ها هو الابن الذي تاقت له نفس والدتها ودعت طوال حياتها أن تُرزق به.

مرّت نازي بحالة حمل واحدة أخرى بعد أن كانت قد حملت ببمبي وجميلة. لا بدّ أن يكون حملها بولد في هذه المرّة، إذ ما من

Twitter: @ketab_n

احتمال آخر، فالله مَدين لها بهذا. قالت إنّه مَدين لها به وإنْ كانت تعلم علم اليقين أنّها كانت تجدِّف ـ إنّه اتّفاق سرّي بينها وبين الخالق، فبعد عديد البنات اللواتي رزقت بهنّ، سوف يعوّض لها عن ذلك. كان اعتقادها من القوّة ما جعلها تنفق الأشهر في حياكة البطّانيّات الصغيرة والجوارب والقمصان بلون أزرق أشدّ حلكة من الليالي العاصفة، وكلّها مصمَّمة من أجل الولد الصغير. لن تصغي لأحد، ولا حتى للقابلة، التي فحصتها بعد انقطاع الطمث وأخبرتها في صوت هادئ هدوء النسمة أنّ وضع الجنين ليس صحيحًا، وأنّ المستحسن أن تتوجّه إلى المدينة. لا يزال الوقت مبكرًا، وإذا ما سافرت الآن فإنّ في إمكانها أن تصل المستشفى قبل أن تبدأ التقلّصات.

لكن نازي قالت وهي تحدّق إلى عيني القابلة بنظراتها الملتهبة:

ـ هراء! كلّ شيء على ما يرام. كلّ شيء في يديه.

كانت في التاسعة والأربعين، وسيكون طفلها الطفل المعجزة، وسوف تلده هنا في بيتها، وعلى سريرها، تمامًا مثلما ولدت كلَّ طفل من قبل، ولكنّ الطفل سيكون ولدًا في هذه المرّة.

كانت الولادة معكوسة، فقد كان رأس الطفل كبيرًا جدًّا ومتّجهًا إلى الجهة المعاكسة. ومرّت الساعات ولم يَعُدْها أحد، لأنّ ذلك نذير لشؤم. يضاف إلى ذلك أنّ الله وحده مالك الزمن، وهو صانع الساعة الإلٰهيّة، وما يبدو طويلاً يتحمّله بنو البشر الفانون لا يمثّل سوى رمشة عين عند الله، وهكذا غُطِّيَت الساعة المثبّتة على الجدار بقماش من المخمل الأسود، مثلما غطّيت كلّ مرايا

Twitter: @ketab_n

البيت، التي كانت كلّ واحدة منها بوّابة إلى المجهول.

قالت إحدى النساء الحاضرات:

ـ إنّها لا تستطيع أن تدفع أكثر.

فقالت القابلة في لهجة تنمّ عن تصميم وإصرار لكن عينيها كشفتا عن المخاوف التي كانت تعتريها:

ـ إذًا لا بدّ لنا من مساعدتها في ذلك.

مدَّت القابلة يدها داخل رحم نازي حتى لامست الجنين ينزلق تحت أصابعها. ثمّة ضربات قلب واهنة تشبه ضربات شمعة توشك أن تنطفئ. وحاولت في لطف ولين أن تقلب الجنين داخل الرحم: مرّة... مرّتان... ولكنّها باتت أشدّ عزمًا وتصميمًا في المرّة الثالثة، يدفعها إلى ذلك إحساس بحاجة ملحّة وعاجلة. فتحرّك الطفل من اليسار إلى اليمين ولكن حركته لم تكن كافية، فقد ضغط برأسه على الحبل السرّي، ما هدّد بقطع كمِّيّة الأوكسيجين التي تمرّ في داخله.

نزفت نازي دمًا كثيرًا حتى بهت لونها وامتقعت وجنتاها، ولا بدّ من اتّخاذ قرار. كانت القابلة تدرك إدراكًا جيّدًا أنّها إمّا أن تنقذ الأمّ أو الولد، وليس ثمّة أمل في إنقاذ الاثنين. كانت ساكنة سكونَ ليلة تفتقر إلى البدر، ومتجهّمة، وسرعان ما اتّخذت قرارها: سوف تنقذ المرأة.

في تلك اللحظة رفعت نازي رأسها وصرخت وهي مستلقية، مغمضة العينين بين الحياة والموت وتنزف دمًا:

ـ لا أيّتها العاهرة!

Twitter: @ketab_n

كانت صرخة مدوّية، هادرة، لا تشبه صرخة بشر. لقد انقلبت المرأة المستلقية على السرير إلى حيوان مفترس، ضارٍ، يكاد يموت جوعًا وعلى استعداد لمهاجمة كلّ من يقف في طريقه. كانت تركض في غابة كثيفة حيث تلقي الشمس بأشعّتها الذهبيّة المنعكسة على الأغصان، حرّة على نحو لم تألفه من قبل. وظنّ الواقفون على مقربة منها أنّها فقدت عقلها، فالمجنون وحده هو الذي يصرخ مثل هذا الصراخ.

وقالت نازي آمرة:

ـ هيَّا مزّقيني أيّتها العاهرة!

ثم ضحكت، كأنّها اجتازت عتبةً كلُّ ما وراءها ليس سوى مزحة. وأضافت:

ـ إنّه ولد، ألا ترين ذلك؟ إنّ ابني قادم! أيّتها العاهرة الخبيثة الحسود. امسكي بمقصّ! الآن! افتحي بطني وأخرجي ولدي!

أحدثت ذبابات صغيرة طنينًا في الحجرة كأنّها نسور تحلّق من فوق طريدة. ثمّة قِدْر كبير من الدماء في كلّ مكان وقَدْر كبير من الغضب والهيجان والامتعاض يلطّخ السجّاد والملاءات والجدران. وبات الهواء في الحجرة ثقيلاً يبعث على الكسل والتواني. أمّا الذباب... فيا ليته يتوارى عن الأنظار.

لم تبق نازي في قيد الحياة، كما لم يبق الطفل مدّة طويلة في قيد الحياة ـ الطفل الذي أخطأت طوال الوقت في معرفة جنسه. فالطفل التاسع الذي تسبّب في وفاتها ثم لحق بها بعد وقت قصير وهو في المهد، لم يكن إلّا بنتًا.

بقيت بمبي مضطجعة فوق سرير الولادة حتى الساعات المبكرة

Twitter: @ketab_n

من صباح ذلك اليوم من أيّام شهر تشرين الثاني سنة ١٩٦٢، وأحزنتها فكرة حكم الله على هذا النحو: ها هي مستلقية هنا لا تتجاوز السابعة عشرة من عمرها ولكنّها ترضع طفلاً. ولم تستطع أن تدفع عن نفسها التفكير في أنّ أمّها كانت تراقبها بعين الحسد والغيرة في مكان ما من السماء ومن تحت أنوار باهتة: ثماني ولادات وخمس حالات إسقاط وطفل واحد ميت ولا مِن ولد واحد... وها أنت يا إلٰهي ترزق ابنتي الطائشة، الخفيفة العقل بابن معافى. لماذا يا الله؟ لماذا؟

تردّد صدى صوت نازي في أذنَيْ بمبي حتى أضحى كرة من الغضب العنيف تدحرجت من فوق صدرها وتوقّفت على بطنها. وعلى قدر ما بذلت من قصارى جهدها لتطرد عنها وساوسها وقلقها، انتهى بها المطاف إلى وساوس جديدة وقلق جديد، رسمت كلّها دوائر في عقلها تدور وتدور مثل دولاب الهواء، وعلى حين غرّة لا يعود ثمّة مكان للاختباء بعيدًا عن عين الشرّ المتمثّلة في عين أمّها، وتتنبّه إلى أنّ تلك النظرة تطاردها في كلّ مكان: في الحبوب، في المكسّرات التي تطحنها في الجاروشة الحجريّة لتحوّلها إلى عجينة تلتهمها لزيادة حليبها، في انسياب المطر من على زجاج النوافذ، في زيت اللوز الذي تدهن به شعرها كلّما استحمّت وفي شراب اللبن الكثيف الذي يسخَّن فوق المدفأة.

وتضرّعت بمبي إلى الله قائلة:

ـ يا الله يا رحيم، اجعل أمّي تغمض عينيها في قبرها واجعل ابني صبيًّا قويًّا مفعمًا بالصحّة والعافية.

ثم هزّت نفسها إلى أمام وإلى الخلف كأنّها هي التي كانت في

Twitter: @ketab_n

حاجة إلى أن تخلد إلى النوم وليس رضيعها.

* * *

في الليلة التي ولد فيها إسكندر رأت بمبي كابوسًا، كدأبها منذ أيّام حملها. لكنّ هذا الكابوس بدا حقيقيًّا على نحوٍ لم يتخلّص منه جزء من بدنها ولم يعد أبدًا من أرض الأحلام البرّاقة.

رأت بمبي نفسها مستلقية على ظهرها فوق سجّادة مزركشة، مفتوحةَ العينين، متورّمة البطن، ومن فوقها تنزلق بعض السحب على امتداد السماء. كان الطقس حارًّا، حارًّا جدًّا. ثم أدركت أنّ السجّادة مفروشة على الماء حيث يجري نهر مشاكس ينوء من تحتها. وفكّرت في نفسها: ما سبب عدم غرقي؟ ولكن بدلاً من أن تتلقّى جوابًا على سؤالها، انشقّت السماء وتدلّت منها يدان ثنتان، ولم تعرف إن كانت اليدان هما يدا الله أو يدا أمّها الراحلة. وشقّت اليدان بطنها، ولم تشعر بأيّ ألم وإنّما شعرت بالرعب عندما أدركت ما يحدث لبطنها. ثم أخرجت اليدان الطفل، وكان طفلاً مكتنز الجسم تشبه عيناه حصاتين سوداوين. وقبل أن تتمكّن بمبي من لمسه، ناهيك عن معانقته، أسقطت اليدان الطفل في الماء، فطفا على قطعة خشب مثلما طاف موسى في سلّته.

لم تقصّ بمبي الكابوس إلّا لشخص واحد وهي متألّقة العينين ومتحمّسة أثناء الكلام وكأنّها مصابة بحمّى. استمعت إليها جميلة، التي قالت لها موضحة، إمّا لأنّها صدّقتها أو لأنّها أرادت أن تحرّر أختها من رعب شبحِ نازي:

ـ لا بدّ أنّ النحس حلّ بك، ولعلّ جنّيًّا هو الذي فعل ذلك.

فقالت بمبي مردّدة:

Twitter: @ketab_n

ـ جنيًّا؟

ـ نعم يا حبيبتي، إنّ الجانّ يحلو لهم أن يغفوا على الكراسي والأرائك. ألا تعرفين ذلك؟ ففي وسع الجنّيّ البالغ أن يهرب لدى رؤيته واحدًا من البشر قادمًا. ولكنّ الأطفال الرضّع ليسوا بهذه السرعة. كما أنّ النساء الحوامل ثقيلات الوزن، مرتبكات. لا بدّ أنّك جلست على جنّي صغير وسحقته.

ـ آه يا الله.

لوت جميلة أنفها كأنّها تنبّهت لرائحة قويّة وقالت:

ـ أعتقد أنّ الأمّ عادت لتنتقم منك ولتسحرك.

ـ لكن ماذا ينبغي لي أن أفعل؟

قالت جميلة جازمة:

ـ لا تقلقي! ثمّة طرق لاسترضاء الجانّ على الدوام مهما كانت ثورتهم شديدة.

وهكذا، ففي حين كانت بمبي ترضع رضيعها المولود حديثًا طلبت منها جميلة أن ترمي فتات الخبز اليابس على كلاب سائبة وأن تهرب من دون أن تنظر إلى الوراء وأن ترمي كمّيّة صغيرة من الملح من فوق كتفها اليسرى وكمّيّة صغيرة من السكّر من فوق كتفها اليمنى، وأن تسير وسط حقول محروثة مؤخّرًا ومن تحت نسيج عنكبوت، وأن تسكب ماء الورد في كلّ شقّ من شقوق جدران البيت، وأن تضع تميمة في رقبتها أربعين يومًا... وهكذا، اعتقدت أنّها سوف تشفي بمبي من خوفها من أمّهما الراحلة. ولكنّها بدلاً من ذلك فتحت أمامها باب الخرافات ـ وهو باب

Twitter: @ketab_n

كانت بمبي تعلم دائمًا أنّه موجود ولكنّها لم تمتلك الجرأة يومًا ما على الولوج منه.

في تلك الأيّام كان إسكندر ينمو ويكبر، بشرته بلون التراب الحارّ وشعره أسود متموّج ولامع كأنّه نجم من النجوم، عيناه تومضان بوميض الشغب، ووحمة الولادة تلاشت منذ زمن بعيد، يفيض ابتسامًا ويأسر القلوب. وكلّما ازداد الابن بهاء ازدادت مخاوف بمبي من حدوث أشياء لا قِبَلَ لها بها ـ كالزلازل والانهيارات الأرضيّة والفيضانات والحرائق الهائلة والأمراض المُعْدِية وغضب شبح نازي وانتقام جنّي الأمّ. لقد كان العالم لها دومًا مكانًا مفتقرًا إلى الأمن والأمان ولكنّ الخطر بات على حين بغتة أشدّ وضوحًا وأكثر قربًا.

هكذا كان قلق بمبي، ممّا جعلها ترفض أن تسمّي ابنها بأيّ اسم. كان ذلك هو أسلوبها في حماية ابنها من عزرائيل ملك الموت، فإذا كان الطفل بلا هويّة فإنّ عزرائيل لن يتمكّن من العثور عليه ـ حسب ظنّها ـ حتى إن شاء ذلك. وهكذا، أنفق الابن عامه الأوّل على وجه الأرض من دون اسم، شأنه شأن مظروف يخلو من عنوان! كما أمضى عامه الثاني والثالث والرابع على النحو نفسه. وإذا ما أرادوا أن يدعوه، كانوا يقولون له: أيّها الابن أو أيّها الولد.

لماذا لم يعترض زوجها آدم على هذه الخزعبلات؟ لماذا لم يأخذ بنفسه زمام الأمور ويسمّي وريثه كأيّ رجل آخر؟ ثمّة مانع يحول دون ذلك، مانع أقوى بكثير من حدّة طبعه وكبريائه الرجولي، سرّ كامن بينهما، يقوّي من عزم بمبي ويوهن من قوى

Twitter: @ketab_n

آدم فيبعده عن المنزل ويأخذه إلى العالم السفلي في إسطنبول، حيث يمكنه أن يقامر وأن يكون ملكًا وإن لليلة واحدة.

ولكن آدم تولّى زمام الأمور عندما بلغ الولد خمسة أعوام، وأعلن أنّ الوضع لا يمكن أن يستمرّ أكثر من ذلك وإلى ما لا نهاية. فالابن يوشك أن يلتحق بالمدرسة، وإذا لم يحمل اسمًا فإنّ الأطفال سيعتقدون أنّ اسمه واحد من أكثر الأسماء إثارة للضحك والسخرية التي يمكن للمرء أن يتخيّلها. رضخت بمبي على مضض ولكنّها وضعت شرطًا واحدًا، وهو أن تأخذ الابن إلى القرية التي ولدت فيها وأن تحظى ببركات أختها التوأم وأسرتها، وعندما تحلّ في القرية، فإنّها سوف تطلب مشورة شيوخ القرية الثلاثة الذين أصبحوا الآن كبارًا في السنّ مثل جبل أرارات وإن كان لا يزال في وسعهم تقديم النصح والمشورة.

* * *

قال شيخ القرية الأوّل الذي أضحى في منتهى الضعف والوهن، ما يدفعه إلى الارتعاش من تردُّد صوتِ أيّ باب يغلق في قوّة وعنف على مقربة منه:

ـ مجيئكِ إلينا هو عين الحكمة والعقل.

وقال الشيخ الثاني الذي لم يبق في فمه سوى سنّ واحدة كأنّها لؤلؤة صغيرة، تشعّ من الداخل مثل أوّل سنّ من أسنان طفل صغير:

ـ كما أنّكِ أحسنت في عدم تسمية ابنك بنفسك كما تفعل بعض الأمّهات في هذه الأيّام.

Twitter: @ketab_n

تكلّم الشيخ الثالث ولكن صوته كان خفيفًا، وكلماته متداخلة بعضها في بعض وغير واضحة، فلم يفهم أحد شيئًا ممّا قال.

وبعد نقاش قصير توصّل الشيوخ إلى قرار، وهو أن يسمّي أحد الغرباء الولد ـ شخص ما لا يعرف شيئًا عن الأسرة، وبالتالي لا يعرف شيئًا عن شبح نازي.

وافقت بمبي على الخطّة في ثقة لا تملك منها شيئًا.

على بعد بضعة أميال كان ثمّة نهير ينخفض ماؤه شتاء ويرتفع ربيعًا ارتفاعًا جنونيًّا، وكان الفلّاحون يعبرون مياهه في قارب موقّت مرتبط بسلك يمتدّ بين الضفّتين. الرحلة غير مأمونة العواقب، ففي كلّ عام يسقط بعض المزارعين في النهر، ولهذا تقرّر أن تبقى بمبي منتظرة حيث يرسو القارب وأن تطلب من أوّل من يعبر من الرجال أن يسمّي ابنها. في هذه الأثناء، كان الشيوخ الثلاثة يتوارون عن الأنظار من وراء الأدغال ولا يتدخّلون إلّا إذا اقتضت الضرورة.

وهكذا، انتظرت بمبي وولدها. كانت ترتدي ثوبًا قرمزيًّا يصل إلى ما تحت كعبيها وعلى رأسها وشاح أسود مخرّم. أمّا ابنها فكان يرتدي بذلته الوحيدة ويبدو مثل رجل مصغّر. زحف الوقت بطيئًا حتى تململ الطفل واستبدّ به السأم والضجر. فما كان من بمبي إلّا أن بدأت تحكي له الحكايات لتروّح عن نفسه. وكان أن علِقت إحدى تلك الحكايات في ذاكرته إلى ما لا نهاية:

«كان نصر الدين خجّه قرّة عين أمّه عندما كان صبيًّا».

لكنّ الطفل سأل بمبي:

ـ وهل كانتْ في عينها قرّة؟

Twitter: @ketab_n

ـ إنّه تعبير أيّها السلطان، ويعني أنّها كانت تحبّه حبًّا جمًّا.

«وعاش الاثنان في منزل جميل في أطراف البلدة».

ـ وأين والده؟

ـ سافر ليخوض الحرب. والآن اصغِ إليَّ:

«وفي يوم من الأيّام اضطرّت الأمّ للذهاب إلى السوق، فقالت له: ينبغي لك أن تبقى في البيت وأن تراقب الباب، وإذا ما شاهدت لصًّا يحاول اقتحام الدار، فابدأ بالصراخ بأعلى صوتك لأنّ صراخك سوف يبثّ فيه الرعب فيهرب. وسأرجع قبل حلول الظهيرة. وهكذا، امتثل نصر الدين لما أمرته به أمّه ولم يغفل عن مراقبة الباب لحظة واحدة».

ـ ألم يضطرّ إلى الذهاب للتبوّل؟

ـ كانت لديه نونيّة قريبة منه.

ـ ألم يشعر بالجوع؟

ـ كانت أمّه قد تركت له طعامًا.

ـ معجّنات؟

فقالت بمبي وهي تعرف ابنها جيّدًا:

ـ وحلاوة بالسمسم.

«وبعد مرور ساعة من الوقت، تناهى إلى السمع صوتُ طرْقٍ على الباب، وكان القادم هو خال نصر الدين، الذي جاء يستفسر عن أحوالهما، وسأل الطفلَ عن مكان أمّه قائلاً: حسنًا، اذهب وقل لوالدتك أن تعود أدراجها إلى المنزل مبكرة وأن تعدّ لنا طعام الغداء، فأسرتي آتية للزيارة».

Twitter: @ketab_n

ـ ولكنّ الولد يراقب الباب!

ـ تمامًا.

«احتار نصر الدين في أمره، فقد نصحته والدته أن يفعل شيئًا ولكن خاله يطلب منه أن يفعل شيئًا مخالفًا، ولم يكن راغبًا في عصيان أيٍّ منهما، فما كان منه إلّا أن خلع الباب ووضعه على ظهره وخرج يبحث عن أمّه».

ضحك الابن ضحكة قصيرة ولكنّه سرعان ما عاد إلى وقاره وقال:

ـ لو كنتُ في مكانه لما فعلت ذلك، فأنا أفضّل دومًا أمّي على خالي.

وما أن تفوّه بهذا الكلام حتى سمعا صوتًا، فقد عبر أحد ما النهير، وها هو يسير متّجهًا إليهما. ولدهشة بمبي وشيوخ القرية، تبيّن أنّ القادم امرأة عجوز ذات أنف أعقف، تكسو التجاعيد والغضون وجنتيها الغائرتين، وتبدو للعيان أسنانُها المعوجّة. كانت عيناها الصغيرتان الدائريّتان في حركة متواصلة، ترفضان الاستقرار على أيّ شيء.

فأخبرتها بمبي أنّ ولدها في حاجة ماسّة إلى اسم وطلبت منها أن تمدّ لها يد العون، متجنّبة الخوض في تفاصيل شبح نازي أو شيوخ القرية المنتظرين من وراء الدغل. لم يبدُ على المرأة ما يشير إلى دهشتها وتعجّبها، فاتّكأت على عصاها وفكّرت مليًّا، هادئة، مذعنة، كأنّ مثل هذا الطلب أمر اعتيادي جدًّا في هذا العالم.

فسأل الطفل:

Twitter: @ketab_n

ـ من هذه المرأة يا أمّاه؟

ـ اسكت يا أسدي. سوف تمنحك هذه السيّدة اللطيفة اسمًا.

ـ ولكنّها قبيحة الشكل.

تظاهرت المرأة أنّها لم تسمع شيئًا ممّا قاله الطفل، وتقدّمت خطوة واحدة إلى أمام مقتربة أكثر، وألقت نظرة فاحصة إلى الطفل وقالت:

ـ إذًا أنت لم تجد لك اسمًا بعدُ كما أظنّ.

رفع الطفل من حاجبيه الرقيقين رافضًا الإجابة.

ـ لا بأس. حسنًا. إنّني ظمآنة. هلّا ذهبتَ وأحضرت لي كوبًا من الماء؟

ـ لا أملك كوبًا.

فأصرّت المرأة العجوز قائلة:

ـ استخدم راحتَيْ كفّيك إذًا.

رمق الطفل المرأة بنظرة عابرة وتجهَّمَ وجهُه، قبل أن يرنو إلى أمّه. ثم حوّل بصره إلى المرأة الغريبة من جديد وقال وقد اكتسب صوته حدّة جديدة:

ـ كلّا، لِمَ لا تذهبين أنت وتحصلين على ما تريدين من الماء؟ فأنا لست خادمك.

مالت المرأة برأسها إلى الجانب كأنّ كلمات الولد ضربة اضطرّت إلى تفاديها وقالت:

ـ إنّه لا يريد أن يسدي خدمة. صحيح؟ بل يريد أن يكون مخدومًا على الدوام.

Twitter: @ketab_n

اقتنعت بمبي الآن أنّها اختارت شخصًا غير مناسب، ولكنّها أرادت استرضاء المرأة وتخفيف حدّة التوتّر فقالت في لهجة لطيفة:

ـ سأذهب وأحضر لك الماء.

لكنّ المرأة لم تشرب الماء الذي أحضرته لها بمبي في راحتي كفيها، بل قرأته:

ـ سوف يظلّ هذا الطفل طفلاً زمنًا طويلاً يا ابنتي، ولن ينضج إلّا عندما يبلغ خريف عمره. سينضج في وقت متأخّر جدًّا من حياته.

شهقت بمبي، وتولّد لديها الانطباع أنّ المرأة توشك أن تفشي سرًّا لا ينبغي لها الكشف عنه.

ـ بعض الأطفال يشبهون نهر الفرات. متوقّدو الذهن، محبّون للخصام والمشاكسة. ولا يمكن لأهليهم التواصل وإيّاهم. أعتقد أنّ ابنك سوف يمزّق قلبك إربًا إربًا.

وقع هذا الكلام بين الأمّ وابنها كأنّه حجارة رميت عليهما من مكان مجهول.

وقالت بمبي في شيء من الحدّة والتوتّر:

ـ لكنّني لم أطلب منك هذا الشيء. هل فكّرت في اسم له؟

ـ نعم، فكّرت. ثمّة اسمان قد ينطبقان عليه تمامًا، ويتوقّفان على ما تنتظرين. الأوّل سليم، ففي يوم من الأيّام كان ثمّة سلطان، وكان شاعرًا وعازفًا موسيقيًّا رائعًا، وأتمنّى أن يتعلّم ابنك كيفيّة تذوّق الجمال والإحساس به إذا ما منح هذا الاسم.

ـ والاسم الآخر؟

Twitter: @ketab_n

وهنا حبست بمبي أنفاسها بعد أن وجّهت السؤال، واحتاطت للجواب، كما أنّ الصبي نفسه بدا عليه التحمّس في الحديث.

ـ الاسم الثاني هو اسم القائد العظيم الذي كان يتقدّم مسيرة جنده، ويقاتل كالنمر، وانتصر في كلّ معركة خاضها، ودمّر أعداءه، وفتح البلاد بلدًا بلدًا، ووحّد الشرق والغرب، شروق الشمس وغروبها، ومع هذا فقد ظلّ متعطّشًا لما هو أكثر من ذلك. أتمنّى أن يكون ولدكِ قويَّ الإرادة، لا يُقْهَر، وأن يحكم كلّ الرجال إذا ما سمّي باسمه.

فقالت بمبي وقد أشرق وجهها:

ـ حسنًا إذًا. لقد انتهت مهمّتي.

وهنا أمسكت المرأة العجوز عصاها وبدأت تبتعد سالكة الطريق الممتدّ في حيويّة ونشاط يبعثان على الدهشة. فكّرت بمبي بضْعَ ثوانٍ استجمعت فيها أفكارها قبل أن تهرع خلف المرأة.

ـ لكن ما الاسم؟

استدارت المرأة وأمعنت النظر فيها كأنّها نسيت من تكون، وسألت:

ـ أيُّ اسم؟

ـ الاسم! أنت لم تخبريني عن الاسم.

ـ آه. إنّه إسكندر.

ردّدت بمبي في سرور.

ـ إسكندر... إسكندر...

وبعد العودة إلى إسطنبول، سُجِّل الولد في دائرة المسجّل

Twitter: @ketab_n

المحلّي. وعلى الرّغم من التأخّر في تسجيله بضع سنوات، والتوسّلات ودفْع الرشا الكبيرة، فقد أصبح وجوده قانونيًّا، وكان الاسم الذي دُوِّنَ على بطاقته عندما التحق بالمدرسة هو إسكندر طبرق.

وقالت بمبي:

ـ اسم يليق بقائد عالمي.

وكانت في ذلك الوقت قد عرفت من هو إسكندر الأكبر.

وهكذا أصبح ولدُها البكر وقرّةُ عينها إسكندر بالكرديّة وإسكندر بالتركيّة. وعندما هاجرت الأسرة إلى لندن أصبح اسمه بين التلاميذ والمعلّمين أليكس ـ وبات هو الاسم الذي سوف يعرف به في سجن شروزبيري، سواء بين المدانين أو الحرس.

* * *

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أمير على الشجرة

إسطنبول ١٩٦٩

في فصل الربيع الذي لم يبلغ فيه إسكندر سنّ السابعة، هرب من رجل لم يسبق له أن رآه ولكنّه كان قد سمع عنه الشيء الكثير. وعلى الرّغم من أنّ الرجل كان على غير ما تصوّره إسكندر، إلّا أنّ ذلك لم يخفّف شدّة خوفه منه، فقد كان يضع نظّارة سميكة الإطار على عينيه، وتتدلّى سيكارة غير مشتعلة بين شفتيه، ويحمل حقيبة جلديّة كبيرة أُشيع أنّها تحتوي على أدوات جارحة وقطعة صغيرة من لحم كلّ «ضحيّة» من ضحاياه.

ولـمّـا رآه إسـكـنـدر، سـرت قـشـعـريـرة في أوصـالـه، فـسـكـب الكرانبري (التوت البرّي) الذي كان يحمله وسقطت قطرات منه على قميصه الأبيض وكأنّه قطرات دم تساقطت على الثلج. حاول أن يمسح البقع، فاستخدم أوّلَ الأمر يديه ثم حاول إزالتها بحافّة قبّعته، من دون جدوى. لقد أفسد زيّه الجميل.

ولكنْ سواء كانت عليه بقع أم لا، فإنّه ما زال أميرًا، بقبّعته

Twitter: @ketab_n

الفضّيّة الطويلة التي كانت مرصّعة بخرزات برّاقة، وكان يحمل صولجانًا لامعًا لمعانًا شديدًا فبدا كأنّه صولجان شفّاف. كان طوال ما بعد الظهيرة يجلس على كرسي عال، كأنّه نبيل في جولة تفتيشيّة داخل أراضيه ـ وإن كانت الكراسي كلّها عاليةً قياسًا إلى قصر قامته وصغر سنّه. كان إلى شماله أربعة صبيان أكبر سنًّا وأطول قامة ولكنّهم يرتدون زيًّا مشابهًا لزيّه. حملق إسكندر فيهم كأنّه يتهيّأ لمنازلتهم وتفحَّصَهم من قمّة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم وقرّر أنّ ثيابهم أقلّ شأنًا من ثيابه.

وفي حين التهم الأمراء الآخرون الحلويات وأطلقوا النكات، ظلّ إسكندر ينتظر مهزهزًا ساقيه. وفكّر: كيف يمكنهم أن يكونوا بهذه الدرجة من السذاجة وهم يعلمون ما الذي سيحدث؟ جال ببصره قلقًا. ثمّة عدد كبير من الناس في الغرفة، ولكنّه كان واثقًا أنّ أحدًا لن يأتي لإنقاذه، ولا حتى والدته بمبي على وجه الخصوص. لقد لبثت تبكي طوال الصباح وهي تخبره أنّها فخورة بابنها الصغير الذي بات رجلاً... هكذا يصبح المرء بعد الختان: رجلاً.

لم يتمكّن إسكندر من أن يفهم طوال حياته كيف أنّه سيصبح رجلاً بجرح واحد تُحدثه سكّين. إنّها أحجية يصعب حلّها. ولم يفهم أيضًا لماذا قيل له ألّا يبكي على الرّغم أنّه كان واضحًا تمامًا أنّه سوف يتألّم، في حين كانت أمّه تبكي ما شاء لها البكاء وإنْ لم يصبها شيء.

نظر إلى الرجل ذي الحقيبة الجلديّة من طرف عينه، وشاهد

Twitter: @ketab_n

ندبة تنحدر من وجنته اليسرى إلى فكّه. ربّما جرحه ولد من الأولاد أجرى له عمليّة الختان. استحسن الفكرة التي راودته أوّل وهلة، وتخيّل أنّه حرّر نفسه من بين يدي الرجل قبل أن يبدأ الختان، والتقط الشفرة وجرح معذّبه في خدّه الأيمن، ثم ساعد بقيّة الأولاد كي ينهضوا على أقدامهم، ليندفعوا بعد ذلك في متّجه الباب يرفلون بالنصر. لكنّ أفكاره الخياليّة سرعان ما تبخّرت، وحفلت الغرفة بالحيويّة والنشاط من جديد ـ إذْ كان قارئ ضرير يرتّل القرآن الكريم، وتقدّم إحدى النساء الشاي وفطيرة اللوز، في حين تجاذب الضيوف أطراف الحديث بأصوات خفيضة، واقتربت على نحو خطير أشدّ اللحظات إثارة للهلع والذعر.

غاص إسكندر رويدًا رويدًا في كرسيّه حتى لامست قدماه أرضيّة الغرفة وضغط على السجّادة. تقدّم خطوة واحدة ولكنّه لم يجد أحدًا يرشده. سار على أطراف أصابع قدميه ومرّ بالسرير المزدوج الذي وُضع في ركن من أركان الغرفة ـ سرير بلوح رأسي من الحديد المطاوع ووسائد مزركشة وتمائم لطرد الحسد والعين الشرّيرة وغطاء سرير من الساتان بلون الكوبالت الأزرق. كان اللون الأزرق هو المفضّل لدى إسكندر، وهو لون الصبيان، ممّا يعني أنّ السماء ولد، وكذلك الأنهار والبحيرات والمحيطات، وإن كان يتعيّن عليه أن يرى محيطًا أوّلاً، لأنّه لم يسبق له أن رآه.

تسلّل إسكندر من الباب الخلفي وهو يشعر بخفّة أكبر وبشجاعة أكثر في كلّ خطوة يخطوها إلى أمام. ولمّا أصبح خارج الغرفة انطلق مسرعًا واجتاز الحديقة وسار من خلف البئر وشقّ طريقه على امتداد الطريق المرصوف بالحصباء ومن أمام بيوت

Twitter: @ketab_n

الجيران صعودًا إلى التلّ. كانت ثيابه قد اتّسخت، ولكن لا بأس... لقد انتهى كلّ شيء.

فكّر إسكندر في يدي والدته وهي تمشّط شعرها الكستنائي المتموّج وتضع اللبن في أكواب من فخّار وتمسّد وجنتيه وتصنع أشكالاً من عجين الفطائر... فكّر في كلّ هذه الصور ولم يفكّر في أيّ شيء آخر حتى وصل شجرة البلّوط. كانت شجرة قديمة تظهر جذورها في أربعة اتّجاهات على سطح الأرض وتمتدّ أغصانها متساوقةً في اتّجاه السحب المندفعة اندفاع الموج.

تحوّلت أنفاسه إلى لهاث وهو يرتقي التلّ ارتقاءً سريعًا مركّزًا اهتمامَه فيه. وانزلقت يداه مرّتين وكاد أن يهوي ويتدحرج، ولكنّه تمكّن في الحالتين من استعادة توازنه. لم يسبق له أن وصل إلى مثل هذا الارتفاع، وساوره الإحساس بخيبة الأمل لأنّه لم يشاهد أحدًا يطّلع على منجزه. وبدت له السماء من موقعه قريبةً جدًّا حتى خُيّل إليه أنّ في إمكانه أن يلمسها. وجلس من تحت غطاء السحب ملؤه الإحساس بالرضا والفخر حتى أدرك أنّه لا يعرف كيف يهبط التلّ.

وبعد ساعة من الزمان، حطّ شحرور على بعد بضعة أقدام منه. كان مخلوقًا غاية في الدقّة تحيط عينيه هالات صفر فيها مسحة من لون قرمزي، وبريق كالياقوت على جناحيه. غرّد مرّة على استحياء وفي رقّة ولكنّه كان مفعمًا بالحياة. وفكّر إسكندر: لو أنّ الطائر اقترب أكثر لتمكّن من الإمساك به براحتَيْ كفّيه ولأصغى إلى ضربات قلبه الصغير في صدره. كان في وسعه أن يحمي الطائر وأن يحبّه ويوفّر له الملاذ ولكنْ في إمكانه أن يكسر رقبته في حركة سريعة واحدة.

Twitter: @ketab_n

ما إن مرَّ في ذهنه مثل هذا الخاطر حتى شعر بتأنيب الضمير: فثمّة قدور هائلة في جهنّم تفور، وفي داخلها كلّ من تنتابه مثل هذه الأفكار الآثمة. وهنا دمعت عيناه، إذْ سوف تلاحظ أمّه اختفاءه وسوف ترسل فريقًا يبحث عنه، ولكن على الرّغم من ذلك لم يأت أحد إليه. سوف يموت في هذه البقعة، يصرعه البرد والجوع. ما الذي سيقوله الأهالي عندما يدركون أنّه لم يمت بسبب المرض أو في حادث مؤسف مثل بقيّة الناس، وإنّما مات بسبب جبنه وخوفه؟

لعلّهم فتّشوا عنه في كلّ الأماكن غير الموفّقة واعتقدوا أنّه قد هرب. لعلّهم فكّروا في أنّ الذئاب هاجمته وإن لم تكن ثمّة ذئابٌ في المنطقة. وتخيّلَ مِيتَةً فظيعة بأسنان الضواري من الحيوانات ومخالبها. هل ستتحطّم والدته، أم تُراها ستفرح بعد أن نقص عدد الأفواه واحدًا؟

أدرك إسكندر كم هو جائع لمّا فكّر في الطعام الذي تطهوه والدته. يضاف إلى ذلك، كان في حاجة ماسّة إلى أن يتبوّل. ولمّا وجد نفسه غير قادر على التحمّل أكثر ممّا تحمّل، نزع بنطاله وأمسك عضوه الذي كان سبب كلّ شقائه. ولم يكد يقضي حاجته حتى تناهى إلى سمعه صوت أحدهم وهو يصيح:

ـ هه! ها هو فوق التلّ! لقد عثرت عليه!

وما هي إلّا ثوانٍ معدودة حتى برز أمامه رجل، أعقبه رجل آخر، ثم عشرة رجال آخرين، وقفوا بجانب الشجرة يراقبونه. ظلّ إسكندر يتبوّل تحت أنظارهم كأنّ مثانته ازداد حجمها إلى الضعف، وأخيرًا جذب بنطاله وفكّر في طلب النجدة كي يهبط إلى أسفل التلّ عندما رأى وسط الحشد الرجل ذا الحقيبة الجلديّة.

Twitter: @ketab_n

وهنا حدث أغرب شيء. فقد تجمّد إسكندر في مكانه وارتخت أطرافه وأُصيب لسانه بخدر، وبدلاً من معدته شعر أنّ حجارة حلّت محلّها. كان في إمكانه أن يسمع الأهالي يطلبون منه أن يهبط إلى أسفل، ولكنّه لم يستطع الردّ عليهم. فجلس ساكنًا من دون حراك وكأنّه أمسى جزءًا من الشجرة ـ وَلَدَ شجرة البلّوط.

ظنّ المتفرّجون في بادئ الأمر أنّه كان يتظاهر بالموت، وأنّه يرغب في أن يحظى باهتمام أكبر. ولكنّهم بدأوا يفكّرون في وسيلة يتمكّنون بها من إنزاله من على التلّ عندما أدركوا أنّه لم يكن يتظاهر بالموت بل أصيب بنوع من الشلل. وهنا بدأ أحد الرجال يرتقي التلّ، ولكنّه لم يتمكّن من الوصول إلى الغصن الجانبي الذي كان يتربّع عليه إسكندر. وبذل رجل آخر مجهوده ولكنّه لم يوفّق في مسعاه. في هذه الأثناء، كان الآخرون منشغلين في حمل البطّانيّات كي يرمي الصبي بنفسه فوقها، أو يهيّئون الحبال لإمساكه بها وإن لم يعرف أحد منهم كيفيّة استعمالها، لكن من دون جدوى، وكانت السلالم قصيرة أيضًا والحبال رفيعة والصبي لا يبدو متعاونًا.

وعلى حين بغتة شقّ صوتٌ الفضاءَ:

ـ ما الذي يفعله في ذلك المكان؟

كانت تلك صيحة بمبي وهي تصعد إلى أعلى التلّ.

فأوضح لها أحد الأهالي.

ـ إنّه عاجز عن الهبوط.

فقطّبت بمبي جبينها وهي تنظر إلى ساقَيْ ولدها النحيفتين كالعصي، المتدلّيتين من فوق الغصن. وقالت:

Twitter: @ketab_n

ـ انزل في سرعة!

وهنا شعر إسكندر بجسده يذوب وكأنّه قطعة من الثلج تحت الشمس.

ـ انزل أيّها الصبي الطائش! لقد ألحقت الخزي والعار بأبيك. لقد خُتِنَ كلّ الأولاد، وأنت الوحيد الذي تصرّفت تصرّف الأطفال.

بذل إسكندر جهده ولكنّه لم يستطع تحريك بدنه، بل نظر إلى أسفل وابتسم. الأفضل لو خفّف من وطأة الموقف، لكنّها كانت غلطة، إذْ ما أن شاهدته أمّه يبتسم حتى تفجّر الغضب العارم الذي كان يختلج في صدرها وتحوّل إلى تيّار عنيف. وقالت:

ـ أيّها الطفل المزعج المدلَّل! انزل من فورك وإلّا فسوف أكسر عظامك! ألا تريد أن تصبح رجلاً؟

فكّر إسكندر قليلاً، وأخيرًا قال:

ـ كلّا.

ـ لو بقيتَ طفلاً لما حصلت على سيّارتك.

فهزّ كتفيه، إذْ سيقطع الطرق سيرًا على قدميه أو يستقلّ الحافلة.

ـ ولا على بيتك.

حاول إسكندر أن يهزّ كتفيه مرّة أخرى، فهو يستطيع أن يعيش في خيمة مثل الغجر الذين شاهدهم.

ـ ولا على زوجة جميلة.

وهنا كست وجهَ إسكندر تعابير الحيرة. فهو يريد زوجة، زوجة

Twitter: @ketab_n

تشبه أمّه ولكن من دون أن تنهره أو توبّخه. عضّ شفته مفكّرًا، وبعد مدّة من الانتظار بدت له بلا نهاية، لَمَّ أطراف شجاعته ونظر إلى أسفل، إلى عينيها الخضراوين كأنّهما لبلاب يجذبه في قوّة إليها.

وقالت بمبي متنهّدة:

ـ لا بأس. أنت ربحتَ وخسرتُ أنا. لن تُختن. ولن أسمح لأحد أن يلمسك.

ـ وعد؟

ـ وعد أيّها السلطان!

كان صوتها دافئًا مطمئنًا. ووجد إسكندر رعبه يتلاشى وهو يستمع إليها. فحرّك أصابع يديه ثم أصابع قدميه وتمكّن من النزول من فوق بعض الأغصان إلى حيث كان أحد الرجال في انتظاره على الدرجة العليا من سلّم مستند إلى الشجرة. ولمّا بات في مأمن على الأرض، هرع إلى أمّه يجهش بالبكاء في صوتٍ عالٍ.

قالت بمبي كأنّها تريد أن تتأكّد:

ـ يا ولدي!

ثم احتضنته في قوّة جعلته يشعر بقلبها يدقّ من تحت ضلوعها، وأضافت:

ـ بيتي أيّها السلطان.

كان إسكندر مسرورًا وهو يشعر بالأرض من تحت قدميه، وازدادت سعادته لمّا شعر أنّ أمّه اشتاقت إليه كلّ هذا الشوق، ولكن على الرّغم من ذلك ثمّة ما هو خانق في عناقها، عذب جدًّا.

Twitter: @ketab_n

شعر مع شفتيها من على جانب رقبته، وأنفاسها، وإمساكها به كأنّه في تابوت.

أمسكت بمبي بالصبي من كتفيه كأنّها قرأت أفكاره، ودفعته إلى الوراء كي تتمكّن من التحديق إلى عينيه، ثم صفعته صفعة قويّة وقالت:

ـ لا تُلحق بي العار مرّة أخرى أبدًا!

ثم التفتت قليلاً إلى الرجل ذي الحقيبة الجلديّة وأضافت:

ـ خذه!

امتقع وجه إسكندر، واستبدّت به الدهشة أكثر ممّا تلبّسه الارتباك. لقد خدعته أمّه أمام الحاضرين، وصفعته. لم يسبق لها أن ضربته ولم يخطر بباله قطّ احتمال أن تضربه، فبذَلَ قصارى جهده كي يتكلّم، لكنّ الكلمات تحوّلت إلى ما يشبه قطع الرخام تسدّ حنجرته.

في المساء، أثنى الحاضرون على شجاعة إسكندر أثناء الختان، وقالوا إنّه لم يذرف دمعة واحدة، ولكنّه كان يعرف أنّ أداءه لا صلة له بالشجاعة، لأنّه كان لا يزال يفكّر بما فعلته أمّه والسبب الذي دفعها إلى فعله. عمليّة الختان نفسها لم تزعجه قطّ، لكنّه لم يظنّ يومًا أنّ في إمكان المرء أن يخدع من يحبّه ويعزّه. ولم يعرف حتى ذلك اليوم أنّ في وسع الإنسان أن يحبّ شخصًا من صميم فؤاده ولكنّه على استعداد في الوقت نفسه لكي يؤذيه. فكان ذلك هو درسه الأوّل في تعقيدات الحبّ.

* * *

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نافورة الأمنيات

منطقة على مقربة من نهر الفرات، ١٩٧٧

رحلت بمبي الآن. صورتها في المرآة، وانعكاسها على صفحة ماء راكد، وباتت تنام من تحت سماء مختلفة وإن كانت ترسل على الدوام إلى جميلة رسائل وبطاقات بريديّة فيها صور لحافلات ذات طبقتين وأبراج ساعات ضخمة. عندما كانت تعود إلى البيت في زيارة قصيرة، كانت تفوح من ملابسها رائحة مختلفة، ناعمة الملمس، وهذا هو الجانب الذي أثار دهشة جميلة أكثر من أيّ شيء آخر: تراقب أختها وهي تفتح حقيبتها وتُخرج منها العطور والحاجات الصغيرة والأقمشة التي أتت بها من بلاد أجنبيّة.

كانت بمبي قد رحلت عن القرية على افتراض لم تفصح عنه بأنّ كلّ شيء سيظلّ على حاله عند عودتها، ولكنْ لم يبق أيّ شيء على حاله السابق، فضلاً على أنّها لم ترجع رجعة نهائيّة.

لبثت بمبي سنوات طويلة ترسل الرسائل إلى جميلة مخبرةً إيّاها عن الحياة في إنكلترا، وكَتَبَ الأطفال بضعة أسطر بين حين

Twitter: @ketab_n

وحين، وكان يونس أكثر مَن كتب مِن الأولاد. واحتفظت جميلة بهذه الخطابات في علبة شاي من الصفيح وخبّأتها تحت سريرها وكأنّها كنز ثمين، وردّت على الخطابات والرسائل بانتظام وإن لم يكن لديها الشيء الكثير ممّا ينبغي لها أن تكتب عنه، أو هذا ما ظنّته. وقد سألت يونس مؤخّرًا إن كان شاهَدَ الملكة، وإذا كان قد شاهدها حقًّا، فكيف هي؟ فما كان منه إلّا أن كتب موضحًا:

تعيش الملكة في قصر منيف تضيع فيه، ولكنّهم كانوا يعثرون عليها فيجلسونها فوق العرش من جديد. كانت ترتدي ثوبًا مختلفًا في كلّ يوم، وقبّعة مضحكة ينبغي أن تكون بلون الثوب دائمًا. يداها ناعمتان لأنّها تضعهما داخل قفّاز وتستعمل كمّيّات كبيرة من الكريم، كما أنّها لا تغسل الأواني والصحون. وقد رأيت صورها في المدرسة. تبدو لطيفة.

لم تفهم جميلة كيف أنّ الأسرة أنفقت وقتًا طويلاً جدًّا على تلك الجزيرة من دون أن تقع أنظارها على الملكة باستثناء مشاهدتها على صفحات المجلّات والجرائد. أحيانًا راودتها الشكوك إن كانت بمبي قد خرجت من الحيّ الذي تقطن فيه. وإذا ما كانت محشورة دومًا بين الجدران، فما فائدة السفر إلى بلد بعيد؟ لِمَ لا يمكن للبشر أن يعيشوا ويموتوا في المكان الذي ولدوا فيه؟ كانت جميلة ترى المدن الكبيرة خانقة، وكانت تزعجها فكرة الأماكن المجهولة، وكانت المباني والشوارع الفسيحة وحشود الناس تضغط على صدرها وتتركها وهي تشهق من أجل نسمة هواء.

كانت بمبي تكتب في نهاية الرسائل فقرة أخيرة مفادها: «أأنت

Twitter: @ketab_n

غاضبة منّي يا أختاه؟ أيمكنك أن تغفري لي من أعمق قلبك؟»، على رغم أنّها كانت تعرف الردّ على تساؤلاتها، فجميلة ليست غاضبة من أختها التوأم ولا من أيّ شخص آخر، ولكنّها كانت في الوقت نفسه تدرك أنّ عليها أن تطرح السؤال مرّات ومرّات، مثل جرح في حاجة إلى تجديد ضماده في انتظام.

كانوا يسمّون جميلة القابلةَ العذراء، ويردّدون أنّها أفضل قابلة شهدتها هذه المنطقة الكرديّة الفقيرة منذ مائة سنة، وكانت النساء الحوامل يشعرن بالراحة عندما تتولّى مسؤوليّة الولادة؛ كأنّ حضورها سيضمن مخاضًا سهلاً مبعدًا عزرائيل عن المكان. وكان الأزواج يدفعون رؤوسهم إلى الداخل عمدًا ليقولوا: القابلة العذراء تتولّى زمام الأمور، وسيكون كلّ شيء على ما يرام، شكرًا لله أوّلاً ولها ثانية.

لم تكن تلك الكلمات لترقى إلى أيّ شيء، بل على العكس، كانت تعمّق من مخاوف جميلة، خشية ألّا تكون في مستوى توقّعات الناس، وكانت تعرف أنّها جيّدة ـ ماهرة مهارة جيّدة ـ قبل أن يبدأ المرء بالتدهور مع التقدّم في السنّ وضعف البصر أو حتى الحظّ السيّئ، وكما هو شأن كلّ قابلة، كانت تدرك مخاطر التفوّه باسمها في الوقت نفسه الذي يُلفظ اسم الله. ولمّا كان ينساب إلى سمعها صوت الفلّاحين وهم يكفرون، كانت تتمتم في نفسها: التوبة، التوبة! لم يكونوا مضطرّين إلى سماعها، يكفي أنّ الله هو الذي يسمعها، وعليها أن توضح له أنّها لا تطمح إلى جبروته ولا حتى منافسته، فهو الواحد الأحد الذي يهب الحياة.

كانت جميلة تدرك هشاشة الثلج الذي تسير من فوقه، فالمرء

Twitter: @ketab_n

يظنّ أنّه خبير وعالم إلى أن تواجهه حالة ولادة تملأه رعبًا وتجعله أشبه بتلميذ متمرّن، فبين حين وحين ثمّة خطأ يتكرّر، خطأ فظيع، على الرّغم من بذل قصارى الجهود، وفي أحيان كانت تخطئ في حساب يوم الولادة، وعند وصولها تجد المرأة الحامل وقد ولدت من تلقاء نفسها، وفي أحيان أخرى تجدها وقد قطعت الحبل السرّي بشفرة حادّة وربطته بخصلة من شعر رأسها... كانت جميلة تنظر إلى هذه الحوادث على أنّها دلائل من الله يذكّرها بمدى عجزها وقصورها.

كان الأهالي يأتون إليها من قرًى نائية ونواحٍ منسيّة ليصحبوها وإيّاهم. كانت ثمّة قابلات قريبات من أولئك الأهالي ولكنّهم كانوا يفضّلونها على غيرها، فهي ذات شهرة واسعة في تلك المنطقة من العالم، وعشرات الفتيات سُمِّينَ باسمها ـ بسّ جميلة.

كان دعا آباء البنات اللواتي ساعدت في ولادتهنّ:

ـ أرجو أن تحمل اسمك وأن تكون في نصف طهارتك وعفّتك.

وكانت جميلة تومئ برأسها من دون أن تنبس بكلمة بعد أن تكون قد فهمت ما يقولون. إنّهم يريدون أن تكون بناتهم متواضعات وفاضلات وفي الوقت نفسه أن يتزوّجن ويُرزقن بالأطفال في الوقت المناسب. قد تكون أسماء بناتهم وتصرّفاتهنّ مشابهةً للقابلة ولكن يستحسن أن يكون حظهنّ أفضل حالاً.

اقتربت جميلة من النافذة وعلى كتفها لفاع من حياكتها ومصباح زيتي في يدها وسدّدت أنظارها إلى الظلمة. كان الوادي يغفو من تحت عباءة الظلام، مكشوفًا ومجرّدًا إلّا من الأعشاب

Twitter: @ketab_n

والتربة القاحلة. كثيرًا ما تخيّلت نعومةً ورقّةً من تحت تلك الطبيعة القاسية، التي تشبه إنسانًا قاسيًا يخفي في صدره فؤادًا رقيقًا، ومع هذا فهي غير مضطرة إلى العيش بمفردها في مثل هذا المكان النائي، وكان في وسعها أن ترحل بدورها إلى مكان ما، إلى أيّ مكان. ولا يعني هذا أنّها كانت تملك السبل والوسائل والأقرباء الراغبين في مساعدتها للبدء من جديد في مكان آخر، فقد بلغت سنّ الثانية والثلاثين وتجاوزت ريعان الشباب وسنّ الزواج المناسب. لقد فات أوان بدئها بتكوين أسرة، فالرحم الجافّة أشبه بالبطّيخة الفاسدة: جميلة المظهر ولكنّها جافّة ويابسة من الداخل ولا فائدة ترجى منها. هكذا كان الفلّاحون يتقوّلون على أشباهها من النسوة.

ومع هذا، فيمكنها أن تتزوّج برجل عجوز أو مُقعد، مثلما يمكنها أن توافق على أن تكون زوجة ثانية، أو حتى ثالثة أو رابعة، وإن كان ذلك نادرًا، فالزوجة التي تزوّجت أوّل مرّة هي الزوجة الشرعيّة وفي إمكانها أن تلجأ إلى المحكمة أو المستشفى أو دائرة الضريبة وتزعم أنّها امرأة متزوّجة ولها أطفال شرعيّون. ولكن ما من أحد في هذه البقعة من البلاد لجأ إلى مثل هذه الأماكن ما لم يكن في مشكلة أو يُحتضر بسبب التهاب أو أصيب بالجنون، وفي هذه الحالات ما الفرق إن كانت المرأة زوجة أولى أو رابعة؟

كان بيتها ـ إن كانت كلمة بيت هي المناسبة لهذا الكوخ ـ يقع في تجويف على مقربة من وادٍ ضيّق عميق على تخوم قرية «منزل الرياح الأربع»، ويمكن للمرء أن يشاهد إلى أسفل من مسافة بعيدة، مجموعةً من الصخور تشبه عمالقة متحجّرين، تتألّق مثل

Twitter: @ketab_n

ياقوت إذا ما سقطت أشعّة الشمس عليها. تدور أساطير كثيرة عن هذه الصخور، ومن وراء كلّ أسطورة قصّة حبّ ممنوعة. فقد كان يعيش في هذه المنطقة وعلى مدى قرون طويلة النصارى والمسلمون والزرادشتيّون واليزيديّون جنبًا لجنب، وأحبّوا بعضهم بعضًا وماتوا جنبًا إلى جنب. لكنّ معظم أحفادهم هاجروا من تلك البقعة وذهبوا إلى أماكن أخرى، باستثناء مجموعة صغيرة من المزارعين الذين آثروا البقاء في المنطقة، ومنهم جميلة.

هذه المناطق المهجورة، التي كانت مفعمة يومًا ما بالحياة، تشوبها مسحة من الحزن وكآبة الأشباح تتغلغل في كلّ نسمة وفي كلّ شقّ أو صدع. ولعلّ ذلكم هو السبب في أنّ سكّان المناطق المهجورة يصبحون بعد مدّة من الزمان شبيهين بالأماكن التي يقطنون فيها، فنجدهم صامتين ومسالمين ومكتئبين. لكنّ هذا ما يبدو على السطح، الذي نادرًا ما يكون كذلك في أعماقه، شأنه شأن الناس والأرض، فتحت طبقات الثياب التي كانت ترتديها لتدفئة جسدها، كانت جميلة إنسانًا آخر: فتاة شابّة، حسناء ومرحة، ذات ضحكة ترنّ رنين القدح إذا ما لامس قدحًا آخر.

في تلك الأيّام، نادرًا ما كانت تخرج من البيت، فكانت تتوارى خلف المرأة العمليّة، التي تقطع الأخشاب وتحصد الزرع في الحقول وتسحب الماء من البئر وتصنع الدواء السحري. أحيانًا، كانت تخشى على تقواها وورعها. لعلّ هذه الوحدة التي عاشتها طويلاً تمكّنت منها، بعد أن فتّت في عقلها شيئًا فشيئًا.

عندما هبّت الريح من الجبال النائية، كانت تحمل معها عبق الزهور البرّيّة والأعشاب الطريّة والنباتات المزهرة. ولكنّها كانت

Twitter: @ketab_n

تحمل في بعض الأحيان رائحة متخمة للحم مشوي يفوق كلّ الروائح ويغور في أعماقها. ثمّة مهرّبون وقطّاع طرق في المنطقة يجولون بين الكهوف والمهاوي من دون أن يستقرّوا في منطقة واحدة أكثر من يوم واحد. كان في إمكانها مشاهدة نيران مخيّمهم متوهّجة في الظلام في الليالي التي يُفتقد فيها البدر وكأنّها نجوم حائرة. كانت الروائح في الجوّ مختلفة اختلاف الطعام الذي يأكلون، فضلاً على مدى قربهم.

ثمّة ذئاب أيضًا، إذْ كان في وسع جميلة أن تسمعها أثناء النهار وفي أواخر المساء وفي الليل الدامس تعوي غاضبة، وأحيانًا تزمجر في صوت عالٍ بالتناوب، وفي كثير من الأحيان كانت تظهر أمام عتبة بيتها، تسترق النظر وتشمّ وحدتها، ثم تعود أدراجها مقطّبة خائبة الأمل لأنّ جميلة لم تقدّم لها وليمة كافية. لم تكن جميلة لتخشى الذئاب قطّ لأنّها ليست أعداءها. أمّا قطّاع الطرق، فكان اهتمامهم ينصبّ على الغنائم الكبيرة أكثر ممّا ينصبّ عليها. يضاف إلى ذلك أنّ جميلة كانت تستمدّ شجاعتها من إيمانها بأنّ الخطر يأتي من الأشياء التي قلّما يتوقّعها أحد.

توهّجت النيران في الموقد عندما اشتعل غصن آخر، فتألّق وجه جميلة وإنْ كانت بقيّةُ أرجاء البيت غارقة في الظلمة. فكّرت أنّ المزارعين لا يحبّونها، وإنْ كانوا يحترمونها حقًّا. ولمّا كانت قادرة على السفر ممتطية حصانًا أو بغلاً أو حمارًا، فقد تمكّنت من وضع قدميها في مناطق وبقاع لا تستطيع أيّ امرأة أخرى أن تدخلها. وغالبًا ما كان يرافقها أُناس تعرفهم جيّدًا وغرباء أيضًا.

أحيانًا يطرق باب دارها في وقت متأخّر من الليل رجل لم

Twitter: @ketab_n

تعرفه من قبل متوسّلاً إليها: «تعالي بسرعة، أتوسّل إليك! إنّ زوجتي توشك أن تلد في القرية. لا بدّ أن نسرع، فهي ليست على ما يرام».

قد يكون الرجل كاذبًا، فثمّة على الدوام احتمال، وإنْ كان ضئيلاً، في شرّ مستتر. وأثناء سيرها من وراء الرجل في الليل البهيم، كانت تدرك جيّدًا أنّه قد يخطفها ويغتصبها ويقتلها، ولكن عليها أن تثق ليس به، بل بالله. ومع هذا، فثمّة أيضًا قواعد غير مكتوبة لا يمكن لأحد أن يخالفها، فالقابلة ـ وهي المرأة التي تأتي بالأطفال إلى هذا العالم ـ شبه مقدّسة، كما أنّها معلّقة في مكان وسط بين العالم المرئي والعالم اللامرئي، معلّقة بخيط رفيع يشبه خيط العنكبوت في رقّته.

غذّت جميلة الموقد بكمّيّات أخرى من الخشب ووضعت القهوة على النار: ماء وقهوة وسكّر، ثلاث موادّ بدأت تشحّ عندها، لكنّ الأسر كانت تأتي لها بالهدايا طوال الوقت، مثل الحنّة والشاي والبسكويت والزعفران والفستق والفول والتبغ المهرّب من الطرف الآخر من الحدود. كانت جميلة تعلم أنّها لو تلقّت مبلغًا من المال لكان الأهالي قد لجأوا إليها مرّة واحدة لا أكثر، ولكن إن كانوا يقدّمون لها أشياء صغيرة، فإنّ هذه الأشياء سوف تستمرّ على مدى الحياة.

خلطت القهوة في رقّة وعناية. يُقال إنّ القهوة مثل الحُبّ، كلّما صبرْتَ عليها أكثر ازداد طعمها حلاوة، ولكن جميلة لم تكن تعرف الشيء الكثير عن ذلك، فقد أغرمت مرّة واحدة، وكان طعم غرامها مُرًّا لاذعًا، لم تتكلّم عنه بعد أن ذاقت مرارته.

Twitter: @ketab_n

وفي الوقت الذي ظلّت تراقب رغوة القهوة وهي تتصاعد إلى أعلى، أصاخت السمع لأصوات قريبة وبعيدة. كان الوادي مسكونًا بالأرواح، وفيه مخلوقات لا يزيد حجمها عن حجم حبّة رزّ، لا تراها العين المجرّدة ولكنّها قويّة وخطرة. كانت الطيور تنقر النوافذ، والحشرات تنطّ من فوق الماء في الدلاء كأنّها تقطع بحيرة ماء. لكلّ شيء لغته الخاصّة به، كما كانت تعتقد: العواصف الرعديّة وقطرات الندى الصباحيّة والنمل الزاحف في إناء السكّر... أحيانًا كان يخيَّل إليها أنّها تفهم ما تقول.

لم تحبَّ شيئًا في حياتها قدْرَ ما أحبّت مهنتها، فهي رسالتها وقدَرُها. وكان هذا واضحًا سواء في الضباب أو تحت الشمس أو في الثلج الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثين بوصة، وفي أيّ وقت، ليلاً أو نهارًا، فهي كانت على استعداد كي تلبّي النداء، منتظرة قادمًا يطرق بابها. لم يكن أحد يعرف هذا الشيء ولكنّها كانت في أعماقها متزوّجة، متزوّجة قَدَرَها ونصيبها.

* * *

كانت الريح خارج البيت تضرب زجاج النوافذ عندما تناولت جميلة القهوة من فوق اللهب وصبّت لنفسها مقدارًا قليلاً منها في فنجان صغير مكسور اليد، وشربته في رشفات قليلة بطيئة. كانت النار مثلَ حياتها، متأجّجةً في أعماقها، لا تدع احدًا يقترب منها كثيرًا، لحظات ثمينة تشتعل وتتحوّل إلى جمرات، مثل أحلام محتضرة.

وتناهى إلى سمعها صوت طائر من بعيد: بومة، يصفها سكّان المنطقة بأنّها أمّ الخراب، وانساب إلى مسامعها الصوت من جديد

Twitter: @ketab_n

ولكنّه كان أقوى من المرّة السابقة. كانت جميلة قد اتّخذت مجلسها في المنزل مغمضةَ العينين، مشتّتةَ الأفكار، فعلى الرّغم من الصعوبات والمشاقّ، تذكّرت طفولتها السعيدة:

كانت إحدى التوأمين تتظاهر أنّها الأمّ وتتظاهر الثانية أنّها الطفل. وعلى الرّغم من أنّ بمبي كانت أكبر سنًّا من شقيقتها بثلاث دقائق إلّا أنّها كانت تؤدّي على الدوام دور الطفلة في حين كانت جميلة تؤدّي دور الأمّ محاولة أن تهدّئ من روعها وتطمئنها، وكانت تهدهدها وتغنّي لها وتحكي لها الحكايات. وألمّت الدهشة بجميلة وهي تتذكّر كم كانت تلك الألعاب جادّة يومئذٍ.

وتذكّرت كيف أنّ والدها بيرزو اصطحبهما يومًا إلى البلدة، واكتشفتا نافورة أمنيات كانت النساء الراغبات في الحصول على أطفال والحموات اللواتي كنّ يردن ممارسة السحر على كنّاتهنّ والعذراوات اللواتي يرغبن في الزواج بأزواج موسرين... يأتين إلى هذا المكان ويرمين بقطع النقود المعدنيّة في الماء، وبعد أن يكون الناس قد رحلوا عن المكان، ترفع بمبي حافّات ثوبها وتتسلّق النافورة وتجمع النقود، ثم تركض الأختان بأسرع ما يمكنهما وهما تصيحان في فرح وسرور وتتّجهان إلى أقرب الدكاكين فتشتريان الحلويات على شكل عصا.

وعلى قدر ما استمتعت جميلة بالمغامرات إلّا أنّها كانت تشعر بالذنب من بعد ذلك لأنّها أدركت أنّهما سارقتان، بل أسوأ، فسرقة أماني الناس أكثر خسّة ودناءة من سرقة نقودهنّ.

وكانت بمبي تقول عندما تكشف لها جميلة عن قلقها:

Twitter: @ketab_n

ـ لا تكوني مفرطة في عواطفك، فقد تركن نقودهنّ فأخذناها بدورنا. هذا كلّ ما هنالك.

ـ صحيح، ولكن ثمّة أدعية مرتبطة بها، فلو سرق أحدهم رغبتك السرِّيّة فسوف تنزعجين. أليس كذلك؟ أعني، أنا شخصيًّا سوف أنزعج.

فابتسمت بمبي:

ـ إذًا ما رغبتك السرِّيّة؟

تتعثّر جميلة في الكلام ويساورها القلق، فصحيح أنّها ترغب في الزواج يومًا ما، وسيكون ثوب الزفاف وقالب حلوى كريما الزبد كالذي يصنع في المدينة مَثارَ الدهشة، وإن لم يكن ذلك الشيءَ المهمّ، وأنّها تحبّ كذلك أن يكون لديها أطفال، ولكن هل يرجع سبب ذلك حقًّا إلى أنّها كانت تشتاق إليهم أم لأنّ النساء كنّ يقلن لها إنّ عليها أن تمتلك الأطفال؟ جميل جدًّا أن تملك بيتًا ريفيًّا وأن تزرع الأرض، ولكنّ هذا حلم وليس هوًى. كانت جميلة عندما تستغرق في تفكير جادّ، تشعر بالسعادة لأنّها لصّ وليست زائرة من زوّار نافورة الأمنيات، ولو أُعطيت قطعة نقد كي تتمنّى أمنية ما، فإنّها قد تعجز عن التفكير بأيّة أمنية.

ونهرتها بمبي متّقدةَ العينين على ما كانت تبديه من تردّد:

ـ سألتحق بالبحّارة وأطوف العالم، وسأستيقظ صباح كلّ يوم في مرفأ جديد.

لم تشعر جميلة بوحدة أكبر ممّا شعرت يومئذٍ. فعلى قدر ما كانت تفهم أنّهما متماثلتان من كلّ الأوجه، فإنّ ثمّة اختلافًا جوهريًّا بينهما: الطموح، فقد كانت بمبي ترغب في مشاهدة العالم

Twitter: @ketab_n

الكائن وراء نهر الفرات، وكانت تملك من الشجاعة ما يمكّنها من الاستجابة لقلبها وعواطفها ولا تعير أيّة أهمّيّة لما يظنّه الآخرون بها. وفي لحظة عابرة، خطر ببال جميلة أنّ قدرها وقدر أختها هو أن تعيشا حياتيهما بعيدتين إحداهما عن الأخرى.

كان والدهما يردّد أنّ التوأمين المتماثلتين تشتركان في السرّاء والضرّاء، ففي السرّاء ثمّة من تعتمدان عليه دومًا، أمّا في الضرّاء، فإذا ما عانت إحداهما اليأس والقنوط فإنّ قدرهما هو أن تشترك الاثنتان في تلك المعاناة. وإذا كانت الأمور كذلك، فإنّ جميلة فكّرت في الشيء الذي يمكن أن يسبّب لهما عذابًا جديدًا ـ هوى شقيقتها أم افتقارها هي إلى ذلك الهوى؟

* * *

Twitter: @ketab_n

ذكريات

لندن، كانون الأوّل، ١٩٧٧

بينما كان آدم طبرق يأخذ حفنة من بسكويت الشوفان من على الحزام الناقل ليرصفها في العلبة المعدنيّة المخصّصة لها، إذا بفكرة تخطر بباله، وهي أنّه لم يعد يتذكّر وجه أمّه، فتوقّف لحظة وسرت في أوصاله قشعريرة، وكلّفه توقّفه فواتَ المجموعة التالية من البسكويت. ولاحظ بلال، الواقف على بعد أقدام عند خطّ التجميع، الخطأَ ولكنّه أسرع بتلافيه. ولو أدرك آدم ما حدث لأومأ لصديقه إيماءة شكر وتقدير، ولكنّه كان في تلك اللحظة لا يزال يحاول أن يتذكّر كيف كان شكل أمّه.

ثمّة صورة امرأة في ذهنه، بعيدة وغير واضحة المعالم، وكأنّها واقفة وسط ضباب خفيف، فارعة القدّ ورشيقة، رخاميّة الوجه، هادئة العينين، منشغلة البال، يسقط شعاع من الشمس من خلال النافذة على مؤخّر رأسها، تاركًا نصف وجهها في الظلال، شعرها بنّي كالنحاس، يشبه لون أوراق الخريف، ولكن بازدياد عتمة

Twitter: @ketab_n

الضوء تحوّل لونه إلى أسود غامق سوادَ الحبر، شفتاها مكتنزتان ومستديرتان. ربّما ليست هي، فآدم لا يستطيع أن يكون متأكّدًا. ربّما كانت شفتاها رقيقتين وزاويتاهما مطويّتين إلى أسفل. بدت المرأة متغيّرة الشكل في كلّ ثانية، وجهها منحوت من شمع مذاب. أو لعلّه كان يخلط بين ذكرى المرأة التي ولدته وصورة زوجته، فالشعر الكستنائي الطويل المتموّج الذي يراه الآن هو شعر بمبي وليس شعر أمّه عائشة. هل أضحت زوجته جزءًا لا يتجزّأ من وجوده على نحو أزالت معه كلّ ذكرياته، حتى تلك التي ترجع إلى زمن سابق على لقائهما؟

حوَّل آدم ثِقَلَ جسمه من قدم إلى أخرى وأغمض عينيه، وتذكّر شيئًا آخر: هو وأمّه في حقل أخضر يطلّ على سدّ. لا بدّ أنّه كان في سنّ الثامنة، وكانت أمّه قد تركت شعرها ينسدل فوق كتفيها، فظلّت ريح إسطنبول الشماليّة الشرقيّة تعبث به فيغطّي وجهها. أمامهما كانت الشمس زرقاء تمامًا، في حين انتشر فوق التلال البعيدة نثار من اللون الذهبي والفضّي والقصديري. ولم تكن بوّابات السدّ مفتوحةً، إلّا بعضها، وكان مستوى ماء البحيرة منخفضًا. وشعر الفتى بالدوار وهو يرنو إلى المياه تمور من تحت. كان من شأن أمّه أن تحذّره في أيّ يوم آخر ألّا يقترب أكثر من الحافّة، لكنّ الغريب أنّها لم تحذّره في ذلك اليوم.

«الشيطان ينتظر قرب الحافّة النائية ليجذب كلَّ من تسوّل له نفسه الاقتراب».

وهذا هو السبب في سقوطهم دائمًا: صغار الأطفال الذين ينحنون من فوق حواجز الشرفة، ربّات البيوت اللواتي يخطون من

Twitter: @ketab_n

فوق حافّات النوافذ لتنظيفها أو منظّفو المداخن الذي يمشون بتثاقل وجلبة قرب الأفاريز. وكان الشيطان يستخدم مخالبه ليتشبّث بكواحلهم ويدفعهم بعنف إلى الهاوية. ولم تنج إلّا القطط، لأنّها أم تسع أرواح ويمكنها أن تموت ثماني مرّات.

هبطا التلّ يدًا بيد حتى وصلا الجدران العظيمة التي كانت تنحدر إلى أحد جانبي السدّ. تنهّدت عائشة في أعلى الأخدود، وتمتمت شفتاها، ويبدو أنّها نسيت أنّ الشرّير الأوّل يحوم على مسافة قريبة، أو ربّما لم يكن الأمر كذلك، لأنّه عندما تمعّن في الكلمات التي تتفوّه بها أدرك أنّها كانت تدعو الله كي يدرأ عنهما البليّة وسوء الحظّ بكلّ تأكيد، فارتاح، وإن كان ارتياحه قصير الأمد، إذْ فكّر في أن يكون الشيطان متواريًا في مكان ما وراء الأدغال، على أهبّة الاستعداد لدفعهما نحو الهاوية. ولسبب طارئ، جذب يده من يد أمّه ونظر نظرة خاطفة من حوله، إلى أن بات متأكّدًا من عدم وجود أحد غيرهما في ذلك المكان، ولكنْ... عندما التفت، لم يجدها بجانبه.

راقبها تهوي رويدًا رويدًا، ثانية بثانية.

* * *

فتح آدم عينيه ليجد بلالاً يحملق فيه وقد بدا الهلع على وجهه، سائلاً إيّاه في خضمّ جلبة المكائن وضوضائها:

ـ ما خطبك أيّها الرجل؟ لقد فاتتك أكثر من دزّينة من العلب.

وضع آدم يده اليمنى على قلبه وربت:

ـ إنّني في خير.

Twitter: @ketab_n

كانت ابتسامة بلال صغيرة ولكنّها حقيقيّة. أومأ برأسه وانصرف إلى عمله، شأنه شأن آدم، الذي تمكّن أثناء ما بعد الظهيرة من معالجة كلّ قطعة بسكويت، لكنّ الذين كانوا يعرفونه معرفة جيّدة أدركوا أنّ ثمّة منغِّصًا ينغّص عليه وقته وحياته، خارج سيطرته وأقوى منه. إنّه قلَقٌ مزعج يزحف إلى أعماق روحه، بشع بشاعة سحابة عاصفة. كان يخاف ذلك الشيء خوفَ حيوان محاصر.

وشعر أنّه مطارد، وأنّه مطروح أرضًا وكأنّه حُقن بسُمٍّ لا يقتل ولكنّه يبطئ من حركته، وأينما ولّى وجهه شاهد ظلال المطارِدين.

وما من مفرّ يلجأ إليه إلّا إذا رحل عن إنكلترا من غير رجعة. ولكنّه لا يستطيع أن يفرّ سرًّا ثم يستخفي في حين يعتمد عليه أطفاله وزوجته، وإذا شاء أن يصطحب وإيّاه أسرته، فإنّ عليه أن يدبّر المال الضروري. المال الكثير. ووجد نفسه في حيرة، الصينيّون يدركون هذا الموقف، ولهذا السبب يزعجون أنفسهم بالتأكد من وجوده يوميًّا. كانوا يعلمون أنّ في مستطاعهم العثور عليه متى ما أرادوا ـ متى ما تخلّف عن الدفع. لكنّ ثمّة سببًا آخر يحول بين آدم والذهاب إلى أيّ مكان آخر: روكسانا.

* * *

استيقظ آدم قبل ستّة أسابيع وقد غمره إحساس بالسعادة جعله يبدو وكأنّه يحلّق في حلم. القرائن حاضرة. الدلائل لم يسبق لها أن ضلّلته. راحتا كفّيه تحكّانه. قلبه يدقّ دقّات أسرع من المألوف. عينه اليسرى ترفّ رفيفًا طفيفًا. لا شيء يثير الإزعاج، لا شيء سوى التواء قسمات وجهه بين حين وآخر التواءً خفيفًا وكأنّ ذلك

Twitter: @ketab_n

رسالةً مشفّرة قادمة من السماء. أمّا من النواحي الأخرى، فهو يوم اعتيادي كبقيّة الأيّام. ولكنّ الشعور لازمه، وعامله الكلُّ معاملةً مؤدّبة طوال ما بعد الظهيرة، كما كان مؤدّبًا بدوره تجاه الآخرين. يوم رائق ومشمس، وكانت الشمس منعكسةً على نهر التايمز انعكاسًا خلّابًا ملؤه البِشْرُ.

وذهب إلى وكر المقامرة بعد أن آذنت الشمس بالمغيب، ففي يوم ما، يوم ليس بالبعيد عن هذا اليوم، سوف يتوقّف عن المقامرة، وسوف يتخلّى عن هذه العادة ويبعدها عن نفسه مثلما يبعَد غصن مريض عن شجرة طيّبة. وكما سيستحيل على الشجرة أن تعمل على نموّ الغصن من جديد، فإنّ الدافع لن يدفعه من جديد إلى المقامرة. ولكن ليس الآن، فهو ليس مستعدًّا الآن للتخلّي عنها. وطمأن نفسه قائلاً: لا بأس اليوم، فالحظّ إلى جانبي.

كان وكر المقامرة في الطبقة تحت الأرضيّة من منزل مزدوج الواجهة في حيّ بيثنال غرين، يتألّق ويزهو بتاريخه العريق. أمّا في داخله، فكان عالَمًا مختلفًا تمامًا، فهو يحتوي على خمس غرف، في كلّ غرفة رجال يلعبون لعبة السنوكر أو يحتشدون من حول لعبة الروليت أو طاولات البوكر أو البلاك جاك. المكان مفعم بدخان كثيف. الذين يملكون مالاً وفيرًا ولا يخافون شيئًا تجدهم في غرفة في مؤخّرة البيت. ويمكن أن يتناهى إلى سمع المرء من وراء الباب المحكم الغَلْق التمتمات والشهقات والشكاوى بين حين وآخر، فضلاً على صوت عجلة الروليت.

مكان مخصّص للرجال. أمّا النساء القليلات الحاضرات في الوكر، فهنّ محجوزات، ولهذا يتعذّر الاقتراب منهنّ. في هذا

Twitter: @ketab_n

المكان ثمّة قواعد وقوانين غير مكتوبة يطيعها كلّ فرد: الهنود والباكستانيّون والأندونيسيّون والبنغلاديشيّون والكاريبيّون والإيرانيّون والأتراك واليونانيّون والإيطاليّون. . . كلُّ فرد يتكلّم الإنكليزيّة ولكنّه يسبّ ويشتم ويتآمر ويدعو بلغته الأمّ.

يسمّون المكان «العرين». تديره أسرة صينيّة قليلة الكلام، سبق لها أن عاشت في ڤيتنام أجيالاً بعد أجيال ولكنّها أُرغمت على الرحيل عنها في أعقاب الحرب. كان آدم لا يرتاح أبدًا إلى جانبهم، فالصينيّون لا يحمي أحدهم الآخر كالإيطاليّين، كما أنّهم ليسوا حادّي الطباع كالإيرلنديّين. ثمّة صفة محيّرة إزاء سلوكهم وتصرّفاتهم، هم أشبه بالطقس، لهم القابليّة على التغيّر لأتفه الأسباب.

في ذلك المساء لعب آدم لعبة الورق المعروفة باسم «بلاك جاك»، فضلاً على الطاولة، ثم انقلب بعد ذلك إلى لعبة الروليت، فوضع رهانه الأوّل على الأسود، وهي بداية تبشّر بالنجاح، ثم عمد إلى رهان توافقي فربح من جديد، ولكنّ المبلغ لم يكن دسمًا، فتحوّل إلى اللون الأحمر فربح ثلاث مرّات في صفّ واحد، تاركًا ما فاز به في الرهان السابق على الرهان الحالي. كانت لحظة من اللحظات السحريّة عندما أحسّ بقرص الروليت الدوّار، الذي كان ـ مثله تمامًا ـ يفتقر إلى ذاكرة قويّة. في الإمكان المراهنة بالرهان نفسه مرّات ومرّات ومع هذا تظلّ فرص الفوز غير متغيّرة. الروليت لا تحترم أيّة أنماط معروفة ومعترف بها، لهذا لعب من دون ذاكرة، مركّزًا في كلّ رهان جديد وكأنّه رهانه الأوّل والأخير.

Twitter: @ketab_n

وأشار إليه الجالسون في الغرفة بعلامة الموافقة والقبول، وربتوا على كتفه وتمتموا بكلمات التشجيع. يا له من شعور مدهش عندما يحترمك الآخرون وعندما تكون موضع إعجابهم وحسدهم. لعب كرة أخرى، وظلّ منتصرًا، وازدحم الناس أكثر من ذي قبل من حول الطاولة، وبعد خمس عشرة دقيقة كان لا يزال يراقب الكرة تدور من حول القرص ولا يزال يربح. وهنا طلب السمسار استراحة.

احتاج آدم إلى هواء نقي فخرج إلى الشارع، ليشاهد مغربيًّا طويل القامة، ضخم البنيان، يعرفه من العمل في المصنع، مفترشًا الرصيف وحده.

قال المغربي:

ـ أنت رجل محظوظ.

ـ قسمة. ليس كلُّ يوم كهذا اليوم.

ـ لعلّ الله يختبرك.

ثم أمسك عن الكلام ورمقه بنظرة شزر وأضاف:

ـ أتدري ما يقولون؟ من يريد ركوب فرس سريعة يمكن أن يكسر ظهره، ولكنّ الجواد سيواصل السير.

ـ عجبًا! ما معنى هذا الكلام؟

ـ لا أدري، ولكنّني أحبّ ذلك الصوت.

ضحكا، فحمل هواء الليل صوتيهما.

قال آدم:

ـ هاك قول آخر: يمكن للمرء أن يهرب إلى أقصى أقاصي

Twitter: @ketab_n

العالم ولكنّه لا يستطيع الهروب من عجيزته.

ـ هه!

كاد المغربي أن يرفع كأسه عندما لاحظ يدي رفيقه الخاويتين.

وقال آدم موضحًا:

ـ لا أتعاطى المشروبات.

فندّت عن الرجل ضحكة قصيرة وقال:

ـ الله، الله! انظر إلى نفسك! أنت غارق في المقامرة ولكن عندما يخصّ الأمر الخمرة تتحوّل إلى مسلم تقي.

تجمّد وجه آدم. إنّه ليس مدمنًا، وفي إمكانه أن يتوقّف عن لعب القمار متى شاء. أمّا الأسباب الكامنة وراء عدم تعاطيه الخمرة فهو أمر قلّما تحدّث عنه، وبخاصّة إلى الغرباء، ولكنّه قرّر أن يتكلّم في هذه الليلة، فقال في برود:

ـ كان أبي مدمنًا على الشراب.

عاد أدراجه إلى الوكر ولكن سرعان ما انطفأت الأنوار. انقطاع آخر في التيّار الكهربائي، وهو الانقطاع الثالث في هذا الأسبوع. لندن في هذه الأيّام كئيبة في الصباح مثقلة بسحب الأمطار ومدلهمّة السواد في الليل بسبب انقطاع التيّار الكهربائي. لا بدّ أنّ محلّ بيع الشموع في حيّ هاكني يحقّق أرباحًا طائلة، حسب ظنّ آدم، فثمّة أموال طائلة تجنى من وراء بيع الشموع بالجملة، وهي تجارة باتت حيويّة مثل بيع الخبز والحليب.

أرهق عينيه في الممرّ نصف المضاء إلى أن وصل الغرفة الخلفيّة، فشاهد ثلاثة صينيّين من وراء طاولة في حالة عبوس

Twitter: @ketab_n

وسكوت قرب مصباح كيروسين ـ رجال كلماتهم قليلة وتعابير وجوههم لا يُسبر غورُها، فأدرك آدم أنّ وقته حان كي ينصرف، وأنّ عليه أن يقتنع بما أحرز الليلة من مال، فأخذ سترته ومنح السمسار إكراميّة وكاد أن يخرج من الباب لولا أن توقّف.

كلّما كان يتذكّر تلك اللحظة بعدها، وكثيرًا ما فعل، فإنّه كان يفكّر في مقابض الطوارئ المزوّدة بها القطارات. لم يحاول يومًا أن يجذب مقبضًا، ولكنّه كان يعرف أنّ القطار سوف يتوقّف على حين بغتة إذا ما جذب المقبضَ شخص ما. لقد توقّف في تلك الليلة وكأنّ ثمّة مقبضًا من ذلك النوع مثبّتًا على ظهره وأنّ شخصًا ما جذبه، فقد دخلت امرأة شابّة الحجرة مثل طيف يبرز من وسط الظلال.

كان شعرها الرملي اللون يتألّق تحت نور المصباح الباهت ويلتفّ من تحت أذنيها على نحو دقيق. تنّورتها جلديّة وقصيرة جدًّا، وصديريّتها حريريّة بيضاء اللون، وفي قدميها حذاء بكعب طويل ذي طرف مدبّب. كانت كلُّ ذرّة من ذرّات وجهها الشبيه بالقلب تبعث برسالة مفادها أنّها ليست راضية أو مسرورة من وجودها في هذا المكان، وأنّها تفضّل أن تكون في مكان آخر بعيد جدًّا. راقبَها آدم وهي تتّخذ مقعدها بجانب أحد الصينيّين ـ وكان رجلاً أصلع الرأس، بدينًا، تصرّفاته توحي أنّه الزعيم، وربّما كان زعيمًا حقًّا ـ وتهمس في أذنه، فابتسم لها الرجل ابتسامة شاحبة وربت على فخذها في رفق، فشعر آدم بتمزّق في أحشائه.

سأل الرجل من دون أن يرفع رأسه أو ينظر إلى أيّ شخص محدّد:

Twitter: @ketab_n

ـ أنت ما زلت هنا إذًا. أتريد أن تلعب من جديد يا صديقي؟

عرف آدم، مثلما عرف كلّ الجالسين في الغرفة، أنّ السؤال موجّه إليه مباشرة. كان في وسعه أن يلاحظ الرجال يحدّقون إليه، لكن عيني المرأة هما اللتان نفذتا إلى أعماقه. عينان بلون الصفير الأزرق، لم يسبق له أن شاهد مثل تلك العينين الواسعتين، البرّاقتين والزرقاوين. لو قُيّض لزوجته أن تلتقي هذه المرأة لخشيت من عينها الشرّيرة، لأنّ بمبي كانت تؤمن بأنّ من يحدج شخصًا بمثل هاتين العينين، وإنْ برهةً وجيزة، فإنّ عليه أن يطلق ساقيه للريح ويعود إلى بيته ويحرق الملح فوق الموقد.

اتّقد وجه آدم والتهب، وأدرك في تلك اللحظة عينها أنّه يوشك أن يقترف أسوأ غلطة في القمار، إن لم يكن في الحياة، وهي أن يُستفَزّ، ولكنّه أدرك أيضًا أنّ هذا شيء والقبول بالاستفزاز شيء آخر. فهزّ رأسه وأجاب:

ـ نعم، سوف ألعب.

ونجح في تحقيق هدفه، وإن كان على نحو مختلف هذه المرّة، فالهمّة التي كانت تحيط به تغيّرت، وأصبح هو وقرص الروليت كيانين منفصلين وغير متطابقين الآن. ولكنّه على الرّغم من ذلك لم يتزحزح، وظلّ مسمَّرًا في كرسيّه يراقب الحسناء وهي تنظر إلى الكرة في دورانها.

عاد النور من جديد، فاعتقد أنّ هذه علامة تبشّر بالخير، واستمرّ في الرهان، فربح مرّات ومرّات، وكانت الرهانات كبيرة، وخطرة، وجنونيّة. وحاول الصينيّون أن يحتفظوا بهدوئهم وبرودة أعصابهم ولكن توتّرهم بدأ يظهر للعيان. وشاهد آدم الرجل

Twitter: @ketab_n

المغربي في وسط الحشد، مقطّبًا جبينَه في ألم وحزن وهزّ رأسه وقال:

ـ كفى أيّها الأخ.

لكن آدم لم يكفّ. كانت المرأة تحدّق إليه من طرف الطاولة الآخر، مكتنزة الشفتين كالكرز، جاذبيّتهما لا تقاوم. وراوده الإحساس باحتمال فرصة واحدة من بين ألف فرصة أن يأسر قلبها إذا ما استمرّ في الربح في لعبة الروليت، ولكنّه سمع بعد ثوانٍ معدودة شخصًا ما يناديها، وهكذا عرف اسمها: روكسانا.

رهان متّصل. وضع كلّ أقراص القمار على الرقم (١٤)، ودارت الكرة بعكس اتّجاه قرص الروليت، وكأنّهما تيّاران في حياته، الحياة والحرّيّة، يجذبانه في اتّجاهين متعاكسين. وندّت عن النظّارة تنهيدة جماعيّة. وهنا اهتزّت الكرة قبل أن تدخل أخيرًا أحد الشقوق. ودار قرص الروليت دورة أخرى كاملة، فأشرق وجه الفتاة في دهشة وإعجاب كما ظنّ آدم، ولم يكن مضطرًّا إلى إلقاء نظرة كي يعرف أنّه ربح.

عندئذٍ غمغم أحد الصينيّين في صوت خفيض وإن كان مسموعًا:

ـ أليست لك أسرة في انتظارك أيّها الصديق؟ لا بدّ أنّها قلقة البال عليك، فالوقت قد تأخّر.

وضع هذا التحذير المبطَّن وكلمة «أسرة» حاجبًا كثيفًا بينه وبين الروليت، بينه وبين الحجرة، بينه وبينها، فوضع أقراص القمار في علبة وحوّلها إلى نقد وخرج، ليوصله أحد معارفه إلى منتصف الطريق، وسار بقيّة المسافة على قدميه.

Twitter: @ketab_n

كانت أكوام النفايات منتشرة في شوارع إيست لندن، والقاذورات المتعفّنة مبعثرةً في كلّ مكان وعلى نحو عشوائي. لقد أُصيب العالم بالسعار. كلّ الناس في حالة إضراب: رجال الإطفاء وعمّال المناجم والخبّازون وعمّال المستشفيات وعمّال النظافة. لا أحد يريد أن يلعب اللعبة مرّة أخرى، لا أحد سوى المقامرين.

كانت الرابعةَ فجرًا لمّا وصل آدم المنزل في شارع لافندر غروف. دخّن سيكارة فوق الأريكة حتى تحوّلت إلى رماد بين إصبعيه، وكانت كومة النقود بجانبه دافئةً وفيّة. ستّة عشر ألفًا وأربعمائة باوند. وبما أنّ الكلّ كان ينام نومًا عميقًا، فإنّه لم يتمكّن من إخبار أفراد أسرته بانتصاره. لا بدّ من الانتظار، ظلّ مستلقيًا، مفتوح العينين في غرفة المعيشة المعتمة، يراوده إحساس بالوحدة عميق لا يقوى على قهره. في وسعه سماع أنفاس زوجته وولديه وابنته، وحتى السمكة الذهبيّة... كلّهم في هدوء غامض.

سبق له أن لاحظ هذا الشيء أثناء خدمته العسكريّة في تركيا، فإذا ما نام أكثر من ثلاثة أشخاص في مكان ضيّق، فإنّ أنفاسهم تغدو متزامنة عاجلاً أم آجلاً. لعلّ ذلك وسيلةُ الله لإخبارنا أنّنا إذا ما تركنا أنفسنا على سجيّتها، فإنّنا في نهاية المطاف سنكون في حالة انسجام وتنتهي الخلافات. الفكرة جديدة كما تراءت له، واستمتع بها برهة وجيزة من الزمان، لكنْ حتى إن كان ثمّة انسجام في مكان ما، فإنّه لا يستطيع أن يكون جزءًا منه. وخطر بباله، مثلما كان يخطر بباله في مناسبات أخرى، أنّه رجل كبقيّة الرجال، لا أفضل ولا أسوأ، ولكنّه كان يخذل الناس الذين يرعاهم. وفكّر مرّات لا تعدّ ولا تحصى إن كان أهله في حال أحسن من دونه.

Twitter: @ketab_n

لم يقدر على النوم، فغادر الشقّة فجرًا حاملاً النقود معه، وإنْ كان يعلم علم اليقين أنّ حملها هو الجنون بعينه، فحيّ هاكني يحتشد بالسفّاحين واللصوص الذين لا يمنعهم مانع من كسر ضلوعه لقاء مثل هذا المبلغ الكبير. وتحوّل سيره إلى خطوات واسعة ونشطة، وكان يجفل وتسري في جسده قشعريرة كلّما اقترب منه شخص غريب في الشارع.

وفي مصنع البسكويت المتّحد عومل معاملة الملوك، إذْ كانوا قد سمعوا بالخبر، ففي استراحة الغداء، دخل أخوه طارق لتهنئته و... ليطلب منه معروفًا.

قال طارق بصوت تحوّل إلى همس سرّي:

ـ أنت تعرف حالة زوجتي، فهي تضايقني منذ زمن بشأن المطبخ.

كانت لدى طارق فكرة عن المطابخ الإنكليزيّة، وهي أنّها مصمَّمةٌ صغيرةٌ وكئيبةٌ عمدًا حتى يلجأ الناس إلى شراء الوجبات السريعة من الخارج. وقد تواطأ المهندسون المعماريّون في هذه المؤامرة أسوةً بالسياسيّين والمجالس المحلّيّة والنقابات، حيث دفع لهم أصحاب المطاعم الرشا، واستمرّ في قدْحه وذمّه على هذا الأساس.

أومأ آدم برأسه على نحو ودّي وإن كان قد شعر أنّ أخاه الأكبر سوف يقترض منه أكبر قدْر ممكن من المال، وبعد أن ينفق كمِّيّة قليلة منه على مطبخه سوف يحتفظ بالباقي في حساب ادّخاره.

كان طارق كثير البخل، يكتنز المال على الدوام. ويصعب كثيرًا التصديق بأنّ هذا الرجل هو ذاك الرجل نفسه الذي كان أيّام

Twitter: @ketab_n

شبابه قد ساعد شقيقيه بسخاء وكرم، فعندما قضى والدهم نحبه، اشتغل طارق في جِدٍّ وأصبح قانعًا ومدبِّرًا في مصاريفه، يقصّ أنبوبة معجون الأسنان لكي يعتصر منها آخر قطرة، ويجمع القسائم من النشرات، ويطفئ سخّان الماء، ويستخدم أوراق الشاي مرّات ومرّات، ويشتري الحاجات المستعملة دومًا، مانعًا أسرته من شراء أيّ شيء من دون الاستفسار منه أوّل الأمر وإنْ كان يجيب على كلّ سؤال إجابة واحدة لا تتغيّر: لا ضرورة لذلك.

قال آدم وهو يأخذ نفسًا عميقًا:

ـ هل تفكّر يومًا ما في والدتنا؟

لو كان اليوم يومًا عاديًّا لمَا لجأ آدم إلى الكلام على هذا النحو، ولكن بعد أن طلب منه شقيقه أن يسدي إليه معروفًا، شعر أنّ له اليد الطولى، وأنّه جدير به أن يستمع إلى بعض الذكريات لقاء حسنة.

غير أنّ السؤال كان مفاجئًا، إلى الحدّ الذي جعل طارق يبدو ذاهلاً لا يعرف كيف يجيب، وتغضّن جبينه بين حاجبيه وامتدّ إلى جبينه كلّه، حيث توجد بضع بقع بيضاء اللون هي نتاج مرض جلدي يرجع إلى أيّام الطفولة. ولمّا تكلّم بدأ صوته قويًّا، خشنًا:

ـ ما الذي يدفعني إلى ذلك، كانت امرأة لا فائدة من ورائها.

وهنا رغب آدم في أن يسأله ألا يريد أن يعرف إن كانت في قيد الحياة، أو إن كانت قد رُزقت بأطفال آخرين، أو كيف حالها، أو إن كانت تشتاق إليهم... لكنّه أمسك عن الكلام، وبدلاً من ذلك قال بعد أن لفّهما صمت رهيب:

ـ سوف أتوقّف بالقرب من بيتك في هذه الليلة وأجلب لك

Twitter: @ketab_n

المال، وأخبرْ زوجتك أنّها سوف تحصل على أثاث مطبخها الذي تحلم به.

بعد أن أَزِفَت الشمس بالمغيب، خطر بباله أنّه لو قامر وربح من جديد فسيكون له ضعف المبلغ الذي يملكه الآن، وعندئذٍ يمكنه أن يقرض المال لطارق ولغيره من الناس ولن يضطرّ إلى استعادة ملّيم واحد منه. كان ثمّة دافع نبيل يدفعه وهو يتّجه إلى الطبقة تحت الأرضيّة من بيثنال غرين، ورأى المرأة ذات العينين الزرقاوين، رنا إليها وهي ترقب الكرة تدور من حول القرص مرّة أخرى، ولعب، وقامر مقامرة كبرى، فخسر، خسر كلّ شيء.

* * *

Twitter: @ketab_n

سجن شروزبيري، ١٩٩٠

لم أتلعثم في كلامي يومًا في حياتي كلّها إلى أن حان ذلك اليوم، الثلاثاء الرابع عشر من تشرين الثاني ١٩٧٨، وهو اليوم الذي قرّرت أن أحصل فيه على سكن:

كنّا في مطعم المدرسة، أنا وزملائي. صوانٍ زرقاء بلاستيكيّة وفطيرة الراعي وكعكة محشوّة بالمربّى، أقداح ماء معدنيّة وجلبة معتادة. أخذتُ ألقي النكات تارة وأتلعثم في النطق بالكلمات تارة أخرى. حدث كلّ شيء على حين بغتة وعلى نحو سريع، ممّا جعل الآخرين يظنّون أنّني أحاول الضحك عليهم وخداعهم.

كنّا نتحدث عن لعبة اليوم القادم، فقد كان فريق تشيلسي يستعدّ لمنازلة فريق داينمو الروسي. وقال أرشد، وهو باكستاني قصير القامة ممتلئ الجسم يحلم باللعب مدافعًا عن فريق نوتنغهام فوريست، إنّه على استعداد للرهان على سيّارته الجديدة بأنّ أولادنا أصحاب البذلات الزرق سوف يفوزون، وقال إنّ اللعبة ستكون

Twitter: @ketab_n

أشبه بنزهة، ولكنّنا كنّا كلّنا نعرف أنّ ذلك هراء.

امتعض أرشد لأنّ كلامه لم يؤخذ على محمل الجدّ، فالتفت إليّ وغمز وابتسم، كعهده دومًا عندما كان يريد شيئًا ما:

ـ هل ستعطيني طبق الحلوى؟

فهززت رأسي نافيًا.

ـ لا... لا... انسَ... الأ... مر!

توقّف وحملق فيَّ واتّبعه الآخرون كأنّهم يروونني أوّل مرّة في حياتهم، ثم ذكروا أنّ أحدهم في صفّ آخر كان يتلعثم تلعثمًا شديدًا فلا يكلّمه أحد، وانفجروا ضاحكين معتقدين أنّني كنت أسخر منه، فضحكت بدوري، ولكنّني شعرت بموجة من الرعب والهلع تسري في أعماقي. دفعت صينيّتي في متّجه أرشد وأشرت إليه برأسي بما معناه أنّ في وسعه أن يأكل ما تبقّى من الطعام، إذْ إنّني فقدت شهيّتي في تناول الطعام.

ولمّا انتهت مدّة الاستراحة، عدت إلى حجرة الدرس مهمومًا، منكسرَ الخاطر لأنّني لا أعرف كيف أُصبت بهذا العَوَق في الكلام وعلى هذا النحو، فانت لا تجد في أسرتي من يتلعثم، وفكّرت في أنّ هذه العاهة لا بدّ أن تكون وراثيّة، أو ليست وراثيّة، فقد تكون صوتًا قصيرًا حادًّا، حالة نفسيّة موقّتة، حالة منحرفة عن شيء سويّ، مثل رحلة مزعجة، ولعلّها سوف تزول بالسرعة التي جاءت بها. كان عليَّ أن أكتشف ذلك، وهكذا وضعت ساعة رسغي في جيبي واقتربت من فتاتين لأسألهما عن الوقت، لكنّ الشيء الوحيد الذي صدر عن فمي هو صوت مخنوق.

فضحكت الفتاتان. لا بدّ أنّهما ظنّتا أنّني مغرم بهما،

Twitter: @ketab_n

فاستدرت على عقبي، محتقِنَ الوجه، واستطعت أن ألمح من طرف عيني صديقتي تراقب كلّ حركة من حركاتي، ولمّا بدأ درس التاريخ، رمتني كاتي بقصاصة تقول:

ماغي، كريستين، هيلاري. إن كان ولدًا، توم.

دعكْتُ الورقة بيدي ودسستها في جيبي، فما كان منها إلّا أن أرسلت كرة أخرى: ماذا جرى لك؟

هززت كتفيَّ، بمعنى: لا شيء مهمّ، ولكن حتى لو تلقّت كاتي الرسالة، فإنّها لا تبدو مقتنعة. لهذا السبب أجبتها:

سأخبرك لاحقًا!

بقيتُ طوال الدرس قلقًا خشيةَ أن يُطرح عليّ سؤالٌ ما فأصبح موضع سخرية واستهزاء إلى ما لا نهاية. لحسن الحظّ ليس ثمّة أسئلة، وما أن انتهى العذاب حتى جذبت حقيبة ظهري وأسرعت في اتّجاه الباب وقد وطّنت نفسي على عدم حضور بقيّة الدروس والرجوع إلى البيت مبكرًا.

* * *

عندما وصلتُ البيت كانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف. قرعت الجرس وانتظرت كي يفتح أحدهم الباب، ونظرت إلى الاسم المثبّت بجانب جرس الباب: آدم طبرق.

كانت شقيقتي أسماء قد كتبت الاسم بخطّ يدها الجميل والمنمّق وخلافًا لإرادتها، إذْ تذمّرت قائلة: «نحن نعيش في هذا المكان أيضًا، فلماذا نكتب اسم أبينا وحده؟».

كانت أسماء فتاة رقيقة ولكنّها كانت على الدوام تعبّر عن

Twitter: @ketab_n

نفسها بأفكار هائلة: فرص متساوية، عدالة اجتماعيّة، حقوق المرأة... وظنّ أصدقائي أنّها مخبولة أو شيوعيّة، ولو كانت الأمور بيدها لكتبت بدلاً من ذلك: أسرة طبرق.

أو ربّما كتبت:

آدم وبمبي وإسكندر وأسماء ويونس والسمكة الذهبيّة.

إلّا أنّني لم أُعِر الأمر أيّة أهمّيّة في الحالتين، فأنا شخصيًّا كنت أفضل ترك الباب من دون اسم، فذلك أسلوب أكثر رقيًّا ومباشِر. إنّه أسلوبي كي أقول إنّ ما من أحد يعيش هنا، فنحن لا نقطن في تلك الشقّة، بل نقيم مدّة قصيرة من الزمان، فالبيت عندنا لا يختلف في شيء عن فندق بنجمة واحدة، حيث تغسل الوالدة شراشف الأسرة بدلاً من الخادمات، وحيث يكون طعام الإفطار متشابهًا في صباح كلّ يوم: جبنة بيضاء وزيتون أسود وشاي في أقداح صغيرة ـ بلا حليب دائمًا.

على قدر ما أعرف، ربّما سيلعب أرشد يومًا ما في دوريّ النخبة الأوّل. في وسعه أن يملأ جيوبه بصور الملكة ويملأ سيّارته بطيور ضخمة، لكنّ أمثالنا من الناس سيكونون غرباء دائمًا، فآل طبرق عابرو سبيل في هذه المدينة ـ أسرة أصولها كرديّة وتركيّة في الوقت ذاته، في منطقة غير ملائمة في لندن.

قرعتُ الجرس من جديد، ولكن ما من جواب. عجبًا! أين أمّي؟ لا يمكن أن تكون في محلّ حلاقة «المقصّ البلّوري» لأنّها تركت العمل منذ أيّام. كنت ربَّ الأسرة منذ رحيل أبي، ولم تكن بي رغبة في أن تستمرّ في العمل أكثر من ذلك. بكت طويلاً ولكنّها لم تعترض، لأنّها كانت تعرف أنّ لديّ أسبابي الخاصّة، فالناس

Twitter: @ketab_n

يُكثرون من القيل والقال. لا دخان بلا نار. لهذا طلبت منها أن تلزم البيت لأنّني مضطرّ إلى إخماد اللهب.

لم ينتبه أحد في المدرسة إلى ما يجري من أحداث، وكنت شخصيًّا أريد أن تبقى الأمور على ذلك الحال. فالمدرسة مدرسة، أمّا البيت فبيت. ولم تكن كاتي تعرف شيئًا بدورها، فصديقتك هي صديقتك، وأسرتك هي أسرتك. ثمّة أشياء لا بدّ من تركها منفصلة بعضها عن بعض، مثل الماء والزيت.

وخطر في بالي أنّ أمّي ربّما ذهبت للتسوّق أو لأمر ما. إنّني مضطرّ إلى أن أكلّمها في ذلك الشأن أيضًا. أخرجت مفتاحي ووضعته في ثقب المفتاح وحرّكته إلى أمام وإلى الخلف، ولكن من دون جدوى. كان الباب مغلقًا برتاج. وسرعان ما انساب إلى مسمعي صوت وقع خطوات على امتداد الممرّ.

وقالت أمّي:

ـ من أنت؟

ـ أنا... أ... نا، يا أمّ... ي.

ـ أهذا أنت يا إسكندر؟

كان صوتها مشوبًا بالذعر، وكأنّ أمرًا جللاً يوشك أن يحدث. وسمعت همسة، خفيضة وسريعة، وأدركت من فوري أنّ الصوت ليس صوت أمّي، فبدأ قلبي يخفق خفقانًا سريعًا وشعرت أنّني أختنق ولم أتمكّن من التقدّم إلى أمام أو التراجع إلى الخلف، فلبثت أحاول فتح الباب بالمفتاح دقيقة أخرى، ربّما أكثر، ثم فُتح الباب.

Twitter: @ketab_n

كانت واقفة عند المدخل مبتسمة الثغر، حادّة العينين، على غير عادتها. ولاحظت خصلة من شعرها متدلّية من تصفيفة شعرها المشابهة لذيل الحصان، وأحدَ أزرار كنزتها الصوفيّة في ثقب مغاير.

وقالت:

ـ لقد عدتَ يا ولدي إسكندر.

فكّرت أنّ الشيء الذي أثار دهشتها هو إمّا عودتي إلى البيت قبل ثلاث ساعات من الوقت المعتاد أو أنّني ولدها.

وسألَتْ أمّي:

ـ هل أنت بخير؟ لا تبدو على ما يرام يا سلطاني!

أردت أن أقول لها: لا تناديني بهذا اللقب. لا تناديني بأيّ اسم، ولكنّني بدلاً من ذلك خلعت حذائي واندفعت إلى أمام موشكًا أن أطرحها أرضًا، وسرت مباشرة إلى حجرتي، وأغلقت الباب في عنف، ووضعت كرسيًّا أمامه كي أحول دون دخول أيّ شخص. ثم استلقيت فوق فراشي وجذبت الملاءات من فوق رأسي وركّزت في أنفاسي، وهو الأسلوب الذي تعلّمته في دروس الملاكمة: شهيق.. زفير.. شهيق.

ثمّة أصوات تتناهى إلى السمع من الخارج، أصوات مبهمة. ألواح الأرضيّة الخشبيّة تصدر صريرًا والريح تهبّ ومطر خفيف يسقط على المدينة. وفي غمار ذلك الخليط من الأصوات، كان في إمكاني أن أسمع صوت باب بيتنا الأمامي يُفتح، وصوت شخص ما يخرج منه هادئًا كالفأر.

كانت معتادة أنْ تحبّني أكثر من أيّ شيء آخر، فأنا ولدها

Twitter: @ketab_n

البكر، ابنها المبكر «ونور عيني». أمّا الآن، فقد بات كلّ شيء مختلفًا، محطّمًا، وانحدرت دمعة فوق خدّي فصفعت وجهي بقوّة أكبر.

أَصَخْتُ السمعَ لصوت وقع أقدامها على الممرّ، خافتة وثابتة، مثل ضربات القلب. وتوقّفَتْ قرب باب حجرتي من دون أن تتجرّأ على قرعه. كنت أحسّ بحركاتها، وأكاد أن ألمس خطيئتها وأن أشمّ عارها. ولبثنا ننتظر على ذلك النحو انتظارًا لا يعلم مداه إلّا الله، يصغي أحدنا لأنفاس الآخر، متسائلاً عمّا يدور في فكر الآخر. ثم انصرفَتْ كأنّها لا تملك ما تقول، كأنّها ليست مدينةً بتفسير، كأنّ رأيي لا قيمة له بعد الآن، أو حتى غضبي أو ألمي وعذابي. لقد نجت منّي.

كان ذلك عندما علمْتُ أنّ ما أخبرني به طارق عن أمّي كان صحيحًا، عندها فكّرت في أن أبتاع سكّينًا، سكّينًا تُطوى بمقبض خشبي وحافّة مقوّسة. تصرّفٌ مخالف للقانون بطبيعة الحال، فما من أحد يريد أن يتورّط مع الشرطي العجوز[1] بشراء مطواة تنفتح

(١) الشرطي العجوز Old Bill: أصل التعبير جندي عجوز بشارب كثّ وأمل خائب في أيّام الحرب العالميّة الأولى، صوّره الكابتن بروس برينزفاذر (١٨٨٧ ـ ١٩٥٩)، الرسّام والصحافي البريطاني، في منشوراته مختبئًا في جحر من جحور القنابل موحل ومغمور بالمياه، أثناء القصف المعادي، ويخاطب زميله بيرت قائلاً: إن كنت تعرف مكانًا أفضل فاذهب إليه. وأصبح التعبير كناية عن شخص عجوز يتذمّر ويتعذّب طويلاً. وإن كان ثمّة رأي آخر يفيد أنّ التعبير يقصد به رجل الشرطة، أو شرطة العاصمة البريطانيّة تحديدًا. والصلة بين التعبير والمدلول غير واضحة المعالم وإن كان معروفًا أنّ أعدادًا كبيرة من جنود الحرب العالميّة الأولى التحقوا بشرطة العاصمة البريطانيّة (الميتروبوليتان) بعد أن وضعت تلك الحرب أوزارها، فضلاً على أنّ ملصقات جداريّة انتشرت يومئذٍ توضح أنّ الجنود جُنّدوا

Twitter: @ketab_n

بالضغط على مقبضها، وخاصّة إذا كان الشخص مثلي. ولكنّني كنت أعرف من أين أشتري مطواة. كنت أعرف الرجل.

لن أؤذي أحدًا، بل كنت أبغي إثارة هلعها... أو هلعه.

إسكندر طبرق

= للشرطة بعد عرض ملصقات تصوّر الجندي العجوز الذي رسمه برينزفاذر مرتديًا بزّة رجال الشرطة (المترجم).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نـزهـة تحـت الشمـس

إسطنبـول ١٩٥٤

أنفق آدم سنوات طفولته ممزَّقًا بين أب صاح وأب سكّير. عاش هذان الأبوان في جسد واحد ولكنّهما كانا مختلفين أحدهما عن الآخر اختلافَ الليل عن النهار، فقد كان التناقض بينهما من الحدّة ما جعل آدم يرتاب في أنّ المشروب الذي يعبّ منه والده كلّ مساء إنّما هو نوع من أنواع الشراب السحري، فهذا المشروب لم يحوّل الضفادع إلى أمراء ولا التنّين إلى ساحر، ولكنّه حوّل الرجل الذي كان يهواه إلى غريب.

كان بابا الصاحي منحني الكتفين ثرثارًا، يحبّ أن ينفق وقته رفقةَ أولاده الثلاثة: طارق وخليل وآدم. وكان معتادًا أن يصطحب أحدهم حيثما ذهب، حبًّا واعتزازًا. وكان الغلام المحظوظ يرافق والده لرؤية أصدقائه أو التنزّه على امتداد شارع الاستقلال، وأحيانًا إلى موقع عمله، وهو مرأب على مقربة من ساحة «تقسيم» حيث يشتغل رئيسَ عمّال. وكانت السيّارات الفخمة ذات الأسماء

Twitter: @ketab_n

المعقّدة تدخل المرأب إمّا للتصليح أو لتبديل أدوات احتياطيّة: «شيڤروليه بيل إير» أو «بويك رودماستر» أو «كاديلاك فليت وود» أو «مرسيدس بنز» الحديثة. ولم يكن في مقدور أيّ شخص شراء مثل هذه السيّارات، إذْ كان مالكوها في معظم الأحيان من السياسيّين أو رجال الأعمال أو أصحاب الكازينوهات أو لاعبي كرة القدم، وكانت جدران المرأب مزيّنة بصور مؤطَّرة للعمّال وقد وقفوا بجانب زبائنهم من ذوي النفوذ.

كان آدم يرافق بابا إلى مقهى الحيّ حيث ينفقان وقت النهار يرشفان من شراب السحلب أو الزيزفون أو الشاي ويراقبان الرجال من مختلف الأعمار وهم يلعبون لعبة النرد أو الداما. وكانت السياسة موضوعًا ساخنًا، هي وكرة القدم وغيرهما من الموضوعات في صحف الإثارة. وباقتراب موعد الانتخابات العامّة، تسود المكان جدالات ونقاشات حامية، حتى إنّ رئيس الوزراء ـ وهو أوّل زعيم يُنتخب انتخابًا ديموقراطيًّا في تاريخ البلاد ـ زعم أنّ حزبه الديموقراطي سوف يفوز فوزًا ساحقًا في الانتخابات، ولكن لم يستطع أحد أن يخمّن أنّه سوف ينتخب من جديد لولاية ثانية وأنّه سيشنق على أيدي طغمة عسكريّة.

في أوقات ما بعد الظهيرة الباعثة على فتور الهمّة، كان آدم يقلّد بابا (بابا الصاحي) ويتلمّظ بطعم مكّعب من السكّر ممسكًا بقدح الشاي بأصابعه الصغيرة، رافعًا إيّاه إلى أعلى. ثمّة دخان كثيف من حولهما، حتى إنّ شعره كانت تفوح منه رائحة الدخان عند عودتهما إلى البيت وكأنّه منفضة سكائر، وكانت أمّه عائشة المقطِّبة جبينها قليلاً تهرع به إلى الحمّام، ولكنّه كان يتمنّى ألّا

Twitter: @ketab_n

تفعل ذلك، لأنّ رائحة الدخان في شعره تجعله يشعر بالرجولة. ولمّا اعترف بهذا إلى أبيه ذات مرّة، ضحك بابا وقال:

ـ ثمّة شيئان في هذا العالم يُخرجان الرجل من مرحلة الصبا، وهما حبّه لامرأة وكرهه لرجل ثانٍ.

وأوضح بابا (الصاحي) أنّ أولئك الذين لا يعرفون إلّا الشيء الأوّل يصبحون رجالاً ضعافًا، أمّا الذين لا يعرفون إلّا الأمر الثاني فيزدادون صلابة كالصخر، ولكنّ الذين يجرّبون كلا الأمرين يصبحون مثل سيف من الفولاذ. وكما يعرف الحِرَفِيّون الماهرون جيّدًا، فإنّ أفضل طريقة لزيادة صلابة المعدن تتمثّل في طرقه في النار وتبريده في الماء.

ـ وهكذا الأمر بخصوص الرجل. عليكَ أوّلاً أن تدفعه إلى أن يحبّ حبًّا عنيفًا ثم تركه يبرد ليكره.

هكذا خلص بابا إلى القول بعد أن توقّف، كي يفهم ابنه الدرس، لكن آدم انتابه قلق لأنّه لم تكن لديه يومًا ما مثل هذه العواطف الجيّاشة، ولكنّه احتفظ بهذا القلق في نفسه.

في ذلك العام، جاءت آدمَ أوّلُ نوبة من نوبات الربو الذي قُدّر له أن يختفي في سنوات مراهقته من دون أن يغادر جسده وظلّ يطارده طوال حياته.

كان بابا (الصاحي) يأتي إلى البيت حاملاً بين وقت وآخر فضلات من الجُزُر، كقطع من اللحم والعظام والأحشاء، وفي مثل هذه الحالات، يستعير سيّارة مديره، وهي شاحنة صغيرة، ويصطحب أسرته إلى نزهة لتناول اللحم المشوي. وكان آدم وشقيقاه يجلسون في الجزء الخلفي من الشاحنة ويتفاخرون بعدد

Twitter: @ketab_n

النقانق أو الكوارع التي يأكلونها في جلسة واحدة. أمّا بابا، فكان يجلس في المقعد الأمامي وإلى جانبه زوجته ويطلق النكات، وإن كان رائق المزاج تراه يفتح النافذة ويغنّي، وكانت الأغاني حزينة تجعل الدمع يترقرق في العيون، ولكنّه كان يغنّيها غناء يسحر السامع. كانت الشاحنة محمّلة بالقدور والمقالي والأقمشة الكتّانيّة، أمّا قلوبهم فمرحة وسعيدة وهم في طريقهم إلى التلال المطلّة على البوسفور، وإن كانوا قد انزعجوا لأنّ ثمّة مقبرة في الجوار. على أيّة حال، لم تكن في يدهم حيلة، فقد كان الأموات في إسطنبول يرقدون منذ زمن غابر في أكثر المناطق خضرة والتي تطلّ على أجمل مناظر المدينة.

ولدى وصولهم إلى تلك البقعة، كان الأولاد يبدأون بالبحث عن مكان ظليل مناسب. وكانت أمّهم تدعو قبل الجلوس لأرواح الموتى وتستأذنهم لقضاء بعض الوقت على الأرض. ولحسن الحظّ، كان الموتى يجيبون بالإيجاب على الدوام. وبعد بضع ثوان من الانتظار، تومئ عائشة برأسها وتفرش الحُصُر كي يجلس عليها الحاضرون، وتعمد على أثر ذلك إلى إشعال الموقد وتهيّئ كلّ شيء لإعداد الطعام. وفي هذه الأثناء كان الأولاد يلعبون بمرح ويدمّرون مستعمرات النمل ويطاردون الصراصير ويؤدّون دور الموتى المبعوثين إلى الحياة، وفي اللحظات التي تنتشر فيها رائحة لحم البقر المشوي، يصفّق بابا بيديه موضحًا أنّ الوقت حان لفتح زجاجة شراب العرق المُسْكِر.

كان أحيانًا يبدأ في بطء، ولكنّه يزداد في سرعته رويدًا رويدًا، وفي أحيان أخرى يبدأ في عجالة من أمره، فيحتسي ثلاثة كؤوس

Twitter: @ketab_n

من الشراب في مدّة من الزمان لا يشرب أثناءها في الأوقات الاعتياديّة أكثر من كأس واحدة. ولكنّه كان يصيح بشكل أو بآخر مسطولاً من شدّة السكر بعيد الغداء مباشرة.

وما أن يفرغ بابا من احتساء زجاجته الأولى حتى يُظهر ما يشير إلى الهذيان، فيبدأ بالعبوس غالبًا ويشتم نفسه ويعنّف الأولاد بين حين وآخر على أشياء تافهة لا يتذكّرها أحد بعد مرور بعض الوقت، ويثير أعصابَه أيُّ شيء: فهذا الطعام مالح، وهذا الخبز بائت لا طعم له، والثلج ليس باردًا كفاية... ثم تراه يفتح زجاجة ثانية من المشروب لتهدئة أعصابه.

وعندما شارفت إحدى النزهات على نهايتها، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب، والنوارس تزعق وتصيح، بدا الزمن وكأنّه قد توقّف، وانتشر في الجوّ عبق نباتات اليانسون، فأضاف بابا مقدارًا قليلاً من الماء إلى مشروبه وراقب السائل الشفّاف يتحوّل إلى لون حليبي، ضبابي مثل أفكاره. وبعد برهة وجيزة، نهض على قدميه مرتبكًا، صارم النظرات، رافعًا ذقنه إلى أعلى وأشار بيده علامة على نخب المقبرة وقال:

ـ أنتم محظوظون أيّها الناس، فأنتم لا تدفعون أيّ إيجار، ولا تشترون الوقود للسيّارة، ولا تملكون أفواهًا لإطعامها، ولا زوجة تنغّص عليكم حياتكم، ولا رئيسًا يقرأ عليكم قانون المظاهرات. أنتم لا تعرفون أنّكم محظوظون جدًّا.

أصغت القبور إليه، وهبّت ريح خفيفة بعثرت الأوراق اليابسة إلى الأمام وإلى الخلف.

وأعلن بابا:

Twitter: @ketab_n

ـ خلقنا من تراب، وإلى التراب مرجعنا.

وفي طريق العودة إلى البيت، أصرَّ على أن يجلس الأولاد في المقدّمة معهما. وعلى الرّغم من حذرهم الشديد، وكبتهم أنفاسهم، وانتباههم إلى كلّ كلمة يتفوّهون بها، كانت أشياء دائمة الحدوث تدفع والدهم إلى الهيجان: الحفر المنتشرة على الطريق، وعدم وجود علامة دالّة من علامات الطرق، كلب سائب يهرول من أمام الشاحنة، والأخبار التي يذيعها المذياع... يبدو أنّ هذا الرجل الجديد خروتشوف لا يعرف ما الذي يفعله، ولا بدّ أنّ الفودكا شوّشت عقله. الفودكا، المشروب المنحطّ الذي لا يساوي شيئًا أمام العرق. وكان ناصر يتوقّع من العرب أكثر ممّا ينبغي، العرب الذين يتكلّمون اللغة نفسها ولكن لا أحد منهم يستمع إلى الآخر. ثم ما السبب الذي دفع شاه إيران إلى أن يطلّق زوجته الثانية التي لم تستطع أن تنجب له وريثًا للعرش؟

ـ يا لها من فوضى! يا له من عالم حقير!

سبَّ بابا (السكّير) وشتم البلديّة ومديرها والسياسيّين، وصبَّ جامَّ غضبه لبضع دقائق سعيدة على العالم الخارجي، متجنّبًا بذلك أسرته.

وكان المألوف بيننا أن يلجأ أحد الركّاب في الشاحنة إلى قول أو فعل ما يثير حفيظته وانزعاجه، فكان أحد الأولاد يتلوّى، أو يتجشّأ، أو يشهق، أو يُخرج ريحًا أو يقهقه ضاحكًا.

وفي هذا اليوم توسّلت إليه عائشة أن يقود السيّارة في بطء أشدّ. فما كان منه إلّا أن استفسر منها بنبرة هادئة لم تناسب حدّة السؤال:

Twitter: @ketab_n

ـ عجبًا! ماذا حلّ بكِ؟ ألا يمكنني أن أحظى بلحظة سلام واحدة. هه! أتريدنني أن أنفجر؟ أهذا ما تبغين؟

لم يجب أحد. وحدّق الأولاد إلى ركبهم الوسخة أو إلى ذبابة دخلت السيّارة من النافذة ولم يعد في وسعها الخروج الآن.

فرفع بابا صوته:

ـ إنّني أبذل قصارى جهدي في العمل كلَّ يوم، كالحمار، كي تتمكّنوا جميعكم من تناول الطعام. هل أنا حمار هذه الأسرة؟

فقال أحدهم: أستغفر الله. فكان قوله محاولة عقيمة لإرضائه في ضوء ما سيحدث لاحقًا.

ثم رفع يديه عن مقود الشاحنة ليريهم رسغيه النحيلين الشاحبين:

ـ أنتم مصّاصو دماء. كلّكم تمتصّون دمي. هل في جسدي بقيّة من دم كي أسقيكم إيّاه؟ هل أبقيتم شيئًا لي؟

وهمست زوجته:

ـ أرجوك، أمسك بمقود الشاحنة.

ـ اخرسي! لن أتعلّم منك كيف أقود الشاحنة.

لم يستطع آدم سوى الإحساس بالشفقة على بابا، الذي كان على ما يبدو ضحيّة، ومعذّبًا، وكان الإثم ينهشه نهشًا. لقد فعلوها من جديد، لقد أزعجوه على الرّغم من أنّه حذّرهم مرّات ومرّات. أمّا كيف أراد آدم أن يصالح أبيه، فإنّه فكّر في أن يقبّل يده ويعده ألّا يمتصّ دمه مرّة أخرى.

ـ هل أخبركِ كيف تطبخين العدس؟ لا، على وجه التوكيد،

Twitter: @ketab_n

لأنّ تلك ليست وظيفتي، مثلما أنّ قيادة السيّارة ليست مهنتَكِ، أيّتها المرأة. ماذا تعرفين عن السيّارات؟

وفي وقت آخر، ضغط على المكابح في قوّة دفعت الشاحنة إلى أن تدور من حولها كأنّها فوق جليد، وانزلقت نحو منبت زهور متفادية السقوط في ترعة ماء على بعد بضع ياردات. فتح آدم عينيه ليجد سكونًا لم يعرفه من قبل... يا له من سكون تامّ خيّم على المكان على أثر الحادث. ولاحظ أوّلَ مرّة همس الريح وشعاع الضوء في الهواء. كان شقيقه طارق يرفع ذراعه إلى أعلى وقد لاح الألم على وجهه وتلوّت شفتاه، وكانتا توشكان أن تُصدِرا آهة ولكنّها لم تخرج من فمه قطّ. وفتح بابا باب السيّارة في بطء وخرج منها شفته العليا تنزف دمًا. دار من حول السيّارة وفتح باب زوجته.

ـ اخرجي!

قالت عائشة ووجهها شاحب كشحوب الموتى:

ـ آه، أرجوك.

ـ قلت لك اخرجي!

أمسك بابا بذراعها وجذبها في متّجه مقدّمة الشاحنة التي انفتح بابها إلى أعلى عندما توقفت. وقال:

ـ ما دمت تعرفين الشيء الكثير عن السيّارات، عليك إصلاح هذه.

لم تتحرّك أيّ عضلة من عضلات وجهها، فما كان من بابا إلّا أن دفع رأسها إلى حيث المحرّك، ولم يتوقّف إلّا عندما ارتطم رأسها به ارتطامًا قويًّا محدثًا صوتًا عاليًا.

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا؟ ألا يمكنك إصلاحها؟

غمغمت، ولكنّ الكلمات اختنقت في حلْقها فلم يستطع آدم أو أخواه فَهْمَ ما كانت تقوله، ولكنّهم سمعوا كلّهم بابا وهو يعلن:

ـ إذًا اخرسي ولا تحاولي تعليمي القيادة.

اشترك الكلّ في دفع الشاحنة لإخراجها من منبت الزهور: الولدان وبابا، وراقب طارق المشهد من دون أن ينبس بكلمة، متشبّثًا بذراعه المكسورة، أمّا والدتهم، فقد كانت تنتظر عند الحافّة باكية. الشيء نفسه يحدث في كلّ مرّة، فكلّ نزهة تبدأ بآمال كبيرة لكنّها تنتهي ببكاء أحدهم أو انكسار خاطره.

وكان آدم يذكّر نفسه ليلاً أنّ بابا الآخر هو الذي كان يرغي ويزبد، مثلما أنّه هو الذي انحرف بعجلة القيادة وضرب الجدران والطاولات والأبواب وخزانة الآنيّة الخزفيّة، وإذا لم يفد كلّ ذلك، فإنّه يضربهم بحزامه، وفي إحدى المرّات رفس زوجته بين فخذيها فتدحرجت من فوق السلالم وهوت إلى الأرض، وكان ذلك يذكّرهم أجمعين بأنّه ليس الرجل نفسه. ولم يخفّف هذا من غلواء الألم أو الخوف، بل سهّل عليهم الرجوع في صباح اليوم التالي إلى بابا الحنون (الصاحي).

* * *

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ذرّة من الحقيقة

لندن، كانون الأوّل ١٩٧٧

ثمّة حجرة للفنّانين من وراء الكواليس، ولكن لم يكن كلّ واحد ليطلق عليها اسم «حجرة الفنّانين» سوى روكسانا، فهي وحدها التي كان يروقها التفكير بتلك الغرفة الباردة الضيّقة المستخدَمة لتبديل الثياب والتي تفوح منها روائح السكائر ومسحوق الطلق المعطّر والعطور والعرق، على أنّها غرفة مخصّصة لاستراحة الفنّانين قبل صعودهم على خشبة المسرح. ولم يعن ذلك أنّها كانت تفكّر في نفسها بوصفها فنّانة، لأنّها لم تكن فنّانة أصلاً، وإذا ما اقتضت الحال، فإنّها تستخدم كلمات أخرى لوصف وظيفتها: ممثّلة، راقصة باليه، ساحرة، أو راقصة دخيلة.

الوقت قرابة منتصف الليل الآن، وفي أقلّ من خمس عشرة دقيقة سوف يحين دورها للظهور على خشبة المسرح. وبينما كانت تلقي نظرة فاحصة على ثيابها، رشّت قدرًا من البهارج الفضّيّة اللون

Twitter: @ketab_n

على صدرها، وارتدت ثياب راقصة من راقصات السامبا للفصل الأوّل وزيّنت رأسها بعمامة ذات ريش أرجواني برّاق وصدريّة مزركشة بماس زائف ونثار معدني، وارتدت بنطالاً فضّيًّا لامعًا ومن تحته سروال صغير لا يكاد يستر شيئًا منها، يفترض بها أن تكشف عنه عند نهاية العرض. وفتحت بيسر وسهولة علبة مساحيق التجميل ورتّبت أدواتها وفرشها المختلفة الأحجام. كانت علبة قديمة ومستهلكة سبق أن استعملتها أعداد لا حصر لها من النساء. وتحوّلت إسفنجة إلى ما يشبه قطعة فطر غير صحّيّة، بينما كست فرشاة المسكارا طبقة سميكة وقاسية، في حين فقدت بعض الألوان خصائصها اللونيّة من فوق لوحة الألوان التي باتت فراغاتها تحدّق إليها مثل عيون غائرة في محاجرها. وعلى سبيل المثال، لم يعد ثمّة لون لازوردي أو بلاتيني ولا حتى شامبانياوي، وهي الألوان المفضّلة عند روكسانا، ولهذا لجأت إلى اللون البنفسجي مرّة أخرى.

ولمّا فرغت من وجهها، وضعت أحمر شفاه بلون الدرّاق، وأخيرًا رفعت نهديها إلى أعلى ورتّبت من شأنهما كي يبدوا أكبر حجمًا وأكثر اكتنازًا من داخل الصدريّة المخرّمة. في إنكلترا لا يسمّون النهود نهودًا، بل يطلقون عليها أسماء مضحكة بالعامّيّة الإنكليزيّة.

وفي مرّة من المرّات، رقصت خصّيصًا أمام عجوز كان عضوًا محافظًا من أعضاء البرلمان البريطاني، وبدا وكأنّه تاجر من تجّار

Twitter: @ketab_n

الفرو، وقيل وقتئذٍ إنّه قال لها: هزي مفاتنك من أجلي يا حبيبتي، غير أنّها لم تفهم إلّا بعد بضع ثوان أيَّ الأجزاء من جسدها كان يريد منها أن تهزّها له.

تحسّنت لغتها الإنكليزيّة تحسّنًا مدهشًا بمرور السنين، على الرّغم من أنّ لكنتها كانت لا تزال قويّة، وكانت أحيانًا تشدّد لفظ صوت حرف «الراء» عمدًا، وتمدّ صوت الحرف «يو»، وتستخدم صوت حرف «في» بدلاً من «دبليو». ولمّا لم تكن قادرة على التخلّص من نبرتها، فقد تعمّدت جَعْلَها نبرة أقوى وأشدّ، على النحو الذي يتوقّعها كلّ فرد في إنكلترا من أحد أبناء روسيا أثناء الكلام بالإنكليزيّة، ولهذا أخبرت روكسانا كلّ شخص التقت به أوّل مرّة أنّها من روسيا.

الحقّ أنّها كانت من بلغاريا، ولكنّ الأهالي في إنكلترا، وحتى في العاصمة لندن، حيث يسمع المرء عديد اللغات واللهجات في الشوارع، لم يعرفوا الشيء الكثير عن بلدها، فقد كانت البلقان أحجية من الأحاجي تتألّف من مختلف الأجناس، كلّ جنس لا يعرفه الجنس الآخر ويجده متوتّرًا. ولو قالت روكسانا إنّها من بلغاريا لعمد الناس إلى الإيماء برؤوسهم مكتفين، من دون أن يطرحوا أيّة أسئلة أخرى، ولكن كلّما أشارت إلى أنّها ولدت في روسيا وترعرعت فيها، تجدهم يواجهونها بوابل من الأسئلة، فإذا كان المرء ينتمي إلى بلاد الثلوج والفودكا والكافيار، ويا للغرابة إلى بلاد جواسيس المخابرات الروسيّة «كي. جي. بي.»، فهو أمر

Twitter: @ketab_n

مثير ورومانسي إلى حدٍّ ما.

وكان الناس يحذّرون قائلين على الدوام: «الفتيات اللواتي ينظرن إلى أعلى ينتهي المطاف بهنّ دومًا إلى السقوط إلى ما هو أدنى». ولكن حتى لو كان ذلك صحيحًا، وحتى لو تعثّرت في نهاية المطاف، وحتى لو قُدِّر لحلمها أن يكون أقصر من أنفاس فراشة، فإنّها سوف تعتمد على شيء ما لبذل المحاولة. صحيح، كانت روكسانا نسيج ذاتها، وعثرت لنفسها على اسم روكسانا (أو روكساني أو روكسي، وهو ما يردّده الرجال) وعلى جنسيّة وماضٍ ومستقبل وقصّة ترويها. إنّ الحقيقة، حقيقتها، ليست متوارية من تحت طبقات وطبقات مثل سترة سيّدة من العصر الڤيكتوري، بل كانت تتألّف من مجموع الفبركات التي وصلت بها إلى هذا المكان: فتاة من إحدى بلدات بلغاريا الغافية تتظاهر بأنّها روسيّة وترقص رقصة السامبا البرازيليّة في نادٍ من نوادي التعرّي في قلب لندن.

* * *

من وراء الكواليس، وخلف الستائر الحمر المائلة إلى الأرجواني، والتي لم تغسَل منذ عصور طويلة، هذا إن كانت قد غُسلت أصلاً، وقفت روكسانا الآن على أهبّة الاستعداد. تلصّصت فرأت النادي محتشدًا بالناس. ليلة مزدحمة أخرى: الزبائن الدائميّون، بعض الزبائن الجدد، العزّاب، الذين يوشكون على الزواج، الذين انفصلوا عن أزواجهم بالطلاق والأزواج منذ زمن بعيد، من ذوي البشرة السوداء والسمراء والبيضاء، كبارًا وصغارًا، ولكن... كان معظمهم في خريف العمر.

Twitter: @ketab_n

ثم لمحته عند المَشْرَب يحتسي شراب الصودا في بطء. التركي ذو الشعر الأسود المكتئبُ الملامح على الدوام، الذي يبدو متوجّسًا مثلما يبدو العثّ في سترة صوفيّة. كانت قد شاهدته أوّل مرّة في وكر المقامرة حيث كان قد دعاها إلى هناك أحد المالكين الصينيّين، وهناك عرفت باسمه: آدم. شاهدته يربح مالاً وفيرًا في لعبة الروليت، وأدركت أنّ من شأن أيّ رجل آخر أن يخرج من ورائه ويسلبه كلّ ماله، ولكنّه عاد في اليوم المقبل وقامر على مالٍ أكبر وخسر كلّ شيء. جانبٌ منها احتقره لغبائه ولكنّ الجانب الآخر أُعجب بتهوّره.

ومنذ ذلك اليوم، واظب على مشاهدة كلّ عرض من عروضها، وفي كلّ مرّة كان يدعوها لتناول الشراب من بعد العرض. كان موسوسًا، مدقّقًا في كلّ التفاصيل، سائلاً إيّاها عن ماضيها، متوقّعًا أن يسمع منها أشدّ الاعترافات المورثة للكآبة، غير أنّ الحقيقة الوحيدة التي تركت لسانها يزلّ بها هي عن عادة والدها في تعاطي الخمرة.

وقال آدم:

ـ حقًّا؟ إذًا عجوزك مثل أبي تمامًا. هه! لقد مات بسبب تضخّم الكبد.

وهنا جفلت وكأنّها تعثّرت بعقبة غير مرئيّة أمامها. لم تكن راغبة في أن تسمع قصّة هذا الرجل الحزينة، بل لم ترغب في أن تسمع أيّ قصّة حزينة لأيّ رجل، وكانت بغيتها الوحيدة فبركة قصصها الخاصّة بها، مطمئنة إلى أنّ تلك القصص لم تكن حقيقيّة أبدًا.

Twitter: @ketab_n

سوف تُعْرِض عنه وتعامله ببرود وجفاء وتخبره أن يبتعد عنها. ربّما سيجرح هذا الكلام مشاعره، ولكن هذا أفضل حلّ له... ولأسرته. ربّما سوف يُخلص لزوجته ويكون وفيًّا لها وإن كانت ترتاب في ذلك.

فما أن يرتاد أمثاله من الرجال هذا المكان ويتخيّلوا المغامرات الرومانسيّة التي حرمتهم منها الحياة، حتى يهجروا بيوتهم ولا يعودوا إليها إلّا بعد أن يكونوا قد عاشوا تجربة كارثيّة لا تنسى.

* * *

Twitter: @ketab_n

قسم عظيم

لندن، تشرين الأوّل ١٩٧٧

كان يونس الولد الوحيد من أولاد طبرق الذي ولد في إنكلترا. إنكليزيّته طليقة، تركيّته متعثّرة وكرديّته صفر، شعره مائل إلى الحمرة، ملتفّ في نهاياته، وجنتاه مكسوّتان بقليل من النمش وأذناه بارزتان إلى الجانبين، ممّا أضفى عليه مسحة صبيانيّة. رأسه لا يتناسب وحجمَ بدنه، فضلاً على أنّه كبير قياسًا إلى سنّه، وذلك بسبب انشغاله في التفكير أكثر ممّا ينبغي، على حدّ زعم والدته. أمّا لون عينيه، فيتغيّر من خضرة الطحالب إلى خضرة الآس، وفْقَ لون الثياب التي يرتديها أو حسب مزاجه. وقد سُمّي على اسم النبي يونس، الذي عرف أنّ قدَره أن يخبر قومه بطريق الحقّ الذي لم يكونوا على استعداد لسماعه، فانطلق إلى التلال مؤمِّلاً التنصّل من المهمّة التي أوكله الله بها، وهو أيضًا الرجل الذي التقمه الحوت في نهاية الأمر واضطرّ إلى تحمّل البقاء في جوفه ثلاثة أيّام

Twitter: @ketab_n

مظلمة وثلاث ليالٍ حالكة، وحيدًا ونادمًا[1].

كان يونس ابن الأعوام السبعة يستمع إلى هذه القصّة مشرقَ الوجه، من حبّ استطلاعه وهو يتخيّل بطن الحوت مظلمةً وعميقة ورطبة. ثمّة سبب آخر يكمن وراء اهتمامه بهذا العذاب، وهو أنّ يونس كانت لديه نزعةٌ تُشابِه نزعة النبي يونس، وهي أن يطلق ساقيه للريح: فلمّا لم تعجبه المدرسة هرب منها، وعندما لم يعجبه المنزل هرب من أسرته، وإذا ساوره أدنى إحساس بالسأم ينهض واقفًا على قدميه على أهبّة الاستعداد للهروب من جديد. وعلى الرّغم من الجهود الحثيثة التي كانت بمبي تبذلها، إلّا أنّه كان ينفق وقتًا طويلاً خارج المنزل، قاهرًا الشوارع الفرعيّة والأزقّة الخلفيّة في حيّ هاكني، إلى حدٍّ يؤهّله لأن يرشد سائقي سيّارات الأجرة إلى الطريق.

وقالت بمبي إنّها لا تستطيع أن تفهم مدى اختلاف أبنائها بعضهم عن بعض، ولا مدى اختلاف يونس، فهو المنطوي على نفسه، الفيلسوف، الحالم، الناسك الذي يحيا في كهف متخيَّل من

---

(١) ثمّة اختلافات في هذه الرواية عن نصّ قصّة سيّدنا يونس عليه السلام التي وردت في الكتب المقدّسة، ومنها القرآن الكريم. فمن جهة أولى، لم يذهب النبي يونس إلى التلال وإنّما ركب سفينة في البحر بعد أن ترك قومه غاضبًا لأنّهم كذّبوه فلّما لجّت بهم السفينة واضطربت وثقلت بمن فيها تشاوروا على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخفّفوا منه. فلّما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس وكرّروا القرعة ثانية وثالثة فوقعت عليه أيضًا. ولمّا أُلقي في البحر بعث الله عزّ وجلّ حوتًا عظيمًا فالتقمه. واختلف المفسّرون في مدّة بقائه في جوف الحوت فقال مجالد عن الشعبي: التقمه ضحى ولفظه عشيّة، وقال قتادة: مكث فيه ثلاثًا، وقال جعفر الصادق سبعة أيّام، وقال سعيد بن أبي الحسن وأبو مالك: مكث في جوفه أربعين يومًا، والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

صنعه، يجد في الأشياء الاعتياديّة قيمة لا تضاهى، والرفقةَ في الوحدة والجمال في كلّ حدب وصوب. وفيما كان إسكندر وأسماء يكرهان الناس وحظوظهم السعيدة، وكانا يتشاجران، كلّ واحد على طريقته الخاصّة، بسبب ظروفهما، فإنّ يونس لم يمقت أحدًا، وكان ينتمي إلى نفسه وحدها. وعلى الرّغم من أنّ كلّ فرد من أفراد الأسرة كان يشعر أنّه غريب، وإن اختلفت الأسباب، بدا يونس أكثرهم اطمئنانًا وارتياحًا، وعندما كان يخلو إلى نفسه، فإنّ إحساسه بالكمال كان يبلغ درجة رفيعة لا تضطرّه إلى ما يعكّر صفوه، وكان في وسعه أن يعيش في بطن حوت من دون أن يتأثّر قيد شعرة.

واعتقدت بمبي أنّه وصل إلى هذه الحالة لأنّه لم يبق طويلاً في رحمها ولم يرضع طويلاً من حليبها، فقد كان يونس الوحيد من بين كلّ أطفالها الذي ولد قبل أوانه، ولمّا رفض الرضاعة من ثدييها اضطرّوا إلى إعطائه حليب الأطفال، وكانت تتذمّر قائلة: «هل رأيتم النتيجة؟ لقد بات بعيدًا يصعب الوصول إليه».

وفي حين كان إسكندر يتوق إلى السيطرة على العالم وتريد أسماء تغييره مرّة واحدة وإلى الأبد، كان يونس يريد أن يفهمه. هذا كلّ ما هنالك.

* * *

في وقت مبكر من خريف العام ١٩٧٧، كان يونس أوّل من لاحظ أنّ أمّه تعاني شيئًا ما، إذْ بدت متحفِّظة وغارقة في التفكير. ونسيت بضع مرّات أن تناوله مصروف الجيب، فضلاً على أنّها أطعمته قليلاً ولم تضع في فمه ما يكفي من الطعام، ممّا دفع يونس

Twitter: @ketab_n

إلى التفكير في أنّ أمّه لم تكن على ما يرام، فبمبي لم تنسَ قطّ يومًا أن تطعمه، ولو كان صباحُ يوم القيامة لتأكّدت من ذهابه إلى النعيم شبعان.

ولكن يونس لم يعترض، بل كان قلقًا على غيره من الأشخاص، فهو عثر لنفسه على طريقة للحصول على مصروف الجيب، وكان دائمًا مصروفًا أكبر ممّا كانت تنقده إيّاه بمبي.

ثمّة منزل في شارع مولان على بعد بضعة شوارع شمال غربي مدرسته. كان مبنًى كبيرًا يعود إلى العصر الفيكتوري، وحيدًا وموحشًا ومهجورًا، تسكنه الأشباح، وفقَ مزاعم سكّان المنطقة. وكان سقف المنزل منحدرًا ويحتوي على رواق منحن عند الجانبين ونوافذ مقوّسة ومدبّبة. وقد اكتشف يونس هذا المنزل في إحدى جولاته الاستطلاعيّة في الحيّ. ثمّة مجموعة من الشبّان يحتلّونه: من الفوضويّين، والبانك، والعدميّين، والمسالمين، والساقطين اجتماعيًّا، والمنحرفين ممّن يؤمنون بآراء شتّى، وعدد كبير ممّن ليس لهم انتماء محدّد... كانوا طائفة من ألوان مختلفة، معظمهم يرتدي ثيابًا بتدرّجات الأسود والأحمر.

ولم يعرف أحد من أفراد أسرة طبرق كيف تعرّف يونس أوّل مرّة إليهم، ولكنّ الشبّان أحبّوه، وراقهم ذلك الفتى الصغير والعاقل، فكانوا يرسلونه في بعض حاجاتهم إذا ما شعروا بالإرهاق أو حتى إن لم تكن لديهم رغبة في ترك مكانهم: خبز وجبنة وحليب ولحم وشوكولا وعلب التبغ... كان يونس قد تعلّم من أين يحصل على هذه الأشياء بأفضل سعر.

وكانوا يطلبون منه في بعض الأحيان أن يأتيهم بزجاجات

Twitter: @ketab_n

الخمرة من رجل آسيوي صارم الملامح يقطن في مبنًى مضاء إضاءةً سيّئة على بعد مسافة عشر دقائق يقطعها بالدرّاجة الهوائيّة، كانت تلك المهمّة مبعثَ خوفه: ما كان الرجل ينفحه إكراميّة، ولم يطرح عليه أيّ سؤال، وثمّة رائحة نتنة في مسكنه تشي بالعفونة والمرض، وكان المنزل نتنًا أيضًا، بل كان أسوأ. ولكن على الرّغم من ذلك، كانت ثمّة روائح أخرى من تحت الرائحة التي تزكم الأنوف وتلفّ كلّ واحد وكلّ شيء: وهي روائح الزهور والتوابل والأوراق ـ حياة في مرحلة تحوّل.

في داخل المنزل المهجور ثمّة سلالم خشبيّة تلتفّ صعودًا إلى الطبقة الثالثة، شديدة الانحدار، متعفّنة، تهتزّ في كلّ مرّة يرتقيها شخص ما أو يهبط من عليها. أمّا الجدران الداخليّة للطبقتين الأرضيّة والأولى فقد هدمت، واستخدمت المساحة الواسعة لتكون غرف نوم، وحُوّلت مغاطس الحمّامات بدورها إلى أسرّة نوم. أمّا الطبقة الثانية فتدعى الأغورا، وهي الساحة العامّة في المدن الإغريقيّة، وكان ساكنو المنزل يجتمعون فيها اجتماع قدامى الإغريق في دويلات المدن للنقاش والتصويت على القرارات والمصادقة عليها.

وكان معظم الأثاث في المنزل يستخدم حصرًا في الأغورا: مصابيح متروكة من حملات البضائع القديمة، وكراسٍ، وكراسي طعام ـ لا يوجد كرسيّان متشابهان، وأرائك ظهرت عليها حروق السكائر... وثمّة سجّادة شرقيّة قرمزيّة مزركشة أيضًا، لا أحد يعرف مصدرها، وأشياء رثّة منتشرة هنا وهناك لعلّها أفضل موجودات المنزل. كما تنتشر في أرجاء المنزل أكداس الكتب

Twitter: @ketab_n

والمجلّات وخليط من أكواب القهوة وأقداح الخمرة والبسكويت الذي فقد طعمه لقدمه، وآلات الهارمونيكا وجهاز تسجيل عاطل لم يحاول أحد إصلاحه... كلّ شيء مِلْكٌ مَشاع، ولا شيء تعود ملكيّته إلى أحد تحديدًا.

وكان عدد الساكنين في المنزل يتغيّر من أسبوع لآخر، وهو ما اكتشفه يونس في زيارته الثانية عندما التقى وجوهًا جديدة وعرف أنّ بعض الذين التقاهم في البداية قد انتقلوا إلى مكان آخر.

وأوضح أحد الرجال وهو يبتسم ابتسامة عريضة تكشف عن مدى ثمالته:

ـ إنّه أشبه ببيت عائم. هذه هي سفينتنا ونحن نبحر على متنها نحو المجهول، وعلى امتداد الرحلة يترجّل منها بعض المسافرين فيما يستقلّها آخرون.

كان شعر رأس الرجل مصبوغًا بلون الأصفر الكناريّ، مُسنبلاً في أشكال تشبه ألسنة اللهب، وبدا شعره وكأنّه يحترق.

وقالت امرأة إرلنديّة شابّة ذات عينين لوزيّتين وشعر فاحم وابتسامة مشرقة:

ـ نعم، إنّه فُلْك.

ثم التفتت لتواجه الصبي وتعرّفه إلى نفسها:

ـ مرحبًا بك، أنا...

لكن يونس لم يسمع اسمها. لم يسمعه لحظتئذٍ ولا بعدئذٍ، فقد كان منشغلاً في التحديق إلى الحلقة التي تزيّن شفتها وإلى حاجبيها المثقوبين والوشم الذي يغطّي ذراعيها وكتفيها والجزءَ

Twitter: @ketab_n

العُلْوي من صدرها. ولمّا تنبهت إلى الدهشة التي استبدّت به، طلبت منه أن يقترب منها أكثر وأظهرت له كلّ وشم بارز من جسدها، وكأنّها هاوية من هواة جمع اللوحات الفنّيّة تعرض مجموعة من اللوحات على ضيوف في حفلة:

ثمّة وشم يمثّل راميًا، لأنّها من برج القوس، ولمّا لم تكن راغبة في أن يشعر الرامي بالوحدة والشقاء، فقد وضعت ملاكًا وإلى جانبه قيثارة ذهبيّة. وتدلّت من قفا عنقها وحتى كتفيها زهرة لوتس عظيمة، بيضاء وزرقاء ضاربة إلى الخضرة، في حين تدلّت جذورها إلى أسفل ظهرها. وعلى ذراعها اليمنى ثمّة زهرة ورديّة اللون متفتّحة ومن تحتها كلمة «توبيكو».

ـ ما معنى هذه الكلمة؟

فردّت تهزّ كتفيها:

ـ آه، إنّها حكاية طويلة.

ـ تقول أختي إنّ الحكاية الطويلة لا وجود لها، بل ثمّة حكايات قصيرة لا أكثر وحكايات لا نريد أن نقصّها.

ـ آه، تلك وقاحة. وماذا تعمل شقيقتك؟

ـ سوف تصبح كاتبة، وستؤلّف روايات لا يعشق فيها أحد الآخر، لأنّ الحبّ للمجانين.

وضحكت الفتاة، ثم حكت له قصّة وشمها: ففي يوم من الأيّام نُقش على رسغها الاسم «توبي»، وهو اسم صديقها، وكان يعمل في الموسيقى، وكان مخمورًا على الدوام، ولكنّها أحبّته على الرّغم من كلّ ذلك. وفي أحد الأيام أخبرته أنّها حامل وإن لم تكن

Twitter: @ketab_n

حاملاً حقًّا، إذْ كانت تريد معرفة ردّ فعله لا أكثر، لأنّ الرجال يجنّ جنونهم إذا ما سمعوا مثل هذا النبأ. لا يمكنك أن تصدّق، إذ تبدّل الاثنان، وكان ردُّ فعل أرقِّ الاثنين فظًّا وقاسيًا، في حين انقلب الأكثر تحفّظًا إلى ما يشبه من يؤمن بالبوذيّة التأمّليّة تمامًا.

وسأل يونس:

ـ وكيف كان تصرّف صديقك؟

ـ جنّ جنونه. فقد عقله حقًّا.

كان ردّ فعل توبي هو الاستفسار إن كان الطفل طفله، وقال إنّه حتى لو كان الطفل طفله حقًّا، فإنّه مضطرّ إلى وضع حدٍّ لهذه المهزلة. وعندئذٍ تخلّصت من صديقها، وإن كانت تساورها رغبة شديدة في ألّا تفعل. إنّ إزالة وشم ليس بالأمر السهل، إذْ ستبقى آثار ندبة في مكان الوشم. هي لم تكن مناهِضة للندوب، فهي جزء من الحياة، ولكنّها لم ترغب في أن تكون ندبته عليها، ولهذا ذهبت إلى أحد فنّاني الوشم وطلبت منه أن يحوّل كلمة «توبي» إلى «توبيكو».

ـ رائع! وما معناها؟

فأوضحت له قائلة:

ـ آه، إنّها طبق ياباني، بيض سمك طيّار.

همس يونس كأنّه لا يريد أن يفسد السحر:

ـ بيض سمك طيّار.

وتخيّل أمام عينيه عشرات من السمك الطيّار تثب خارج الماء لتنزلق من بعد ذلك انزلاقًا رشيقًا في متّجه الشمس الغاربة. لقد

Twitter: @ketab_n

أُغرم يونس الفتى، الذي سُمّي على اسم النبي الذي نجا من بطن الحوت.

ومنذ ذلك الوقت بدأ يرتاد المنزل عندما تسنح له أوّل فرصة، فكانوا يدعونه للمكوث بين ظهرانيهم حتى وإن لم يكن لديهم أيُّ عمل يكلّفونه به، وكان يجلس بجانب توبيكو متعلّقًا بكل كلمة تتفوّه بها، وإن كان لا يستطيع متابعة الحديث إلّا نادرًا: البطالة، الوعي الزائف، حقوق العمّال، الهيمنة الثقافيّة... وتعلّمَ أنّ بقاء المرء خارج النظام الرأسمالي يجعل من المستحيل عليه إجراء أيّ تغيير حقيقي في داخله، ولكن إذا ما أصبح المرء جزءًا من ذلك النظام، فإنّه سوف يدمّر روحه. إذًا كيف يمكن تحويل شيء من الداخل مع البقاء منفصلاً عنه في الوقت نفسه أيّها الرفيق؟ فكّر يونس تفكيرًا مليًّا وهو يحتسي الشاي المدخَّن ويرشف في الوقت نفسه رشفة من النبيذ، ولكن مهما حلّق عاليًا وبعيدًا، فإنّه لم يستطع العثور على جواب.

وفي الليل، كان يونس يحلم بالمنزل المحتلّ وقد جرفه التيّار في البحر، الذي بدا بلون السماء، وحيث النوارس تحلّق عاليًا ثم تنقضّ. وكان يشاهد سكّان المنزل وهم يخوضون في المياه في صوت عالٍ، عراة، مثل حوريّات مرحة، وكانت توبيكو ترافقهم، واقفة على حافّة جرف، شعرها الأسود الطويل تتقاذفه الريح وهي تلوّح له، عبقة بريئة. وكان يونس يلوّح لها أيضًا ويشعر بالشمس تضرب وجهه، فيغوص عميقًا في زرقة البحر ويسبح حتى توجعه عضلاته.

وفي صباح اليومْ التالي كان يستيقظ من نومه في فراش مبلّل.

Twitter: @ketab_n

لم يكن محتلّو المنزل يطبخون طعامًا باستمرار، باستثناء طبقهم المكسيكي المفضّل، وهو اللحم بالفلفل، لحم مثروم بالطماطم المعلّبة وأكياس الفاصوليا. وكان العشاء يتألّف من البسكويت والشوكولا والتفّاح والموز والفطائر التي توشك أن تنتهي مدّة صلاحيّتها من متجر الموادّ الغذائيّة. وإذا كان مزاج توبيكو رائقًا فإنّها سوف تعدّ قالب حلوى بما يتوفّر في المطبخ من موادّ أوّليّة وتضيف إلى المزيج كمّيّة لا بأس بها من الحشيش.

وحاول المجلس البلدي في حيّ هاكني أن يخلي المنزل من محتلّيه منذ زمن طويل، كي يُعاد ترميمه وبيعه لقاء ربح وفير، لكن ثمّة حربًا متواصلة دارت بين الفريقين. وقبل مدّة قصيرة اكتشفت مصلحة كهرباء لندن أنّ محتلّي المنزل فطنوا إلى وسيلة لربط المنزل بالتيّار الكهربائي، فأرسلت من يتولّى مهمّة قطعه، فاستخدم المحتلّون الشمع ومصابيح الزيت في كلّ طبقة، فظهرت ظلال مخيفة غريبة الشكل زاحفة على الجدران. وتعرّض الحمّام لانسداد متواصل، وكانت الرائحة المنبعثة منه كريهة جدًّا، ولم يستطع يونس أن يفهم السبب الذي يدفع توبيكو إلى أن تعيش في هذا المكان. لو كان أكبر سنًّا وله وظيفة وشقّة لطلب منها أن تأتي وتعيش وإيّاه، ولكن ربّما سوف تصطحب وإيّاها الكابتن، الذي سيعمد إلى دعوة كلّ أفراد العصابة، لأنّ القادة في حاجة إلى قيادة المنزل، وهكذا سينتهي المطاف بهم جميعًا إلى السكن وإيّاه في منزله، الذي سيتحوّل في أسابيع قليلة إلى ما يشبه المنزل المحتلّ.

كان الرجل الذي يسمّيه الآخرون «الزعيم» رجلاً نحيل البنية ينسدل شعره إلى عينيه الرماديّتين، مصفرَّ الأسنان إلى حدٍّ ما بسبب

Twitter: @ketab_n

التبغ، وكان يضع خاتمًا في كلّ إصبع من أصابعه، بما فيها الإبهامان، وكان ميّالاً إلى التفوّه بصوت عالٍ كلّما خطر بباله أن يتكلّم. كان يعشق الكلام، وكان صوته يزداد حماسًا كلّما تحدّث في موضوع جديد، فيسحر سامعيه. وكان الكابتن أوّلَ رجل يدعو يونس بكلمة «مؤذٍ»، وهي كلمة لم يسبق ليونس أن سمعها ولم تَرُقْ له إطلاقًا.

ـ لا تهتمّ. إنّه ليس عنصريًّا على الرّغم من مظهره، إذْ كيف يمكنه أن يكون عنصريًّا وهو مناهض للفاشيّة؟ صحيح؟

فرمش يونس بعينيه.

ـ أعني أنّه يحبّ أن يصنِّف على هواه، كي يتأكّد من مكانة كلّ شخص لا غير. هكذا هو تفكيره.

فقاطعها يونس وهو يعرف أنّ كلامه ساذج ولكنّه أراد التفوّه به ليس إلّا:

ـ أختي أسماء تحبّ الكلمات بدورها.

فابتسمت توبيكو:

ـ الزعيم لا يحبّ الكلمات.

المؤكّد أنّ الحسد وخيبة الظنّ لاحا على وجه الفتى، لأنّ توبيكو جذبته إليها على حين بغتة وطبعت قبلة على جبينه وقالت:

ـ آه يا عزيزي! كم كنت أتمنّى لو أنّك أكبر سنًّا بعشرة أعوام!

فأجاب يونس إجابة واقعيّة وإن كسا الخجل وجهه كلّه:

ـ سوف أكبر! ولكن بعد عشرة أعوام.

ـ ولكنّني سأكون بعد عشرة أعوام حبّةَ خوخ مجفّفة، عجوزًا كثيرة التجاعيد.

Twitter: @ketab_n

ثم داعبت شعره مداعبة تحبّها ولكنّه غالبًا ما كان يكرهها وإن لم يكن قادرًا على الاعتراف بذلك في دخيلة نفسه.

لكنّه كان متشجّعًا:

ـ سوف أكبر في سرعة.

ـ آه، أعرف أنّك سوف تكبر، فأنت الآن أكبر غلام عرفته حتى اليوم. ثم قبّلته قبلة أخرى ولكنّها كانت قبلة على شفتيه، قبلة سريعة رطبة، فشعر كأنّه يقبّل المطر.

وهمست توبيكو:

ـ لا تتغيّر أبدًا، ولا تترك النظام الرأسمالي الجشع يؤثّر فيك.

ـ حسنًا.

ـ اصدقني القول، لا... انتظر، امنحني وعدًا على شيء له قيمته عندك.

فقال يونس خجلاً:

ـ ما رأيك بالقرآن؟

ـ آه، نعم. ممتاز!

في تلك اللحظة وفي ذلك المكان، ارتعشت شفتا يونس وخفق قلبه خفقانًا شديدًا وهو ابن الأعوام السبعة، وأقسم بالله ألّا يدع النظام الرأسمالي يدنو منه، وإن لم يكن يملك أدنى فكرة عن معنى ذلك.

* * *

Twitter: @ketab_n

سجن شروزبيري ١٩٩٠

وأخيرًا وصل. إنّه ملصق هاري هوديني، الرجل الذي لا يمكن وضع القيد في يديه، أو حتى حبسه. معبودي. صورة من صوره القديمة بالأسود والأبيض وبظلال رماديّة كثيفة. هوديني شابّ كما يبدو في الصورة: ساحر، نحيل البدن، عالي الجبين ومذهل العينين. كان مشمّرًا عن ساعديه، كاشفًا بذلك عن نصف دزّينة من القيود من حول رسغيه. ولم تبدُ على وجهه أيّة علامة من علامات الخوف أو الوجل، بل كانت تلوح عليه مسحة من التفكير. الناظر إليه يخيَّل إليه أنّه يستيقظ من حلم.

ثبَّتُّ الملصق على الجدار، فرآه تريبي وابتسم ابتسامة عريضة. اسم رفيقي في الزنزانة باتريك، ولكن لا أحد يتذكّر ذلك، وكلّما شاهد ما يجذب انتباهه ـ وهو ما يحدث في الأعمّ الأغلب وحتى في مكان بمثل هذا المكان الباعث على السأم والضجر ـ يقول: هذا تريبي أيّها الرجل! من هنا اكتسب الاسم.

Twitter: @ketab_n

كان أصغرَ سنًّا منّي، وأقصر قامة. بشرته شاحبة وشعره منسدل إلى الخلف، وعيناه بنّيّتان غامقتان، ورموشه كثيفة. وبصرف النظر عن السنّ، فإنّ والدته تظنّ أنّه ولد طيّب أفسده أصدقاء السوء.

وهذا صحيح في حالة تريبي ـ الولد اللطيف من مدينة ستافورد الذي يؤدّي أعمالاً أربكته. المضحك في الأمر هو أنّ هؤلاء السفلة كانوا قادرين على التخلّص من أيّة ورطة، ولكن تريبي حُكم عليه بالسجن مدّة عشرة أعوام. هكذا هو الحال الآن. لا شيء يحدث لبنات آوى، لكنّ الذين يؤدّون دور ابن آوى يُقبض عليهم. أنا أقول إنّنا أفضل حالاً. إنّ ادّعاء المرء أنّه ابن آوى أسوأ من أن يكون ابن آوى أحياناً.

لم أخبره بهذا الشيء، ولكنّ عينيه ذكّرتاني بعيني يونس. أشتاق إليه كثيرًا، لم أكن أخًا وفيًّا له، ولم أقف إلى جانبه عندما احتاج إليّ. كنت مشغولاً جدًّا وليس لديّ الوقت لخوض معارك خاسرة.

أصبح يونس رجلاً كبيرًا الآن، موسيقارًا موهوبًا. هكذا يردّدون. لم يرني إلّا مرّتين على مدى اثني عشر عامًا. لا تزال أسماء تزورنا من حين إلى حين، ولكنّها لم تأت منذ مدّة من الزمان. إنّها تأتي لتخبرني عن مدى شوقها إليّ، وأنّها تشفق عليّ وتكرهني. أمّا يونس، فقد أطلق ساقيه للريح، كعهده دائمًا، حتى كلمات أسماء القاسية جدًّا لم تؤذني قدْرَ ما آذاني غياب أخي. كم أحب أن يغفر لي ويسامحني، إن استطاع أن يغفر من أعماق قلبه. ولا يرجع سبب ذلك إلى أنّني أتوقّع منه أن يحبّني، لأنّ حبّه لي

Twitter: @ketab_n

أضغاث أحلام، ولكنْ أريد منه أن يسامحني لمصلحته الشخصيّة. الغضب قاتل، يسبّب لك السرطان، والناس من أمثالي معتادون عليه، ولكن يونس يستحقّ ما هو أفضل.

وسأل تريبي مشيرًا إلى الجدار:

ـ من ذلك الرجل؟

ـ ساحر عظيم. أعظم ساحر!

ـ حقًّا؟

ـ نعم، ولا يزال بعض حيله لغزًا.

ـ في استطاعته أن يجعل بعضَ الفيلة تختفي.

ـ ممتاز!

أنفقنا عصر ذلك اليوم نتجاذب أطراف الحديث عن هوديني، وقد احتشد رأسانا بالحكايا، وفي حالة تريبي بالمخدّر. يروقني أن أتعاطى المخدّر بين وقت وآخر، هذا كلّ ما هناك. لا حبوب ولا نكهة، لم أجرّبها ولن أجرّبها، فلن أسلك ذلك الدرب. وعندما أذكّر تريبي أنّ عليه أن يقلع عن ذلك، فإنّه يضع إبهامه في فمه ويمصّه مُصدِرًا صوتًا ويقول:

ـ لست رضيعًا.

ـ اخرس!

يبتسم ابتسامة عريضة كأنّه ولد مشاكس. ولكنّه لا يبالغ. إنّه يعرف أنّه الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يتحدّث إليَّ على ذلك النحو، كما أنّه يعرف حدودي.

وبعد التعداد المسائي بوقت قصير، يأتي الحارس مارتن

Twitter: @ketab_n

صحبةَ رجل قصير القامة، متين البنيان، لم يسبق لنا أن رأيناه ـ ثمّة نتوء بارز في ذقنه، كما أنّ شعره فاحم السواد، حتى إنّني كنت أظنّ أنّه يصبغه.

ـ بدأ الضابط أندرو ماك لوخلين عمله اليوم، ونحن ننوي زيارة بعض الزنازين.

يوشك مارتن أن يتقاعد، ويريد أن يطمئنّ إلى أنّنا سوف نحترم هذا الشابّ الذي جاء ليحلّ محلّه.

واستقرّ صمت مثير للارتباك، ولم نعرف ما نقول. وعلى حين بغتة وقعت عينا مارتن على الملصق من خلفه، وتمتم:

ـ من وراء هذه الفكرة؟

ثم التفت إليَّ وقال من دون أن ينتظر جواباً:

ـ أنت. صحيح؟

كان مارتن ممثّلاً فاشلاً، وهو سبق له أن شاهد هذا الملصق، ولولا موافقته لما حصلت عليه قط، ولكنّه يتصرّف الآن كأنّه يراه للوهلة الأولى، وذلك كي يُظهر للصبي الجديد أنّه وإن كان في سنّ التقاعد لا تفوته فائتة، ويقول إنّه شاهد طوال تلك السنين رجالاً يضعون مختلف الصور على الجدران ـ صور زوجاتهم وأسرهم ورموزهم الدينيّة ونجوم السينما وكرة القدم والكريكت وفاتنات مجلّة بلاي بوي، أمّا هوديني فتلك قضيّة أخرى.

ويضيف مارتن مقهقهًا:

ـ ربّما ستفقد عقلك.

قلت:

Twitter: @ketab_n

ـ ربّما.

ويقترب الضابط ماك لوخلين ويشمّ الهواء من حوله كأنّه كلب يقتفي أثر طريدة:

ـ أو ربّما يخطّط للهروب. إنّ هوديني عالِم في الهروب.

من أين أتى هذا؟ أعني الوريد الظاهر في جبينه والذي ينبض نبضًا هادئًا؟

ـ ما الذي يدفعني إلى ذلك؟

ثم يسأل مارتن وقد قست عيناه فجأة:

ـ نعم، ما الذي يدفعه إلى ذلك؟

ثم يلتفت إلى السجّان الجديد موضحًا:

ـ جاء أليكس إلى هذا المكان في العام ١٩٧٨ ولم تبق من محكوميّته سوى سنتين.

فصحّحتُ له كلامه:

ـ سنة واحدة وعشرة شهور.

فقال مارتن وأومأ برأسه، كأنّه يريد بذلك أن ينهي كلّ شيء:

ـ نعم.

ثمّة شيئان متناقضان يَلُوحان على وجه مارتن، كعهده على الدوام: النفور والاحترام. كان النفور منّي موجودًا منذ البداية ولم يختف ـ النفور والامتعاض من إنسان ارتكب أسوأ جريمة يمكن تخيّلها وأنهى بذلك الحياة التي منحها الله. أمّا الاحترام، فجاء من بعد ذلك بوقت طويل وعلى نحو مفاجئ تمامًا. لنا تاريخ مشترك: أنا ومارتن.

Twitter: @ketab_n

لكن وجه الضابط ماك لوخلين يوحي بحكاية أخرى، فيقول في صوت تعوزه الحيويّة والنشاط:

ـ أعتقد أنّني أعرف قضيّتك، وأتذكّر أنّني قرأت عنها وقلت في نفسي: كيف يمكن لامرئٍ أن يفعل ذلك بأمّه؟

أدرك أنّنا في سنّ واحدة. ليس هذا فحسب، بل إنّنا من عجينة واحدة. قد نكون سرنا في شوارع بعينها لمّا كنّا مراهقين، وقبّلنا الفتيات أنفسهنّ.

واستبدّ بي شعور هو الأغرب من بين المشاعر كلّها، كأنّني أنظر إلى مرآة منحرفة، فماك لوخلين هو الرجل الذي كان في وسعي أن أكون في محلّه لو أنّني سلكت دربًا مغايرًا، وكان يمكن أن أكون المُدان لو لم يفلح هو في الإفلات في اللحظة الأخيرة.

فيقول:

ـ أربع عشرة سنة، إيه؟ يا له من عار؟

يسعل مارتن سعالاً يثير الأعصاب. إنّك لا يجب أن تذكّر رجلاً بجريمته على نحو عابر وكأنّك تتحدّث عن الطقس. لا تذكّره إلّا عندما يحين الأوان، فالمألوف هو أنّ ما من شخص يذكّر شخصًا آخر بما حدث من قبل، والإنسان رهينُ السجن هو أصلاً رجل رهن الماضي في كلّ الأحوال.

يتدخّل مارتن في الكلام وكأنّه مرشد سياحي:

ـ لقد مرَّ أليكس في منعطف أثناء السنوات القليلة. مرَّ في وقت عصيب ولكنّه تحسّن حاليًّا.

لي سمعة فظيعة، وأعتقد أنّها ما زالت. أضحيت موضعَ

Twitter: @ketab_n

سخرية، وكان يصعب توقّع الشيء الذي يزعجني. أنا شخصيًا لم أستطع توقّع ذلك، وعندما أغدو مخبولاً فإنّني أتحوّل إلى شخص عنيف. قبضتي اليسرى قويّة مثل قطعة قرميد كما يقولون. أحيانًا أنفجر لا أكثر. الآخرون الذين يمكن لهم أن يتصرّفوا مثلي هم مدمنو المخدّرات، فعندما يريدون السلع وهي غير متوفّرة فإنّهم يفقدون صوابهم، لكنّني لست مدمنًا، وربّما يجعلني ذلك أشدَّ إثارة للخوف. هذه هي حالتي العقليّة الصاحية، لقد ألحقت الأذى بنفسي، برأسي، لأنّ ما في رأسي لا يروقني. أشعلت راحتيَّ بسكائري فتورّمتا مثل تورّم العيون المنتفخة. جرحت ساقيَّ. قدْرٌ كبير من اللحم على الساق والفخذين والركبتين والكاحلين، قدْرٌ كبير من الاحتمال. الشفرة في شروزبيري ثمينة مثل قطعة ياقوت، ولكن ليست صعبة المنال.

يقول مارتن:

ـ سوف يعرف أحدكما الآخر.

يقول الضابط ماك لوخلين:

ـ حسنًا، أظنّ ذلك.

يراقب تريبي التوتّرَ يتصاعد، ويشعر بالقلق. يعرف ماذا سيحدث، فقد شهد ذلك من قبل. أحيانًا نُغلَب على أمرنا، وعندئذٍ تنتهي الحكاية، فما أن تنطلق انطلاقة سيّئة حتى تظلّ كذلك من دون تحسّن.

يبذل «المرشد السياحي» محاولة أخرى للتوصّل إلى تسوية: «أليكس ملاكم، رياضيًّا، فاز بجائزة لمّا كان تلميذًا في المدرسة».

مضحك أن أقول شيئًا دفاعًا عن نفسي، ومن نافلة القول أنّ

Twitter: @ketab_n

أحدًا ما لم يضحك. أريد أن أشكر مارتن على وقوفه إلى جانبي، ولكن إذا ما أَشَحْتُ بناظريَّ عن الضابط الشابّ، وإنْ لثانية واحدة، فإنّني سوف أكشف بذلك عن نفسي.

عليه أن يرى أنّني لست رعديدًا. كنت رعديدًا آخر مرّة قبل نحو عشرين سنة، طفلاً صغيرًا فوق شجرة، هاربًا من عمليّة ختان، لكنّ ذلك لم يُجْدِ نفعًا، ومنذ ذلك اليوم لم أضعف. كنت مخطئًا، مخطئًا تمامًا، ولكنّني لم أكن ضعيفًا، لهذا لا ينتابني الخوف، ولا تَطْرُفُ عينيَّ، بل أظلّ أحدّق إلى عيني ماك لوخلين، الذي ربّما يحدّق بدوره إليَّ للأسباب نفسها.

ثم ينصرفان.

* * *

أستيقظ في منتصف الليل على حين غرّة. في البدء أعتقد أن والدتي زارتني ولكنّني لا أستطيع الإحساس بوجودها على الرّغم من الجهد الذي أبذله كي أشعر بها. ليس من حفيف يشبه سقوط ورقة شجرة، وليس من ضوء يشبه ضوء القمر من وراء السحب. لا أحد سوى تريبي، يشخر ويطلق ريحًا ويصرّ أسنانه ويحارب شياطينه.

أجلس معتدلاً من فوق الفراش وأنظر من حولي لأتبيّن السبب الذي دفعني إلى الاستيقاظ، وعندئذٍ أكتشف السبب: ثمّة ورقة على الأرض لا بدَّ أنّ شخصًا ما دفعها من وراء قضبان الباب. ألتقطها تحت النور الخابي المنبعث من الممرّ، فأكتشف أنّها قصاصة من جريدة، جريدة الديلي إكسبريس...

* * *

Twitter: @ketab_n

صبي يقتل أمّه «غسلاً للعار»

٢ كانون الأوّل، ١٩٧٨

«طعن صبي في السادسة عشرة من عمره من أصل تركي/كردي أمّه حتى الموت في حيّ هاكني غسلاً للعار، فقد طعن إسكندر طبرق بمبي طبرق أمام بيت الأسرة في شارع لافندر غروف.

ويُقال إنّ الأمّ البالغة من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا ولها ثلاثة أولاد، على علاقة غير شرعيّة. وقد أفاد الجيران أنّ آدم وبمبي طبرق انفصل أحدهما عن الآخر وإن بقيا متزوّجين. وقال أحد شهود العيان: «إنّ شرف الأمّ كان يحميه الابن الأكبر عند غياب الأب، وكان هذا الابن هو إسكندر». هذا وتُجري الشرطة تحقيقًا الآن لمعرفة إن كان الصبي المراهق قد تصرّف من تلقاء نفسه أم أنّ فردًا آخر من الأسرة استخدمه لتنفيذ خطّة قتل جماعيّة.

وذكرت ناطقة باسم شرطة سكوتلانديارد لصحيفة التايمز، أنّ هذه القضيّة ليست الأولى ولن تكون الأخيرة في المملكة المتّحدة وأوروبا. وأوضحت أنّ الشرطة تحقّق الآن في ١٥٠ حالة وفاة

Twitter: @ketab_n

يمكن أن تكون ذات صلة بغسل العار. وأضافت: «ممّا يدعو إلى الأسى أنّ العدد يمكن أن يكون أكبر، لأنّ حالات الموت لا تكتشفها الشرطة كلّها، فالأُسَر والجيران يعرفون أكثر ممّا يدلون به من أقوال، كما أنّ أقرب المقرّبين من الضحايا هم أولئك الذي يكتمون معلومات غاية في الأهمّيّة».

* * *

ترتعش يداي ارتعاشًا قويًّا، فتسقط القصاصة وكأنّها في وسط ريح عاتية. أَتَحَرَّقُ شوقًا من أجل سيكارة، أو مشروب، من أجل شيء ما منعش وبسيط. لم يعرف والداي هذا قطّ، لكنّني كنت والأولاد معتادين أن نشرب شراب التفّاح أو الجعة بين حين وآخر، ولكنّنا لم نشرب الويسكي قطّ. تلك مسألة أخرى، لقد تذوّقته أوّل مرّة تحت هذا السقف، فيمكنك أن تجد كلّ شيء في السجن إذا ما عرفت كيف تتصرّف.

طويتُ القصاصة وطويت زواياها حتى أصبحت مربّعًا فمثلّثين فمستطيلاً... تركت الزوايا كي تلتقي وجذبت المثلّثين إلى الجانبين، فأصبح لديّ زورق. أضعه على الأرض. ما من ماء كي أجعله يطفو وما من ريح كي تدفع الأشرعة. قد يذهب بك الظنّ إلى أنّه صُنع من الأسمنت، ثابت، لا يتحرّك في أيّ اتّجاه، مثل ألم في الصدر.

إسكندر طبرق

* * *

Twitter: @ketab_n

أسمـاء

لندن، كانون الأوّل، ١٩٧٧

عشنا في حيّ هاكني، في شارع لافندر غروف. كانت أمّي خائبة الظنّ على الدوام، لأنّ الشارع لا يحتوي على شجرة لافندر (خزامى) واحدة، كلّ ما فيه هو اسمه لا أكثر، غير أنّها لم تفقد الأمل في أن نعثر يومًا ما، في حديقة شخص ما أو من حول منعطف، على غروف (بستان) منسي، على بحر من البنفسج.

أحببت الحيّ: محلّات الحلاقة الأفريقيّة، والمقهى الجامايكي، المخبز اليهودي والصبي الجزائري الواقف من خلف منصّة الفواكه ويلفظ اسمي لفظًا مضحكًا ويقدّم لي على الدوام هديّة صغيرة، وعازفي الموسيقى المفلسين الذين يقطنون من حول الناصية ويتدرّبون يوميًّا بعد أن يتركوا نوافذهم مفتوحة، عرّفوني من دون أن أعرف بالموسيقار شوبان، والرسّام الذي يرسم لوحات فنّيّة في رايدلي رود ماركت لقاء عشرة شلنات، والذي رسم يومًا صورة لي لقاءَ ابتسامة لا أكثر، فيها كلّ الأصباغ والألوان.

Twitter: @ketab_n

قبل هذا البيت ثمّة شقّة في إسطنبول هي المكان الذي أنفقت فيه أنا وإسكندر بواكير طفولتنا. على أيّة حال، ذلكم زمن آخر وبلد آخر، وهو المكان الذي عاشت فيه أسرتنا قبل رحيلنا إلى إنكلترا في مايس ١٩٧٠ بعد وقت قصير من ولادة يونس.

كانت لأمّي ذاكرة انتقائيّة، شأنها شأن كلّ المغتربين، فمن بين أجمل الأشياء التي تتذكّرها أكثر من غيرها عن ذلك الماضي الذي خلّفته من ورائها، إن لم يكن الشيء الوحيد الذي تتذكّره، هو الشمس الدافئة وأهرامات التوابل في السوق ورائحة أعشاب البحر التي تحملها الريح. وظلّت البلاد لا تشوبها شائبة، وشانغري ـ لا[1]، وملاذًا حيويًّا تعود إليه في الحلم في الأقلّ، إن لم يكن في الواقع.

أمّا ذكرياتي الشخصيّة، فكانت متمازجة بطبيعتها، أمّا الذكريات عن الماضي المشترك، فربّما لا يتذكّر الأطفال النتف الصغيرة التي يتذكّرها آباؤهم. كانت ذاكرتي ترجع أحيانًا إلى الوراء، إلى قبو ذلك المنزل العتيق: الأثاث المنجَّد بلون شذري، وقطع القماش الدائريّة، البيضاء اللون، ذات الزخارف المخرّمة، الموضوعة من فوق مناضد الشاي الصغيرة ورفوف المطبخ،

(١) شانغري ـ لا Shangri - La: هي جنّة اللاما البوذيّة الخفيّة التي أتى على وصفها الكاتب الإنكليزي جيمس هيلتون (١٩٠٠ ـ ١٩٥٤) في خامس رواية يؤلّفها بعنوان الأفق المفقود (١٩٣٣) وتدور وقائعها في دير سرّي من أديرة التيبت يدعى شانغري ـ لا. يطلق هذا الاسم أيضًا على سلسلة جبال روزفلت في ولاية ماريلند الأميركيّة، وعلى قاعدة سرّيّة شنّت منها القوّات الأميركيّة أضخم الغارات الجوّيّة وأعنفها على طوكيو في العام ١٩٤٢. كما يطلق الاسم اليوم على أيّة جنّة أرضيّة متخيَّلة أو منطقة يوتوبيّة توحي بجوّ من الرضا والطمأنينة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ومستعمرة الفطريّات على الجدران والنوافذ العالية التي تطلّ على الشارع. . . كانت الشقّة تلحّ على ذاكرتي، مكان معتم ينبعث منه صوت مذياع غير واضح النبرات طوال النهار، ورائحة عفنة تخيّم عليه. الوقت غسق على الدوام، أمّا الصباح أو العصر، فلا كبيرَ فرقٍ بينهما.

كنت صغيرة السنّ عندما بات المكان يعني بيتًا لي. كنت أجلس ساقًا على ساق فوق سجّادة في حجرة المعيشة، رافعةً بصري إلى أعلى باتّجاه النوافذ القريبة من السقف، فاتحة فمي قليلاً. وكان في وسعي أن أشاهد حركة مرور قويّة لسيقان تتّجه يمينًا وشمالاً، لأشخاصٍ يذهبون إلى أعمالهم أو يعودون أدراجهم من بعد التسوّق أو خارجين للتنزّه.

كانت مراقبتنا أقدام السابلة ومحاولتُنا معرفةَ نمط الحياة التي يعيشها أصحابُها لعبةً مفضّلة لدينا ـ لعبة بثلاثة لاعبين: أنا وإسكندر وأمّي. فعلى سبيل المثال، كنّا نشاهد شخصين من الجانب يسيران في خطوات سريعة ونشطة، وشرائط جلديّة تربط الكاحل في عناية، وكعوب أقدام تضرب من فوق الرصيف، فكانت أمّي تقول: «أعتقد أنّ هذه المرأة ذاهبة للقاء خطيبها»، ثم تبدأ بسرد قصّة جذّابة من قصص الحبّ والغرام ووجع القلب. وكان إسكندر يلعب هذه اللعبة لعبًا جيّدًا، فكان يبصر زوجًا من أحذية قديمة قذرة فيؤلّف قصّة يقول فيها إنّهما يعودان لرجل عاطل عن العمل منذ زمن ليس بالقصير، وإنّه الآن في وضع شاقّ يوشك أن يدفعه إلى سرقة المصرف الكائن من حول الناصية، وعندئذٍ سيطلق حرّاس المصرف النار عليه.

Twitter: @ketab_n

وإضافة إلى أنّ القبو يفتقر إلى أشعّة الشمس افتقارًا شديدًا، فإنّه كان يتلقّى قدرًا كبيرًا من المطر أيضًا. المطر الخفيف لم يكن مصدر تهديد، لكن كلّما أمطرت السماء بمقدار يزيد عن البوصتين في المدينة، فإنّ أنابيب الصرف كانت تفيض داخل المنزل تاركة بركة قذرة في الحجرة الخلفيّة، وتصبح منفضات السكائر الخشبيّة والمباصق وأُطُر الصور والسلال المصنوعة من خشب الخيزران سبّاحين مهرة، أمّا صواني الخبز وألواح التقطيع وأباريق الشاي والهاون، فلم تكن كذلك، وفي حين كانت الزهريّة الزجاجيّة الموضوعة من فوق الطاولة سريعة الغرق، فإنّ الزهور الاصطناعيّة في داخلها كانت تطفو في سهولة. ثم هناك محكّة الظهر، التي كنت أتمنّى غرقها أيضًا، ولكنّها لم تغرق قطّ.

كان والدايَّ قد تحدّثا عن الانتقال من الشقّة، ولكن حتى لو كانت لديهما الوسيلة وعثرا على شقّة تحت الأرض تتخلّلها أشعّة الشمس على نحو أفضل في هذا الحيّ الفقير، فإنّ ما من ضمان يجعلها تتحمّل هطول أمطار إسطنبول الغزيرة السيّئة الصيت تحمّلاً أفضل من سابقتها. لعلّهما تمسّكا بالشقّة بمرور السنين. صحيح أنّها رطبة ومظلمة، ولكنّها على الرّغم من ذلك بيتهما الأليف.

إسطنبول... المدينة الغارقة في ذكريات بطيئة دواميّة، اسمها يبرز من بين مئات الأسماء التي خزّنْتُها في ذاكرتي طوال حياتي. وضعت الكلمة من فوق لساني وتلذّذت بمصّها على مهل وبلهفة، كأنّها قطعة حلوى فعليّة. لو كانت لندن قطعة من حلوى لكانت قطعة طوفي بالزبدة الإسكتلنديّة: غنيّة وصلبة وتقليديّة، لكنّ إسطنبول قطعة من حلوى فيها طعم عرق السوس، قابلة للمضغ،

Twitter: @ketab_n

مزيج من مذاقات متنافرة، قادرة على تحويل ما هو مرّ إلى حلو، والحلو إلى مرّ.

* * *

بدأت أمّي بالشغل أوّل مرّة بعد أن قامر أبي بمرتّب شهرين وخسره، وعلى حين بغتة أضحت النقود ضروريّة أكثر من أيّ وقت مضى. وفي حين كان إسكندر تلميذًا في المدرسة، بدأت أمّي تتردّد على بيوت الأثرياء، حيث تهتمّ برعاية أطفالهم الصغار وتطبخ طعامهم وتنظّف غرفهم وتغسل قدورهم وتكوي ثيابهم وتقدّم العزاء والسلوى أحيانًا، وكنت أبقى في رعاية امرأة من الجيران. كانت عجوزًا ذات لسان سليط وسمع ثقيل، ولكنّها، بخلاف ذلك، كانت امرأة لطيفة.

وكانت أمّي تحكي لنا في الأماسي قصصًا عن الحياة في القصور وكأنها تقص علينا القصص لكي ننام: لكلّ طفل من الأطفال في تلك القصور غرفة خاصّة به، والأزواج العصريّون يدعون زوجاتهم لتناول المشروبات في رفقتهم، وقد رأت في مرّة من المرّات شخصين يضعان موسيقى جاز في آلة ويرقصان، وأنّ الأمر الذي أثار حفيظتها على أنّه خزي وعار، أنّهما تقدّما من فوق السجّادة بأحذيتهما المغبرّة، ممّا عزّز من اعتقادها بأنّ الأغنياء تحوم من حولهم الشبهات، وإلّا ما السبب الذي يدفع الآخرين إلى وضع الزيتون الأخضر في مشروباتهم وإفساد سجّادهم الناعم وقضم مكعّبات الجبنة الصفراء المغروسة في أعواد تنظيف الأسنان؟

وبعد أن عملت أمّي في بيوت عدد من الأسر، عثرت لها على

Twitter: @ketab_n

عمل دائم، وكان ربُّ عملها من أسرة مشهورة، وكانت ربّة البيت ممثّلة رُزقت بطفلة قبل وقت قصير، على حين أنّنا لم نعرف شيئًا عن زوجها أو عمله، ولكنّه كان مشغولاً على الدوام ومسافرًا في أغلب الأحيان. هذا كلّ ما عرفناه. وكانت مهمّة أمّي العناية بالمنزل والطفلة، فضلاً على العناية بالممثّلة، التي لم يبدُ عليها أنّها متأقلمة على نحو جيّد مع المتغيّرات في حياتها. وكانت الطفلة مزاجيّة وممغوصة، دائمة البكاء، لكنّ الأمّ الحديثة العهد بالأمومة كانت تبكي بدورها بالسهولة نفسها التي كانت تبكي فيها ابنتها، وربّما أكثر. هي جميلة، ذات عينين لوزيّتين وشعر أسود فاحم وأنف مستدقّ ويدين نحيلتين تلوح منهما أرقّ الأوردة وأرفعها، ولو شاهدها عشّاقها في هذه الحالة لخاب ظنّهم، أمّا أمّي فقد شعرت بموجة من الحبّ والهيام لها في تلك الحالة المثيرة للكآبة.

بعد ذلك، داهم المرض السيّدة العجوز التي كانت ترعاني، فبدأت أمّي تصحبني وإيّاها، وفي حين كنت ألعب بمفردي كانت هي تكدّ وتشقى وترشّ سرًّا بذور الهال من حول سرير الممثّلة لحمايتها من الجنّ. كنّا بعد ذلك نستقلّ حافلة، فحافلة صغيرة ونعود أدراجنا إلى المنزل، فيما كانت السماء كئيبة ومعتمة من فوق المدينة. ومضى شهر بطوله، وكانت أمّي تتوقّع تلقّي أجرها كلّ يوم، ولكن لم يأت أحد على ذكره، وكانت بدورها تخجل من المطالبة به.

وفي عصر يوم من الأيّام، وبينما كانت أمّي تطهو الطعام وكنت ألعب تحت طاولة المطبخ، ظهر للعيان زوج السيّدة، وكانت تنبعث منه رائحةٌ هي مزيج من عطر ما بعد الحلاقة والويسكي،

Twitter: @ketab_n

عيناه متّقدتان ومحتقنتان وإن كان يبدو مسرورًا على الرّغم من ذلك. سار مترنّحًا في متّجه والدتي من دون أن يلاحظني وأمسك بها من جنبيها.

ثم وضع أصبعه على شفتيها وقال:

ـ *صه! إنّهم نائمون كلّهم!*

كلّهم نائمون. لن يشاهدونا. كلّهم نائمون. يمكننا أن ننام بدورنا. وسوف أشتري لك أشياء جميلة: أحذية وحقائب وملابس وزوج من الأقراط الذهبيّة... أنت امرأة طيّبة، قدّيسة. أرجوك أن تشفقي عليّ، ولن تعرف زوجتي شيئًا، ولن يعرف زوجك أيضًا. كلّهم نائمون. لست رجلاً شرّيرًا، ولكنّني رجل مثل بقيّة الرجال ولديَّ رغباتي. زوجتي لم تعد امرأة بعد الآن، لقد تغيّرت منذ مجيء الطفلة، دائمة البكاء والأنين. المدينة نائمة برمّتها.

لكنّ أمّي دفعت الرجل نحو الجدار، فلم يُبْدِ إلّا مقاومة بسيطة وهو في حالة ثمالة. كانت يداه متدلّيتين إلى جنبيه، جسده مرتخيًا وكأنّه أجوف مثل لعبة ليّنة. ثم أمسكت بي بإحدى يديها وحقيبتها باليد الأخرى وتقدّمت نحو الممرّ، ولكنّها أدركت أنّنا لا نملك ما يكفي من المال لنعود إلى بيتنا. فقالت:

ـ سيّدي... أنت لم تعطني أجري.

كان يقف بجوار الباب، مرنَّحًا قليلاً. ثم سأل مندهشًا:

ـ أتريدين مالاً؟

ـ مرتّبي الشهري...

فقاطعها قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ أنت تعامليننى هذه المعاملة وتريدين مالاً فوق كلّ ذلك؟ يا لك من عاهرة!

خرجنا من المنزل، وركبنا الحافلة وترجّلنا منها في الموقف المعتاد، وقرّرنا السير على أقدامنا بقيّة المسافة حتى نصل البيت، لكن أمّي لم تتنبّه إلى الوجهة التي كنّا نتّجه إليها، وخطوةً فخطوة ابتعدنا عن الطرق العامّة وولجنا شوارع فرعيّة ملتفّة بدت بلا نهاية. وبدأ الظلام يرخي سدوله حتى وجدنا نفسينا على الشاطئ وفي منطقة لم تسبق أن وطأتها أقدامنا. ثمّة صخور سود هائلة على امتداد الساحل ترتطم بها الأمواج. فجلسنا في تلك البقعة نستردّ أنفاسنا وننظر إلى عظمة المدينة وروعتها ولامبالاتها بنا.

ولمّا رأيتُ بعض الأصداف البحريّة الصغيرة على الشاطئ، نهضت من مكاني لجمعها، وكنت لا أزال أتسكّع على الشاطئ عندما شاهدت رجلين يقتربان من أمّي وهما يأكلان حبّ زهرة الشمس ويبصقان القشور بعيدًا، تاركَيْن من ورائهما أثرًا كما في قصّة هانسل وغريتل[1].

---

(١) هانسل وغريتل Hansel and Gretel: رفيقان مشهوران لا يفترقان في واحدة من أشهر قصص الجانّ التي وجدت بين حكايات الأخوين غريم (جاكوب لودينغ كارل غريم ١٧٨٥ ـ ١٨٦٣ وفيلهلم كارل غريم ١٧٨٦ ـ ١٨٥٩) الألمانيين. كان هانسل ابن حطّاب عثر على الفتاة الصغيرة غريتل في الغابة، وعندما هدّد الجوع أسرته، قرّر ـ بناء على مشورة زوجته ـ ترك أطفالهما في الغابة، ولكن هانسل ترك من ورائه أثرًا يمكّنه من الرجوع إلى المنزل، لكنّ الأبوين طرداهما من جديد، وبعد محاولات هروب متعدّدة بذلها هانسل، مسخته جنّيّة إلى ولد الظبي واقتيد هو وغريتل إلى قصر الملك، وفي القصر أعيد هانسل إلى شكله الآدمي السابق وتمكّن من الزواج بغريتل. يُذكر أنّ هذه الحكاية تمثّل أساس أوبرا من تأليف همبردينك (١٨٩٣) بالاسم نفسه. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

قال الرجل الأوّل:

ـ مساء الخير يا أختاه، يبدو أنّك غاية في الحزن. ما الذي تفعله امرأة مثلك في هذا المكان وفي هذه الساعة؟

وقال الرجل الآخر:

ـ نعم، يبدو أنّك في حاجة إلى مساعدة.

لم تجب أمّي، وفتّشت في حقيبة يدها عن منديل وهي تنخر. ولم تجد أيّ منديل بل وجدت عددًا من دبابيس الشعر ومفاتيح المنزل وقوائم حساب ينبغي لها أن تدفعها وحفنة من البندق أخذته معها ولكنّها نسيت أن تطعمني إيّاه وصورة فوتوغرافيّة تمثّل أطفالها ومرآة شاهدت فيها شدّة حزنها.

ـ ألديك أيُّ مكان تأوين إليه الليلة؟ لماذا لا تأتين معنا؟

وقال الرجل الآخر بوقاحة:

ـ سوف نهتمّ بك ونرعاك.

فردّت أمّي في صوت يشوبه الانزعاج:

ـ لست بحاجة إلى مساعدتكما.

ثم التفتت نحو الساحل وصاحت:

ـ هلّمي إلى هنا بسرعة يا أسماء!

دهش الرجلان لرؤيتي، ولكنّهما لم يستسلما، بل سارا في أعقابنا في صمت. لعبة: أمّي تقاوم وهما يلحّان، فتقاوم أمّي، ويلحّان كي تستسلم أمّي.

ـ ابتعدا عن طريقي! ألا تلاحظان أنّني امرأة متزوّجة؟

اختلس أحدهما نظرة خاطفة متوتّرة إليها، ولكنّ الآخر هزئ

Twitter: @ketab_n

بها وقلّب بصره، وكأنّه يريد القول: وإنْ يكن.

كان الجوّ مظلمًا يشوبه ضباب، والمارّة يقلّون عددًا، وحركة المرور قليلة أيضًا. أسرعنا خطانا، نسير في حذر، متجنّبتين منعطفات الطرق حيث يلقي ضوء القمر ظلاله الشاحبة على الأشجار. شاهدْنا امرأة أو امرأتين تتنزّهان رفقةَ زوجيهما أو شقيقيهما، مستمتعتين بما يوفّرانه لهما من حماية وامتياز. مضت عشر دقائق، أو ربّما أكثر، عندما التقينا رجلاً عجوزًا رفقةَ ولد.

ـ سلام عليكما. أأنتما على ما يرام؟

لم أنتظر أمّي كي تردّ، فقلت في حدّة:

ـ إنّنا ضائعتان.

أومأ الرجل إيماءة رقيقة وابتسم لي وقال:

ـ وأين بيتكما يا عزيزتي؟

همست أمّي باسم الحيّ، ولكنّها أضافت مجامِلةً ألّا يشغل باله علينا.

ـ حسنًا. أنتما محظوظتان، فأنا وحفيدي ماضيان في هذا الطريق أيضًا.

فاعترض الولد الذي كان أكبر سنًّا منّي وقال:

ـ كلّا، هذا غير صحيح.

ضغط الرجل العجوز على كتف الولد وقال:

ـ إنّ أقصر الطرق أحيانًا هو اتّباع طريق صديق.

ثم استدار إلى الرجلين من خلفنا وزمجر فيهما، ممّا دفعهما إلى إشاحة أنظارهما بعيدًا وبَدَوَا مرتبكَيْن على حين غرّة.

Twitter: @ketab_n

وهكذا سرنا عائِدِين إلى المنزل ـ أنا وأمّي والرجل العجوز والولد. تنشّقْتُ عبق الهواء اللاذع الذي كانت الريح تحمله من جهة البحر، ممتنّة في أعماقي للغريبين اللذين انقلبا رفيقين في الطريق على نحو غير متوقّع، ولمّا وصلنا بيتنا سألَتْ أمّي العجوزَ عن اسم حفيده، فقال مزهوًّا:

ـ يونس. وسوف يُختن في الشهر المقبل إن شاء الله.

فقالت أمّي:

ـ لو رزقني الله بولد آخر، فسوف أتذكّرك وأسمّيه يونس، كي يكون رحيمًا بالغرباء كما كنتَ رحيمًا بي.

* * *

كان أبي ينتظر جالسًا في الشقّة تحت الأرضيّة من تحت النوافذ المفعمة الآن بالخواء، يدخّن سكائره. وفي اللحظة التي انساب فيها إلى سمعه صوت المفاتيح تدور في القفل، وثب على قدميه وسأل:

ـ أين كنتما؟

قالت أمّي مقطِّبةً:

ـ اضطررنا إلى التنزّه. هيّا يا أسماء، اخلعي معطفك واذهبي إلى حجرتك.

ثم دفعَتْ بي نحو الممرّ وأغلقت الباب في قوّة جعلته ينفتح من جديد قليلاً.

ـ لم يكن لديّ مال كي أستقل الحافلة الصغيرة.

ـ ماذا تعنين بكلامك أنّك لم تملكي المال؟ كم دفعوا لك؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا شيء، ولن أذهب للعمل عندهم بعد الآن.

سأل أبي رافعًا صوته قليلاً:

ـ ما هذا الذي تتحدّثين عنه؟ لديّ ديوني، وأنت تعرفين ذلك.

ـ لم يدفعوا لي...

مرّت دقيقة كاملة لم أسمع فيها أيّ صوت، ولكن أبي أخذ نفسًا عميقًا وكأنّه يطفو بعد أن غاص في مياه عميقة، وقال:

ـ أنت تأتين إلى البيت في هذه الساعة وتريدين منّي أن أصدّق أكاذيبك؟ أين المال أيّتها العاهرة؟

ثمّة محكّة ظهر على الأريكة، وكانت أداةً صفراء بلون الخردل، باردة، ومصنوعة من قرن كبش. وفي غمضة عين، جذبها أبي ورمى بها نحو أمّي، التي كانت شاردة الذهن بسبب كلماته، ممّا جعلها تخفق في تفاديها في الوقت المناسب، فضربَتْها على صفحة وجهها ضربة قويّة أحدثت جرحًا في رقبتها.

كلّا. إنّ أبي آدم طبرق لم يكن يضرب زوجته أو أولاده، ولكنّه في تلك الليلة وفي الليالي المقبلة من السنوات، كان يفقد أعصابه ويملأ الجوّ بكلمات نابية وقذرة ويكسر الأشياء والأغراض على الجدران ويكره العالم كلّه لدفعه إلى مثل ذلك التصرّف، الذي يجعله يخشى ظلّ أبيه الفاحش الذي ينتظره ليقول له إنّه لا يختلف عنه في نهاية المطاف.

* * *

Twitter: @ketab_n

علبة بقلاوة

قرية على مقربة من نهر الفرات، ١٩٦١

لم يغادر آدم مدينة إسطنبول التي وُلد وترعرع فيها إلّا عندما بلغ الثامنة عشرة من العمر، وكانت تلك هي أوّل مرّة يغادرها، مصطحبًا حقيبة ثياب مملوءة بالملابس الداخليّة النظيفة وماء الكولونيا بعطر الخزامى وعلبة بقلاوة. استقلّ إحدى الحافلات، وبعد مرور أربع وعشرين ساعة وصل منهكًا ومشتّت الأفكار بلدةً من بلدات الجنوب الغربي لا يعرف عنها الشيء الكثير، ومن تلك البلدة انطلق على ظهر شاحنة إلى قرية محاذية للحدود الشماليّة السوريّة. في تلك البقعة كان شقيقه خليل يؤدّي خدمته العسكريّة منذ خمسة شهور.

كانت سحنة خليل قد مالت إلى الاسمرار بسبب شمس الشتاء، وكان قد فقد شيئًا من وزنه، غير أنّ التغيّر الأكبر كان في سلوكه وتصرّفه، حيث اكتسبت عيناه بريقًا ينمّ عن شدّة استغراقه في التفكير، كما بدا صَموتًا قليلَ الكلام على نحو غير مألوف، وكأنّ

Twitter: @ketab_n

ارتداء الزيّ العسكري قد غيَّر من شخصيّته. وحتى عندما قَبِلَ تسلّم الثياب الداخليّة وماء الكولونيا عن سعادة وفرح، بدا معبِّرًا عن تفكير حزين أكثر ممّا هو مرح. نظر آدم إليه نظرةً فاحصةً ملؤها حبّ الاستطلاع، لأنّه سوف يصبح جنديًّا بدوره بعد عام من الزمن تقريبًا. ولمّا كانت الخدمة العسكريّة إلزاميّة، فقد قرّر أن يؤدّيها بعد إنهائه الدراسة الثانويّة مباشرة. أمّا الجامعة، فهي ليست لأمثاله، فضلاً على أنّه لا يستطيع تسديد نفقاتها. وبعد تسريحه من الجيش، سوف يبحث لنفسه عن عمل ويتزوّج وينجب ستّة أطفال ـ ثلاثة أولاد وثلاث بنات. قصارى القول، هذا هو المستقبل الذي كان يتخيّله لنفسه.

ولمّا انتهت ساعات الزيارة، غادر آدم أخيه في ثكنته العسكريّة وامتطى حمارًا ليعود إلى أقرب قرية. امتدّت الأرض المكسوّة بالثلج فأصبحت بلون الشوفان، على مدّ البصر. الطبيعة قويّة في هذه المنطقة، عنيدة. ولم يفطن إلى أنّه نسي أن يسلّم خليل علبة البقلاوة إلّا عندما كان يتأمّل الطبيعة.

وفكّر في نفسه: قسمة ربّما تكون من نصيب شخص آخر.

ولمّا وصل آدم إلى القرية وجد المختار، ولحسن الحظّ كان والده قد تاجر وإيّاه في الماضي، وعلى الرّغم من أنّ الرجلين لم ير أحدهما الآخر منذ سنوات طويلة، إلّا أنّهما بقيا على صلة بوساطة أصدقاء مشتركين. وهكذا، وقبل أن ينطلق آدم في هذه الرحلة كان قد أرسل بطاقة بريديّة إلى صديق والده يُعْلِمه بنبأ وصوله، إلّا أنّ باله انشغل عندما لم يتلقَّ أيَّ ردٍّ منه.

وعندما طرق آدم الباب صاح المختار:

Twitter: @ketab_n

ـ بطاقة بريديّة؟ أيّة بطاقة؟ أنا لم أتلقّ شيئًا. كان المختار رجلاً داكن البشرة، فارع القدّ، يضطرّ إلى الانحناء كلّما دخل أو خرج من أحد الأبواب، وكان شارباه الكثيفان يلتفّان أعلى شفتيه. أمّا خزانة أدوات المائدة، فكانت صقيلة مدهونة بمادّة تبدو مثل الزيت.

فقال آدم:

ـ آ... آسف... يستحسن أن أمضي في سبيلي.

ـ إلى أين؟

ـ أ... أبحث... أ...

فهدر المختار:

ـ إنّ هذا البيت لم يرحّب بأحد قطّ.

وأدرك آدم رويدًا رويدًا أنّ هذا الرجل الكردي لم يكن غاضبًا منه، وأنّه لم يكن يصرخ بأعلى صوته، فصوته عالٍ بطبعه وأجشٌّ، كما أنّه لم يمارس الكلام باللغة التركيّة، فيبدو ثائرًا، على حين أنّه ليس بثائر.

ـ حسنًا، شكرًا لك. في الحقّ، إنّها ليلة واحدة.

ـ ليلة واحدة؟ لا يمكنك الرحيل مبكرًا، فثمّة حفل زفاف بعد يومين، ولا بدَّ لك من الانضمام إلينا ومشاركتنا، وإلّا فتلك إهانة لأسرة العريس.

أراد آدم أن يسأل: كيف يمكن للأسرة أن تشعر بالإهانة وهي لا تعرفني حقًّا؟ لكنّ العادات والتقاليد مختلفة في هذا الجزء من البلاد، فضلاً على أنّها أكثر وضوحًا، يضاف إلى ذلك أنّه لم يكن

Twitter: @ketab_n

لديه أيّ سبب يدفعه إلى العجالة في الرجوع إلى إسطنبول، كما أنّ ما من أحد يتطلّع إلى قدومه على وجه السرعة.

بقدر ما كانت حفلات الزفاف سعيدة، كما يبدو، إلّا أنّها كانت مبعثَ حزن لآدم منذ زمن بعيد، لأنّها كانت تذكّره على الدوام بوالدته عائشة، فاسمها لم يعد يذكره أحد في المنزل بعد الآن، وصورها أُتلفت وكأنّها لم تكن شيئًا مذكورًا، أمّا المخرّمات التي كانت تتقنها والمناديل التي كانت تنقشها والقلادات التي كانت يومًا ما تزيّن جيدها الطويل والقمصان والجوارب الطويلة ودبابيس الشعر التي كانت تضعها على رأسها... فقد أُحرقت عن بكرة أبيها في نار أضرمها بابا (السكّير).

إذًا، قَبِل آدم دعوة المختار، ولبث في القرية متخِمًا نفسَه بالزبدة الطازجة والقشدة اللذيذة والعسل الشهي. وفي عصر اليوم التالي، استسلم المختار للنوم بعد تناوله وجبة طعام الغداء، وانهمكت زوجته وبناته في تلميع الأواني النحاسيّة في المنزل، بينما انشغل أولاده بلعب النرد. كان آدم قد زار شقيقه في صباح ذلك اليوم، وكانت الزيارة أقصر هذه المرّة من سابقتها وإن لم تكن أقلّ رقّة في عاطفيّتها. ونسي آدم البقلاوة مرّة ثانية، ولمّا لم يكن لديه أدنى اهتمام بلعبة النرد، ولافتقاره إلى أيّ شيء آخر يعمله، فقد قرّر أنّ الأفضل له أن يخرج في نزهة.

تجوّل في أرجاء القرية وشاهد البيوت المتداعية المخلّعة الأوصال، والتصدّعات في الجدران، والأطفال الذين تنتشر القذارة من تحت أظافرهم، وآثار عجلات العربات والقوافل التي قطعت هذه الأرض من دون أن ترجع إليها ثانية. كلّ شيء قَفْرٌ

Twitter: @ketab_n

ومعرّض للريح وإن كان مُغْوِيًا وفاتنًا على نحو غريب. وصادف أثناء تجواله مجموعةً من الكلاب السائبة تتوسّط القاذورات، كشف أحدها، وهو من فصيلة كلبيّة ذات أسنان نابية، عن أنيابه، فيما بدت عيناه محتقنتين وجلده ميّالاً إلى اللون البرتقالي، وسرعان ما حذت بقيّة الكلاب حذو هذا الكلب، فكشّرت عن أنيابها وزمجرت وعوت وانتصبت آذانها إلى الوراء، فما كان من آدم إلّا أن استدار على عقبيه وأطلق ساقيه للريح وإن كان يعرف أنّ هروبه سيدفع بالكلاب إلى ملاحقته.

تقطّعت أنفاسه وهو يجاهد من فوق الدروب الموحلة من دون أن يعرف إلى أين يتّجه، إلى أن وصل في نهاية المطاف إلى بيت مكسوّ بالخضرة انتشر في حديقته الأماميّة الدجاج وصغار الدجاج، وشاهد شخصًا يجلس فوق سور الحديقة: نصف فتاة ونصف امرأة. ضحكت لمّا شاهدته جزِعًا، ونظرت إليه نظرة فاحصة، فما كان من آدم إلّا أن اندفع في متّجهها ودلف إلى الحديقة من دون أن يطلب الإذن بذلك، لائذًا بثقتها بنفسها.

ولم تصل الكلاب الحديقة إلّا بعد بضع ثوان، وحامت من حوله في جميع الاتّجاهات، واقترب أحد الكلاب منه اقترابًا يوحي بالخطر، ثم جثم في مكانه، وفي اللحظة التي كاد فيها أن يهجم على آدم، صفّقت الفتاة بيديها وهتفت في صوت هو مزيج من السلطة والبهجة، ونطقت بكلمات لم يستطع آدم أن يدركها، فكان لتأثيرها وقع السحر، إذْ هدأت الكلاب وجلست واحدًا تلو الآخر، مطأطئة رؤوسها، خائفة وذليلة.

حدّق آدم إلى منقذته، منزعجًا لأنّ فتاة أنقذته، ولكنّه كان في

Twitter: @ketab_n

الوقت نفسه مرتاحًا من صميم أعماقه. كانت ثمّة غمّازة في خدّها الأيسر، وكانت ذات عينين واسعتين رائقتين بلون قاع بحيرة، في يدها قطعة من معجّنات سرعان ما عادت إليها وبدأت تلتهمها. وأدرك آدم أنّه لم يشاهد في حياته فتاة بمثل هذه الشهيّة للأكل.

سألته:

ـ هل تخاف الكلاب؟

لكنّه لم يجب.

فقالت:

ـ لو عرفت الكلاب أنّك تخافها لبثَّت الرعب في قلبك. حيوانات ذكيّة. أختي تحبّها.

ثم مالت إلى أمام وكأنّها تبوح بسرّ:

ـ أمّا أنا فلا أحبّها.

كانت الفتاة تتحدّث باللغة التركيّة بنبرة ثقيلة. وفكّر آدم في نفسه: إنّها فتاة كرديّة جاهلة، ربّما مبتلاة بالقُمَّل. ثم رشق ضفائر شعرها الجميلة بنظرة خاطفة، البنّيّة بلون الكستناء والتي ينبعث منها لمعان ذهبي وعنبري، واعترته رغبة شديدة لا سبيل إلى مقاومتها في لمس ضفائرها جعلته يرفع يده، ولكنّه توقّف في منتصف المسافة وقال:

ـ كيف تعرفين اللغة الكرديّة على حين لا يعرفها معظم القرويّين؟

ـ لقد تعلّمتها في المدرسة، وكذلك شقيقاتي كلّهنّ، فقد أصرَّ أبي على ذلك.

Twitter: @ketab_n

أنعم آدم النظر في البيت وفي الثياب والتنّورات والجوارب من فوق حبل الغسيل، وأضاف:

ـ كم أختًا لكِ؟

ـ أنا البنت الثامنة في الأسرة.

ـ عجبًا! أما من أولاد؟

فهزّت رأسها وغيّرت من الموضوع.

ـ هه! أتحبّ هذه المعجّنات؟ إنّها فطيرة وأنا التي صنعتها.

تناول قطعة الفطيرة التي ناولته إيّاها وغرز أسنانه في عجينتها المنتفخة والدسمة، إذْ لم يتوقّع أن تكون لذيذة إلى هذا الحدّ. ورفعت الكلاب بصرها إليه متوقّعةً شيئًا ما، وهزّت ذيولها. قضم الاثنان الفطيرة في صمت، بينما كانت عيون الكلاب تراقبهما مراقبة تكشف عن مدى تأنيبها لهما. وحار الاثنان كيف السبيل إلى مواصلة الحديث.

قال آدم عندما استعاد رباطة جأشه:

ـ إنّني أقطن في إسطنبول.

ـ حقًّا؟ الكلّ يقول إنّها مدينة جميلة.

فأجاب آدم بنوع من الزهو:

ـ هذا صحيح.

وشعر أنّه بدأ يميل إليها. ثمّة خفّة في سلوكها خلبت لبّه. كما أنّ العفويّة التي راحت تتكلّم بها هدّأت من روعه.

وعلى حين بغتة قالت:

ـ أتسمح لي أن أوجّه إليك سؤالاً؟

Twitter: @ketab_n

ولكنّها مضت في الكلام من دون أن تنتظر ردًّا منه:

ـ هل أنّ حجارة رصف الشوارع في إسطنبول مصنوعة من الذهب؟

وفكّر آدم في نفسه: أيّ فتاة هذه؟ لديها من الشجاعة ما يكفي لأن تواجه طائفة من كلاب متوحّشة ولكن في الوقت نفسه لديها من السذاجة ما يجعلها تصدّق مثل هذا الكلام الأجوف! ولكنّه على الرّغم من ذلك متيَّم بفتنتها، ووجد نفسه يقول:

ـ نعم، هي كذلك. إذا ما قُدِّر لك أن تتزوّجي شخصًا مثلي فيمكنك عندئذٍ السفر إلى إسطنبول لمشاهدة ذلك بنفسك.

فاحمرّت وجنتاها خجلاً، وسألت:

ـ ولماذا ينبغي لي الزواج؟

ـ لأنّ في وسعي أن آخذك إلى مكان بعيد.

ـ لا أريد الذهاب إلى مكان بعيد، فكلّ شيء متوفّر في هذا المكان، بل وأكثر من ذلك.

كان لا يزال يفكّر في كيفيّة الردّ عليها عندما انساب إلى سمعهما صوت امرأة قادمة من البيت، فوثبت على قدميها ووقفت قبالته وحدجته بنظرة ثاقبة، قبل أن تلتفت إلى الكلاب وتهزّ إصبعها في وجهها قائلة:

ـ اتركوه وشأنه!

ولمّا توارت عن الأنظار، بدأ آدم يشقّ طريقه في بطء كي يخرج من الحديقة، فراقبه زعيم الكلاب ونظر إليه نظرة ذات فحوى، وما أن مرَّ آدم أمامه حتى زمجر الكلب في وجهه، فارتعد،

Twitter: @ketab_n

وسقط من يده ما تبقّى من الفطيرة، وشعر بالأسى لمّا شاهد السكّر يمتزج بالتراب على الأرض.

ليس ثمّة أرصفة ذهبيّة في إسطنبول، ولا حتى في أيّ مكان آخر من العالم، ولا أحلام يركض المرء من خلفها، فهذه الأشياء لا توجد إلّا في الأساطير وقصص الجانّ. أمّا العالم الحقيقي بما فيه من أناس حقيقيّين، فهو أشبه بمزيج من السكّر والتراب، وله الطعم نفسه بهذا القدر أو ذاك. أفلم تعرف هي ذلك؟

* * *

حضر آدم الزفاف في اليوم التالي، وكان زفافًا لم يشاهد مثله من قبل، فقد امتلأ الفناء حتى فاض بالرجال من مختلف الأعمار وقد جلسوا في نصف حلقة، بينما كان أحد العازفين يقرع طبله وآخر يعزف على آلة الكلارينت. وكان الأطفال يركضون على هواهم من دون أن يهتمّ بهم أحد، والنساء يراقبن المشهد من فوق السطوح المستوية، وجوههنّ نصف مغطّاة وأيديهنّ تكسوها الحنّة. وتنبّه آدم إلى أنّ الرجال العزّاب كانوا حذرين لا يرفعون أبصارهم إلى أعلى، فلم يرفع بدوره بصره إلى أعلى، بل ظلّ ينظر أمامه.

وفي الجانب الآخر من المدخل، جلس والد العريس ووالد العروسة جنبًا لجنب من دون تبادل أيّ كلمة. أمّا الأقارب، فقد جلسوا على كلا الجانبين حسب مكانتهم أو درجة قرابتهم، في حين جلس العريس في الوسط، حيث يمكن لكلّ المدعوّين مشاهدتهم ما شاءت لهم المشاهدة. وكان العريس حليق الذقن، يبتسم بين الفينة والفينة، وكانت تصعب معرفة شعور العروسة، لأنّ وجهها كان مخفيًّا من وراء خمار قرمزي برّاق، وكانت إحدى

Twitter: @ketab_n

النساء تقترب من وقت لآخر منهما على رؤوس أصابعها حاملة شيئًا ما تشربه العروسة بعد أن ترفع الخمار قليلاً كي ترشف من دون أن تسكب أيّ شيء على ثيابها، ومن دون أن يراها أحد.

كان آدم قد قرّر الجلوس في ركن هادئ عندما تنبّه له المختار وصاح به مشيرًا إلى المقعد المجاور له:

ـ تعال واجلس بجانبي يا فتى المدينة!

وهكذا، ذهب آدم وجلس منفرجَ الأسارير ومستمتعًا بالاحتفال، إلى أن أخرج الرجل الجالس بجانبه مسدّسه وبدأ يطلق العيارات الناريّة في الهواء، وسرعان ما حذا آخرون حذوه. الصوت يصمّ الآذان، ونفذت رصاصة إلى سطح أحد البيوت القريبة تاركة ثقبًا فيه، وانهال الغبار من بين الألواح الخشبيّة. انتاب الذعر آدم وخاف أن يُصاب بإطلاقة، فما كان منه إلّا أن رشق المكان بنظرة عابرة، في هلع وجزع، وفي غمار الفوضى الضاربة أطنابها في المكان، حبس أنفاسه لمرآها واقفة فوق أحد السطوح المستوية ترمقه بنظراتها، رابطة الجأش، هادئة، مدركةً ـ على ما يظهر ـ أنّها الشيء الوحيد الهادئ في عالم خارج عن السيطرة.

وما أن هدأ إطلاق النار حتى طلب آدم الإذن وخرج يبحث عن مرفق صحّي، وإنْ كانت بغيته الحقيقيّة إيجاد سبيل ما للحديث إليها. وما أن خرج من البوّابة الرئيسة حتى لمحها جالسة على مقربة من بئر، منهمكة في إعداد قدر عظيم من شراب اللبن. متى هبطت من فوق السطح؟

قال:

Twitter: @ketab_n

ـ تسرّني رؤيتك ثانية.

فنظرت إليه في برود:

ـ ماذا تقول؟

خيّل لآدم أنّها تتظاهر بعدم رؤيته قبل الآن لأسباب ذات صلة بالحشمة والتحفّظ، وهي بلا شكّ أسباب مطلوبة من امرأة شابّة في مثل هذا المكان، فما كان منه إلّا أن قرّر أن يجاريها في لعبتها وقال:

ـ معذرة. كان ينبغي لي ألّا أتطفّل وأزعجك. المؤكّد أنّك لا تعرفينني. اسمي آدم. هلّا عرّفتِني باسمك؟

أجابت في حدّة متسائلة:

ـ ولماذا أخبرك باسمي؟

ثم لوت شفتيها وبانت الغمّازة من على وجنتها اليمنى. كانت عيناها مختلفتين في هذا اليوم، العينان نفسهما ولكنّهما متغيّرتان، تومضان وميضًا ينمّ عن تشامخ، أو هكذا لاحتا له. وفي طرفة عين، خُيِّل إليه أنّها تهزأ به، فما كان منه إلّا أن اعتذر ومضى في سبيله، وتبوّل وراء إحدى الأشجار وهدَّأ من روعه قليلاً، وعاد إليها ليجد أنّها قد انصرفت ولم تعد قرب البئر.

كانت العروس تتهيّأ للذهاب إلى منزلها الجديد بعد أن امتطت جوادًا بلون العاج يجرّه أحد الغلمان، في إشارة إلى أنّها سوف ترزق بالبنين أيضًا. وكان شعر عنق الجواد مزيّنًا بأشرطة قرمزيّة وحبّات الخرز لطرد العين الشرّيرة، في حين كان ذيله مضفورًا. وفي حين سار خلف الجواد حشد من الأولاد وطائفة من النساء

Twitter: @ketab_n

يصفّقن ويزغردن، استعدّ الضيوف من الرجال للجلوس لتناول عشاء الزفاف. وحمل الشبّان صواني الطعام النحاسيّة الدائريّة والكبيرة إلى داخل المنزل. ولمّا قفل آدم راجعًا، بات في مستطاعه أن يشمّ رائحة أقراص الخبز واللحم، وعندما دخل الفناء شاهدها مرّة أخرى. كانت تبدو مسرعة، حاملة طفلاً يبكي.

اعترض آدم طريقها وسألها:

ـ لماذا أنت غاضبة منّي؟

قالت مقهقهةً:

ـ ماذا؟ لماذا أغضب منك؟

بدا الطفل مأخوذًا بين ذراعيها، إذْ لزم الهدوء فجأة.

ـ لماذا لم تخبريني باسمك إذًا؟

فابتسمت له وهي تدسّ خصلة متدلّية من شعرها في داخل وشاحها الفضفاض وقالت:

ـ لأنّك لم تسألني عن اسمي، ولكن بما أنّك تسأل الآن، فإنّ اسمي هو جميلة.

فأومأ برأسه ممتنًّا لها.

ـ وما اسمك أنت؟

فقال هامسًا:

ـ ولكنّني أخبرتك به قبل قليل.

انفرجت أساريرها وقالت:

ـ لعلّك كلّمت أختي التوأم بمبي. متى رأيتَها؟

Twitter: @ketab_n

بدأ إطلاق الأعيرة الناريّة من جديد وكأنّ سؤالها هو الذي حفّزه، على حين انفجر الطفل الصغير في البكاء، فاضطرّت جميلة إلى الخروج من الفناء. أمّا آدم، فقد مكث واقفًا في مكانه ذاهلاً إلى حدٍّ ما، ولكنّه مرتاح أيضًا. توأمان! نعم، هذا يوضح كلّ شيء: السلوكَ الفظّ والنظرةَ الجامدة. ليست تلك جميلة، ليست جميلته.

وعند المساء وقف آدم بجانب النافذة مراقبًا ضوء القمر من على السطوح ملقيًا أشعّته الفضّيّة على القرية برمّتها. كانت أنوار المنزل تشبه وميض حافّات سكائر، وانتابه السرور لأنّه سيرحل عن المكان قريبًا. لكن ماذا سيفعل من دون جميلة؟

وذهب لزيارة المختار، فوجده في ثياب النوم يدخّن نارجيلته. ثمّة مصباح زيتي بجانبه يعكس ظلالاً من على الجدران على عينيه، فيتسبّب في ظهور تجاويف من تحتها.

ـ أريد أن أقدّم لك هذه البقلاوة وأن أعبّر لك عن شكري وامتناني لضيافتك و...

لكنّ المختار قال في صوت واهن:

ـ آه، لا يمكنني أكل البقلاوة. أتمنّى لو كان ذلك في إمكاني، لكنّني مُصاب بداء السكّر.

رشق آدم علبة البقلاوة التي كان يحملها في يده بنظرة طويلة، فربّما ستكون من نصيب شخص آخر. ثم أخذ نفسًا عميقًا وعزم على معالجة الموضوع معالجة غير مباشرة، إلّا أنّه لم يجد سبيلاً إلى ذلك الآن.

ـ في هذا اليوم، شاهدتُ فتاة أثناء الزفاف.

Twitter: @ketab_n

ـ فتاة؟

راقب آدم وجه الرجل في بطء عندما رفع حاجبيه إلى أعلى مدركًا هدفه ومفكّرًا في نفسه: آه يا الله! يظن الفتى أنّه أسير الغرام!

ثم حثّه على الكلام قائلاً:

ـ أخبرني عن هذه الفتاة. ما اسمها؟

فردَّ آدم وهو يحسّ بوجهه يتّقد نارًا:

ـ جميلة... ذات الشعر الكستنائي الطويل والعينين الخضراوين الواسعتين.

لكنّ المختار هزَّ رأسه وهو يأخذ نفسًا من نارجيلته:

ـ كلّا. ليس في هذا المكان مثل هذه الفتاة.

ـ تتكلّم التركيّة.

ـ آه... أظنّني عرفت ماذا تعني. بنات بيرزو. لقد التحقن كلّهنّ بالمدرسة. هل تعني بس جميلة؟

ـ بس جميلة؟

قال المختار موضحًا:

ـ نعم، هي وأختها التوأم. لقد سُمِّيتا مرّتين. بخت بمبي وبس جميلة.

لكنّه لم يوضح أكثر. ثم أضاف:

ـ انظر إليَّ! أنت أصغر سنًّا من أن تعرف هذه الأمور، لكنّ حبّ الرجل يعكس شخصيّته.

أصغى آدم من دون أن يعلم معنى كلام المختار.

Twitter: @ketab_n

ـ إنْ كان الرجل محبًّا للخصام فسوف يكون حبّه مفعمًا بالشجار. وإنْ كان رائق المزاج، هادئًا وعطوفًا، فإنّ حبّه بلسم. وإذا ما اضطرّ إلى الإحساس بالشفقة على نفسه طوال الوقت، فسوف ينهار حبّه ويتحوّل إلى غبار. وإذا كان فتًى مرحًا، فسوف يكون حبّه مفعمًا بالفرح والسرور.

قال آدم:

ـ حسنًا، إنّني رجل صالح.

قال المختار:

ـ الرجل الصالح الوحيد الذي أعرفه كان النبي محمّدًا ﷺ. على أيّة حال، لبيرزو عديد الفتيات، والتقاليد تستوجب تزويج الفتاة الكبرى أوّلاً. أمّا جميلة فهي الأصغر سنًّا. لكنّني أستطيع أن أرى أنّ هذا الزواج مثالي. لقد مرّت الأسرة بأوقات شديدة وصعبة، فقد توفّيت الأمّ نازي أثناء الولادة. يا لها من امرأة مسكينة. كم كانت تتمنّى أن تنجب ولدًا. وتزوّج بيرزو من جديد، ولكنّ الزوجة الجديدة لم تنجب له أطفالاً بعد. ثم هناك البنت الكبرى هديّة...

ـ ماذا حدث؟

ـ ذلك الرجل محكوم بقدر مشؤوم يا بني. ربّما يرغب في تزويج البنات في عجالة، وربّما ليست جميلة مضطرّة إلى الانتظار.

وهنا انفرجت أسارير آدم عن ابتسامة. ثمّة أمل على أيّة حال، وإن كان أملاً ضعيفًا.

فهمس المختار:

Twitter: @ketab_n

ـ ولكن لا تنسَ أنّ الأسرة فقيرة، وقد لا يوافق والدك وإخوتك على الزواج بعروس كرديّة، بقرويّة. من جهة ثانية، لا تملك أسرتك سمعة طيّبة ما دام أنّ والدتك قد هربت رفقةَ رجل آخر. ربّما يستحسن بك أن تختار امرأة من هذا المكان، وإن كان ذلك من غير المألوف.

وعلى حين بغتة اكفهرّ وجه آدم، إذْ لم يَدُرْ في خلده قطّ أنّ هذا الرجل يعرف عن العار الذي لحق بأسرته. الكلمات كالقبائل الرحّل، بلا عنوان ثابت، وهي ترحل إلى كلّ الجهات، منتشرة في أنحاء الأرض.

Twitter: @ketab_n

عشق كالمذنَّب

مكان على مقربة من نهر الفرات، كانون الأوّل، ١٩٧٧

غفت جميلة غفوة خفيفة في هدأة الليل بجوار المدفأة مائلة الرأس إلى أحد الجانبين، تتدلّى يدها اليسرى من فوق حافّة الكرسي بينما كانت يدها اليمنى تمسك بثباتٍ رسالةً. لقد استسلمت للنعاس أثناء قراءة الرسالة للمرّة الخامسة.

كان نومها غيرَ مريح، يحتشد بالشياطين، واندفعت الدماء إلى وجنتيها فاحمرّتا، واكتسى وجهها بطبقة رقيقة من العرق وومض. رأت في الحلم أنّها في بلدة بدت لها مألوفة من جهة ولا تشبه أيّ بلدة أخرى في العالم. كان ثمّة نهر يجري في وسطها، واسع، متمرّد، تتلاطم المراكب وتصطدم في مراسيه، مراكب من مختلف الأحجام، تعلو وتهبط، ووجدت جميلة نفسها وحيدة على واجهة الماء تختلس النظر إلى أحد مراكب الصيد، وثمّة جمهرة من الأهالي داخل قمّرة المركب، وجوههم مكسوّة بالوجوم وأجسادهم دبقة وتبدو قادرة على التكيّف أو التأقلم، مطواعة وكأنّها مصنوعة

Twitter: @ketab_n

من شمع، وكانوا يتحدّثون بحماسة... عنها.

وندّ عن شفتي جميلة ما يشبه الأنين والحسرة، ولاحظها أحد الرجال ـ وهو رجل يشبه آدم شبهًا عجيبًا ـ فنبّه الآخرين، فهاجوا وماجوا من دون سبب يذكر، ومضوا مسرعين من فوق المركب وهبطوا إلى رصيف الميناء يطاردونها، فما كان منها إلّا أن ركضت بأقصى ما تستطيع، واجتازت أزقّة ملتوية وساحات مكسوّة بالحجارة، غير أنّها سرعان ما شعرت بالتعب والإرهاق، وغدت قدماها أثقل من كتل إسمنتيّة.

تستيقظ جميلة عندما يحاصرها مطاردوها في نهاية المطاف في زقاق لا منفذ له، وعندما تقذف نفسها بكلّ قوّتها... وتخرج من الحلم لاهثة، ولكنّها كانت حتى تلك اللحظة لا تزال في حلمها، في بلدة الكابوس.

الهواء في الكوخ يبدو فاسدًا ونتنًا، آخر قطعة خشب في المدفأة تصدّعت وتحطّمت وتحوّلت إلى نيران ملتهبة، مرسلةً بذلك رذاذًا من شرر ذهبي اللون يشبه غبارًا ينبعث من عصا ساحر. أمّا خارج الوادي، فكان ثمّة طائر يصيح بأعلى صوته.

ثمّة وقْعُ أقدام، ولكنّها بعيدة، غير واضحة، ولم تسمعها جميلة، فهي لا تزال تهرب للنجاة بحياتها بعد أن انعطفت وولجت شارعًا مسدودًا. في هذه اللحظة، بدا وجه جميلة أكبر سنًّا من وجه تلك المرأة البالغة من العمر اثنين وثلاثين عامًا. ثمّة تجاعيد من حول رقبتها وخطوط مائلة تشبه حروفًا أبجديّة مبهمة محفورة بإزميل على الخشب. الحقّ أنّها لم تعد تحسّ أنّها شابّة منذ سنين.

وبهزّة مفاجئة، ارتجّ جسد جميلة وجُذب إلى الخلف،

Twitter: @ketab_n

فاستيقظت، وظهرت على خدّها آثار لوح الكرسي المحفور، وشعرت بألم فظيع يسري في كتفها الأيسر، فلم تتجرّأ على الحركة أوّل الأمر، ثم بدأت تمسّد أطرافها المتصلّبة بإحدى يديها بينما كانت ممسكة بالرسالة بيدها الأخرى. حدجت الورقةَ بنظرة طويلة وكأنّها نسيت أمرها، ولكنّ الرسالة كانت حقيقيّة، ماثلة أمامها، على العكس من المراكب التي راودتها في حلمها، حقيقيّة مثل الجبال المحيطة بها، ولكنّها مثقلة بالاحتمالات. وبدأت جميلة تقرأها من جديد:

أختي. منذ أن جئت إلى هذه الجزيرة التي لم أشاهد فيها البحر بعد، فقد تمنّيت مرّات ومرّات أن تكوني بجانبي. ولكنّني لم أتمنَّ ذلك قدْرَ ما أتمنّاه الآن. فلو كنتِ هنا، لوضعتُ رأسي في حضنكِ وأخبرتك أنّني لم أسقط. فهل ستمسكين بي؟

آدم لم يعد زوجي، فهو لا يأتي إلى المنزل منذ زمن ووجد له امرأة أخرى. الأطفال يجهلون أمره، لأنّني أُبقي كلّ شيء في داخلي سرًّا دائمًا. قلبي يحتشد بكلمات لم أتفوّه بها، وبدموع لم أذرفها. إنّني لا ألومه، بل ألوم نفسي. كانت أكبر غلطة في حياتنا أنّني أصبحت أنا عروسه بدلاً منك. صحيح أنّه لم يحبَّني على النحو الذي أحبّك، لكنّه رجل مفعم بالحسرات ويفتقر إلى الشجاعة. إنّني أشفق عليه.

كم أتمنّى لو عدنا أطفالاً من جديد. أنا وأنت. نسرق النقود من نافورة الأمنيات. آه لو كنّا نعرف يومئذٍ ما نعرفه الآن.

هل أخبرتك عمّا قاله آدم لي يومًا؟ قال: «ليتني كنت أملك ممحاة سحريّة، لأنّ ثمّة أشياء كثيرة أحبّ أن أغيّرها». وقد عرفت

Twitter: @ketab_n

أنّه كان يعنينا بكلامه، وإن لم يعترف صراحةً بذلك. ما كان ينبغي لي الزواج مطلقًا. صحيح أنّ الأمر لم يكن في يدي ولكنّني لم أحاول الحيلولة دونه. لا، لم أحاول حقًّا، فأنا شخصيًّا كنت أبغي الخروج من القرية. كان تذكرتي إلى أماكن أخرى. لا بدّ أنّك منزعجة منّي يا جميلة. لو كنت مكانك لانزعجت حقًّا.

هل فكّرتِ يومًا بأختنا هديّة؟ قبل أيّام صنعتُ حلاوة على روحها ووزّعتها على جيراني، فاستبدّت بهم الدهشة قليلاً لأنّهم لا يعرفون شيئًا عن عاداتنا. عارٌ علينا أنّنا لم نحزن عليها على النحو المطلوب. أتشعرين بمثل هذا الشعور؟

نصفك المحبّ: بمبي

نهضت جميلة وهي تفرك ما تصلَّبَ من راحتَيْ كفّيها واقتربت من النافذة واختلست نظرة إلى أعماق الليل. ظنّت أنّها سمعت صوتًا ولكنّها ارتابت في ذلك بعد أن أصاخت السمع في عناية أكبر. تنهّدت وعادت أدراجها ووضعت الغلّاية فوق المدفأة وبدأت تعدّ الشاي.

* * *

كان آدم قد قال: «ثمّة نجوم كثيرة في السماء في هذه الليلة».

كان ذلك في مساء شديد البرودة من مساءات العام ١٩٦١.

اقترب آدم منها أكثر، عيناه تنقّبان في وجهها، وأخبرها أنّ بعض العشّاق يشبهون أشدّ النجوم لمعانًا، يستدرجون بني البشر ويملأون الأفئدة أملاً وبهجة حتى في الأوقات العصيبة. وثمّة

Twitter: @ketab_n

عشّاق آخرون يشبهون درب اللبانة، تطاردهم أشباح أسلافهم.

وسألت جميلة:

ـ وحبّنا؟ أهو نجمة أيضًا؟

جفل آدم من سهولة التفوّه بهذه الكلمات. كان مستغرقًا في التفكير لا يعرف كيف يخبرها أنّه يحبّها، ولكن ها هي تنطق بذلك بنفسها. إنّها أشدّ جرأة منه، وأكثر شجاعة. أمّا هو، فإنّه يرى كلّ شيء يحدث في سرعة بالغة، تاركًا إيّاه ذاهلاً ومرعوبًا في الوقت ذاته. ومع هذا، فليس من وقت للانتظار، للّحاق، لا وقت للتنزّه متماسكي الأيدي، ولا وقت لتبادل قبلات خاطفة، ولا وقت كي يتعرّف أحدهما على الآخر.

قال منفرج الأسارير:

ـ حبّنا نجمة من النجوم ذات ذيل مزدوج عظيم. أتدرين ما ذلك؟

فهزّت جميلة رأسها نافية، فقال:

ـ إنّه مذنَّب.

ـ مذنَّب...

ثم نهضت من مكانها وهي لا تزال تكرّر النطق بالكلمة، وجذبت المنجل من فوق الحائط وقصّت خصلة من شعرها الطويل.

فسألها آدم دهشًا:

ـ لي أنا؟

ـ سوف تُذكّرك بي. احتفظ بها معك على الدوام.

Twitter: @ketab_n

في وجهها حبّ وقلق وانشغال بال، وشيء ما لم يسبق له أن رآه في أيّ وجه آخر: الثقة.

وقال:

ـ لست بحاجة للاحتفاظ بها، لأنّك سوف تبقين بجانبي طوال الوقت.

غير أنّه وضع هديّتها في جيبه، كأنّه لم يصدّق كلماته.

وبعد مرور سنين، سوف تتعلّم الشيء الكثير عن المذنّبات وعن أسباب إمكان اصطدام أحدهما بالآخر. وعلى الرّغم من أنّ آدم قد لا يكون مدركًا لهذا الأمر في ذلك الوقت، إلّا أنّها بدأت تدرك أنّهما كانا مثل مذنّبين، ينطلقان في سرعة رهيبة ليصطدم أحدهما بالآخر، تاركَيْن من ورائهما عبء وعود لم يوفَّ بها وأحلام لم تتحقّق.

* * *

رفعت جميلة إبريق الشاي من فوق النار وصبّت الشاي في أقداح صغيرة، وقبل أن ترشف رشفتها الأولى، وضعت مكعّبًا من السكّر في فمها وبدأت تمصّه وهي مستغرقة في التفكير، شاردة الذهن، ثم أمسكت القلم في قوّة غير ضروريّة، كما يمسكه من لم يتعوّد الكتابة. وبخلاف أخواتها، اللواتي كنّ يكتبن بالتركيّة تارة وبالكرديّة تارة أخرى، فقد تمسّكت بالكتابة باللغة الكرديّة وحدها:

عزيزتي بمبي، لحمي ودمي، نصفي الآخر، وشوقي الذي لا ينتهي. أنا لا أغضب منك أبدًا. لقد خلق الله روحينا هو وحده. في هذه الأيّام أستيقظ مفعمة بالحزن والكدر. ثمّة شيء ما يحدث.

Twitter: @ketab_n

لا أستطيع النوم في فراشي بعد الآن. كوابيس. لكنّها تنتهي، فلا داعي لأن يساورك القلق.

وضعت جميلة القلم جانبًا، فقد ارتخت يدُها وتغضّن جبينها. في إمكانها أن تسمع أناسًا يقتربون من الشمال الغربي، وخمّنت أنّهم ثلاثة أو أربعة زوّار. يمكنها أن تتيقّن ذلك من صوت الأغصان تحت أحذيتهم الثقيلة، وصوت الحصى التي يدفعونها نحو الوادي الممتدّ إلى أسفل.

قد يكونون جنودًا، وقد يكونون قطّاع طرق، قد يكونون أيَّ شيء. اختلست جميلة نظرة إلى الباب فوجدته موصدًا بالرتاج، والنوافذ مغلقة بألواح خشبيّة تآكلت بالدود. وضعت وشاحها على رأسها، وجذبت بندقيّتها من فوق الجدار. هذا كلّ ما تستطيع عمله.

أرادت أن تفرغ من كتابة الرسالة، فهي مضطرة إلى أن تخبر بمبي أكثر وأكثر عن مشاعرها التي تؤرقها من الداخل، وأن تحذّرها من إتيان أيِّ عمل ينمّ عن عدم الاكتراث أو غير مناسب في خصوص زواجها. لكن هل كانت بمبي حذرة يومًا ما في حياتها؟ إنّ شقيقتها التوأم، تلك الفتاة النحيلة التي كانت تطرح على الدوام أسئلة مستحيلة، وتريد أن تعرف السبب الذي يجعل جذور الأشجار غائرة في التربة وليست فوقها فيمكنها بذلك شرب مياه المطر، نضجت وكبرت ولكنّها لم تتغيّر.

فكّرت تفكيرًا عميقًا، وكان القلق يساورها على شقيقتها ذات الوجه المشابه للكتاب المفتوح، فكلّ ما كانت تشعر به بمبي، من أصغر شعور إلى أدنى حزن، إنّما يبدو على وجهها، فإذا لم تتمكّن

Twitter: @ketab_n

من إخفاء أشدّ العواطف تقيّدًا، فكيف يمكنها أن تخفي لامبالاتها تجاه زواجها عن أيّ شخص؟

اقترب صوت وقع الأقدام خارج المنزل إلى أن توقّف عند بابها. ثمّة طرق هو الأخفّ، طرق على استحياء ولكنّه ثابت، فأخذت جميلة نفسًا عميقًا وتمتمت بدعاء سريع وفتحت الباب.

رأت جميلة ثلاثة رجال وكلبين عند أقدامهم. كانوا قاطعي طرق، خارجين على القانون. هذا ما أدركته جميلة منذ البداية: ثمّة نتف من الثلج على شواربهم وكأنّها قطرات ماء متجمّدة وعالقة بحافّات ناتئة. تقدّم أحد الرجال الثلاثة إلى أمام، وكان رجلاً متين البنيان، غائر العينين، أحد أسنانه مغلّف بالذهب. تذكّرت جميلة أنّها قد رأته من قبل: إنّه زعيم العصابة.

قال قاطع الطريق في اقتضاب:

ـ إنّها زوجتي. عليك مرافقتنا.

ـ متى بدأ الألم؟

ـ قبل ساعتين، وربّما أكثر.

أومأت جميلة برأسها وأخذت معطفها وبندقيّتها ولحقت بهم.

وفي وقت متأخّر من الليلة، وجدت نفسها في منزل متداعٍ تحتشد ثقوب الرصاص على بابه، ويمتدّ سقف معدني من فوق المدخل. كان وجه المرأة مغطًّى بالدم والعرق، تحمل بين يديها أغرب طفل تشاهده حتى الآن.

كان الطفل بنتًا، أو إذا توخّينا الدقّة، بنتًا ونصف البنت، لأنّ ثمّة جسدَ ولدٍ ملتصقًا بصدرها وبطنها.

Twitter: @ketab_n

كان الطفلان قد بدآ رحلتهما في رحم الأمّ توأمين، لكن أحدهما نما في حين توقّف الآخر عن النموّ في منتصف الطريق، كأنّه خشي المجيء إلى هذا العالم فغيّر رأيه، غير أنّه ظلّ ملتصقًا بتوأمه.

وقالت جميلة:

ـ لا بدّ من الذهاب إلى المدينة لإجراء عمليّة جراحيّة، إذْ ينبغي فصل الجسد الثاني، وعندئذٍ ستكون الطفلة على ما يرام.

تسمّر قاطع الطريق في مكانه وضاقت عيناه وبدا غيرَ مصدِّق وغير موافق في آن. وقال:

ـ أهو نذير شؤم؟

لم تتوقّع جميلة هذا السؤال إلّا قليلاً، فردّت في رقّة وطيبة:

ـ إنّه ليس نذير شؤم. إنّ مثل هذه الولادات نادر، ولكنّه يحدث، فبعض التوائم لا يستطيع الانفصال.

فقال وكأنّه لم يسمع كلمة ممّا تفوّهت به:

ـ ثمّة معزة بخمس قوائم. هكذا ولدت.

فقالت جميلة مدركة أنّها لا تجد إلّا كلمات قليلة تتفوّه بها لطمأنة هذا الرجل الجبلي.

ـ إنّ طفلتك هذه ذات خصوصيّة، وهي في حاجة إلى حبّك، وإذا ما قال لك شخص آخر خلاف ذلك، فإنّه ليس صديقك. هل فهمت؟

أشاح الرجل بنظره جانبًا.

ولكن عندما قفلت جميلة راجعة إلى بيتها، منهكة ولكنّها غير

Twitter: @ketab_n

قادرة على النوم، فكّرت إن كانت تلك الولادة نذير شرّ، ليس على قاطع الطريق وأسرته ولكن عليها، فجلست وأكملت الرسالة التي كانت قد بدأت كتابتها لأختها:

عدتُ قبل قليل على أثر ولادة صعبة: توأمان ملتصقان، أحدهما ميّت والآخر حيّ. لو كنتِ هنا لتساءلتِ: «ما السبب في سماح الخالق بحدوث مثل هذا الشيء؟ إنّه ظلم». ولكنّني لا أنظر إلى الحدث مثل هذه النظرة، بل أستسلم وأؤمن به من دون قيد أو شرط، وأبذل قصارى جهدي لمساعدة أهلي وقومي.

إنّنا لا نستطيع محو الماضي يا عزيزتي، فذلك ليس في وسعنا، فأنا لم ولن أغضب منك أو من آدم. هل في وسعك إيقاف ريح عاتية من الهبوب؟ هل في وسعك تبديل لون الثلج إلى أيّ لون آخر عدا اللون الأبيض؟ إنّنا نتقبّل بكلّ بساطة عجْزَنا أمام الطبيعة، ولكن لماذا لا نعترف بأنّنا لا نستطيع تغيير قدَرَنا؟ الأمر ليس مختلفًا.

لو قادنا الله إلى طرق مختلفة فلا بدّ من سبب لذلك. حياتك تكمن في ذلك الطريق، وحياتي تكمن في هذا الطريق، وعلينا أن نقبل ذلك. ولكنّني قلقة بشأن زواجك. ألا يمكنك بذل ما في وسعك كي ينجح زواجك؟ عليك أن تفعلي ذلك من أجل أطفالك.

ذكرتِ هديّة الغريبة. إنّني أفكّر في أمرها كثيرًا، خاصّة مؤخّرًا.

أختك الحبيبة دائمًا

جميلة

Twitter: @ketab_n

لا حكمة بلا غباوة

قرية على مقربة من نهر الفرات ١٩٦١

انطلق صوت المؤذّن عصرًا في أرجاء القرية الكرديّة الصغيرة، فأصغى آدم له، وغمره إحساس رهيب، فالوقت يمرّ متثاقلاً، مؤلمًا، ولكنّه كان سريعًا في الوقت ذاته، إذْ قرّر تأجيل عودته إلى إسطنبول بضعة أيّام أخر، وإنْ كان لا يقدر على تأخيرها أكثر من ذلك، فتوجّه إلى المسجد رفقة المختار وصلّى للمرّة الأولى منذ أن رحلت أمّه عن المنزل.

وهمس آدم وهو يجلس من فوق سجّادة الصلاة:

ـ يا الله! أعرف أنّني لا أصلّي دائمًا، ولم أصم في شهر رمضان المنصرم ولا حتى في شهر رمضان الذي سبقه. ولكن أرجوك ساعدني يا إلٰهي، ولا تترك عينَيْ جميلة ترى شخصًا آخر غيري إلى الأبد.

وسأله المختار عندما خرجا من المسجد إلى نور النهار الساطع:

Twitter: @ketab_n

ـ أأنت على ما يرام؟

كان الهواء باردًا على الرّغم من أشعّة الشمس.

ـ أريد الزواج بها؟

ـ ألست صغيرًا على الزواج؟

ـ بلغتُ من العمر ما يؤهّلني للزواج.

ـ صحيح، ولكن لا عمل لديك، ولم تؤدّ الخدمة العسكريّة، فلماذا العجالة؟

كان آدم قد ذهب في اليوم السابق لزيارة شقيقه خليل في الثكنة العسكريّة، وتمكّن بمساعدته من إرسال برقيّة إلى طارق في إسطنبول:

التقيتُ يا أخي فتاة. الفتاة الوحيدة. أعرف أنّني ما زلت شابًّا، لكنْ هذا هو أمر الله. سوف أتزوّجها. بحاجة إلى بركاتك. وإلى مالك.

لم يخبر آدم المختار بهذه التفاصيل، بل قال له:

ـ عثرت على فتاة طالما كنت في انتظارها ولسوف أموت إن لم أمتلكها.

ـ عليك أن تكلّم والدها في هذه الحال.

ـ وإذا قال إنّه لا يريد مقابلتي؟

ـ لا تقلق، سوف أكلّم بيرزو عنك، فهو لن يأكلك.

وسأل آدم بعد وقفة قصيرة:

ـ لماذا تساعدني؟

Twitter: @ketab_n

فندّت عن المختار ضحكة قصيرة خافتة وقال:

ـ لا بدّ لشخص ما أن يساعدك، فأنت كما يبدو غير قادر على فعل شيء من دون مساعدة.

كان اللقاء بوالد جميلة أسهل ممّا كان آدم يتصوّر، غير أنّ طرح الموضوع بدا مستحيلاً. وبما أنّ بيرزو كان أصلاً صموتًا، قليلَ الكلام، فإنّه بعد وفاة زوجته وابنته هديّة أضحى أكثر سكوتًا من ذي قبل. لهذا، عندما زار آدم بيت جميلة وإلى جانبه مختار المحلّة وعلبة البقلاوة تحت إبطه، وجد أمامه رجلاً متجهّم الوجه، كئيبًا، عاقد الحاجبين، كامد النظرات.

وبعد أن قُدم للرجلين الشاي والتين المجفّف قال آدم:

ـ أتيت إلى هنا لأكلّمك بخصوص ابنتك.

ثم تذكّر أن للرجل عديد البنات، فأضاف:

ـ أعني ابنتك جميلة. بس جميلة.

فقال الرجل في لغة تركيّة غير سليمة:

ـ لا تنطق بهذا الاسم.

فتلعثم آدم وهو يقول:

ـ معذرة...

سمح والد جميلة لنفسه أن يتلفّظ بسلسلة من الكلمات باللغة الكرديّة ترجمها المختار باقتضاب: يقول إنّ والدة البنت الراحلة هي الوحيدة التي يمكنها أن تسمّيها بالاسم «بس».

راود آدم إحساس بالشفقة على الذات اقترب من الشعور باليأس. غير أنّ المختار تدخّل في الحديث لحسن الحظّ:

Twitter: @ketab_n

ـ صحيح أنّ هذا الرجل الشاب غريب عن أهل الحيّ، ولكنّه رجل شريف وينحدر من أسرة شريفة، فأنا أعرف والده. إنّ هدف آدم طاهر وشريف ويرغب في الزواج بابنتك.

تكلّم والد جميلة باللغة الكرديّة مرّة أخرى، فترجمها المختار إلى حدٍّ ما قائلاً:

ـ أيّ زواج هذا؟ أين والداك؟

فكذب آدم وهو يقول:

ـ أمّي وافتها المنيّة ووالدي مريض.

كان النصف الثاني من العبارة صحيحًا.

ـ ولي أخوان اثنان، الأكبر وهو طارق، ويقوم مقام أبي، وقد أرسلت له برقيّة قبل قليل.

استقرّ صمت ثقيل الوطأة، فرشف الزائران شايهما وتناولا تينهما. وأخيرًا قال والد جميلة:

ـ لا يمكنك الزواج بها، فقد طلب أحدهم يدها قبلك.

فقال آدم في حدّة:

ـ ماذا؟

لماذا لم تخبره؟ قالها ملتفتًا إلى المختار، الذي تحاشى نظراته. واسترسل بيرزو يتحدّث بلغة تركيّة غير سليمة مرّة أخرى:

ـ إنّها مخطوبة لأحد أقربائها، وسوف يتزوّجان في العام المقبل.

ـ ولكن...

ـ إذا أردت أن تتزوّج ببنت من بناتي، فعليك الزواج ببمبي.

Twitter: @ketab_n

إنّهما متشابهتان، وإذا ما راقت إحداهما في عينيك فسوف تروقك الأخرى أيضًا.

فهزّ آدم رأسه وعيناه تنطقان تحدّيًا:

ـ لا، أريد جميلة. إنّها في فؤادي. أمّا بمبيَ فيمكنك تزويجها إلى قريبك.

كاد آدم أن يتجاوز خطًّا ولكنّه لم يستطع.

رشف بيرزو ما تبقّى له من شاي وتلمّظ بشفتيه متذمّرًا إلى حدٍّ ما، وقال:

ـ لا يمكن. هذه كلمتي الأخيرة.

عندما خرج الزائران من المنزل وأصبحا في الحديقة، رفع آدم يديه إلى أعلى وانفجر في وجه المختار قائلاً:

ـ ما الذي يحدث هنا؟ لا بدّ لك من أن تفسّر لي. ما الذي تخفيه عنّي؟

أخرج المختار كيس تبغه وبدأ يلفّ سيكارة، وقال:

ـ في العام الماضي، كانت شقيقة جميلة الكبرى كميلة توشك على الزواج، ولكن قبل الزفاف بوقت قصير حدث شجار بين الأسرتين. لا أتذكّر اليوم سبب الشجار، ولكنّه انقلب إلى شجار مقرف وبذيء، فما كان من بيرزو إلّا أن ألغى الزواج، فانزعجت أسرة العريس انزعاجًا شديدًا دفعها إلى خطف جميلة انتقامًا.

شهق آدم متسائلاً:

ـ ماذا؟

ـ واحتفظوا بها بضعة أيّام، فاضطر بيرزو إلى أن يرسل في

Twitter: @ketab_n

أثرهم ويمنحهم موافقته على تزويج كميلة، فما كان منهم إلّا أن أعادوا جميلة مقابل ذلك.

ـ وهل... ألحقوا أيّ أذًى بها؟

ـ هه! لا أحد يعرف ذلك. قالوا حينئذٍ إنّهم لم يضعوا يدًا عليها، ولكنّهم ماكرون لا يُعتمد عليهم، كما أنّ الفتاة نفسها لم تقل شيئًا. وقد ضربها والدها مرّات ومرّات ولكنّها لم تنطق بكلمة. وفحصتها قابلة وقالت إنّها تفتقر إلى غشاء البكارة، ولكن بعض الفتيات يولدن بلا غشاء بكارة.

كان آدم يرتجف وهو يسمع هذا الكلام.

ـ لكنّ الخبر السارّ هو أنّ أسرة زوج كميلة قبلت أن تأخذ جميلة زوجة لقريب لهم، وكان أرملاً. وبهذا حافظت الفتاة على شرفها.

حدج آدم المختار بنظرة بعد أن استحوذ عليه هذا الخبر الجديد وقال:

ـ وكنت تعرف كلّ هذا منذ البداية.

ـ إنّ أيّ مختار يعرف كلّ ما يجري في قريته.

ـ ولماذا لم تخبرني؟

ـ كانت لا تزال أمامك فرصة للحصول عليها، وإلّا فعليك أن تكتشف ذلك بنفسك.

لم يكن آدم مصغيًا إصغاءً صحيحًا، فقد أعماه الغضب وقال:

ـ ظننتك صديقي، أيّها الحكيم!

قال المختار:

Twitter: @ketab_n

ـ لا يوجد من هو حكيم، فكلّنا نتّصف بالحكمة إلى حدٍّ ما وبالغباوة إلى حدٍّ آخر. لا حكمة بلا غباوة، ولا كبرياء بلا عار.

غير أنّ آدم كان قد انطلق مسرعًا، مبتعدًا كأنّ هناك من يطارده. في هذه الأثناء لم تكن ثمّة كلاب سائبة تطارده، ووجد جميلة في منزل أحد الجيران، تنسج سجّادة رفقةَ نساء من مختلف الأعمار. ولمّا وجدنه يحدّق إليهنّ من وراء النافذة، ضحكن وغطّين وجوههنّ، أمّا جميلة فوثبت واقفة على قدميها واندفعت خارجة وقالت:

ـ ماذا تفعل هنا؟ إنّك تُلحق العار بي!

قال آدم في حدّة:

ـ عار! نعم، تمامًا. إنّها الكلمة التي أبحث عنها.

ـ ماذا تقول؟

ـ حسنًا، قولي أنت. الواضح أنّك مدينة لي بتفسير.

وسرعان ما ازدادت حدّة نظرات جميلة وقالت:

ـ لا بأس. لنتكلّم إذًا.

سارا إلى مؤخَّر المنزل حيث شاهدا امرأة تصنع أرغفة الخبز في التنّور. وعلى الرّغم من أنّ النار كانت قد خبت، إلّا أنّ ثمّة جمرات متّقدة كانت تحت الرماد. وكانت من حول التنّور ساحات من الأرض مزروعة بالحشائش والخضرة، كأنّها بشائر الربيع.

ـ يقول والدك إنّك ربّما لستِ عذراء.

لم يرغب آدم في أن يقول عبارته في حدّة بالغة، ولكنّه تفوّه بها على ذلك النحو.

Twitter: @ketab_n

قالت جميلة متفادية النظر إلى عينيه:

ـ أهو الذي أخبرك بذلك؟

كان آدم يتوقّع أن يكون ردّ فعلها أشدَّ قوّة وتأثيرًا، وأن تحتجّ وتعترض على مثل هذه الإهانة وأن تبكي من أعماق قلبها. ولكنّها كانت، ويا للغرابة، رابطة الجأش عندما رفعت بصرها ونظرت إليه، وقالت:

ـ وأنت؟

ـ ماذا عنّي؟

ـ ماذا قلت أنت؟

لم يكن يتوقّع مثل هذا السؤال، فأجاب:

ـ أريد معرفة الحقيقة.

ـ الحقيقة هي ما تفهم من ذلك.

هاج وماج، وقال:

ـ اخرسي! توقّفي عن خداعي!

فقالت جميلة وبانت على ملامحها نظرة أسى:

ـ ولكنّني لم أخدعك. هل تحبّني كما أنا؟

لم يقل شيئًا. أراد أن يقول «نعم»، ولكنّ الكلمة لم تصل إلى شفتيه. وبينما هو يختلس نظرة خاطفة إلى الجبال سمعها تتمتم قبل أن تنصرف مبتعدة:

ـ حسنًا، أعتقد أنّني لن أشاهد حجارة إسطنبول الذهبيّة بعد الآن.

Twitter: @ketab_n

أمضى آدم بقيّة عصر ذلك اليوم في القرية الكرديّة، هائمًا على وجهه فيها، مصارعًا نفسه، تسحق قدماه أكوام القاذورات في صوت مسموع، دائرًا من حول هضبة تطلّ على منزل جميلة. في استطاعته مشاهدة الحديقة التي التقاها فيها أوّل مرّة. لقد مرّت خمسة أيّام منذ أن وطأت قدماه أرض هذه القرية المنسيّة. في غضون خمسة أيّام تغيّرت حياته وتبدّلت أحواله على نحو لم يعد يظنّ فيه أنّ حياته ستعود إلى سابق عهدها.

كان تارة يريد الذهاب إلى والد جميلة ويخبره أنّه غير مكترث. الحقّ أنّه كان يتحرّق شوقًا إلى ذلك، فهو يحبّها، وهي تحبّه، وهذا ما لاحظه منها. هذا هو الأهمّ، أمّا بقيّة الأشياء فلا قيمة لها، وسوف يتزوّجها ويأخذها بعيدًا عن هذا المكان كما وعدها.

لكنّه كان تارة أخرى كثير الشكوك والوساوس، مضطربًا، فجميلة ـ كما يظنّ ـ لم تدافع عن نفسها ولم تقسم على طهارتها، فضلاً على أنّ صمتها كان مقلقًا. ماذا يحدث إن كانت غير عذراء؟ كيف يمكنه أن يحيا حياته مع هذا الشكّ بقيّة حياته؟ ماذا سيقول شقيقه طارق عندما يعرف أنّ أخاه وجد له زوجة تشوب سمعتها شائبة؟

طارق! بماذا سيخبره؟ لا بدّ أنّه قرأ الآن البرقيّة. وكانت فكرة مواجهة شقيقه الأكبر تكفي وحدها لأن تربكه الإرباك كلّه. إنّه لا يستطيع العودة إلى إسطنبول ويقول إنّ كلّ ما حدث ناجم عن سوء فهم فظيع. وبعد مرور ساعات دخل منزل المختار فوجده يدخّن النارجيلة، منتظرًا إيّاه.

Twitter: @ketab_n

ـ ها قد رجعت يا ابن المدينة! لا توجد قرويّة لك. هه؟

فقال آدم عن عزم وتصميم:

ـ هذا غير صحيح، فأنا لم أغيّر من رأيي، وأريد الزواج.

ـ حقًّا؟

وهنا التمعت عينا المختار معجبًا بقراره:

ـ أنت تدهشني أيّها الفتى. حسبتك لا تريد جميلة.

قال آدم بعد هنيهة:

ـ لا أريدها! سآخذ البنت الأخرى.

ـ ماذا؟

ـ التوأم الأخرى. سوف آخذها.

أدرك آدم أنّه لا بدّ أن يشعر بالهول للمسلك الذي سلكته الأحداث، أن يشعر بذلك من صميم فؤاده وبسبب الجرأة التي أبداها بوصفها شخصيّته. ولكنّه، ويا للغرابة، لم يساوره مثل ذلك الشعور. الحقّ أنّه لم يشعر بأيّ شعور، فهل في وسع قطعة من الخشب أن تتألّم عندما يحملها نهر هائج؟ هل ستشعر ريشة بالقلق عندما تتقاذفها الرياح؟ هكذا كان حاله في ذلك اليوم، ولأيّام طويلة أخرى سوف يمرّ بها.

Twitter: @ketab_n

سجن شروزبيري ١٩٩١

كان يوم تريبي مزعجًا. ثمّة أيّام مزعجة هنا وأيّام ليست مزعجة جدًّا، كما أنّ ثمّة أيّامًا تجعلك تشعر وكأنّك سيّارة محطمّة. وعلى الرّغم من الاسم، فإنّ الأيّام الأخيرة ليست هي أسوأ الأيّام، فهي تشبه إلى حدٍّ ما تلك الليالي التي تشعر فيها وكأنّك لا تستطيع النوم، ففي مثل ذلك الوقت تصبح في حالة بلادة وخمول، لا تفعل شيئًا، ولا تفكّر بأيّ شيء، فاقدًا الحسّ. في مثل هذه الأيّام يكون القنوط قد بلغ بك حدًّا لا تعرف معه أنّك في أقصى درجات الانقباض والكآبة. شخص ما يهتمّ بك، أو لا أحد يهتمّ، ولكنّك لا تكترث في كلتا الحالتين. أمّا الأيّام التي ليست مزعجة جدًّا فهي، كما هو متوقّع، أيّام يمكن اجتيازها، أمّا الأيّام المزعجة فهي أسوأ الأيّام ـ هي التي تنال منك وتحطّم روحك.

التقويم الزمني ابتكار غبي. فإذا كان الوقت يطير، كما يقول القائلون، فإنّه لا يطير في سرعة متساوية في كلّ لحظة. يا ليت ثمّة

Twitter: @ketab_n

وسيلة لتقويم كلّ يوم من أيّام الأسبوع على حدة. لنقُلْ إنّ اليوم غير المزعج أبيض اللون ويعادل نقطة واحدة، أمّا اليوم الممنطق إلى مناطق، فسوف يكون أحمر اللون ويعادل نقطتين، في حين أنّ اليوم المزعج أسود وله ثلاث نقاط.

الرجل الذي عاش ثلاثين يومًا مزعجًا سوف يكبر بسرعة تزيد ثلاث مرّات عن سرعة نموّ الرجل الذي يعيش شهرًا برمّته أيّامًا غير مزعجة. قم بعمليّة حسابيّة وعندئذٍ سوف تدرك السبب الذي يجعل الناس يكبرون في سرعة أكبر. أمّا أنا، فمنذ وصولي إلى هذا المكان، مررت بأيّام مزعجة كثيرة، يومًا بعد يوم. تقويم الزمن خاصّتي أسود اللون، يذكّرني بالكحل الذي كانت أمّي تستعمله في تحديد عيونها.

طلبت زوجة تريبي الطلاق، وكنت أعلم وهو يعلم وكلّ واحد في هذا المكان القذر يعلم أنّ الطلاق سيحدث عاجلاً أم آجلاً، ولكنّنا على الرّغم من ذلك صُدمنا ورُوِّعنا، لا لأنّ ثمّة ما يبعث على الصدمة أو الرعب في الأمر، إذْ إنّ الطلاقات والتفكّك الأسري شأن عادي في هذا المكان، بيد أنّنا صُعقنا شفقةً بتريبي، فعندما يتناهى إلى سمعك نبأ انفصال زوجة عن صديق من أصدقائك، فإنّك لا تقول: «نعم، كنت أعلم أنّ هذا سوف يحدث»، لأنّ ذلك القول سوف يجعله يشعر وكأنّه رأس قضيب، فاشل أمام الناس.

لكنّك إن قلت له: «متى حدث هذا؟ أنت لا تعرف طبع النساء. صحيح؟» أو ما يشبه هذا القول، فعندئذٍ سوف تشاطر الرجل ألمه وحزنه. نعم، سيظلّ فاشلاً ولكن بينه وبين نفسه.

Twitter: @ketab_n

كانت تأتي إلى تريبي حاملةً قوالب حلوى بالكسترد، لكنْ قلّما كان الأوغاد يسمحون له بأكلها، ولكنّها واصلت إعدادها له. كانت امرأة رشيقة، نحاسيّة الشعر، طباشيريّة البشرة، يغزو النمش ذراعيها وتلوح على وجهها علامات صبر طويل. وهْمٌ بطبيعة الحال، إذْ ما من شخص صبور على ذلك النحو.

وجاءت اليوم لتخبره بنفسها. كان في وسعها أن ترسل ملاحظة، أو لا ترسلها أصلاً، شأنها شأن بعض الزوجات، غير أنّها جاءت وأوضحت له، بأسلوبها المميّز، وبصوتها المبحوح من فرط التدخين، وبكلمات مذاقها يشبه الرماد، أنّها التقت شخصًا آخر، يتصرّف تصرّفًا رائعًا إزاء الأطفال، الذين كانوا في مسيس الحاجة إلى قدوة ذَكَر أمامهم، وبخاصّة ولدهما الذي بلغ الآن الخامسة من عمره. وأخبرته أنّ الأطفال سيأتون لزيارة تريبي لأنّه والدهم، وأنّ ما من شيء يمكن أن يغيّر من تلك الحقيقة. ثم قبّلته قبلة أخيرة وتركت قالب الحلوى ومضت في سبيلها.

غالبًا ما أفكّر كيف يمكن أن يكون شعور المرء إذا ما كانت لديه زوجة، امرأة تعرف نقاط ضعفك ومواطن فشلك أكثر ممّا تعرفها أنت، وتعرف كلَّ بقاعك القاحلة، وتملك خارطة روحك مرسومة على كفّ يدها، وتهيم بك حبًّا على الرّغم من كلّ شيء. امرأة تزرع في قلبك طول العمر ما يبعث الفرح والسرور، أمورًا صغيرة لا تدرك إلى أيّ حدٍّ تعتمد عليها إلى أن تفقدها كلّها. الله وحده يعلم شدّة ندمي لأنّني لم أعرف ذلك.

لكنّني لست نادمًا لأنّ ولدي توم يطلق على رجل آخر كلمة «أبي»، ففي كلّ الأحوال أنا قدوة سيّئة، وأبٌ يدعو إلى الشفقة

Twitter: @ketab_n

والرثاء، والأب الذي يبعث على الشفقة والرثاء أشبه بعظم سمكة في البلعوم لا تعرف كيف استقرّ هناك، ولكن عندما تتخلّص منه يبقى شيء ما، ندبة دائميّة لا أحد يراها في الخارج، ولكنك تحسّ على الدوام أنّها موجودة. لا أحد بحاجة إلى مثل هذه النفاية.

أتذكّر أنّني طرحت يومًا سؤالاً على أمّي عن سبب زواجها بأبي، وكان ذلك السؤال هو أقرب الأسئلة لمعرفة إن كانت تحبّه أم لا.

فاستدارت ورمقتني بنظرة انعكس فيها النور المتغلغل من الشبّاك على عينيها الخضراوين. عنبر وذهب، ورأيت كم هي جميلة. الواقع أنّك لا تتنبّه إلى جمال والدتك، ولكنّني رأيته في ذلك اليوم واضحًا وصافيًا، فانتابني قلق، وغمرني خوف غريب استبدّ بي في تلك اللحظة، فلم يَرُقْني.

وقالت:

ـ كانت الدنيا يومئذٍ غير هذه الدنيا، ولم يكن فيها شيء ممّا يشبه حياتك هنا في لندن. أنتم الشبّان أوتيتم حظًّا عظيمًا.

لم يكن ذلك الجواب هو الجواب الذي كنت أتوق لسماعه، ففي ماضي والديَّ ما من مناديل منقوشة بالحروف الأولى لكلّ منهما، وما من خفقات توحي برغبة حلوة، وما من وعود غراميّة يهمس بها أحدهما للآخر في ظلمة الليل. كان الحبّ احتمالاً بعيدًا، حتى إنّهما لم يتظاهرا به. كانت أختي تعرف ذلك، وكانت تُدرك أنّ وجودنا نحن الثلاثة هنا إنّما هو بدافع الواجب والطاعة واللامبالاة وليس بدافع الحبّ. لهذا السبب كنت عاصيًا، بينما كانت هي متمرّدة وكان يونس فطنًا، حادَّ الملاحظة.

Twitter: @ketab_n

كنت أنا وأسماء نتجاذب أطراف الحديث باستمرار.

وكانت أمّي تقول:

ـ أنتما تتكلّمان كثيرًا مثل هطول المطر، مطر خارج البيت ومطر داخل البيت!

لا بدَّ أنّني أخبرت أسماء عن أمور لم أشاطر أحدًا غيرها فيها، ولا حتى الصبيان أو كاتي. أطلعتها على أسراري لأنّ لديها من القول ما يبعث على الاهتمام دائمًا. كانت تجيد فنّ الكلام، ولكنّ ثمّة سببًا آخر، وهو أنّني كنت أعرف من صميم قلبي أنّها الوحيدة من بين أفراد أسرتنا التي تكفي القريب كي يطّلع على أحوالنا، وتكفي الغريب كي يتنحّى عنها، أحببت ذلك حتى خريف العام ١٩٧٨، فقد حدث لي ما لم يكن في الإمكان إصلاحه بعد ذلك.

يُنفق تربيي بقيّة العصر في حجرة الزوّار، صامتًا صمتًا مطبقًا، وجهه بلون بول عمره أيّامًا، لكنّه يظهر بمظهر الشجاع، قائلاً إنّه أخبر زوجته بأنّه يفهم وضعها ويقدّره، وأنّه يتمنّى لها التوفيق كلّه في حياتها. لا مشكلة! وعبَّر لها عن شكره لمساندتها إيّاه ولكرمها طوال تلك السنين، ثم أشار إلى الحارس أنّ الزيارة انتهت، وودّعها عند الباب وقبّلها قبلة الوداع، ومازحها قائلاً إنّه سوف يشتاق إلى قوالب حلواها.

الآن هو جالس مولّيًا الجدارَ ظهرَه، مُطْبِقَ الفكّين، جامد العينين. وباتت الحقيقة واضحة أمام عينيه: إنّها عاهرة لا قلب لها، سدّدت له طعنة في ظهره. ولمّا كانت الطبيعة البشريّة على ما هي عليه، فإنّنا نكره الكراهيّةَ كلَّها أولئك الذين نحبّهم أشدّ الحبّ.

Twitter: @ketab_n

يقول تريبي محركًا يده إلى الأمام وإلى الخلف كأنّه يقتلع حزمة من أعشاب متخيّلة:

ـ نلتُ ما يكفي من هذا كلّه.

ـ تجاهلِ الأمرَ.

ـ تبًّا! سوف أتجاهله.

ثم أحاول محاولة جديدة:

ـ غالبًا ما تقول لي إنّ ثمّة أطنانًا من الناس التعساء خارج هذا السجن. لكلّ امرئ بلواه.

لم يصغ تريبي إليَّ وقال:

ـ لا بدّ أنّ وراءها شيئًا ما.

ـ وكيف تعرف؟

فصاح:

ـ أعرف تمامًا.

يثب على قدميه واقفًا ويذرع الغرفة، فتقع عيناه على ملصق هوديني، فيحصل لديّ الانطباع لحظة واحدة أنّه سوف يجذبه ويمزّقه، ولكنّه لم يفعل ذلك، بل تكسو وجهه نظرة مخيّبة للآمال. ثم يتقدّم إلى أمام ويضرب الجدار بقبضة يده وبكلّ ما يمتلك من قوّة.

الضربة مدوّية وعميقة ومثيرة للامتعاض. وأتذكّر على حين بغتة لحظةً من لحظات الزمان: أنا وأبي كنّا في الشارع نتشاجر والغضب الجامح والوميض اللامع في عينيه، أم تراني أنا الذي كنت غاضبًا؟ نعم، قلبت جفن عيني وانطلقت في أقصى سرعتي في

Twitter: @ketab_n

متّجه الجدار وصدمته برأسي مرّات ومرّات، فجاء الأهالي مسرعين، وجنّ جنون حارس النادي.

أعادني صوت الضربة الثانية إلى رشدي، أحاول أن أتدخّل، ولكنّه يدفعني جانبًا دفعة قويّة توقعني على ظهري، وقبل أن أفلح في التشبّث بذراعيه والدفع به نحو الأرض، يضرب الجدار مرّات ومرّات.

ـ استمِرَّ أنت في هذا الضرب وسوف يأتي كلّ الناس إلى هذا المكان. أتسمعني؟

براجم أصابعه تنزف دمًا، وفي أنفاسه شهقات قصيرة، فأمسك برأسه بين مرفقي، منتظرًا مرور تلك اللحظة.

أقول له:

ـ أنت لست مضطرًّا إلى هذا.

ـ أودّ لو عرفت.

ـ بل أعرف.

فيحتجّ قائلاً:

ـ إنّني مضطرّ إلى أن أصبّ جامّ غضبي على شيء ما.

ـ علينا أن نأتيك بكرة ملاكمة إذًا.

ويسكت تريبي، فأُدرك ما الذي يجول في خاطره. فكرة الملاكمة لا تنفع، لأنّها بلا حياة، مثيرة للسأم وصامتة. أمّا هو، فإنّه يريد أن يتحسّس بطراوة اللحم من تحت براجمه، وأن يسمع العظام تتكسّر. لو أنّه رجل حرّ في هذه الليلة لذهب إلى حانة ليشرب حتى الثمالة ويتشاجر مشاجرة حامية. ولمّا كان رجلاً نحيْلاً

Twitter: @ketab_n

شديد الهزال، فسوف يعاملونه معاملة خشنة، غير أنّ هذا الأمر سيمنحه شيئًا ما كي يتحدّث عنه مازحًا في اليوم المقبل، شيئًا ما يركّز فيه.

أدفع رأسي إلى الوراء وأنا ما زلت ممسكًا به وأرمقه بنظرة، وأقول:

ـ اضربني.

فيسألني في صوت محطّم:

ـ ماذا؟

فأقول له:

ـ صه! اهدأ. فأنا ملاكم مدرّب. أنسيت ذلك؟

أراقب الارتباك الذي يطفح به وجهه وأقول ضاحكًا وكلانا يدرك معنى كلامي:

ـ أنت مخبول.

تستبدّ بي حالة من التوتّر، فأخلع قميصي وأقذف به بعيدًا. ثم أتنفّس تنفّسًا عميقًا وأتنهّد. أهتمّ بأنفاسي بعض الوقت، لكنّني لا أحبسها وقتًا أطول ممّا ينبغي. شهيق، زفير، شهيق، زفير...

أخفض كتفي وأدفع بطني إلى أعلى وأشبك يديَّ وأُحكم شدَّ عضلاتي. لا بدّ لك من مسافة وافية بينك وبين العدوّ، القبضة والأعضاء الداخليّة، الفرد والمجتمع، الماضي والحاضر، الذكريات والقلب. أنت بحاجة إلى مسافة كافية في كلّ شيء تفعله أو يحدث لك في الحياة. المسافة تحميك، الحيلة في تلقّي كلمة قويّة هي أن تعرف كيفيّة إيجاد مسافة إضافيّة.

Twitter: @ketab_n

تربيي يراقبني طوال الوقت مندهشًا، كدأبه عندما يواجه شيئًا لا يفهمه.

فأبادره القول:

ـ ماذا تنتظر إذًا يا حثالة؟

وتجيء الضربة الأولى غير مستقرّة قليلاً، منحرفة إلى الجانب. لا بدّ أنّها آذته أكثر ممّا آذتني. أطلق صفيرًا طويلاً وخافتًا.

ويسأل تربيي منزعجًا:

ـ ماذا؟

أردّ عليه، تاركًا ابتسامة تعلو وجهي:

ـ لا شيء.

يكره تربيي الناس الذين يضحكون عليه. لا يطيق ذلك، ويغلي دمه بسببها. في الحقّ، لا أحد في هذا المكان يحبّ الابتسامات.

بطني صلبة بسبب سنوات من العمل في الخارج، ولكن قوّة الضربة المقبلة أخذتني على حين غرّة، فأشعر بألم حادّ من تحت القفص الصدري، ألم يتردّد من وقت إلى وقت، فيتوقّف تربيي ويرمقني بنظرة، مندهشًا من قوّته.

وتراودني ذكرى أخرى، فأتذكّر اليوم الذي أخذتني فيه أمّي إلى حمّام في إسطنبول. أعتقد أنّني كنت في السادسة أو نحو ذلك من العمر ـ بخار الماء والحرارة والصدى وأجساد النساء العاريات المنفرجات السيقان وجَدَّة بنهدين متهدّلين. أُصبتُ بالذعر والهلع فهربت إلى الخارج، ولكن أمّي أمسكت بي وهزّتني في عنف قائلة:

Twitter: @ketab_n

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ لا يروقني هذا المكان.

فقالت:

ـ لا تكن سخيفًا. إنّني لا أسمّيك «سلطان» عبثًا. تصرّف مثل السلطان وإلّا سمّيتك مهرّجًا بدلاً من ذلك.

مسافة. إنّني محتاج إلى فسحة أكبر من ذاكرتها. إنّها تدفعني إلى الجنون.

وابتسم من جديد.

ـ تعال أيّها المهرّج. إنّني أملأ حذائي هنا.

كلمات تربيي المقبلة أقوى وأشدّ تركيزًا. ليس هو بالرجل متين البنيان، ولكنّه ليس بالشخص الضعيف أو الجبان. يذكّرني بكلب صيد: مخيف، هزيل، من دون أونصة واحدة من الشحم في بدنه، ولكنّه عنيد، لا يستسلم.

يمضي الحال بنا هكذا برهة من الزمان. أحيانًا يشرد بال تربيي فيرسل لكمة تصيب ذقني، أمّا بخلاف ذلك، فإنّه يظلّ يسدّد إلى تلك المنطقة. في مكان ما وراء تلك العضلة تكمن الزائدة الدوديّة ـ غافية، مكوّرة مثل دودة، عضو غير ضروري من أعضاء البدن، وعلى الرّغم من عدم فائدته لأيّ شيء، إلّا أنّه قضى على هوديني.

تُفتح الأبواب الحديديّة في نهاية الممرّ بعد بضع دقائق، وتُضاء الأنوار. أحدهم في زنزانة قريبة يُهلِّس كأنّه فَرِحٌ بالجلبة، ويأتي ثلاثة سجّانين مسرعين. يقتحمون المكان معتقدين أنّنا في شجار، فيضع تربيي ذراعه من حولي ليبرهن لهم أنّهم مخطئون في

Twitter: @ketab_n

اعتقادهم، وأنّنا صديقان ودودان، ويبتسم ابتسامة فخر واعتزاز، على أمل أن تفعل الابتسامة فعلها. الابتسامة؟!! كما قلت، لا أحد هنا يحبّ الابتسام.

وقبل أن ندرك ما يحدث، صياح وسباب وتهديد وتدافع: مسرح سلطة وعرض للقوّة وضياء أشدّ من اللازم، حادّ ونافذ مسلّط علينا. نتكوّر أنا وتريبي مثل بعوضتين وجدتا نفسيهما في المطبخ ليلاً.

ويصيح تريبي:

ـ ألا تفهمون؟ إنّنا لا نتشاجر.

فيقول أحد السجّانين:

ـ ماذا كنتما تفعلان إذًا؟ ترقصان؟

فينظر تريبي إليَّ مرتبكًا في لحظة، كأنّه يسأل: «نعم، ماذا كنّا نفعل؟ بماذا تورّطنا؟».

* * *

يأتي الضابط أندرو ماك لوخلين في صباح اليوم التالي ومن ورائه زهوه، كأنّه كلب جائع. لقد اعتاد وظيفته ولكنّه لم يعتدني. يقرأ تقارير الليلة الماضية ويقول إنّنا لا بدّ كنّا نتعاطى المخدّرات لأنّ ما من رجل عاقل يبدأ شجارًا كالذي بدأناه. ويتذرّع بالبحث عن الأشياء المخبّأة، فيأمر رجاله ألّا يتركوا مكانًا إلّا ونقّبوا فيه تنقيبًا دقيقًا ـ الكتب والبطّانيّات وصور أطفال تريبي ودفتر ملاحظاتي... وحتى في ثنيات حُصُر أسرتنا.

يقضم تريبي داخل فمه ليكبت ابتسامة. أنا وهو منشغلان في

Twitter: @ketab_n

فكرة بعينها، أنا وهو نظيفان نظافة تامّة: لو جرى هذا التفتيش قبل بضعة أيّام، لعثروا على قدر قليل ممّا لذَّ لنا وطاب، ولكن كلّ ذلك اختفى الآن، وليس لدينا ما يثير قلقنا.

وفي اللحظة التي يبدون فيها وكأنّهم يوشكون على الانصراف، يتوقّف الضابط ماك لوخلين وفي يده شيء ما، ويسأل:

ـ ما هذا؟

إنّها بطاقة بريديّة وفيها صورة مدينة ألعاب، جياد من خشب وأضواء في الجهة الخلفيّة من الصورة. لا أحد في الصورة، سوى منطاد أحمر اللون يندفع بعيدًا، والإيحاء بوجود قوّة غير مرئيّة، قد تكون الريح.

يقول ماك لوخلين:

ـ لا أتمكّن من سماعك.

لم يجب تريبي ولم أجب بدوري. فيبدأ ماك لوخلين بالقراءة في صوت عالٍ، مغيّرًا من صوته، مقلّدًا تقليدًا ساخرًا صوتَ امرأة:

أخي العزيز... أم تريدني ألّا أخاطبك بهذه الكلمة بعد الآن؟

ماذا في وسعي أن أسمّيك إذًا؟ إسكندر؟ أليكس؟ سلطان؟ قاتل؟ هل تتذكّر الجياد الخشبيّة التي اصطحبتنا والدتنا إليها عندما وصلنا أوّل مرّة إلى لندن؟ أليست شيئًا رائعًا؟ لم يكن يونس قد وُلد بعد، والله يعلم أين كان أبي. أنا وأنت وأمّنا لا غير.

لن أغفر لك ما اقترفَتْه يداك. قد تتعفّن في السجن أو تحترق

Twitter: @ketab_n

في نار جهنّم، ولكن لا عقاب الملكة ولا عقاب الله سيمحو هذا الإثم في نظري. لن أدافع عنك في المحكمة، ومهما يقل العمّ طارق، فإنّني سوف أقدّم إفادتي ضدّك. ومنذ اليوم، سوف أعلن الحداد على ميتتين اثنتين: ميتة أمّ وميتة أخ. . .

أسماء

يقول الضابط ماك لوخلين واضعًا يده على قلبه وكأنّه متألّم:

ـ أختك باردة الأعصاب. جميل أن نرى أحد أفراد عشيرتك يميّز الحقّ عن الباطل.

لا ينظر ماك لوخلين إلى أحد وهو يتفوّه بهذه العبارة، ولكن ما أن يفرغ من الحديث حتى تستقرّ عيناه على عينيَّ. أمدّ يدي لآخذ البطاقة البريديّة منه، ولكنّه يرفعها إلى أعلى في الهواء ويهزّها مازحًا ويقول:

ـ لا، لا.

ثم يزمّ شفتيه ويستأنف الكلام:

ـ لا بدّ لك أوّلاً من الإجابة عن سؤالي: لماذا سمحت لتريبي أن يضربك؟

يهزّ الضابط ماك لوخلين كتفيه بسبب التزامي الصمت، ويُنْعِم النظر إلى أظافر أصابعه، ليقول أخيرًا:

ـ لا بأس. سأترككما الآن ولكنّني سآخذ هذه البطاقة الجميلة يا أليكس، وعندما تشعر أنّك تريد أن تخبرني بالحقيقة، فتعال إليَّ وقابلني وسوف أعيدها لك.

Twitter: @ketab_n

لست مضطرًّا إلى الإمساك بالبطاقة البريديّة بيدي لأرى ما هو مكتوب عليها. إنّه لا يعرف أنّني حفظت عن ظهر قلب كلَّ كلمة من كلماتها، كلَّ «لا» وكلَّ فاصلة وكلّ «أمّ».

أجلس بعد انصراف الضابط ماك لوخلين متّكئًا، دامع العينين. أحاول قدر ما أستطيع البقاء هادئًا، سليم العقل، لكنّني لا أستطيع. أصفع نفسي. لا فائدة. أصفع ثانية. يمكنني القول إنّ اليوم سيكون يومًا عصيبًا.

إسكندر طبرق

Twitter: @ketab_n

العنصريّة والمهلّبيّة

لندن، كانون الأوّل، ١٩٧٧

ظلّت بمبي، منذ اليوم الذي وُلدت فيه ابنةً تاسعة لامرأة تحنّ لولد ذكر، ترى هذا العالم بوصفه مرتعًا للمحاباة والتفاوت، التي قبلت بعضهما على أنّه متعذّر التغيير لأنّه من عادات البشر، ولكنّها لم تخضع طوال حياتها لعداء صريح وعلني لما آلت إليه. كان ذلك حتى اليوم الذي التقته في بواكير شهر كانون الأوّل ١٩٧٧.

لم يكن هناك سوى زبونة واحدة في محلّ المقصّ البلّوري لتصفيف الشعر، وهي أمينة المكتبة المتقاعدة، التي لم يبدُ عليها أنّها كانت مستعجلةً كي تصل مكانًا ما، فطلبت بمبي من صاحبة المحلّ ريتا رخصة للخروج والتبضّع. كان يونس يعشق حلواه المفضّلة، وهي طبق المهلّبيّة بزهر البرتقال، وكانت هي قد عزمت على مفاجأته في ذلك المساء.

ـ هل تمانعين يا ريتّا إن ذهبت ساعة واحدة؟

لم تكن ريتّا مديرتها فحسب، بل كانت صديقة عزيزة، امرأة

Twitter: @ketab_n

سوداء فارعة القدّ، هائلة الصدر، مشوّهة الأسنان، وكانت أضخم أفريقيّة في البلدة، ابتسامتها مشرقة شروقَ سماوات فصل الصيف، دائمة الحديث عن البلد الذي تحدّرت منه، وهو جامايكا، وكان للاسم وقعه المؤثّر على أذني بمبي، ينساب إلى المسامع انسياب طعم المكسّرات أو ما هو مقرمش في الفم، انسياب البلاذر الأميركي المحمّص.

وقالت ريتّا:

ـ اذهبي يا عزيزتي. سوف أهتمّ بأمينة المكتبة، وأنا أراهن على أنّها تريد أن تخبرني عن كلّ ما يخصّ إجازتها التي أمضتها في إيطاليا.

غادرت بمبي المحلّ يساورها إحساس بالخفّة والنشاط من جهة والهمّ والغمّ من جهة أخرى: الخفّة والنشاط لأنّ لديها ساعة كاملة تخلو فيها لنفسها وحدها، ومهمومة لأنّ الأمور لم تسر سيرًا طبيعيًّا في الآونة الأخيرة، إذْ كانت أسماء كثيرةَ الوجوم على الدوام، تمسك بيدها كتابًا وتمرّ بمرحلة جديدة. أمّا إسكندر، فكان أسوأ منها، إذْ كان يعود أدراجه إلى البيت متأخّرًا مساء كلّ يوم، فكانت تقلق عليه خشية أن يصاحب الأشرار. أمّا زوجها... حسنًا، لم ترغب في أن تعرف كيف ورّط نفسه في هذه المرّة، فكان يتوارى عن الأنظار أسابيع متواصلة، ليعود معطّرًا بعطر امرأة أخرى، هذا إن عاد في كلّ الأحوال.

كان آدم رجلاً مهمومًا، كثير الأحزان، دائم الحديث عن طفولته، منوّهًا على الدوام بذكرياته الحزينة نفسها مرّات ومرّات، عاجزًا عن نسيانها أو طردها، وكان ذلك أشبه بوجبة طعام سريعة

Twitter: @ketab_n

وخفيفة تعرف جيّدًا أنّها مضرّة للصحّة ولكنّك لا تستطيع التوقّف عن قضمها وإنْ كنت شبعان. كان يبدأ الحديث عن الماضي عن غير عمد، ومن دون وعي. أمّا بخصوص بمبي، التي كانت واثقة من أنّ الأيّام، أو حتى صلاتها سوف تصلح من الأمور، فقد تحمّلت كلّ ذلك من دون تذمّر أو احتجاج، مُطَمْئِنَةً نفسها إلى أنّ الأحوال في خير، أو أنّها ستنتهي نهاية حسنة يومًا ما، إذْ كانت ترى في المستقبل أرضًا مفعمة بالوعود. صحيح أنّها لم تذهب إليها، ولكنّها آمنت بوجودها وبأنّها جميلة تبعث على التفاؤل. إنّها أرض ذات طاقات لا تُستنفَد، خليط من بلاط متغيّر، تارة تجده منتظمًا وتارة أخرى تجده في فوضى، يُعيد خلق نفسه باستمرار.

الماضي في رأي آدم مقدّس، موثوق وثابت، لا يتغيّر، والأهمّ من هذا كلّه، متواصل، يوفّر له رؤية في بداية كلّ شيء، يمنحه الإحساس بالمركزيّة والتماسك والاستمرار. فكان يزوره زيارات متكرّرة تنمّ عن تفانٍ وإخلاص، مبعثها الإحساس بالواجب وليس الحاجة، كأنّه يخضع لإرادة أسمى. وإذا كان آدم يتفانى في حبّ الماضي وعبادته، فإنّ بمبي كانت مخلصة للمستقبل.

بخلاف شمس الصباح اللطيفة، اكتسب الطقس بعد الظهر شيئًا من البرودة وازدادت فيه الريح. كانت بمبي قد ارتدت معطفًا رمادي اللون مزرَّرًا إلى أعلى، فبدت أكبر سنًّا، وكأنّها فتاة من فتيات زمن الحرب، مضطرّة إلى العناية عناية تامّة بكلّ قرش تصرفه، وهو ما كانت تفعله حقًّا. واشترت في عجالة ما تحتاج إليه من متجر تيسكو. وبينما كانت تمرّ من أمام المخبز من حول الناصية، لمحت ضربًا من إصبعيّات حلوى الشوكولا في الواجهة.

Twitter: @ketab_n

لم تكن سميكة ولا كبيرة أو محشوّة بالقشدة المخفوقة، بل كانت صغيرة برّاقة، كما تحبّها وتهواها تمامًا.

وعلى الرّغم من أنّها نادرًا ما كانت تستسلم للمغريات، إلّا أنّها سلكت أقصر الطرق ودخلت المحلّ، فرنَّت الأجراس رنينًا بهيجًا من وراء الباب. وفي داخل المخبز كانت الخبّازة، وهي امرأة بدينة، تكسو سيقانها الدوالي، رقيقة الحاجبين، اللذين لا يكادان يبدوان للناظر، تتجاذب أطراف حديث مفعم بالحماسة مع واحدة من معارفها. في هذه الأثناء، كان مساعدها يتولّى خدمة زبائن آخرين، وكان هذا رجلاً نحيل القامة، لا يتجاوز عمره سنّ العشرين، أزرق العينين، متورّد الخدّين على نحو يشير إلى شدّة حساسيّة بشرته، ذا شعر قصير وتصعب معرفة لونه. كان جبينه مكسوًّا بالبقع، وبراجمه وذراعاه مغطّاة بالوشم، ومنها وشم كبير يمثّل الصليب المعقوف.

واضطرّت بمبي إلى الانتظار لأنّ ثمّة زبونة أخرى، وهي امرأة متقدّمة في السنّ، حسنة الهندام. وبعد مرور دقيقة واحدة، رنّت الأجراس من جديد، ودلف إلى المكان رجل في خريف العمر، ولكن بمبي لم تكلّف نفسها عناء النظر إليه.

كانت المرأة المسنّة صعبة الإرضاء، ميّالة إلى تغيير رأيها كلَّ بضع ثوان، فقد كانت تريد كعكات صغيرة مدوّرة خالية من الدسم، ثلاث قطع، أو ربّما أربعًا، ولكن... لم لا تشتري بضع كعكات من نوع إيكلس؟ بيد أنّها فكّرت قليلاً وطلبت كعكات صغيرة مدوّرة بالفاكهة. ورأت قوالب الحلوى بالفراولة جديرة بالتأمّل أيضًا، ولكن هل هي طازجة يا تُرى؟ وهل المعجّنات مقرمشة؟ فكّرت في هذا كلّه

Twitter: @ketab_n

لأنّها قد تشتري قوالب الحلوى ـ إن اشترت ـ بدلاً من الكعك المدوّر الذي يؤكل يوميًّا تقريبًا، وهكذا... استمرّت على هذا الحال.

وفي كلّ مرّة كانت تغيّر من رأيها كان المساعد يعيد وضع الكعك في مكانه من فوق الصينيّة ليأخذ كعكة غيرها تطلبها العجوز، فيريها إيّاها منتظرًا موافقتها. ولمّا حسمت أمرها في نهاية المطاف، وقرَّ قرارها على مجموعة من الكعك المحلّى المثلّج، بدأت تجادل في كيفيّة تغليفها: هل الأفضل وضعها في كيس من ورق، وبذلك تكون سهلة الحمل وخفيفة، وإنْ كان ثمّة احتمال في تعرّض الكيس إلى التمزّق في الطريق، أم وضعها في علبة، وهو الحلّ الأسلم بطبيعة الحال، وإنْ كان حملها أصعب في هذه الحالة؟ ورفع المساعد رأسه من وراء النضد الزجاجي ورمق الزبائن المنتظرين بنظرة عجلى، وركّز بعد ذلك على بمبي، التي لم تتنبّه إلى المرارة البادية على عيني الشابّ، ولكنّ المتبضّع الواقف من ورائها تنبّه لذلك.

وأخيرًا مضت المرأة العجوز في سبيلها، وسارت في بطء شديد لم يتسبّب حتى في رنين الأجراس عندما فتحت الباب. وجاء الآن دور بمبي، فأومأت برأسها إلى المساعد، لكنّه تجاهلها وواصل عمله في ترتيب المعجّنات، ثم انتقل لترتيب الصواني المعدنيّة، وأمسك بالعلب وأعادها إلى مكانها الأوّلي.

وقالت بمبي مشيرة إلى إصبعيّات الشوكولا.

ـ عفوًا... هل يمكنك أن تناولني قطعتين من هذه الإصبعيّات، من فضلك.

فتمتم المساعد وهو يمسح كمّاشة:

Twitter: @ketab_n

ـ انتظري حتى يحين دورك.

انزعجت بمبي من نبرة صوته أكثر ممّا انزعجت من قوله، وتردّدت لحظة، لكن زبونًا آخر قال معترضًا:

ـ الدور دورها.

كان لهذا الكلام تأثيره، إذْ وضع المساعد الكمّاشة جانبًا واقترب وعيناه شاخصتان نحو بمبي:

ـ ماذا تريدين إذًا؟

لم تواجه بمبي عنصريًّا من قبل، وكانت فكرة وجود شخص يكره شخصًا آخر بسبب لون البشرة أو الدين أو الطبقة، غريبةً تمامًا عنها غرابةَ سقوط الثلج في شهر آب. لكن هذا لا يعني أنّ الغرباء من الأشخاص لم يعاملوها معاملة سيّئة أو يقلّلوا من شأنها، إلّا أنّ تلك الحالات كان سببها يرجع إلى نوبات غضب وقتيّة، أو هكذا بدت، ولم تكن أحكامًا مسبقة لا تملك القدرة على السيطرة عليها. وكانت تدرك إدركًا جيّدًا مدى اختلاف أسرة طبرق عن جيرانها من الإنكليز، ولكن بالرّغم من ذلك كان الأكراد والأتراك يختلف أحدهم عن الآخر، كما أنّ بعض الأكراد لم يكونوا مشابهين لغيرهم من الأكراد تمامًا، وكانت لكلّ أسرة من أسر قريتها الصغيرة على ضفاف نهر الفرات قصّة أخرى، وفي كلّ أسرة من تلك الأسر لم يوجَد طفلان متشابهان. لو أراد الله أن يخلق الناس متشابهين لخلقهم كذلك، ولم تكن لدى بمبي أيّة فكرة عن السبب في خلق الله كلّ هذا التنوّع والتباين بين خلقه، ولكنّها كانت تؤمن بأهدافه. إنّ قبول بني البشر لما وُلدوا عليه يرقى إلى احترام المشروع الإلٰهي.

الحقّ أنّها كانت متسامحة تمامًا عندما كانت الأمور تخصّ

Twitter: @ketab_n

الفروق الموروثة، وإذا كانت ثمّة أشياء لا تستطيع التكيّف وإيّاها، فإنّها تتحدّد في تلك الاختلافات الحاصلة بعدئذٍ: فالمراهق الذي يشبه شعره شعر قنفذ، أو الذي يتزيّن بثقوب في حاجبيه، والمغنّي الذي يغطّي الوشمُ كلَّ أجزاء جسده، أو عشقُ أسماء وولعُها بلبس البنطالات والتحلّي بالأساور... هذه كلّها أشياء رأت أنّها عسيرة الهضم. لقد وضعها منطقها هذا في محنة أحيانًا، فعلى سبيل المثال، كانت إذا ما التقت أحد المثليّين تريد أن تعرف إن كان قد ولد على ذلك النحو أو أنّه تحوّل إلى مثلي بمرور الزمان. إذا كانت لله إرادة في ذلك، فلا بأس، أمّا إذا كان ذلك من صنع الفرد نفسه، فإنّها لم توافق عليه. لكن ما دام أنّ كلّ الأمور من صنع الله وحده، فإنّها لم تستطع تعزيز مشاعر الحطّ من قدْر الآخرين زمنًا طويلاً.

لهذا السبب، عندما سألها المساعد عمَّا تريد، فإنّها سمعت السؤال ولم تسمع نبرة التأنيب التي كان ينطوي عليها. فما كان منها إلّا أن أجابت إجابة وافية مفعمة بروح المسؤوليّة:

ـ أريد هذه وتلك من فضلك.

فما كان من المساعد إلّا أن حملق بعيدًا، من فوق رأسها ومن ورائه كأنّه لا يراها، وقال:

ـ أليست لها أسماء؟

ظنّت بمبي أنّ الرجل لم يفهمها، فاقتربت من صواني المعجّنات وأشارت بيدها إلى ما تريد من دون أن تدرك أنّ حافّة معطفها كانت تلامس الأقراص المغمّسة بالقرفة.

وهتف بها:

Twitter: @ketab_n

ـ هيه! لا تلمسي هذه!

ثم رفع قرصًا ورمقه بنظرة فاحصة وأضاف:

ـ تبًّا! لن أستطيع بيع هذه الأقراص بعد الآن.

ـ ماذا؟

فقال متذمّرًا:

ـ هل ترين هذه القطعة من الصوف؟ إنّها من معطفك. يجب أن تشتري الآن كلّ محتويات الصينيّة.

ـ صوف؟

ثم زمَّت شفتيها كأنّ الكلمة تركت أثرًا كريهًا في فمها، وأضافت:

ـ لا، لا. لا أريد الصينيّة.

وفي غمرة ارتباكها رفعت يديها إلى أعلى، فارتطمت سلّة المشتريات التي كانت تحملها بسلّة تحوي على قطع حلوى فتساقطت على الأرض.

هزّ المساعد رأسه وقال:

ـ أنت كارثة متنقّلة.

في هذه اللحظة كانت الجلبة قد جذبت أنظار صاحبة المحلّ، التي هرعت إليهما للتأكّد ممّا يحدث.

ـ لقد أفسدت هذه المرأة الأقراص وأسقطت الحلوى، فطلبت منها أن تشتريها ولكنّها رفضت.

احمرّت وجنتا بمبي من تحت أنظار صاحبة المحلّ.

Twitter: @ketab_n

وهنا استرسل المساعد قائلاً:

ـ لا أظنّها تتكلّم الإنكليزيّة.

فردّت بمبي بحدّة:

ـ بل أتكلّمها.

فقالت صاحبة المحلّ في بطء ولكن في صوت مرتفع لم يكن ضروريًّا. كأنّ بمبي صمَّاء:

ـ إذًا لا بدّ أنّك فهمت ما سمعت.

ـ لكنّه طلب منّي أن أشتري محتويات الصينيّة كلّها وأنا لا أملك مالاً كثيرًا.

وضع المساعد ذراعيه من على صدره وقال:

ـ في هذه الحالة سوف نستدعي الشرطة.

أخذ الهلع ينتاب بمبي وهي تقول:

ـ لا شرطة. لماذا؟

وسعل الزبون التالي سعالاً مصطنعًا، وكان متفرِّجًا صامتًا فالتفتت الرؤوس، وقال:

ـ لقد كنت أراقب هذا المشهد، وأجدني مضطرًّا إلى قول بضع كلمات، فإذا ما تدخّلت الشرطة فسوف أكون الشاهد الوحيد هنا.

قال المساعد:

ـ وانْ يكن؟

ـ عندئذٍ سأخبركمْ بالجانب الآخر من القصّة.

Twitter: @ketab_n

ـ أيّ جانب؟

ـ أنّك أسأت معاملة زبونتك، وأنّك لم تخدمها خدمة لائقة، وأنّك كنت بطيئًا مفتقرًا إلى الأدب، وغيرَ متعاون، وصعب المراس، وعدوانيًّا.

قالت صاحبة المحلّ:

ـ أيّها السادة، أيّها السادة!

وارتسمت على شفتيها ابتسامة استرضاء مدركة أنّ الموقف بدأ يخرج عن سيطرتها، وأضافت:

ـ دعونا لا نهوّل الأمر. لم يحصل أيّ ضرر، ولا ضرورة لاستدعاء الشرطة.

والتفتت بمبي في هدوء كأنّها تخوض في ماء، إلى الزبون الآخر ونظرت إليه، رأته حقًّا أوّل مرّة. كان يرتدي سترة بنّيّة من القطن المخملي المضلّع مزيّنة بقطعتين من الجلد عند المرفقين، وكنزة صوفيّة بلون بنّي فاتح وقبّة واقفة ضيّقة. كان طويل الوجه، بارز الأنف ذا شعر بنّي فاتح يلمع لمعانًا ذهبيًّا تحت النور ويرتدّ إلى الوراء من الجانبين، وكانت عيناه رقيقتين وإن لاح عليهما التعب والإرهاق، لونهما بلون الطقس العاصف، رماديّتين، صارمتي النظرات من خلف نظّارة جعلته يبدو أشبه بأستاذ جامعي ـ أو هذا ما ظنّته.

وكان المساعد يتأمّل فيه بدوره وإن كان تأمُّلاً ينطوي على الامتعاض. وقال في صوت يشوبه هسيس:

ـ حسنًا. كيف تمكنني مساعدتك إذًا؟

Twitter: @ketab_n

فقال الزبون.

ـ ساعد السيّدة أوّلاً، فأنت لم تساعدها حتى هذي اللحظة.

* * *

غادرا المخبز معًا ـ غريبان جمعتهما المصادفة. وبدا أمرًا طبيعيًّا سيرَهما معًا بضع دقائق، يستذكر كلّ واحد منهما ما مرَّ به من أحداث، فيجدّدا الألفة والمودّة. وأصرَّ هو على حمل أكياسها، فبدا ذلك شيئًا حسنًا لا بأس به، وإن لم تكن لتسمح بذلك أبدًا لو كانا في حيّها السكني.

سارا حتى وصلا ساحة اللعب القريبة، التي كانت خاوية ربّما بسبب الطقس العاصف. في هذه اللحظات اشتدّت الريح هنا وهناك اشتدادًا دفع أوراق الشجر إلى التساقط ضاربة الأرض وكأنّها أسيرة دوّامة. وعلى الرّغم من ذلك، فكّرت بمبي للمرّة الأولى منذ وصولها إنكلترا أنّ الطقس رائع، إذْ يكتسب الجوّ من وراء المطر والسحاب قدرًا من الهدوء اعتادته وبدأت تحبّه من دون أن تدرك ذلك. لقد تحوّلت إلى امرأة كثيرة التأمّل.

كان يراقبها من طرف عينه، وتنبّه إلى أنّ وجهها يخلو من مساحيق التجميل، وأنّ شعرها الذي تعبث فيه الريح من دون وشاح كان بلون الخريف، كستنائيًّا، لمّاعًا بخطوط تميل إلى الاحمرار لا تكاد تتضح معالمها، حتى إنّها تبدو غير متنبهة إلى وجودها. ووجد شفتيها المكتنزتين وغمّازتها المنفردة جذّابة جدًّا، ولكنّه احتفظ بأفكاره لنفسه. غريب هو الحظّ في الطبيعة، إذْ لو قُيّض لهذه المرأة أن ترتدي ثيابًا مختلفة وأن تبدو هيأتها مختلفة، فسوف تصيب رجالاً كثيرين بالذهول في الشارع، ولكن ربّما كان الأفضل أن

Twitter: @ketab_n

يكون جمالها متواريًا إلى حدٍّ ما.

وقالت بمبي وهي لا تزال تفكّر في الأحداث التي جرت في المخبز:

ـ كان ذلك الفتى معتوهًا.

فاعترض الرجل قائلاً:

ـ لا، ليس معتوهًا. إنّه عنصري.

فتوقّفت ذاهلة، فالعنصريّون هم الذين لا يروقهم السود، والذين يقفون ضدّ ريتّا، وقالت:

ـ أنا لست سوداء.

ضحك لهذه النكتة، ولمّا فهم أنّها لم تكن تمزح، رمقها بنظرة تنمّ عن دهشته وقال:

ـ لستِ مضطرة إلى أن تكوني سوداء كي يقف من هو عنصري موقفًا مضادًّا لك. ثمّة أنواع عديدة من العنصريّة وإن كانت كلّها متشابهة.

أصغت إليه محاولة أن تتبيّن لكنتَه، التي كانت مختلفة الاختلاف كلّه عن كلّ ما سمعته من لكنات منذ وصولها إلى هذا البلد.

ومضى يقول مساعدًا إيّاها كي تفهم:

ـ ثمّة بيض يكرهون السود، ثم هناك بيض يكرهون السمر، وزيادةً في تعقيد الأمور ثمّة بعض السود ممّن يكره السمر، وبعض السمر الذين يكرهون السود، ناهيك عن أولئك السود والسمر والبيض الذين يبغضون أنفسهم، والسود والسمر والبيض الذين

Twitter: @ketab_n

يكرهون كلّ فرد. ثم هناك الدين، ذلك المفرِّق الكبير، فبعض المسلمين يكره كلّ اليهود، وبعض اليهود يكره كلّ المسلمين، كما أنّ بعض النصارى يكرهون كلّ من عداهم.

فسألت:

ـ لكن لم هذه الكراهية والبغضاء؟

وجفل هو لبساطة السؤال وبراءته وطفولته، للأسلوب الذي طرحته به، ولم يجفل للسؤال في ذاته. ولاحظ أنّها كانت جادّة. نسبة البطالة المتزايدة، الفقر ورهاب الأجانب، الخلافات الأيديولوجيّة، أزمة النفط... في تلك اللحظة لم تكن أيٌّ من هذه القضايا إجابةً كافية عن سؤال غاية في الوضوح والبساطة. أمّا هو، ذلك المتشكّك المخضرم، الذي نذر نفسه ألّا يكون مؤمنًا بأيّ شيء، والمتشائم دائمًا وأبدًا، والذي لا يثق بالأخبار ولا بالصحف، ولا يصدّق ما يُقال له حرفيًّا، وبضمن ذلك حقائقه نفسها، ولا يعلّق أيّ آمال تذكر على مستقبل البشريّة... فردّد كأنّه صدى بعيد:

ـ هذا كلام لا يجانب الصواب. لكن لم هذه الكراهية والبغضاء؟

وبعد مرور مدّة من الوقت، لم يعرف أيّ واحد منهما مَن الذي طرح فكرة الجلوس في الملعب، وقالت له بمبي بلغة إنكليزيّة غير سليمة إنّها تشتغل في محلّ تصفيف شعر، وإنّها طلبت استراحة قصيرة لتشتري بعض مستلزمات صنع طبق المهلّبيّة، ومضت تقول إنّها لم تستطع العثور على بندق يشبه البندق الذي كانت تستعمله في إسطنبول، وإنّها مضطرّة لذلك إلى استخدم اللوز بدلاً عنه.

Twitter: @ketab_n

ولدهشتها البالغة وجدته يصغي لها في تعاطف، ولم يخطر ببالها يومًا ما أنّ رجلاً ما، أيّ رجل، سوف يُظهر اهتمامًا كبيرًا بالطبخ.

وسألها:

ـ أنت تركيّة إذًا؟

ولم يتراءَ لها أن تقول إنّها كرديّة، لأنّ هذا لم يعنّ على خاطرها قطّ، وكانت تستغرق بعض الوقت دائمًا للكشف عن كرديّتها، وكأنّ ذلك فكرة تراودها بعدئذٍ. لهذا أومأت برأسها.

فقال لها في صوت يماثل صوت الفتاة:

ـ سيّدتي، لديَّ حلوى تركيّة، وحمّص...

فرمقته بنظرة من عينيها الواسعتين ولم تستوعب ما قال. لكنّه ضحك، لدهشتها البالغة، وقال:

ـ أعتقد أنّ هذا كلّ ما لديّ، فأنا لا أعرف سوى كلمات قليلة.

ـ وكيف؟

فردّ:

ـ كانت جدّتي يونانيّة، وهي من إسطنبول، ولم تعلّمني سوى كلمة أو كلمتين. آه، كم كانت تعشق تلك المدينة. ولكنّه لم يخبرها أنّ جدّته كانت قد هاجرت من إسطنبول في أواخر أيّام الإمبراطوريّة العثمانيّة وتزوّجت تاجرًا من أبناء المشرق، وأنّها ظلّت تشتاق إلى جيرانها وإلى بيتها المطلّ على خليج البوسفور حتى وافتها المنيّة. وحاول أن يتذكّر كلمات أخرى شائعة بين اللغتين التركيّة واليونانيّة، فكانت لكنته مبعثَ ضحكها، فخفضت

Twitter: @ketab_n

من رأسها وأغلقت فمها ـ وتلك إشارة عامّة يكرّرها الناس عندما لا يكونون راضين عن أسنانهم أو يعربون عن سعادتهم.

راقبها لحظة بدت له طويلة جدًّا، وقال:

ـ إنّني لا أعرف حتى اسمك؟

دفعت بمبي ببضع خصلات من شعرها من فوق عينيها، وعلى الرّغم من أنّها لم تذكر إلّا نادرًا أسماءها المتعدّدة، وأنّها لم تترجمها إلى الإنكليزيّة، فإنّها سمعت نفسها تردّد:

ـ اسمي بمبي قدر. وهذا معناه بمبي بخت.

لكنّه لم يعقد حاجبيه ولم يقهقه، على النحو الذي توقّعته، بل رمقها بدلاً من ذلك بنظرة وكأنّها كشفت عن سرّ من أكثر الأسرار مدعاة للهمّ والغم. وقال بعدئذٍ:

ـ اسمك شعر.

كانت بمبي تعرف معنى كلمة «شعر» بالإنكليزيّة، نعم، كانت تعرفها. فافترّ ثغرها عن ابتسامة هي الأولى منذ زمن.

فتحت الكيس الذي أخذته من المخبز وأخرجت منه إصبع شوكولا ناولته إيّاه واحتفظت بإصبع آخر لها. أمّا هو، فقد شاركها بخبز الفاكهة. مرّت لحظات ساد فيها الصمت بينهما، ولكنّهما بادرا بكلمات مثل: «إذًا» و«ربّما» و«لست متأكّدًا ولكنّني...»، وشيئًا فشيئًا، نسجا من حولهما حديثًا بدأ بالعنصريّة وطبق حلوى الرزّ.

كان اسمه الياس، وكان ـ شأنه شأنها ـ قد جاء إلى لندن منذ ثمانية أعوام، واستهوته المدينة، ولم تكن لديه أيّة مشكلة فيها، لأنّه غريب عنها، لأنّه هكذا في صميمه: غريب في كلّ مكان.

Twitter: @ketab_n

وتمنّت بمبي وهي تصغي إليه أن تكون إنكليزيّتها أفضل ممّا هي عليه، ولكنّ المرء لا يحتاج إلى طلاقة في لغة ما كي يتمكّن من التكلّم بها، صحيح؟ فهي وزوجها يتكلّمان لغة واحدة، ولكنّ التواصل بينهما بات نادرًا، هذا إن كان ثمّة أيّ تواصل.

فسألته:

ـ أنت يوناني إذًا؟

لم تخبره برأي أخي زوجها طارق باليونانيّين أو بكلّ السلبيّات التي سمعتها عنهم.

ـ حسنًا، ليس تمامًا. فأنا أتحدّر من أربعة أصول: يونانيّة ولبنانيّة وإيرانيّة وكنديّة.

ـ ولكن كيف؟

ـ حسنًا. تزوّجت جدّتي بلبناني، فرزقت بأمّي، ثم التقت أبي، الذي كان والداه مواطنَيْن كنديين أصلهما من طهران. أمّا أنا، فولدت في بيروت، ولكنّني نشأت وترعرعت في مونتريال، وأنا الآن لندني. فمن أنا إذًا؟

كم من الرحلات الكثيرة والبهجات المتعدّدة والبدايات الجيّدة في أماكن غير مألوفة! ألا يحسّ بشيء من الخوف والوجل وهو يحمل كلّ هذه الشكوك من حوله؟ وتذكّرت بمبي كيف أنّها حلمت بأنّها بحار يسافر إلى مرافئ نائية في سبع قارّات، لكن ذلك الحلم من أحلام الماضي البعيد.

وبدا وكأنّه قرأ ما يدور في ذهنها من شكوك، فابتسم لها وقال:

Twitter: @ketab_n

ـ ليس الأمر بذلك السوء، فبعض الناس ينتمون إلى كلّ مكان.

حوّل أنظاره من على خاتم الزفاف الذي تنبّه له على حين بغتة، ولم تلحظ بدورها ذلك الأثر الباهت الذي تركه الخاتم عليه، ظِلَّ زوجة لم تعد حاضرة ولكنّها لم تختفِ عن الأنظار تمامًا.

فسألته:

ـ وماذا تشتغل؟

ـ رئيس طهاة.

وهنا أشرق وجهها، وقالت:

ـ حقًّا؟

فردّ:

ـ نعم. أراهنك أنّ في إمكاني أن أصنع لك طبقًا من المهلّبيّة يستوي في جودته والطبقَ الذي تعدّين.

وتخيّلته بمبي وهو يقطّع البصل إلى مكعّبات أو يقلّب قطع الكوسا في مقلاة. وكانت فكرة إطلاق ضحكة غريبةً عنها، فما كان منها إلّا أن التزمت الهدوء قلقةً، لا تريد جرح مشاعره، فالرجال الذين عرفتهم نادرًا ما كانوا يدلفون إلى المطبخ لتناول قدح من الماء بأنفسهم، وهذا أسلوب فكّرت فيه الآن، وهو أسلوب تنشئتها ولديها، بخاصّة إسكندر.

وقالت:

ـ زوجتك محظوظة.

فقال إلياس مشيرًا وكأنّه يقتطع قطعة من الخبز:

Twitter: @ketab_n

ـ أنا وزوجتي منفصلان.

فما كان من بمبي إلّا أن حوّلت الحديث إلى اتّجاه آخر:

ـ وما رأي والدك؟ هل يستحسن قيامك بالطبخ؟

كان سؤالاً غريبًا، ولكنّه سؤال صحيح، فأوضح لها أنّ والده لم يكلّمه منذ سنين طويلة، وبدأ يشرح لها في صوت يعلو ويهبط، أنّ الأمور باتت على ما يرام في السنوات الأخيرة، وأخبرها أنّ اهتمامه بالطبخ يرجع إلى أيّام صباه عندما كان يبحث عن أشياء ترفع من معنويّات شقيقته كليو.

فسألته:

ـ وهل كانت شقيقتك مريضة؟

ـ لا، بل كانت فريدة من نوعها.

وأخبرها أنّ الأطفال في الحيّ كانوا يستعملون كلمة أخرى: متخلّفة عقليًّا. كانت كليو قد ولدت مصابة إصابة حادّة بأعراض مرض داون، وعانت عوقًا بدنيًّا وعقليًّا. وفي حين كان هو قد التحق بمدرسة من مدارس الحيّ وفي صفّ يتميّز تلاميذه بالموهبة، كانت كليو مضطرّة إلى قطع مسافة طويلة في كلّ يوم لتلتحق بمعهد متخصّص خارج البلدة. وكانت في غالب الأحيان متذمّرة، تعيسة، ترمي لعبها في كلّ مكان، وتنتف شعرها وتلتهم التراب. واكتشف إلياس الصغير أنّ الشيء الوحيد الذي كان يهدّئ من روعها هو الطعام اللذيذ. كانت فطيرة التفّاح الطازجة ترسم ابتسامة على وجهها وتساعدها على أن ترجع إلى حالتها السويَّة من جديد. وهكذا، ورويدًا رويدًا، تعلّم كيفيّة إعداد الطعام الشهي لكليو، وأدرك في الوقت المحدّد أنّه لم يكن يساعد أخته بل إنّها هي التي

Twitter: @ketab_n

كانت تساعده في طاعة قلبه.

عندما تعجن الطحين، تتسلّل الأرض إلى أوردتك، صلبة وقويّة، وعندما تشوي اللحم، تكلّمك روح الحيوان، ممّا يضطرك إلى تعلّم احترامها، وعندما تنظّف السمكة، فإنّك تسمع صوت تدفّق الماء الذي كانت تسبح فيه يومًا ما، ممّا يضطرك إلى وضع الخلّ عليها في رفق كي تمحو ذاكرة النهر من زعانفها...

أصغت بمبي ذاهلة، ولدهشتها فهمته، وإن كانت كلمات كثيرة قد فاتها سماعها.

* * *

قالت بمبي واثبة على قدميها ولم تدرك إلّا الآن مدى الوقت الطويل الذي انقضى:

ـ آه، يا الله! ينبغي لي أن أذهب.

ـ هل أساعدك في حمل أكياسك إلى محلّ تصفيف الشعر؟

فقالت في قوّة:

ـ لا، لا... سأكون في خير.

وخطر ببالها أنّ أحد المارّة ربّما يشاهدهما معًا فيخبر شخصًا آخر، وسوف يتجاذب الناس القيل والقال، ومن هناك سوف تصل الكلمة إلى مسامع أفراد أسرتها. وأدركت بقلب مفعم بالهموم أنّ السبيل معدوم لرؤية هذا الرجل من جديد، ولم يكن هو مدركًا ما يدور في ذهنها من أفكار، فأخرج من جيبه بطاقته:

إلياس ستيفانوس روبرت غروغان

طاه

Twitter: @ketab_n

نظرت إلى الكلمات واستبدّت بها الدهشة لمرأى هذا العدد الكبير من الأسماء، تمامًا كالبلدان التي يتحدّر منها، وكان اسم المطعم واضحًا على قفا البطاقة.

ـ إن حضرتِ مساءً، فلن يكون في وسعي مغادرة المطبخ. كما أنّ أوقات الغداء لا تصلح أيضًا، لكن إن جئت بعد الساعة الرابعة، فسوف يسرّني أن اصطحبك في نزهة وأن أطهو لك.

أمّا هي، فلم تقدّم له أيّ شيء مقابل ذلك، لا بطاقة ولا عنوان ولا وعد.

ومال إلى أمام ليقبّلها على وجنتها ولكنّها تراجعت إلى الوراء، ممّا أربكه وأحرجه، فانتابها الذهول لذلك، فمدّت يدها ولكنّه كان لا يزال مفكّرًا في السبب الذي دفعها إلى عدم السماح له بتقبيل وجنتها. وفي غمرة ارتباكهما، انتهى به المطاف إلى مسح رسغها بينما ربتت هي على كتفه. كان من شأن الحرج الذي سيطر عليهما في تلك اللحظة أن يجعل أيّ عابر سبيل يضحك، ولكنّ الأمر كان بالنسبة إليهما مزعجًا، لهذا ابتعد أحدهما عن الآخر كأنّهما لمسا سلكًا مشحونًا بتيّار كهربائي، وبأسرع ما يستطيعان مضى كلّ منهما في سبيله.

* * *

Twitter: @ketab_n

الحسناء والوحش

لندن، كانون الأوّل، ١٩٧٧

كان يوم مولد توبيكو. قبل أقلّ من سنة، كانت حياة أسرة طبرق قد تعرّضت للتشوّش والاضطراب، إذْ بات يونس البالغ من العمر سبع سنوات، غارقًا في الحبّ ولوعته، وهو في البيت المحتلّ من الشبّان.

كانت توبيكو قد بلغت سنّ العشرين، وسمعها يونس تقول: «إنّني مولودة نموذجيّة من مواليد برج القوس» وإن لم تكن لديه فكرة عمّا إذا كان ذلك فَأْلاً حسنًا أو لا. وكان يونس من مواليد برج الأسد، غير أنّ هذا لم يكن يعني له أيّ شيء أيضًا. الشيء الوحيد الذي كان يهمّه هو أنّ فارق السنّ بينه وبين توبيكو ازداد واتّسع وباتت آماله في اللحاق بها الآن أضعف من أيّ وقت مضى.

لهذا، جلس في مكانه عابسًا، مقطّبًا، يأكل حبّ الذرة المشوي في طاس من مادّة بلاستيكيّة، ويراقب الشبّان المحتلّين

Twitter: @ketab_n

يفيضون حيويّة ونشاطًا وهم يناولون الهدايا للفتاة المحتفلة بعيد ميلادها: أقراط فضّيّة، دبابيس أمان إفرنجيّة، ياقة مدبّبة، أساور مضفورة، حزام مرصّع بأزرار زينة، جوارب شبكيّة، زوج أحذية طويلة قتاليّة، وثمّة لحاف مرقّع بقطع من قماش مختلفة الأشكال والألوان وعليه عبارة «ماريجوانا طيّبة» منقوشة على الحافّة، فضلاً على عدد من القلائد وعليها رموز، ملصق لباتي سميث كتب عليه (الشروق لستيفن كنغ وجنوب اللاشمال لتشارلز باكوفسكي)، خوذة شرطي (سرقت من ضابط شرطة تركها لحظة واحدة على منضدة في مقهًى محلّي)، ملصق عليه عبارة «السأم ثوري»، قميص تي شيرت أسود اللون وعليه صورة فريق غنائي يدعى فريق الملعونين.

نأى يونس بنفسه بعيدًا عن الضجّة لأنّه كان يريد أن يكون آخر من يقدّم الهديّة لتوبيكو. سببان لهذا القرار: الأوّل أنّه كان يأمل في أن يختلي بها وإن لبضع دقائق، ولكنّه كان أيضًا غير متأكّد إن كانت ستعجبها الهديّة التي اختارها لها أم لا، وتعمّقت هذه الشكوك بعد أن رأى ذلك الخليط من الهدايا التي أعطاها إيّاها الآخرون.

كان الصبي واجمًا، مثقلاً بالشكوك، متّخذًا مجلسه في ركن من الأركان عندما دخل الزعيم مرتديًا أضيق بنطال جينز يشاهده يونس في حياته، وسترة جلديّة بدت صغيرة جدًّا قياسًا إلى حجمه، ويضع حذاءً خاصًّا بركوب الدرّاجات الناريّة. جاء ولم يجلب أيّة هديّة لتوبيكو، بل اكتفى بقبلة نديّة ووعد: «هديّتي في وقت لاحق أيّتها الحبيبة».

مرّت برهة وجيزة من الزمان فكّر فيها يونس مهمومًا أن يفعل

Twitter: @ketab_n

الشيء نفسه، ففي إمكانه أن ينهض من مجلسه ويذهب إلى توبيكو على مهل ببنطاله المدرسي الرمادي وكنزته الزرقاء التي حاكتها له أمّه ويقول بالنبرة الغامضة والقويّة نفسها: «هديّتي في وقت لاحق أيّتها الحبيبة».

ماذا ستفعل توبيكو بعدئذٍ؟ هل سيفترّ ثغرها عن ابتسامة له كابتسامتها للزعيم؟ ارتاب يونس في ذلك، وأغمض عينيه عندما شعر بالتوتّر يتصاعد في معدته. طالما حذّرته والدته: حذارِ من البنات. الصبيان بسطاء، أمّا البنات فلسن كذلك، وسوف يعزفن عليك عزفهنّ على آلة الساز الموسيقيّة.

وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كانت توبيكو تعامله معاملتها الآلة الموسيقيّة، فإنّ المعزوفة الصادرة عن يونس في ذلك اليوم كانت كئيبة وحزينة.

ـ هه! أيّها الرفيق، أتريد نَفَسًا؟

فتح يونس عينيه، فشاهد شابًّا ذا شعر كثيف وطويل مستلقيًا عند قدميه، وكانت عيناه جاحظتين في اتّجاه السقف، ويحمل بيده سيكارة ماريجوانا أشعلها قبل قليل، وكان على ذراعه وشم من هذه العبارة: عندما يقاتل الأغنياء، فإنّ الفقراء هم الذين يلقون حتفهم. لم يستطع الصبي منع نفسه من التفكير في نفسه، وبأنّ أمّه ستصاب بالهلع لو رأته على هذه الحال، ولكن بمبي سوف تطرح السؤال: لكن كيف يغسلون شعرهم؟ وسوف تضيف في قلق بعد أن اتّضح لها موقف جديد: إنّهم يغسلون شعرهم. صحيح؟

كان يونس قد احتسى الجعة من قبلُ ودخّن السكائر، ولكنّه لم يقترب من تعاطي المخدّرات. ذلكم موضوع مثير للجدال في

Twitter: @ketab_n

المنزل الذي احتلّه الصبيان، فهناك أولئك الذين يعارضون المخدّرات معارضة تامّة ويحتقرون الذين يُقْدِمون على تعاطيها (مؤيّدو الفهد الأسود وأنصار النسويّة الراديكاليّون والماركسيّون والتروتسكيّون)، وهناك الهيبيّون والهيبيّون السابقون، الذين كانوا يفضّلون أنواعًا بعينها من المخدّرات ـ الحشيش ـ من دون غيرها، كما أنّ هناك البانك والعدميّين والمأزومين، الذين يمتصّون الأعشاب بدلاً من تناول الحبوب والموادّ الكيمياويّة التي تمنحك طاقة هائلة وغضبًا هائلاً، ومع هذا، فإنّ الاختلاف المتواصل في المنزل لم يكن هو السبب الذي حال دون تعاطي يونس المخدّرات طوال الوقت، بل كان خوفه من ثورة أمّه.

ولكن بعد أن عُرض عليه أَخْذُ نَفَس واحد، فإنّه لم يجد سببًا يدفعه إلى الرفض، لهذا السبب أمسك السيكارة وأخذ نفسًا بلغ من العمق حدًّا جعله يسعل من فوره ويخرجه من فمه.

وقال الرجل صاحب الشعر المرعب:

ـ هل علّموك هذه الأغنية؟

ثم أطلق عقيرته في الغناء:

ـ هيّا، هيّا، خذ سيكارة، في لطف وهدوء.

فما كان من يونس إلّا أن قهقه وأخذ نَفَسًا.

ـ خذ نَفَسًا من سيكارتي، وفجِّرْ دماغك اللعين.

أخذ يونس نفسًا وقهقه، ثم تسبّبا في جلبة كبيرة، فتنبّه الآخرون لهما، بضمنهم توبيكو، التي تقدّمت نحوهما ترمقهما بنظرة حزينة، وجلة.

Twitter: @ketab_n

وقالت وهي تخطف السيكارة من يد الصبي وتضعها بين شفتيها:

ـ لا تدخّن يا عزيزي. لماذا تحاول أن تتشبّه بالآخرين؟ أنت مختلف عنهم، لهذا فأنت مميّز.

ازدرد يونس ريقه في صعوبة وهو يرى نظراتها اللعوب ويسمع التوجّس في صوتها. وبدلاً من أن يتفوّه بالكلمات المقتضبة التي خطّط لقولها قبل الآن، هتف بها:

ـ لكن لديّ هديّة لك.

قالت توبيكو متظاهرة بالدهشة:

ـ صحيح؟ هل لي أن أسألك ما هي أيّها الطفل المدلّل؟

وقف يونس على قدميه، رافعًا رأسه إلى أعلى، دافعًا صدره إلى أمام كأنّه جندي على استعداد لتلقّي الأوامر، ثم ناولها الرزمة التي كان يحتفظ بها طوال المساء، وكانت تتألّف من علبة ذهبيّة وغلاف ذهبي وشريط ذهبي أيضًا، وفي داخل العلبة آلة موسيقيّة ورديّة وأرجوانيّة ورائعة، تمثّل شخصين ـ أميرة وغول ـ يقفان أمام قلعة ساحرة، يمسك أحدهما بالآخر، وكانت الأميرة ترتدي ثوبًا رائع الجمال، أمّا الوحش الهائل، فكان يقف بجانبها وقفة مرتبكة، والحياء ظاهر على محيّاه، وعندما يُدار المفتاح، يبدأ الاثنان الرقص على إيقاع نغم يبدو صوته مثل صوت عربة مثلّجات تمرّ قريبًا من المكان. وما إن شاهد يونس هذا حتى أدرك أنّها مأخوذة عن قصّة الحسناء والوحش، وتذكّر أنّ توبيكو كانت مولعة بأغنية المغنّي ديفيد باوي التي تحمل العنوان نفسه، وإذا ما كانت قد

Twitter: @ketab_n

استمتعت بالأغنية، فإنّها سوف تستمتع بهذه أيضًا.

الحقّ أنّ يونس كان فكّر أوّل مرّة في شراء هديّة أخرى، يتساقط فيها نثار الأرزّ على العروسة والعريس وهما يتبادلان القبلات أمام إحدى الكنائس، ولكنّه ارتاب بعدئذٍ، خشية ألّا تروق توبيكو، فهي ضدّ الزواج وضدّ الدين، وفق معلوماته، وربّما تكون مناهضة لرمي الأرز في الهواء على ذلك النحو، ولهذا اختار هديّة أخرى ـ وإن كانت أغلى ثمنًا واستنزفت كلّ مدّخراته.

كان يونس يرى أنّ توبيكو لا تختلف عن الأميرة من حيث نقائها وروعتها، في حين كان هو أشبه بالوحش. كان وحشًا في ثيابه الأنيقة يقودها إلى حلبة الرقص، فهو البطل غير المحتمل في القصّة، وهو الفتى الذي لم يصبح رجلاً بعد، ولكنّه يملك من الطاقة ما يجعله قادرًا على أن يغدو يومًا ما رجلاً. كان الصبي يحمل طفولته وكأنّها سحر مشؤوم، مؤملاً أن يتخلّص منه عمّا قريب.

أدهشت سذاجة الهديّة توبيكو، فأمسكت بها في راحتي كفّيها وكأنّها طائر صغير وهتفت في بهجة:

ـ آه، يا لروعتها!

فابتسم يونس، فهو سوف يتزوّجها.

وسأل الزعيم، من الجانب الآخر من الغرفة:

ـ ما الشيء الرائع؟

إلّا أنّ توبيكو لم تجب.

اتّسعت ابتسامة يونس أكثر فأكثر حتى أضحت غطاءً يخيّم على المنزل، مُخْفِيًا من تحته بيوتَ العناكب، والبعوضَ الذي يحوم

Twitter: @ketab_n

حول وهج الشموع، والأَرَضَةَ التي تنخر في الكراسي الخشبيّة، وكلَّ شيء كان يتمنّى أن يجعله متواريًا عن الأنظار، وبضمن ذلك كلّ منافسيه الأقوياء.

* * *

انساب المساء مفعمًا بالموسيقى من «ذا كلاش» و«ذا كوكني ريجيكتس» و«ذا سكس بيستولز»، وبقالب حلوى عيد الميلاد المطعَّم بالشوكولا والموز والحشيش. وكان قالب الحلوى يخلو من الشموع المخصَّصة لإطفائها، ولكن القناديل النحاسيّة/ القصديريّة، المسروقة من أحد المحلّات في اليوم نفسه، وفّرت الجوّ الاحتفالي المطلوب.

كان يونس قد احتسى الآن أكثر من بضع رشفات من الجعة وأكل عددًا من قطع قالب الحلوى المشكوك في أمرها. لم يكن مصابًا بدوار تمامّ، ولكن معدته كانت متقلّبة، فبذل قصارى جهده كي لا يتقيّأ، وجلس متّكئًا إلى الوراء، تدور عيناه من على الجدران. وتنبّه من تحت الضوء المتراقص، إلى صورة لم يسبق له أن لاحظها، تمثّل رجلاً ضخم الكتفين ذا أنف بارز ولحية بلون الملح وشعر في حاجة ماسّة إلى أن يؤدّي المشط دوره فيه. ولمّا كان اليوم هو يوم عيد مولد توبيكو، فقد افترض أنّ للرجل صلة ما بها، فسألها مشيرًا إلى الصورة:

ـ أهذا هو جدّك؟

ولكن قبل أن تتبيّن توبيكو فحوى كلامه، ناهيك عن الإجابة عنه، كان الرجل ذو الشعر الفظيع اسْتَرَقَ السمع، فالتفت إلى الآخرين وهتف بمرح:

Twitter: @ketab_n

ـ هه! الفتى يسأل إن كان كارل ماركس جدّها!

فأعقب كلامه ضحكة، بينما قال أحد الجالسين ببهجة:

ـ إنّه جدّنا كلّنا.

وأضاف الزعيم مسرورًا على ما يبدو:

ـ سوف يغيّر جدّنا من العالم.

أدرك يونس أنّه تفوّه بكلام ينمّ عن غباء وسذاجة، فاحمرّ وجهه حتى أذنيه، ولكنّه كان لا يزال مضطرًّا إلى مواجهة الزعيم، ولهذا بادره متسائلاً:

ـ ألا تجده أكبر من ذلك؟

فجاء الردّ:

ـ إنّه كبير السنّ وحكيم.

لكن يونس ألحَّ:

ـ وهو بدين أكثر ممّا ينبغي.

فصدرت عن الحاضرين قهقهة أخرى، غير أنّ الزعيم بدا جادًّا وضاقت عيناه إلى حدٍّ كبير، وقال:

ـ ألا يجدر بك أن تبدي قليلاً من الاحترام أيّها الصديق؟ لقد كان ذلك الرجل يدافع عنك، وكان يناضل من أجل حقوق أمثالك من الناس.

غير أنّ يونس اضطر إلى أن يسأل:

ـ هل كان تركيًّا؟

فضحك محتلّو المنزل ضحكًا مدوّيًا، بل سقط أحدهم من

Twitter: @ketab_n

فوق الأريكة، ثم جفّفوا الدموع من مآقيهم وهم ما زالوا يضحكون وأصغوا متعطّشين إلى ما هو أكثر.

وقال الزعيم موضحًا:

ـ أمثالك من الناس عبارة معناها الذين لا يملكون.

فسأل يونس:

ـ وما معنى الذين لا يملكون.

ـ الذين لا يملكون هم الناس الذين حُرموا من حقّ التملّك كي يتمكّن الذين يملكون من امتلاك أكثر ممّا ينبغي لهم امتلاكه.

وقف يونس يعضّ على شفته السفلى مقطّبًا.

واسترسل الزعيم في كلامه:

ـ ليس على وجه الأرض من يوازي الإنسان في قسوته وجشعه. وقد شُيّد النظام الرأسمالي برمّته على استغلال الذين يملكون للذين لا يملكون استغلالاً منظّمًا. أنت وأنا وصديقنا الفتى هنا وأسرته، كلّنا من عامّة الناس! خيار البشر! الرعاع العظام!

ضحكوا، ولكن ضحكهم كان مختلفًا في هذه المرّة، إذْ كانت تشوبه مسحة من الرقّة تمتزج فيها الشفقة بالعطف.

إلّا أنّ الزعيم أخفق في غمرة إحساسه بالصواب، أن يلاحظ أنّ مزاج الحاضرين قد تبدّل. فقال:

ـ استيقظوا على الحقيقة أيّها الشبّان. إنّ الناس من أمثال آبائكم مُستغَلّون طوال الوقت كي يتمكّن الآخرون من ملء جيوبهم.

كبت يونس شهقةً وقفز على قدميه مرتبكًا إلى حدٍّ ما، وقال:

Twitter: @ketab_n

ـ لم يستغلّ أحد والديَّ ولسنا من الرعاع. كما أنّ والدتي ملاكمة.

لم تكن الكبرياء وحدها هي التي دفعته إلى التفوّه بمثل هذا الكلام، إذْ إنّه لم يفكّر يومًا ما في أسرته على أنّها أسرة فقيرة. صحيح أنّ والدته كانت تتذمّر أحيانًا بشأن تدبير المصاريف، ولكن لم يشر أحد من أفراد الأسرة إلى أنّه معوز أو محروم أو من الطبقة الدنيا أو ممّن لا يملكون شيئًا.

في هذه المرّة لم يضحك أحد. ازدادت حلكة الظلام في الخارج، وفي مكان ما لا يبعد كثيرًا، وتحت أنوار مصابيح الشارع الخافتة، كانت بمبي تنتظر قرب نافذة المطبخ وقد خيّم عليها صمت مطبق ووحدة هائلة وكأنّها شكل من أشكال الدمى.

وقال الزعيم ضاحكًا كي لا تؤخذ كلماته على محمل النهر والتأنيب:

ـ هه! إنّني لا أعني توجيه الإهانة، فأنت صغير لا تحتملها.

كانت هذه الكلمات الختاميّة أكثرَ الأشياء التي كان يكرهها يونس: عمره وتناقضه واستحالة الحبّ، وهنا تهاوى على كرسي واجمًا، حزينًا.

وهمست توبيكو:

ـ لا تعارضه، فالوقت بات متأخّرًا وربّما ينبغي لك الذهاب.

قال يونس مُقرًّا، مقطّبَ الوجه، متقلّبَ المعدة:

ـ صحيح. ينبغي لي الانصراف.

ـ طابت ليلتك أيّها العزيز.

Twitter: @ketab_n

ودّعهم يونس ملوّحًا، لا بوضْع يده على صدره كما علّمه والده وعمّه، بل برفع السبّابة والإصبع الوسطى، وهو أسلوب يلجأ إليه محتلّو المنزل. وما أن تقدّم خطوة حتى بدأت الغرفة تمور به، وتحوّلت الأنوار إلى لون لؤلؤي رقيق، فانسلّ إلى عالم آخر، ومن دون سابق إنذار وأمام الحاضرين كلّهم، تقيّأ الفتى على ثوب عيد ميلاد المرأة التي أحبّها وليس على الأرض، وقال متأوّهًا:

ـ آه، لا.

وناح قبل أن يغمض عينيه، مدركًا الإدراك كلّه أنّها لن تحبّه أبدًا بعد الآن.

في تلك الليلة، حمل محتلّو المنزل يونس إلى بيته وقرعوا الجرس وأطلقوا سيقانهم للريح قبل أن تفتح بمبي الباب بثوانٍ قليلة وتجد ولدها وقد تعالى شخيره ببهجة من فوق عتبة الباب.

* * *

Twitter: @ketab_n

سترة صوفيّة منفوشة

لندن، ١٨ كانون الأوّل، ١٩٧٧

منذ أن بدأ الفصل الدراسي، تولّهت كاتي إيفانز بإسكندر ولهًا يكاد يكون خارجًا عن سيطرتها: أليكس، ألكسندر، فتحة شرج، مغرور، رفقة أصدقائه دومًا، يظنّ نفسه زعيم عصابة... لكن عليها أن تعترف أنّه رجل قوي ذو سحنة زيتونيّة فاتحة اللون وعينين متّقدتين. وأخيرًا لمّت أطراف شجاعتها لتسأله إن كان يرغب في الخروج وإيّاها، فردَّ عليها إسكندر ردًّا مقتضبًا: «لا بأس»، وقال إنّه مضطرّ في يوم الأحد إلى مساعدة أمّه صباحًا وإلى أن يتدرّب على الملاكمة من الساعة الحادية عشرة حتى الثانية من بعد الظهر، أمّا بعد ذلك فإنّه مستعدّ للقائها إن كانت تلك هي رغبتها.

قبل ساعات من حلول موعد اللقاء، كانت كاتي في حجرتها تجرّب الثياب واحدًا تلو الآخر، واجمةً أمام المرآة ـ الكنزات الصوفيّة من الموهير فاتحة الألوان: أرجواني فاتح ضارب إلى الحمرة، قرنفلي ضارب إلى الصفرة، خزامي، أو مثل زبد البحر،

Twitter: @ketab_n

التي اشترتها رفقة والدتها. بدت مفتقرة إلى الأناقة والذوق الرفيع. وينطبق الأمر كذلك على تنّورات من علامة لورا آشلي وثياب الصنف الممتاز وأحذية من علامة ماري ـ جين. كانت ترنو إلى خزانة ثيابها بعيني إسكندر، فانتابها الذعر من المسحة البنّاتيّة. وبعد بحث شاقّ وإحباط كبير، استقرّت على المظهر الاعتيادي غير الرسمي، وارتدت بنطالاً من الجينز واحتذت حذاءً خفيفًا من قماش ونعل مطّاطي وكنزة فضفاضة كحليّة اللون. ومشّطت شعرها بهيئة ذيل الحصان ولم تضع على وجهها إلّا مقدارًا ضئيلاً من مساحيق التجميل، مؤملة منه أن ينظر إلى أسلوبها على أنّه علامة من علامات الثقة بالنفس أو التواضع، أو كليهما، وهذا هو الأفضل.

وصلت كاتي المقهى قبل الموعد المحدّد بخمس دقائق بعد أن تفحّصت مظهرها أمام كلّ واجهة زجاجيّة من واجهات المحلّات والمتاجر التي مرّت من أمامها. مرّت أربعون دقيقة ولم يصل إسكندر بعد، وفي غمرة إحساسها بالكبرياء وعدم تقبّل الهزيمة، استدعت النادل وطلبت كوكاكولا من جديد. الحقّ أنّها كانت ترغب في بادئ الأمر أن تحتسي شرابًا مخفوقًا باللبن ـ كالفراولة والموز ـ وهو الشراب الذي تفضّله كثيرًا، ولكن بعد برهة وجيزة من التفكير، غيّرت من رأيها، معتقدة أنّ مثل ذلك الشراب يبدو من مميّزات البنات.

فرغت كاتي تقريبًا من احتساء الكوكاكولا الثانية وكاد صبرها أن ينفد عندما انفتح الباب بقوّة ودخل إسكندر يمضغ علكة ويحمل حقيبته الرياضيّة وشعره لا يزال مبلّلاً على أثر استحمامه. وكان في

Twitter: @ketab_n

وسعها أن تلاحظ أنّه قد تصرّف على هواه من حيث الوقت، ومشّط شعره كما يريد للحاق بموعد لقائهما.

وقال:

ـ كيف حالك يا حبيبتي؟

كانت تلك الكلمة البسيطة والساذجة، حبيبتي، قد دفعت بهياجها وسَوْرتها خارج النافذة، وتورّدت وجنتاها قليلاً. وأضاف:

ـ هل انتظرت طويلاً؟

ـ لا بأس.

لم تفطن إلى عينيه السوداوين وهما ترنوان إلى شعرها وإلى شفتيها والجزء الأعلى المنتفخ الذي يخفي نهديها. وتساءل عن السبب الذي حال بينها وبين ارتداء ثياب أكثر أناقة.

ـ كيف سار تمرينك مع الملاكمة؟

فقال إسكندر:

ـ مدرّبي عظيم، مفتول العضلات شديد التحمّل، أحد المظليّين سابقًا، شارك في القتال في إيرلندا الشماليّة. رجل مصنوع من عجينة مذهلة.

ـ وهل استخدم بندقيّة يومًا ما؟

ضحك إسكندر هازئًا. هل استخدم بندقيّة يومًا ما؟ لا بدّ أنّه قتل في الأقلّ عشرة أشخاص، وعانى من ألم الجراح بسبب الانفجارات. لقد تعلّم هذا الرجل الملاكمة بأسلوب صعب.

وعلى حين غرّة، امتقع وجه كاتي وشعرت بالسعادة لأنّها لم تلبس أيّ كنزة من كنزاتها الصوفيّة المنفوشة.

Twitter: @ketab_n

وسأل إسكندر مشيرًا إلى قدحها الفارغ:

ـ ماذا تشربين؟

ـ شربت الكوكاكولا مرّتين. أتريد مشاركتي؟

فقال إسكندر:

ـ لا، إنّني أكره الكوكاكولا لأنّها تجعلني أشعر بالترهّل والانتفاخ. ثمّة شيء غير مفهوم في تلك التركيبة السرِّيّة. إنّني أفضّل الشراب المخفوق باللبن.

لم تندّ عن كاتي أيّ حركة وهي تنظر إلى إسكندر وهو ينادي على النادل ويطلب مشروبين ـ كوكا لها ومخفوق اللبن له، بالموز والفراولة. وثرثرا طويلاً: في موضوع المدرسة، والأطفال القذرين الذين لا يستحمّون أبدًا، والمعلّمين الذين لا يطيقونهم... وكانت كاتي قد بدأت تبتهج وإذ بها تفاجأ بوجهه وقد انقلب كالحًا، واجمًا:

ـ ماذا تفعلين هنا معي يا كاتي؟

تذبذت نظرتها لحظة واحدة، قبل أن تستقرّ عليه من جديد، وفكّرت إن كان في وسعها أن تعترف له أنّها أنفقت الليلة الماضية حاضنةً جهاز التسجيل الخاصّ بها وتصغي مرارًا وتكرارًا إلى الفريق الغنائي «بي جيز» وهو يغنّي أغنية.

ـ حسنًا... إنّنا نتجاذب أطراف الحديث لا غير.

ـ انظري إليَّ! ولا تسيئي الظنّ بي. أعتقد أنّك فتاة رائعة، ولكنّنا لا ينسجم أحدنا مع الآخر. أنا وأنت نعرف هذا الشيء. أعني... أعني أنّني لست الرجل المناسب لك. فعالمي مختلف

Twitter: @ketab_n

عن عالمك.

عضّت على شفتها السفلى، توشك أن تنفجر بكاءً، كأنّ شيئًا لا يقدّر بثمن سُرق من عندها. ولمّا وجدت أنّه رفضها مثل هذا الرفض الواضح، ولأنّه ظنّ أنّهما غير منسجمين، ولأنّه صعب المنال، إذا بالفوز بقلبه يصبح على حين بغتة أهمّ هدف في حياتها، فقالت وهي تخطو خطواتها من على خطّ يفصل بين الحبّ والمواجهة:

ـ ولكنّك لا تعرفني حقّ المعرفة.

فقال إسكندر من دون أن يبدو عليه أسف أو اعتذار بعد أن استبدّت به دهشة محبّبة وهو يرى كاتي إيفانز بمثل هذه الهشاشة وهذا الضعف، بهذه العذوبة التي خالها واضحة عليها:

ـ آه، لم أكن أنوي مضايقتك، لكن دعيني أقول لك إنّنا بدأنا بداية سيّئة. لم لا نحاول من جديد؟

ثم مال إلى أمام وأمسك يدها، وقال:

ـ مرحبًا. كيف حالك؟ اسمي إسكندر، وفي وسعك مناداتي أليكس.

فافترقت شفتاها قليلاً وهو تقول:

ـ يسرّني اللقاء بك.

وقبل أن يغادرا المكان استأذن إسكندر وذهب إلى المرافق الصحّيّة، وفي منتصف المسافة على السلالم التقى رجلاً شابًّا وضامرًا، حليق الرأس، أزرق العينين، تكسو البقع وجهه. نظر الرجل، الذي كان يعمل مساعدًا في مخبز في أحد الأحياء، مليًّا

Twitter: @ketab_n

إلى إسكندر برهة وجيزة، وافترّ ثغره عن ابتسامة خافتة.

وعندما دلف إسكندر إلى المرفق الصحّي، رأى رجلاً يتبوّل، متأنّقًا في مظهره ويصفّر لحنًا بهيجًا. أغلق الباب، وتوقّف منذهلاً ممّا رأى، فعلى ظهر الباب رُسم صليب معقوف بطول قدمين وبجانبه عدد من الشعارات العنصريّة والبذيئة، ومن تحت الصليب عبارة: قوّة البِيض. وكانت بعض الكلمات الأخرى المكتوبة قد أزيلت أجزاء منها بأداة معدنيّة، في حين أزيلت أجزاء أخرى بمادّة صبغيّة. نظر إسكندر إلى الصبغ نظرة فاحصة وفكّر أنّ من ارتكب هذا العمل إنّما ارتكبه قبل وقت قصير لأنّه لم يمض على وجوده في المكان زمن طويل.

غادر المكان في عجالة من أمره وأومأ برأسه إلى الرجل الذي كان يغسل يديه وجلاً. وفي طريق عودته إلى كاتي تمنّى لو أنّه دخل المرفق الصحّي قبل دقيقة واحدة لا أكثر، كي يرى الفاعل.

* * *

خرجا للتنزّه، فارتاحت كاتي، التي احتست ثلاث زجاجات من الكوكا. سارا على غير هدًى، ومرًّا ببائعي الخضروات والصيادلة ومحلّات الرهان، فيما لاحقتهما البقيّة الباقية من أشعّة الشمس. وعلى الرّغم من ضجيج النهار وكآبة السماء، فإنّ عددًا كبيرًا من الناس خرجوا لقضاء أشغالهم.

ولمّا وصلا حديقة ڤيكتوريا توقّفا بالقرب من بركة الماء يراقبان الحَمَام، وشعرا بلذّة العشب من تحت أقدامهما نقيًّا، واعدًا بالنماء، فوضع ذراعه من حولها وجذبها إليه وقبّلها. راقتها الرائحة المنبعثة منه وراقها طعم شفتيه، وارتاحت لأنّه لم يحاول أن يمدّ

Twitter: @ketab_n

يده من تحت ثيابها لملامسة نهديها، وهو ما يفعله غيره من الصبيان مؤمِّلين الاندفاع والمضي إلى ما هو أبعد من ذلك. ولاحظت الحماسة في صوته والجرأة في عينيه والجوع في روحه.

تشابكت أيديهما وجلسا على مصطبة يراقبان المارّة، ويهمس أحدهما في أذن الآخر بكلمات عابثة ضدّ كلّ من يمرّ من أمامهما. وابتسم بعض المارّة لهما، سعداء لأنّهم كانوا يشاهدون شابّين آخرين مولعَيْن أحدهما بالآخر. أمّا البعض الآخر، فأشاح بوجهه بعيدًا متفاديًا النظر إليهما.

وسألت كاتي:

ـ ما رأيك في ذلك الرجل؟ ألا يبدو محتلًّا؟

لاحقت عينا إسكندر عينيها إلى أن وقعتا على رجل نحيل البنية، أسود الشعر يقترب منهما، وسرعان ما تصلّب ظهره وارتخت ذراعاه من حولها.

ـ ماذا؟ أتعرفه؟

ولّى إسكندر ظهرَه الطريق من دون أن ينبس بكلمة، ورفع قبّة سترته إلى أعلى ليخفي وجهه، ومرَّ بهما الرجل الذي يطلق عليه الناس صفة «الخطيب» بعد مرور بضع ثوان من دون أن ينظر اليهما إلّا نظرة خاطفة وهما جالسان على المصطبة.

وسألت كاتي:

ـ ماذا يجري؟ أهو شخص لا تريد أن تراه؟

ـ لا بأس. لكنّني لا أريده أن يراني في رفقتك.

أثار اهتمامَ كاتي السلوكُ الذي سلكه، كان وكأنّ فخًّا من

Twitter: @ketab_n

فولاذ نُصِبَ له كلّما طرحت عليه سؤالاً لا يرغب في الإجابة عنه، وبضمن ذلك الأسئلة الخاصّة عن أسرته وطفولته. ثمّة جوانب في شخصيّته لم تستطع فهمها، فهو شابّ بارد الأعصاب، كما ظنّت، ولكنّه سهل التعرّض إلى نوبات من الغضب. كانت كاتي واثقة أنّه في لقائهما في المرّة القادمة ـ وكانت كاتي تدرك أنّ ثمّة مرّة قادمة ـ سوف يعاملها معاملة أفضل. كانت واثقة من هذا.

Twitter: @ketab_n

عجائـب

لندن، ٢٤ كانون الأوّل، ١٩٧٧

في مطبخ فسيح، حَسَنِ الإضاءة يحتشد بالطهاة والمساعدين، وقف إلياس المالك ورئيس الطهاة في منزل كليو مثقَلاً من فوق موقد كبير الحجم كانت تئزّ من عليه مختلف المقالي. وحرَّك في بطء صلصة فطر كثيفة بالقشدة، وكانت جاهزة إلى حدٍّ ما ولكنّها لم تكتمل بعد، وكان يضع عليها دائمًا مقدارًا من جوزة الطيب قبل أن يرفعها من على النار. ذلكم هو سرّه الصغير. واليوم لا بدّ أن يكون كلّ شيء على ما يرام لأنّ اليوم هو عشيّة الكريسمس.

وكان إلياس النصراني الأرثوذوكسي بالولادة، والذي اختار أن يكون بلا دين، يهيم بروح الكريسمس: الغناء ولمّ شمل الأسرة والمشاركة وتقديم الهدايا، وعلى وجه الخصوص الإيمان بالمعجزات. ذلك هو الجانب الذي يمكنه أن يتكلّم فيه على أحسن ما يكون الكلام، ففي صباه كان قدّيسه المفضّل هو القدّيس أندرو الكريتي، لا لأنّ هذا القدّيس أشدّ ورعًا وتقوى من بقيّة القدّيسين،

Twitter: @ketab_n

بل لأنّه ـ بخلافهم ـ كان في ذاته أعجوبة من الأعاجيب المتنقّلة، فقد كان القدّيس أندرو مُصابًا بالخرس منذ ولادته، وبقي على ذلك الحال إلى أن بدأ يتكلّم في يوم من الأيّام وهو لم يتجاوز سنّ السابعة، عن حقائق تتجاوز عمره الصغير يومذاك. كان إلياس يهوى تلك الحكاية ويستلذّ أيّما استلذاذ في تخيّل الصدمة التي ارتسمت على وجوه الناس من حول الطفل عندما نطق بكلماته الأولى، واستمتع كثيرًا لأنّ القدّيس خلّده التاريخ بوصفه خطيبًا مُفَوَّهًا ومؤلِّف تراتيل دينيّة، فإذا كان صبي أخرس قادرًا على هذا العمل، فإنّ الحياة قد لا تكون بتلك المرارة التي يمكن أن تبدو بها أحيانًا.

بعد أن وضع إلياس جوز الطيب في المقلاة، حرَّك محتويات الصلصة مرّة أخرى وأطفأ الموقد، وهنا وقف مساعده إلى جانبه وأفرغ الصلصة في وعاء من الخزف لتبرُدَ قبل أن تُسكب في خمس وخمسين قطعة من شرائح لحم البقر قبل تقديمها.

ورنا إلياس إلى ساعته ليعرف الوقت قبل أن يبدأ في إعداد الطبق التالي، وهو قالب حلوى بالكمثري وبصلصة الجوز. لم يستخدم إلياس أيّة أدوات طبخ معدنيّة في إعداد أيّ طبق من أطباقه، وذلك سرّ آخر من أسراره. لا بدّ لكلّ شيء أن يكون مصنوعًا من الخشب، فالمعدن بارد وصقيل ومكتمل أكثر ممّا ينبغي، كما أنّه لا يربط بين الأشياء، بل يسيطر عليها. أمّا الخشب، فإنّه مربك وخشن لكنّه وفيّ.

لم تبق سوى سبع ساعات على حلول الكريسمس، وبقدر ما يخصّ الأمر قضيّة العدّ، فإنّ عام ١٩٧٨ لم يبق على حلوله سوى

Twitter: @ketab_n

أيّام قليلة. ولكن إلياس لم يأمل كثيرًا بحلول العام الجديد، ربّما راوده أمل واحد، وهو ألّا يكون عامًا فظيعًا كالعام الذي يقترب من نهايته.

كانت الأشهر الماضية من السنة هي الأشدّ على مدى العقود الخمسة المنصرمة من حياته، فقد بدأ العام وحياته الوظيفيّة في ازدهار، وبزوجة جذّابة ومنزل مترامي الأطراف في حيّ إيزلنغتون، وأعماله في المطعم أكبر من طاقته على السيطرة عليها، لكنّه بعد مرور سبعة أشهر، بات عازبًا، يقطن شقّة صغيرة لا تكاد تحتوي على أثاث جدير بالذكر. وباستثناء عدد قليل من الأصدقاء، لم تعد له صلات اجتماعيّة تُذكر مع الآخرين، وبات منكفئًا من محنة طلاق لم يكن على استعداد له. أمّا من الناحية العاطفيّة، فقد شبَّه إلياس حالته بحالة نموذج مصغّر لقطار انتهت صلاحيّة بطّاريّاته في وقت كان يرتقي إحدى التلال. وفي المرحلة الأخيرة من زواجه، ظلّ يحاول ويبذل قصارى جهد لم يعد يمتلكه، إلى أن انحرف عن مساره. كان الطلاق شيئًا بغيضًا، ولم يتصرّف لا هو ولا زوجته تصرّفًا طبيعيًّا كعهدهما في سابق الأيّام.

وطالما وجد نفسه يجادل في أمور ماليّة أكثر من الأمور العاطفيّة، إلى أن صرفها من ذهنه وصرف وإيّاها نفقة الطلاق والذكريات.

كان قد هام حبًّا بزوجته، وما زال يهيم بها على نحوٍ ما أحيانًا، فقد كانت أنابيل، ذات القوام الممشوق والكتفين الهزيلتين والسحنة الشاحبة واللكنة البريطانيّة الواضحة والأفكار القليلة، هي السبب في انتقاله إلى هذا البلد، ولمّا كانت إنكليزيّة أكثر من

Twitter: @ketab_n

الملكة نفسها ومرتبطة ارتباطًا وثيقًا بأسرتها في مقاطعة غلوسترشاير، ولمّا كان عمله أكثر مرونة من عملها ـ حيث كانت مؤسِّسة مركز نسائي قانوني رائد، فقد بدا أمرًا طبيعيًّا استقرارُهما في لندن بعد قضاء شهر عسل قصير في جزيرة إيبيزا الإسبانيّة.

لم يعترض إلياس على هذه اللحظة في أيّ مرحلة، إلّا أنّ الانتقال لم يكن سهلاً، فقد كانت لندن في بداية السبعينيّات بعيدة البعد كلّه عن جنّة الطبخ، ولم يكن فيها سوى عدد قليل لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة من مطاعم الدرجة الأولى، وكان الناس ينظرون إلى الأطباق الجديدة والأطعمة المنتمية إلى ثقافات متعدّدة نظرة ملؤها الشكّ والريبة. صحيح أنّ الطعام الهندي كان يحظى بسمعة طيّبة نسبيًّا، ولكن نكهته لم تكن لتشبه النكهات التي كان إلياس يريد أن يقدّمها. على أيّة حال، وجد الطعامَ الإنكليزي ثقيلاً وخاصًّا بالإنكليز وحدهم، وكان الزبائن يقاومون الأطعمة الجديدة التي كان يرغب في إعدادها.

وفي نهاية المطاف، انتهى زواجهما على النحو الذي بدأ تمامًا، انتهى بإحساس بضرورة التحدّي، وما أن وُقّعت أوراق الطلاق حتى لم يعد لدى إلياس من سنوات الزواج السبع والنصف سوى قطّ فارسي هرم وكسول يُدعى ماغنوليا وألبوم صور فَقَدَ الرغبة في النظر إليه مع مرارة في ذاكرته، وفي أحلامه أَحيانًا.

وفي منتصف فصل الصيف تلقّى مكالمة هاتفيّة من أمّه تخبره أنّ والده أُصيب بنوبة قلبيّة ثانية، وأنّه لم ينج منها هذه المرّة. ولم يكن إلياس يعرف شيئًا عن النوبة القلبيّة الأولى.

وقالت:

Twitter: @ketab_n

ـ كان دائم الحديث عنك في كلّ يوم. كان والدك يكنّ لك ولما أنجزْتَه هناك الاحترامَ كلّه. وكانت كبرياؤه تحول بينه وبين التعبير عن ذلك أمامك مباشرة.

كان الاتّصال الهاتفي ضعيفًا جدًّا جعله غير متأكّد من سماعها على نحو صحيح، وقال:

ـ إنّني عائد إليك يا أمّاه!

فقالت له:

ـ ليس الآن يا عزيزي. سوف تأتي لزيارتي ولزيارة كليو عندما تتحسّن حالك وحالي، أمّا الآن فلا فائدة من ذلك لكلينا. ابق حيث أنت وافعل ما أنت مضطرّ إلى فعله، لأنّ والدك كان يفضّل ذلك.

ولكن حتى من دون كلماتها، كان إلياس يدرك أنّه قرّر عدم الرحيل عن لندن، وسوف يعمل من دون كلل، ملتهمًا ماضيه، عنيدًا وجائعًا مثل دعسوقة تلتهم كلّ ورقة من أوراق الشجر تقع أنظارها عليها، ومن ثم سينتظر شخصًا ما ليخلّصه من هذه الشرنقة وقد انتقل إلى طور آخر. أمّا الشيء الوحيد الذي ظلّ من دون أن يمسّه أيّ تغيير طوال العام ١٩٧٧، فهو عمله.

كان المطعم في حالة من الازدهار الكبير، وكان يخطّط لفتح مطعم ثانٍ في ريتشموند ـ كأنّه يريد بذلك أن يعوّض عن الفوضى الضاربة أطنابها في كلّ مكان.

أصبح إلياس الآن معتادًا ألمًا بدأ أوّل الأمر في معدته وانتقل من بعد ذلك إلى قفصه الصدري ليستقرّ فيه، فزاد من صعوبة ضحكه، بل حتى التنفّس أحيانًا. وواصل أصدقاؤه الاتّصال به

Twitter: @ketab_n

هاتفيًّا، وألحّوا عليه أن يلتقيهم من جديد، وتركوا له رسائل على الهاتف، ورتّبوا له مواعيد لقاءات أوّليّة مع نساء كنّ معجبات بذواتهنّ أو يحتقرنها.

الحقّ أنّ إلياس وجد نفسه رويدًا رويدًا يبحث عن مسوّغات وذرائع لكي يخلو إلى نفسه. لقد أصبحت الوحدة ذلك الإحساسَ المثير لضجره وهلعه طوال حياته تقريبًا، الواضحَ وضوحًا ملموسًا وماديًّا الآن، وكأنّه سائل من السوائل اندفع إلى مسامات جسمه مبلّلاً كلّ أوعية جسده وأنسجته الدمويّة، مثل ماء يبلّل قطعة جافّة من الإسفنج. وممّا يبعث على الاستغراب أنّه لم يجد في ذلك أيّ خير.

بخت بمبي هو اسمها الذي ذكرته. لم يستطع إلياس منع نفسه من ملاحظة الفرق الهائل بينها وبين أنابيل. ولو أنّ زوجته السابقة التقت بمبي لابتسمت ابتسامة تنمّ عن معرفة، لوجدتها بسيطة تفتقر إلى التعقيدات، ولتساءلت إن لم يكن الرجال كلّهم يتمنّون من صميم قلوبهم الزواج بمثل هذه المرأة: امرأة غير معقّدة، امرأة لا تطرح أسئلة عليهم ولا تناكدهم أو تنتقدهم أو تتحدّاهم. بل وسوف تضيف أنابيل قائلة إنّ تلك فانتازيّا وهميّة، لأن لا وجود لشيء اسمه امرأة غير معقّدة، وأنّه لا وجود إلّا لأولئك المعقّدات صراحة أو أولئك اللواتي يخفين عقدهنّ.

وعلى الرّغم من وجود أنابيل في ذهن إلياس، إلّا أنّه كان يفكّر في بمبي، ففي البدء تمنّى لو أنّها زارته وأن يتحدّثا عن أشياء

Twitter: @ketab_n

تروقهما، وربّما يطهو أحدهما للآخر طعامًا ـ تبادلٌ ينمّ عن صداقة ودِّيّة، لا شيء غير ذلك. اهتمّ اهتمامًا أكثر ممّا ينبغي بمظهره، ولكن بمرور الأسابيع، حلَّ الإدراك بأنّها لن تحضر محلّ ذلك الأمل. ولماذا تأتي؟ ففي كلّ الأحوال كان يعيش والاعتقاد يساوره منذ زمن بعيد أنّ قبضته على ما كان يبدو حقيقيًّا أو ممكنًا قد ارتخت.

العمل هدَّأ من أعصابه، مثلما هدَّأه على الدوام. وفي هذه الليلة، وعلاوة على حجم زبائن الكريسمس في المطعم، فإنّهم سوف يرعون احتفالين مهمّين، فقد كان الملاك كلّه منهمكًا في العمل الانهماكَ كلّه، وشعر بالسعادة لأنّ أحدًا ما لم تسنح له فرصة ليسأله عن السبب الذي دفعه إلى إدراج مادّة على قائمة المأكولات في اللحظة الأخيرة: المهلّبيّة بزهر البرتقال.

وبعد مضي نصف ساعة، وفي حين كانت شرائح اللحم لا تزال مخلَّلة في صلصة حادّة، تقدّم منه أحد مساعديه الجدد وقال:

ـ لديك زائر أيّها الرئيس.

رفع إلياس من حاجبيه وقال مبتعدًا عن أفكاره:

ـ هه!

ـ ثمّة شخص يسأل عنك.

وقال إلياس:

ـ ليس الآن، فأنا لا أستطيع حتى الذهاب للتبوّل.

وعندما لاحظ إلياس المساعد يهزّ كتفيه ويستدير على عقبيه راجعًا من حيث أتى، خامره شكّ، فقال:

Twitter: @ketab_n

ـ انتظر لحظة. أليست هي امرأة ذات شعر محمرّ؟

ـ ما هو الشعر المحمرّ أيّها الشيف؟

فغمغم إلياس مقرّرًا أن يذهب بنفسه:

ـ لا عليك.

بعد سنوات على عشيّة ذلك الكريسمس، سوف يتذكّر إلياس تلك اللحظة: كيف خرج من المطبخ ومسح يديه بمنشفة وتوقّف في اللحظة التي رآها واقفة في المدخل تعدّل من تنّورتها في المنطقة الواقعة بين ساقيها، وكأنّها وجدت على حين بغتة أنّها أقصر ممّا ينبغي، وكانت تحمل حقيبة يد خمريّة اللون تحت إبطها ومسحةٌ من الشعور بالإثم تكسو وجهها، وكأنّها كانت لا تزال غير مصدّقة أنّها جاءت إلى هذا المكان.

وجلسا من وراء طاولة في المطعم الخالي من الزبائن، وهو أمر غريب، بينما كان فريق العمل كلّه منهمكًا، هنا وهناك، فبدا الأمر أكثر غرابة. وكان أحد المساعدين يأتي إليه بين حين وحين ليسأل عن شيء ما، وفي كلّ مرّة كان إلياس يجيب إجابة هي مزيج من القلق والهدوء.

وبعد هنيهة قالت بمبي:

ـ اذهب إلى المطبخ.

فكذب إلياس قائلاً:

ـ لا، لا. لا تقلقي، فلديّ وقت كثير.

ولكنّها هزّت رأسها في عناد وقالت:

ـ اذهب أنت، ولكن هل في إمكاني المجيء أيضًا؟

Twitter: @ketab_n

فسألها:

ـ أأنت واثقة ممّا تقولين؟ إنّه بيت دجاج، وفيه ثعلب طليق وجائع، فقبل ساعتين من تناول العشاء سيجنّ جنونهم.

فابتسمت من غير انزعاج، فمحلّ الحلاقة مغلق اليوم ولمّا كانت أسرتها لا تحتفل بالكريسمس، فقد أخبرته أنّها تملك الوقت، فضلاً على أنّها تهوى بيت الدجاج. فقادها إلياس إلى المطبخ وهو لا يزال متردّدًا، وكان العاملون منشغلين انشغالاً جعلهم لا يملكون وقتًا للنظر إليها، فأعطاها زيّ الطهاة، وبناءً على رغبتها أعطاها أيضًا الفلفل لتقطّعه إلى مكعّبات والكرفس لتثرمه والزنجبيل لتقشّره. فما كان منها إلّا أن أكبّت على العمل من دون أن تنبس بحرف، ومن دون توقّف.

ولمّا حان موعد انصراف بمبي، ودّعها إلياس حتى الباب، ووقفا تحت لوحة تمثّل امرأة بيضاء عارية تحدّق إليهما بعينين غير مكترثتين ـ وهي لوحة منسوخة عن لوحة المحظيّة العظيمة للفرنسي جان أوغست دومينيك أنغرس. ولأسباب متباينة، لم يشعر الاثنان بالارتياح، وارتبكا، وحوّلا من أنظارهما عن اللوحة، وأحدهما عن الآخر.

وقال:

ـ إنّني مدين لك.

ولكنّه أدرك أنّها لم تفهمه، فمضى يقول:

ـ شكرًا لك.

فقالت:

Twitter: @ketab_n

ـ بل أنا أشكرك، فقد ساعدتني في ذلك اليوم.

كان الخوف قد بلغ منه كلّ مبلغ، لا يقوى على الإفصاح أو على عمل أيّ شيء قد يكون خطأً بالغًا، أو يتجاوز النواميس أو الأعراف الثقافيّة، فمدّ يده ليصافحها مصافحة قويّة. أمّا هي، فتجاهلت الإشارة وتقدّمت منه وطبعت قبلة رقيقة على وجنته.

* * *

Twitter: @ketab_n

سجن شروزبيري ١٩٩١

ذهبتُ في عصر هذا اليوم لزيارة الضابط أندرو ماك لوخلين واسترجاع بطاقة أختي البريديّة، وهو ما كان يتوقّعه.

تركني أنتظر ثلاثين دقيقة، ولم يكن السبب متمثّلاً في أنّ لديه مشاغل كثيرة تتطلّب منه النظر فيها، بل لأنّه أرادني أن أتذكّر من هو الرئيس. ووجدت قادمًا جديدًا ينتظر كي يلتقيه، وبدا في بيئة لا تليق به. كان يهزّ ساقيه متوتّرًا، ممسكًا ببعض الأوراق، ويبدو أنّه جاء ليقدّم شكوى. نظرة واحدة إلى هذا الرجل وستجد أنّه غرّ، يفتقر إلى التجربة ولم يلحق به أذًى.

أردت أن أقول له:

ـ لا تكن ساذجًا، ووفّر على نفسك عناء الكلام.

الوشاية في السجن ليست فكرة صائبة، لا سيّما في الأسابيع الأولى، عندما يراقبك الآخرون مراقبة النسور ولا تعرف أنت هذا من ذاك. وثمّة من لا يتعيّن جرح مشاعره، وإذا ما جرحت

Twitter: @ketab_n

مشاعره، فعليك أن تستجمع قواك لذلك.

ثمّة لوح مثبّت على الجدار قبالتي وعليه ملصقات ونشرات إعلانيّة عن التبرّع بأعضاء الجسد، والعلاج الطبّي ببديل عن عقار الميثادون المخدِّر ومجموعة لأصدقاء السجناء وأسرهم، والكبد «ب» و«ج»، وبرنامج إسناد السجناء السامريّين. قد يوحي هذا كلّه لمن هو طليق بأحزان الحياة في أروقة السجن، لكنّني لا أرى هذا الرأي، فبعد محكوميّة زاد أمدها عن عشر سنوات، فإنّني أخشى العالم الخارجي.

كنت في الثامنة وكانت أسماء في نحو السابعة عندما جئنا إلى إنكلترا وشاهدنا من فوق الحافلة ساعة الملكة القارعة، وهو الاسم الذي كنّا نطلقه على ساعة بيغ بن. وتعلّمنا اللغة في سرعة، على العكس من والدينا، ولا سيّما والدتنا، التي لم يكن النحو هو الذي شقَّ عليها فهمه وإدراكه وإنّما كانت هي لا تثق بالإنكليز عمومًا. ولم يكن السبب متمثّلاً أيضًا في أنّها ترتاح إلى الحديث بالتركيّة أو حتى بلغتها الأمّ الكرديّة، بل كانت تظنّ أنّ الكلمات تسبّب المتاعب، وتجعل الناس لا يفهم بعضهم بعضًا. كما أنّها لم تثق بأولئك الذين يعتمدون في كلامهم على الرطانة باللغة، كالصحافيين والمحامين والأدباء. كانت أمّي تحبّ الأغاني والتهويدات ووصفات مقادير الطعام والأدعية، حيث لا تؤدّي الكلمات إلّا دورًا ثانويًا، هذا إن كان لها دور.

كانت والدتي تتكلّم في البيت معنا، نحن الأطفالَ، بلغة تركيّة مطعّمة بكلمات كرديّة، وكنّا نجيب عنها بلغة إنكليزيّة، ولا نتكلّم إلّا بالإنكليزيّة بيننا. ولطالما ساورني الاعتقاد في أنّها تفهم أكثر ممّا يبدو عليها.

Twitter: @ketab_n

ربّما ينكمش كلّ المهاجرين من لغة جديدة إلى حدٍّ ما. خذ مثلاً معجم أوكسفورد السميك جدًا وأظهر لقادم جديد صفحتين واسأله عن بعض الكلمات: الاصطلاحات والاستعارات هي الأسوأ. حاولْ أن تفهم معنى عبارة «kicking the bucket»[1]. لقد تعلّمتَ معنى الفعل «to kick» وتعلم جيّدًا معنى كلمة «bucket»، لكن مهما بذلت من جهد فإنّك لن تفهم معنى العبارة، فالبلاغة أشبه بشريط أحمر يجعلك تشعر بالضآلة والضعف.

أمّا أختي أسماء فكانت مختلفة، فقد أحبّت اللغة مثل حبّ البطّ للماء. وإذا ما استخدم شخص ما عبارة لم تألفها من قبل، فإنّها تبذل قصارى جهدها لتجعل منها عبارة خاصّة بها، وكأنّها جامع نقود معدنيّة عثر على قطعة نقد نادرة. كانت تعشق الكلمات وأصواتها ومعانيها المستترة، وكانت والدتي كثيرة القلق على بصرها ـ وخياراتها في الزواج ـ الذي سوف يلحق به الضرر بسبب كثرة القراءة. أمّا أنا، فلم يكن لديّ وقت للكبت، وحظّي الآخر يكمن في الكلام العامّي الذي له قوّة المال. كان ذلك صحيحًا إلى أن بدأت أتلعثم في الكلام.

هنا تغيّرتُ، ولم يكن التغيّر بين ليلة وأخرى، بل كان شيئًا فشيئًا. وعلى الرّغم من أنّني لم أكن «نزيلاً» موثوقًا به، إلّا أنّ مارتن مَنَحَني امتياز استخدام المكتبة بعد الساعات المقرّرة. إنّني أقرأ وأبحث وأتأمّل ـ هذه هي الأشياء الثلاثة الكبرى التي يمكن أن تجعل من الحياة في السجن قريبة من الجحيم أو النعيم، اعتمادًا على رؤيتك لها.

---

(١) مصطلح بالعامّيّة معناه الحرفي «يرفس الدلو»، لكنّه يعني «يموت». (المترجم).

Twitter: @ketab_n

قد تتخيّل أنّ كلّ شخص قد يكره إنسانًا مثلي، لكنّ الغريب في الأمر كلّه هو أن الحالة ليست كذلك. فأنا أتلقّى رسائل وبطاقات وهدايا من أماكن هي ليست سوى نقاط على الخارطة. ثمّة صبيان يعتقدون أنّني بطل، ولا يعرفون شيئًا عن حياتي، وثمّة نساء يرغبن في الزواج بي وأن يعالجنني بحبّهنّ. جنون.

ثم هناك الإخوة بالله الذين يريدون «إصلاحي». هم ينتمون إلى كلّ الأديان وليس إلى دين بعينه. يبدو أنّني جذّاب جدًّا. وأحيانًا أتلقّى شيئًا من الكلام الفارغ الذي يميّز ذلك العصر الجديد، فتراهم يرسلون إليَّ منشورات وكراريس وأشرطة. «لنساعد روحك الجريحة بإلقاء الضوء على أشدّ ساعاتك حلكة». كلمات رنّانة! يتظاهرون أنّ رسائلهم موجّهة إلى البشريّة جمعاء ولكنّهم على استعداد لحرق كلّ من لا يسير في ركابهم ووضعه على الخازوق. ولكنّهم على الرّغم من ذلك يشعرون بالمودّة تجاه من هم من أمثالي، فهم لا يملكون عددًا كافيًا منّا. كانت تحدوهم رغبة شديدة في إصلاح الآثمين ويسجّلون أهدافًا في نظر الله، وما نحن سوى تذاكر لدخولهم الجنّة ـ نحن حثالةَ المجتمع من الأشرار والساقطين.

في يوم من الأيّام جاءت صحافيّة لزيارتي، نحيفة مثل عصا ولكنّها حسنة الهندام، قصيرة التنّورة، جذّابة الساقين، طويلتهما، وما إلى ذلك. زارتني عددًا من المرّات وبدت واقفة إلى جانبي: أرجوك أن تطمئن يا أليكس. كلّ ما أبغيه هو فهم الحكاية وزيادة الوعي في المجتمع بالكتابة عنها.

يا لنبل الهدف! ثم تذهب وتكتب أسوأ مقالة. أمّا أنا، فكنت

Twitter: @ketab_n

أتسكّع بلا هدف، كأيّ طفل. الخطأ خطأ والدتي: فقد أفسدتني لأنّني كنت الولد البكر. هذه حالة نموذجيّة في التراث الأبوي في الشرق الأوسط. هراء! هراء! هراء! كنت بالغ الاستياء والانزعاج، حتى إنّني لم أكلّم أيّ صحافي ثانية. الصحافيّون ليسوا مهتمّين بالحقيقة، بل إنّ كلّ ما يسعون إليه ويفعلونه هو وضعك في إطار حكاية موجودة أصلاً في أدمغتهم.

وثمّة تقارير كُتبت أيضًا، بل أطروحة في جامعة من جامعات لندن. وفي يوم ما، كان ثمّة سياسي استخدمني مثالاً ليلوّث سمعة كلّ المهاجرين المسلمين وقال: «هذا الرجل نموذج للمهاجر الذي لا ينسجم انسجامًا واضحًا مع مفاهيم الحضارة الأوروبيّة». أنا غير مرئي في نظر كلّ هؤلاء الناس. وكذلك أمّي. إنّنا لسنا سوى وسيلة لتحقيق غاياتهم.

يُفتح الباب المؤدّي إلى المكتب ويطلّ الضابط ماك لوخلين برأسه:

ـ حسنًا، من لدينا هنا؟

يتنحّى جانبًا ويسمح لي بالدخول. لقد تغيّر مكتبه تغيّرًا كبيرًا، فعندما كان مارتن يشغل هذا المكان، فإنّه كان مكانًا مختلفًا. كان مارتن رجلاً يختلف عن هذا الضابط. كنّا نكنّ له الاحترام كلّه.

يجلس ماك لوخلين من حول مكتبه ويفتح ملفًّا. الواضح أنّه ملفّي. ويقول:

ـ أرى أنّك ولدت في العام ١٩٦٢. أنا وأنت في العمر نفسه. مولودان في الشهر نفسه. أتصدّق ذلك؟

كان يونس من مواليد برج الأسد، وكانت أسماء من مواليد

Twitter: @ketab_n

برج العذراء. أمّا أنا فمن مواليد برج العقرب، وهذا هو برج الضابط ماك لوخلين.

يواصل كلامه:

ـ يقولون إن ثمّة نوعين مختلفين من العقرب. أتعرف ذلك؟ العقارب التي تلدغ الآخرين والعقارب التي تلدغ نفسها.

يحدّق إليَّ، كأنّه يفكّر إن كنت شاذًّا وينطبق عليَّ كِلاَ النوعين.

ـ يشير التقرير إلى أنّك سُجنت مرارًا في الحبس الانفرادي، وأنّك تشاجرت كثيرًا. يا لك من مشاغب! دعنا نقرأ: كسرتَ أنف أحد النزلاء وهاجمت ضابطًا معيّنًا لمراقبة سلوك النزلاء. آه، وكسرت أصابع سجين آخر أربعتها... ثم يتوقّف عن القراءة ليخبرني قبل أن يستأنف:

ـ آخ. لا بدّ أنّ تلك التصرفات مؤذية.

تقلّصت معدتي.

ـ كيف فعلت ذلك يا أليكس؟ هل وضعت أصابعه فوق سطح صلب وكسرتها كلّها دفعة واحدة، أم أنّك لويتها واحدة تلو الأخرى؟

أعرف غايته. إنّه يذكّرني بما كنت عليه ـ وبما يمكن أن أكون عليه أيضًا. حياتي في السجن تتألّف من مرحلتين. الأولى: عندما كنت مشاغبًا يثير الاضطراب. ليس ثمّة كلمات لتوضيح ذلك تغيّر هذا الوصف. كنت هائجًا وساخطًا وضائعًا تمامًا. ثم هناك المرحلة الثانية، وهي المرحلة التي أمرُّ بها هنا بشكل أو آخر. ما

Twitter: @ketab_n

زلت غاضبًا ومجنونًا، ولكنّني منسجم مع نفسي أكثر ممّا أنا منسجم مع الآخرين من حولي.

فأقول:

ـ سحقْتُ يدَه بكتلة من الخرسانة المسلّحة.

ويقول ماك لوخلين مومئًا برأسه كأنّه يثمّن إجابتي:

ـ حسنًا. والضابط؟ ماذا حدث له؟

تشاجرت وإيّاه مشاجرة بسيطة.

هو الذي تسبّب في المشاجرة، إذْ دفعني في قوّة ليتأكّد من مدى قدرته على إيذائي من غير أن يتعرّض لعواقب وخيمة.

يحاول أن يجعلني أنحني أثناء التفتيش، يشتمني، ويستفزّني. كنت أخفي شفرة في فرشاة أسناني، فجرحت نصف وجهه، وبعد ذلك جرى إرساله إلى سجن آخر. أسمع أنّ ندبته لم تندمل.

ـ التقرير يفيد أنّك تتعرّض إلى نوبات فجائيّة، نوبات صرع، نوبات شقيقة، نوبات ذعر، نوبات قلق، ذهان، محاولات انتحار... آه...

يتوقّف عن القراءة. لقد عثر على شيء مثير للاهتمام:

ـ عوق في الكلام! ما هذا؟

فأجيب:

ـ إنّني أتلعثم في الكلام أحيانًا.

شفيت من ذلك وإن لم يكن الشفاء تامًّا، فعندما أتوتّر يتلعثم لساني، ولكنّني لن أمنحه متعة معرفة هذا الأمر.

يعود ماك لوخلين إلى القراءة:

Twitter: @ketab_n

ـ تستخدم الأدوية استخدامًا مفرطًا: ترازودون، زيميلدين، ليثيوم، باكسيل، فاليوم، زاناكس...

ليس لبعض هذه الأدوية أيّ تأثير يذكر، ولكنّ البقيّة ذات مفعول موقّت ولبعضها الآخر آثار جانبيّة كثيرة، حتى إنّ حالتي الصحّيّة تفاقمت أكثر من ذي قبل، فالليثيوم زاد من وزني والزيميلدين سبّب لي غثيانًا شديدًا جعلني أشعر كأنّني سوف أتقيأ رئتيَّ الاثنتين، وفي إحدى المرّات تسبّب دواء الترازودون بحدوث انتصاب فظيع استمرّ ثلاثة أيّام. أفكّر في نفسي إن كانت هذه الأشياء مدوّنة في ملفّي أو أنّه اقتحم سجلّاتي الطبّيّة. وإذا كان الأمر كذلك، فهل هو قانوني؟

وعلى حين بغتة ضحك ضحكًا خفيفًا مكتومًا لمّا قرأ عبارة ما، واهتزّت كتفاه.

ـ آه، أنت لا تأكل اللحوم!

أومأت برأسي.

ضحكة أخرى.

ـ آسف. لا يمكنني كبت ضحكي، فمن كان مستأسدًا مثلك... أعني أنّ شخصًا قتل والدته ويملك تاريخًا حافلاً ومنظّمًا بالعنف، إنّما يثير الاستغراب عندما نعرف أنّه قلق بشأن بعض الحيوانات!

عندما أخفقتُ في الردّ عليه، خيّم علينا صمت مضطرب.

ـ هل يمكنني أن آخذ بطاقتي البريديّة؟

فيقول في لهجة جادّة مفاجئة:

Twitter: @ketab_n

ـ بالتأكيد، ولكن بعد أن تخبرني عن السبب الذي جعلت فيه رفيقك في السجن يضربك.

ـ إنّه يكاد يفقد كلّ شيء، فزوجته طلبت الطلاق وكان مضطرًّا إلى أن يضرب شخصًا ما.

ـ وأنت، السامري الرحيم[1]، قدّمتَ له صدرك. صحيح؟

ويفتح أحد الأدراج ويخرج منه بطاقة أسماء البريديّة. ولدهشتي لا يبدّد وقته من دون طائل، بل يناولني إيّاها مباشرة ثم يقول:

ـ ثمّة حمقى يظنّون أنّ هوديني توفّي على أثر الضربات التي تلقّاها في منطقة معدته، ويزعمون أنّ إحدى اللكمات مزّقت زائدته الدوديّة.

لا أتفوّه بكلمة. لا ضرورة لأن أخبره أنّني قد أكون أحد أولئك الحمقى، فإذا ما ضربت الزائدة الدوديّة ضربات متواصلة وبقوّة كافية فقد تحقّق نتيجة بذلك. القضيّة هي أن تعثر على الزاوية الصحيحة. في الأقلّ، الأمر يستأهل المحاولة. ماذا لديّ كي أخسره؟ إنّني أجري تدريبات على الموت.

---

(١) إشارة إلى رواية السامري الوارد ذكرها في إنجيل لوقا (الفصل العاشر: ٣٠ ـ ٣٥) التي تقول إنّ عيسى المسيح قال: كان رجل منحدر من أورشليم الى أريحا فوقع بين لصوص فعرّوه وجرحوه ثم مضوا وقد تركوه بين حيّ وميت فاتّفق أنّ كاهنًا كان منحدرًا في ذلك الطريق فأبصره وجاز، وكذلك لاوي، وافى المكان فأبصره وجاز، ثم إنّ سامريًّا مسافرًا مرّ به فلمّا رآه تحنّن إليه وضمّد جراحاته وصبّ عليها زيتًا وخمرًا وحمله على دابّته وأتى به إلى فندق واعتنى بأمره. وفي الغد أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال اعتن بأمره ومهما تنفق فوق هذا فأنا أدفعه لك عند عودتي. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ـ لديّ ما يكفي من الأدلّة يا أليكس لأقترح أنّك كنت تحول اللقاء لمصلحتك، أعني إن كنت عقربًا ميّالاً إلى لدغ نفسه.

فكّرت أنّه أذكى ممّا كنت أتخيّل، ولكنّني سوف أنكر ذلك في كلّ الأحوال.

ـ لماذا أريد قتل نفسي؟ فعمّا قريب سأصبح طليقًا.

كان ذلك عندما وجدت الضابط ماك لوخلين يميل من فوق مكتبه وينظر إليّ ويتفوّه بالكلام الصحيح للمرّة الأولى.

ـ أنا وأنت نعرف يا أليكس أنّك لن تصبح طليقًا وإنْ خرجتَ من هنا، وإنْ أضحيت في الشارع، وأنّك ستظلّ أسيرَ الذنب الذي اقترفته.

ثم يجلس ثانية.

ـ كما تعلم، فإنّ موت هوديني لا صلة له باللكمات التي سدّدت إليه، وزائدته الدوديّة معطّلة ومحطّمة أصلاً.

ـ لماذا تخبرني بكلّ هذه التفاصيل؟

ـ لأنّ البحّار الذي يتّجه إلى المرفأ عند هبوب العاصفة هو بحّار حكيم.

فأقول له وأنا أقف على قدميّ:

ـ وإذا لم تكن هناك أيّة عاصفة وأنت تتّجه إلى المرفأ من دون سبب، فستفوتك أشعّة الشمس.

أعرف أنّ كلامي هذا ينطوي على مغالطة، إذْ لا ينبغي لي التفوّه بمثل هذا الكلام، غير أنّ غروري في حالة يقظة ـ هذا إن كان قد نام أصلاً.

Twitter: @ketab_n

ويقول ماك لوخلين:

ـ اجلس.

فأمتثل. ننتظر في صمت. وتمضي دقيقة كاملة.

ويقول ماك لوخلين:

ـ يمكنك الانصراف الآن.

وفي الوقت الذي أتوجّه فيه إلى الباب، أسمعه يغمغم، كأنّه يخاطب نفسه.

ـ لماذا تأتون إلى إنكلترا أيّها القوم حاملين وإيّاكم كلّ قذاراتكم.

تفاجئني في بريطانيا على الدوام كراهية الأجانب، فالناس لا يقولون لك صراحة أنت أميركي من أصل إسباني، أو إيطالي، وإن كانوا يلقون مثل هذه العبارات بين حين وحين، فالعنصريّة ليست جزءًا من الحياة اليوميّة كما هو الحال في بعض البلدان الأخرى التي أسمع عنها. القضيّة غاية في الحساسيّة، وغالبًا ما تكون مغلّفة بغلاف لمّاع، كما أنّها لا تخصّ لون بشرتك أو دينك على وجه التوكيد، بل تخصّ مدى تحضّرك.

أسير عائدًا إلى زنزانتي، محيّيًا في الطريق عددًا من زملائي، ومعظمهم من الإنكليز تحت هذا السقف، ولكنْ ثمّة عدد من الإسپان والروس والبلغار والعرب والأفارقة، ففي كلّ أمّة من الأمم تجد الصالحين والأشرار. ذلكم هو نصيبي. لبعض الرجال رؤوس مشوّشة بفعل المخدّرات والمشاجرات، أمّا رأسي أنا فربّما تشوّش أيضًا تمامًا، لأنّ فيه كمّيّات كبيرة من المخدّرات. البعض

Twitter: @ketab_n

لا يفتُرُ أو يضعف إلّا بعد أن يتحطّم تمامًا أو يتشوّش نهائيًا، أمّا اللوطيّون فهذا صعب عليهم، فعندما وصلت إلى هذا المكان لم ترقني أيّة عصابة فيه، فقرّرت أن أؤلّف عصابة خاصّة بي. ولم يكن الأمر سهلاً، ولكنّني بذلت جهدي. وكانت لدينا قوانين صارمة غير مكتوبة يطيعها الكلّ: لا تسامح مع المغتصبين والمتحرّشين بالأطفال. لا فاكهة ولا مخادعين بين ظهرانينا. لا حشّاشين ولا مراهنين ولا مسكّرات.

وبغتة لم يعد في مقدوري المجابهة. صحيح أنّني كنت الزعيم، لكنّني تخلّيت عن العصابة لأنّ رأسي يحتشد بأمور لا بدّ لي من وضع حلّ لها. كنت أتعاطى المسكّنات في إفراط لمنعي من إلحاق الأذى بنفسي. كنت تحت المراقبة خشية إقدامي على الانتحار على مدار الساعة والأسبوع. كنت أنهار انهيارًا طويلاً، أكتئب أكثر ممّا أنا مكتئب الآن.

وفي إحدى الليالي جاءتني أمّي، شبحها، طيف... سمّه ما شئت. كان في وسعي أن أشمّ رائحة شعرها، شعرها الحقيقي فعلاً. ولبثَتْ معي طوال الليل، وجهها، عيناها. أجهشْتُ بالبكاء كما لم أجهش من قبل. وبعد ذلك بدأت أتغيّر، وأنا اليوم رجل مختلف. ربّما لست أفضل، ولكنّني مختلف. تلك معلومة لن يجدها الضابط ماك لوخلين في ملفّي أبدًا.

* * *

عندما أدخل الزنزانة، أجد تريبي جالسًا على سريره تحت بطّانيّات كثيرة العدد. شاحب الوجه كشحوب الموتى، مغمض العينين.

Twitter: @ketab_n

ويسألني:

ـ كيف جرت الأمور؟

ـ على ما يرام! لم يخنق أحدنا الآخر.

فيقول:

ـ جميل.

ثم يرجع إلى حالته من الحذر والتلبّد، إذْ كان يتعاطى عددًا أكبر من الحبوب منذ أن وصله نبأ الطلاق الوشيك.

بدايةً، أريد أن يأخذ الأمر ببساطة، ولكنّني أجد أنّ كلّ ما يبغيه هو أن يُترك وشأنه، فأحترم قراره، وأذهب وأستلقي على سريري، مستغرقًا في التفكير.

ثمّة جسر في الآخرة، أوهى من الشعرة وأشدّ انزلاقًا من ثعبان الماء، وعندما يحين يوم الحساب، فإنّ على كلّ شخص أن يعبره وحده. وسوف ينساب إلى مسامعك صراخ الآثمين عندما تحترق أبدانهم وتفور عظامهم، فإذا كنتَ آثمًا، فسوف تسقط فوق ألسنة اللهيب من تحتك، وإذا كنت قد فعلت ما يكفي من العمل الصالح، فإنّ الأضحيات التي ضحّيت بها في العيد سوف تُبعث من موتها وتقودك إلى برّ الأمان على الجانب الآخر. من علّمني هذا كلّه؟ لا بدَّ أنّه العمّ طارق، ولكنّني لست متأكّدًا.

كنت في سنّ السابعة عندما توقّفت عن تناول اللحوم. كنّا في كلّ عيد نطلب من الله أن يغفر لنا لأنّنا لم نكن قادرين على ذبح أُضْحِيَة. كان الجيران يأتون إلينا باللحم، وهذا أمر جيّد. ولكن

Twitter: @ketab_n

أمّي حثّت أبي ونحن في عامنا الأخير في إسطنبول أن يشتري كبشًا، ليس أيّ كبش، بل كبش كبير، فنحن سنغادر إلى إنكلترا على أيّة حال بعد أن عثر أبي على وظيفة له في أحد المصانع هناك. لقد فتح لنا بابًا جديدًا وينبغي لنا أن نحمده ونشكره على النحو اللائق به.

غير أنّ أبي ظلّ يشكو ويتذمّر من غلاء الثمن وعدم ضرورة الشراء. وعلى الرّغم من ذلك، فقد استيقظت يومًا على صوت ثغاء ينبعث من البستان، فوجدت كبشًا يرعى ما فيها من كلأ شحيح. كان حيوانًا له أثره البالغ في النفس، تزيّن الأشرطة القرمزيّة اللون قرنيه، وسمحوا لي أن أرعاه وأن أطعمه وأسقيه. ولطّخت أنا وأمّي بالحنّة الوتد الموثوق به، فظهرت عليه بقع قرمزيّة اللون. أمضيت اليومين المقبلين إلى جواره. لقد كان حيواني الصغير الأوّل والوحيد.

وقال العمّ طارق:

ـ لا تغرم بذلك الكبش أكثر ممّا ينبغي.

فسألت:

ـ لماذا؟

فقطّب جبينه وقال:

ـ ألم يخبروك؟ فعمّا قريب سوف نذبحه.

هرعت إلى أبي باكيًا، وكان يبدو في جذل وحبور، ووعدني ألّا يلمس الحيوان. وقال:

Twitter: @ketab_n

ـ لديّ ولد واحد، وسأدعك تمتلك هذا الكبش.

يا الله! طرت فرحًا، وشعرت بالفخر والكبرياء لأنّني صبي وليس صبيّة شديدة الهزال مثل أسماء. وفي اليوم التالي أرسلوني في مهمّة، ولمّا قفلت راجعًا كانت جثّة الكبش المنتفخة متدلّية من على الشجرة.

لم أستطع أن أوضح أيَّ أذًى أصابني أكثر: موت حيواني أم كذبة أبي. هل علمت أنّ أمّي كانت متواطئة؟ أم أنّني لست مفضّلاً كما كنت أظنّ؟ ولطّخت أمّي جبهتي ببقعة من دم الكبش، وقبّلتني وقالت إنّني أبدو مثل سلطان، ثم انصرفت لتطهو اللحم. وفاحت في الدار رائحة لاذعة، بغيضة، وفي المساء رفضت تناول اللحم عندما وضعوه في طبق أمامي.

وسألني أبي:

ـ أتدري كم من المال كلّفني شراء ذلك الكبش؟ ألديك أيّة فكرة أيّها الطفل المزعج الجاحد؟

في تلك اللحظة، لم أعرف ما الذي اعتراني، ولكنّني أعرف الآن. إنّه الغضب، إفراز غدّة الأدرينالين، الإحساس بالهبوط والصعود في الوقت نفسه. غضب يكتسحك مثل موجة. الشيء التالي الذي سوف تعرفه هو أنّك واقف على قمّة، وأنّ في وسعك أن تتحدّى كلّ شخص، حتى والدك نفسه. دفعت الطبق بيدي في خشونة أكبر ممّا تعمّدت، فانسكب الطعام من على الطاولة، وهنا طرفت عينا والدي، غيرَ مصدّق. أتراني أتحدّى سلطته أمام أمّي وأختي؟ فجنّ جنونه، ولم يسبق لي أن شاهدته ثائرًا هائجًا كما شاهدته في تلك اللحظة.

Twitter: @ketab_n

وصاح بي:

ـ كُلْ يا إسكندر. إنّني لا أضرب أطفالي!

لكنّني هززت كتفيَّ، فكانت تلك القشّةَ التي قصمت ظهر البعير، إذْ دفع برأسي في بركة اللحم، وعلى نحو غير متوقّع ارتطم ذقني بقعر الطبق وارتفع من جديد مثل كرة من مطّاط، لكنّ أنفي كان لا يزال غارقًا في المرق الكثيف بدهونه. وامتزج كلّ شيء ببكائي ومخاطي، وسمعت صوت شفط ومصّ، إنّه صوت صادر عنّي. لن أنسى ذلك الطعم ما حييت، طعم ضعفي، إذْ ظلّ والدي يدفع برأسي وأصابع يده ملتفّة من حول رقبتي في قوّة وبأس، فأخذت أمضغ الطعام رافعًا رأسي لأتنفّس الهواء بين مضغة وأخرى.

وأخيرًا سمح لي بالانصراف، ولمّا رفعت بصري رأيته خَجِلاً من ردّ فعله، فهو لم يكن رجلاً متعسّفًا، لا أدري ما الذي استبدّ به في ذلك اليوم. ولا أعتقد أنّه كان يدري.

وهرعت أمّي إلى جواري تمسح وجهي وهي تقول:

ـ يا أسدي! يا سلطاني! هل أنت على ما يرام؟

تجاهلت يد أمّي من على جبيني وحدجت أبي بنظرة أدركت معها مدى النفور والاستياء في عينيه، فضلاً على مسحة من التعاسة. ما الذي كنّا نفعله بأنفسنا؟ لماذا يصبّ أحدنا جام غضبه على الآخر دائمًا؟

وأدركت في ذلك الوقت وفي ذلك المكان أنّ من العبث الذي لا طائل من ورائه الارتعاش من قمّة الرأس إلى أخمص القدمين، ولو أظهرْتُ أيَّ قدر من الضعف لداس عليَّ، بل لداس العالم

Twitter: @ketab_n

اللعين كلُّه عليّ. ولكن لو كنت قويًّا، قويًّا حقًّا، لما استطاع أحد إلى ذلك سبيلاً. ومنذ ذلك اليوم لم أُظهر أيّ ضعف. صحيح أنّني أرتكب خطأً، أكون مخطئًا تمامًا، ولكن من دون ضعف. لا، أبدًا. ومنذ ذلك اليوم أيضًا، لم أتناول اللحم قطّ.

إسكندر طيرق

* * *

Twitter: @ketab_n

الشـارب

لندن، ١ كانون الثاني ١٩٧٨

الساعة هي الخامسة والدقيقة الأربعون، كان آدم قد استيقظ لتوّه، بعد أن أصبح مؤخّرًا يوقِّت الساعة المنبِّهة على ساعات مزعجة كي يخلو إلى نفسه قبل أن تستيقظ روكسانا. كان يروقه أن يراقبها وهي نائمة، فوجهها يبدو مختلفًا، أقلّ توتّرًا، خاليًا من الغضب عليه، بسبب ما هو عليه وما لا يستطيع أن يحقّقه. وكان فمها الخالي من قلم الشفاه الخوخي أصغر حجمًا، بلا مسحة من البرودة تمامًا. أمّا شعرها، فكان مفروشًا من فوق الوسادة وكأنّه كتلة من صوف تشير إلى كلّ الاتّجاهات، فتأسر قلبه.

الوله بروكسانا يشبه مراقبة قارب يمرّ من على مسافة بعيدة. كان آدم يجلس على الشاطئ ساكنًا من دون حراك، يخفي عينيه عن الشمس. وكانت السفينة تمرق من تحت أنظاره مروقًا ليس سريعًا، بل لا يكاد يحسّ به أحد. كان يعرف أنّ أيّامهما معًا باتت

Twitter: @ketab_n

معدودة، تنسلّ بعيدة عنه شيئًا فشيئًا، وكلّ ما في وسعه أن يفعله هو الانتظار إلى أن تصبح نقطة في الأفق، فلمّا اكتشفت أنّه لا يملك مالاً بعد الآن، سوف تنتهي صحبتها وإيّاه. كان يدرك هذا كلّه، لأنّها سبق أن أوضحت له كلّ شيء منذ البداية. «للمرأة متطلّباتها»، هذا ما كانت تردّده. إنّ ما يثير الدهشة والألم معًا أنّ روكسانا كانت صريحة ومباشِرة دومًا.

شاهدته يخسر ماله في لعبة الروليت، ولكنّها ظلّت تعتقد أنّه يخبّئ مالاً لوقت الحاجة: مدّخرات في مصرف، قرض أقرضه ومن شأنه أن يُسدَّد له في قوت لاحق، أو عقار في لندن... لا بدَّ أنّه يملك شيئًا من المال، فقد مضى على وجوده في هذا البلد زمن طويل. وتوقّعت أن يكشف آدم عن هذا الكنز الدفين في أيّ وقت. ولم تكن توقّعاتها مبنيّة على فراغ، فقد بذل قصارى جهده كي يمنحها ذلك الانطباع.

لكنّ الواقع هو أنّ آدم فقد وظيفته في المصنع قبل بضعة أيّام، بعد أن تكبّد المصنع خسائر كبيرة بسبب من عدم إتقانه عمله. ولم يعد له من مصدر للدخل سوى النقود التي اقترضها من أصدقائه، وكانت الممتلكات الوحيدة الباقية هي المنزل الذي تقطن فيه أسرته. سبق له أن حصل على رهن قبل ستّ سنوات ولكنّه لم يوفّ سوى ربعه.

تنهّدت روكسانا وهي تتقلّب في الفراش، والتوت عضلات وجهها، وانتفخ أنفها قليلاً وقالت: «لا». ثم غمغمت بكلمات غير

Twitter: @ketab_n

مفهومة، ثم كرّرت ثانية: «لا، لا».

حبس آدم أنفاسه محاولاً أن يسمع ما هو أكثر من ذلك. وفكّر في الحلم الذي يراودها. جسدها هنا فوق السرير، معه، ولكن روحها بعيدة عنه، مع رجل آخر. وإذا كان الأمر كذلك، فهل تحبّ ذلك الرجل؟ لم يعرف آدم أيّهما الأسوأ: ألّا تكون قد أحبّته ولا تستطيع أن تفتح قلبها لتصارحه، أم أنّها أحبّت مرّة واحدة ولن تهب نفسها لأيّ شخص آخر على هذا النحو ثانية.

وانسلّ من الفراش في هدوء، فانزلقت البطّانيّة إلى الجانب كاشفةً عن فَخِذَيْ روكسانا العاريتين. في وسعها أن تنام عارية تمامًا، صيفًا أو شتاءً، مرتاحة تمامًا من دون ثياب. أمّا هو، فلا يقدر على ذلك، ففي كلّ مرّة كان يخلع ثيابه لممارسة الحبّ وإيّاها يعود إلى ارتدائها بعد ذلك.

كانت روكسانا تقول له متذمّرة.

ـ اخلع جواربك في السرير، فأنت تبدو مثل رجل عجوز!

وكان يمتثل لأمرها وإن لم يكن يروقه ذلك، لأنّه يشعر بالبرودة دائمًا. التدفئة في الشقّة بائسة، فالأنابيب القديمة تحتاج إلى إصلاح، وفي بعض أجزائها تسرُّب، ولكنّه لم يتجرّأ على الشكوى. وثمّة شيء آخر كان لا يروق روكسانا، وهو شاربه، وغالبًا ما كانت تقول: «الإنكليز لا يملكون الشوارب. متى ستبادر إلى حلاقتها، فالشارب يجعلك تبدو شبيهًا بستالين».

جرجر خطاه في الظلمة وتوجّه إلى المطبخ وأشعل النور،

Twitter: @ketab_n

فهاله منظر الفوضى، حتى وإن كان يعتقد أنّه اعتادها. كانت روكسانا تكره أشغال البيت، وغالبًا ما كانت توبّخه لعدم مساعدته إيّاها: لا يمكنك أن تجعلني خادمتك، فأنا لست زوجتك. صحيح؟

كان يروقها التفوّه بمثل هذه العبارات ـ تلميحات جارحة مثل قدح زجاجي مكسور، وكانت مرارتها جزءًا لا يتجزّأ من شخصيّتها، فتجعلها شرسة، محبّة للانتقام في معظم الأحيان. ولم يكن آدم ليعترض على فظاظة ألفاظها وتعليقاتها قدْرَ اعتراضه على العموميّات التي تتّهمه بها. وفي كلّ مرّة كانت روكسانا تلقي درسًا عليه يولد لديه الانطباع أنّها توجّه كلامها إلى كلّ من عرفتهم من الرجال. شيء مؤلم. ولمّا كانت جزءًا من جمهور متشرّد ولا تنطوي عيناها على علامة فارقة، فقد ظلّ يشعر أنّه ليس سوى قصّة حبّ موقّتة. كان يريد أن يكون فريدًا، حبيبها الأوحد، ولم يكن يهمّه إن كان لديها عشّاق آخرون قبله. حسنًا، لا يهمّ، ولكن إن استطاع في الأقلّ أن يطمئنّ إلى أنّه مميّز، فمن شأن ذلك أن يخفّف من قلقه. وكانت روكسانا تضحك لمثل هذه الأفكار: أنا لم أقل لك قطّ إنّني أحبّك. صحيح؟ وكلّما اقترب من الكلام عن عواطفه ومشاعره، وهو شيء لم يسبق له أن فعله، لا مع زوجته ولا مع أطفاله، فإنّها تلوّح بيدها كأنّما تريد أن تبعد عنها دخان سيكارة يثير انزعاجها.

فتح آدم الخزانة، في محاولة لتجنُّب النظر إلى حوض غسيل الصحون، حيث تراكمت أكداس من المواعين والأكواب القذرة في ماء آسن. وتمكّن من العثور على وعاء نظيف وبدأ يعدّ قهوة تركيّة.

Twitter: @ketab_n

بدأت القهوة تفور على نار هادئة، وكان فورانها البطيء مهدِّئًا على نحو غريب. المطبخ مفعم برائحة كريهة، ولكنّه سرعان ما جلس إلى الطاولة وبيده كوب وبدأ يحتسي محتوياته في رشفات قليلة. ولكنّه على الرّغم من ذلك لم يشعر أنّه استيقظ تمامًا ـ ما زال يحمل الليل في داخله.

كان في الليلة الماضية قد ذهب إلى مدرسة ابنه الأصغر وانتظر خارج مبناها متواريًا من وراء الظلال، وفكّر في نفسه أنّه أشبه بمجرم. وعندما خرج يونس من المدرسة رفقة زملائه، لم يناد عليه، فقد تصلّب حلقه. ومرّت به هذه الحالة نفسها أكثر من مرّة عندما كان ينتظر على مقربة من مقهى علاء الدين مؤملاً أن يصادف إسكندر. وفي يوم من الأيّام وقعت عيناه عليه من مسافة بعيدة ممسكًا بيد فتاة شقراء نحيفة البنية. كان يعلم أنّ لإسكندر صديقة إنكليزيّة، لكنّ رؤيته لهما معًا مفعمَيْن بالحيويّة والنشاط، جعلته يشعر أنّه كبير السنّ، وكشفت له عن حيويّة لم يعد يمتلكها. وأثناء الأشهر التي لم يرجع فيها إلى البيت، كان ولده قد كبر كثيرًا وبات شابًّا وسيمًا جدًّا! وبقدر ما كان يريد الذهاب إليه ليكلّمه، فإنّه لم يقدر على ذلك.

عندما كان الناس ينظرون إليه، وهذا هو أصعب ما في الأمر، يتحدّث قليلاً عند مواجهة أعين الأصدقاء والجيران ويتظاهر بعدم الانتباه إلى ما يدور في أذهانهم: رجل شنيع تخلّى عن أسرته من أجل راقصة.

خطا داخل الردهة واتّجه إلى الحمّام وأشعل النور وتفحّص هيئته في المرآة: قطّب جبينه لمّا رأى عينيه الواجمتين والعلامات

Twitter: @ketab_n

التي تكسو وجنتيه نتيجة البقع القديمة، والخطوط البيض التي تشوب شعر رأسه ـ كيف يمكن لهذا الشعر أن يصبح أَشْيَبَ في حين ما زال شاربه أسود اللون؟ سوف يعمد إلى تشذيب لحيته على النحو الذي دأب عليه كلّ صباح طوال ما يزيد عن خمسة عشر عامًا، ولكنْ يبدو أنّ يده اليمنى لها خطّة أخرى. وعلى حين بغتة، جذب شفرة حلاقة.

عندما خرج آدم من الحمّام حليقًا، وجد روكسانا جالسة على السرير، تقلّب صفحات مجلّة نسائيّة، فلم يتعيّن عليه إلّا أن ينظر إليها نظرة خاطفة كي يعرف أنّها لم تنم نومًا كافيًا، وأنّ مزاجها لم يكن في أفضل حالاته.

قالت من دون أن ترفع بصرها:

ـ هل لديك قهوة لي؟

ـ بالتأكيد.

بدت نبرات صوته مختلفة قليلاً عندما كلّمها، وكأنّها صدًى.

ـ رقبتي تؤلمني من جديد.

بدأ يدلّك رقبتها، راسمًا دوائر عريضة من فوق كتفيها، حتى استقرّت يداه على أسفل ظهرها، فتأوّهت، وارتخى جسدها وكأنّها في حمّام مكسوٍّ بالرغوة، ولكنّه واصل التدليك بقوّة أكبر، حتى التقت أطراف أصابعه من الجهتين حول رقبتها، مصادَفةً بادئ الأمر، ولكن سرعان ما تحوّلت إلى لقاء متعمَّد. وخطر بباله، وإنْ ليس للمرّة الأولى، أنّ في وسعه قتل هذه المرأة، وقال:

ـ سأذهب وأعدُّ لك القهوة.

Twitter: @ketab_n

لكنّها نظرت إليه نظرة إمعان وقالت:

ـ انتظر! ماذا فعلت بوجهك؟

فقال:

ـ آه، شاربي. هل يروقك الآن؟

على الرّغم من أنّ روكسانا أومأت برأسها، ولكنّها تمنّت فجأة ومن دون معرفة السبب، لو أنّه لم يحلقه تمامًا وأنّه لم يحبّها كلّ هذا الحبّ وأن يكون كلّ شيء بهذا الاختلاف... وارتسمت على زاوية فمها ابتسامة حزينة، وبدت المرارة وكأنّها تفيض منها.

* * *

Twitter: @ketab_n

مفاجأة صامتة

لندن، ٢ كانون الثاني ١٩٧٨

في باكورة الأصيل، أضاء وهج ذهبي اللون نوافذ «المقصّ البلّوري»، حيث كانت مجموعة من زينة الكريسمس تتدلّى مثل حبّات عنب ناضجة، غامرةً المدخل بضوء متألّق، وكانت ريتّا لا تزال مترنّحة ومضطربة من آثار حفلة الليلة السابقة، تحتسي ثالث فنجان قهوة من غير حليب، عندما فُتح الباب ودخل رجل في خريف العمر. كان وجهه مفعمًا بالحيويّة والنشاط، مشرقًا، يسير في ثقة هادئة يمكن أن تعطي انطباعًا بالترفّع لولا ابتسامته الدافئة.

استبدّت الدهشة بريتّا وأنعمت النظر في الغريب من قمّة رأسه حتى قدميه. لم يبدُ عليه أنّه ممثّل إحدى شركات الشامبو أو ملتمس يحاول أن يجمع عددًا آخر من التواقيع، كما لم تبدُ عليه أيُّ مسحة تشير إلى أنّه مفتّش جاء ليطمئنّ إلى الظروف الصحّيّة في محلّ الحلاقة. كان حَسَنَ الهندام، متأنّقًا، وكريمًا ـ لكنّ المرء لا يحزر ما يجري في هذه الأيّام.

Twitter: @ketab_n

وسألت ريتّا:

ـ هل لي أن أساعدك؟

ـ نعم، من فضلك. إنّني أرغب في حلاقة شعر رأسي.

فضحكت ريتّا ضحكة قصيرة مكتومة وقالت:

ـ أعتقد أنّنا لم نفتح المحلّ بعد، ما زالت أمامنا خمس عشرة دقيقة على الافتتاح و...

ـ آه، يمكنني الانتظار خارج المحلّ. لا بأس.

ـ كنت أودّ أن أحيطك علمًا أنّ المحلّ ليس لكلا الجنسين. لماذا لا تذهب إلى دكّان الحلّاق عند ناصية الشارع؟

فقال إلياس:

ـ آه، سبق لي أن ذهبت إلى ذلك الحلّاق، وينبغي على الرجل أن يسمّي نفسه جزّارًا وليس حلّاقًا.

قالت ريتّا موافقة، يشوب صوتها شيء من السرور:

ـ حسنًا. إنّني واثقة من أنّنا نستطيع إرسالك إلى حلّاق جيّد.

فقال بلهجة أشدّ رقّة:

ـ إنّني أسألك إن كنتِ قد لاحظتِ مؤخّرًا عدد محلّات الحلاقة المشتركة لكلا الجنسين؟

فسألت ريتّا في دهشة مصطنعة:

ـ حقًّا؟

لم تكن ريتّا قد استبعدت تمامًا احتمال أن يكون الرجل مخبولاً.

Twitter: @ketab_n

كانت بمبي تشتغل في الغرفة الصغيرة في مؤخّرة المحلّ، فتوقّفت عن تنظيف فرش الشعر وبذلت جهدًا كبيرًا كي تسمع مَن هذا الذي تكلّمه ريتّا، وظنّت أنّها استدلّت على الصوت. ولكن من غير المحتمل أن يكون هو. ووثب فؤادها من صدرها وسارت على أطراف أصابعها إلى داخل الصالة، وهنا انتابتها دهشة بالغة عندما رأت إلياس يكلّم مديرتها، فاتّكأت على الجدار عاجزة عن القيام بأيّ حركة.

لم يشاهد إلياس بمبي وهي تدخل. وكان يقول:

ـ لقد أبقيت شعري طويلاً على مدى السنوات الأربع الماضية، لكنّني أعتقد أنّ الوقت حان للتغيير.

ـ طالما أخبرت زبائني من السيّدات أنّ الشعر الطويل للنساء. هكذا هي إرادة الله.

اقتنعت بمبي الآن أنّها يجب أن تتدخّل، وأن تطرده، ولكنّها فكّرت طويلاً فلم تجد وسيلة لتنفيذ ذلك، فما كان منها إلّا أن زمّت شفتيها وعضّت على نواجذها واستأنفت مراقبتهما.

قال إلياس:

ـ ربّما يمكنك مساعدتي عندئذٍ، فأنا رئيس طهاة، أتدرين؟ وفي كلّ يوم يتذمّر زبون من الزبائن من وجود شعرة في حسائه.

فضحكت ريتّا وقالت:

ـ إنّني أحبّ أن أساعدك أيّها العزيز، ولكنّني أنتظر موعد الساعة الثانية عشرة والنصف.

فتدخّلت بمبي قائلة:

Twitter: @ketab_n

ـ سوف أساعده أنا.

التفتت ريتّا وإلياس جانبًا محدّقَيْن إليها في دهشة، أيديهما على خاصرتيهما، واجمَيْن، كأنّهما نسيا من تكون. ثم أضافت بمبي باذلة أقصى ما لديها من جهد كي تبدو طبيعيّة.

ـ أنا سأقصّ شعره.

لم تكن المحاولةُ هي الأولى في قصّ الشعر، وإذا لم تكن بمبي قد تدرّبت لتصبح مصفّفة شعر، فإنّها راقبت ريتّا زمنًا طويلاً يكفيها لأن تتقن الحرفة، كما أنّ قصّ شعر أطفالها، لا سيّما الأبناء، على مدى سنوات طويلة، علّمها بعض الفنون.

فقالت ريتّا وهي تهزّ كتفيها:

ـ حسنًا، اتّفقنا إذًا.

وأرادت أن تضيف عبارة أخرى، ولكنّ الباب فُتح بقوّة على مصراعيه ودخلت زبونتها، فسارت ريتّا في متّجه المرأة باسطة ذراعيها وقالت:

ـ كم أنا مسرورة لرؤيتك يا مارغريت.

في هذه الأثناء، قادت بمبي إلياس إلى كرسي في نهاية الغرفة حيث همست متوتّرة:

ـ ما الذي جاء بك؟

ـ آسف. أنا مضطرّ لرؤيتك.

فقالت في صوت وكأنّها طفل وقح:

ـ لا، لستَ مضطرًّا.

ثم ثبّتت صدريّة في عنقه ووضعت أكثر من مقصّ على صينيّة

Twitter: @ketab_n

من البلاستيك وبدأت تبلّل شعره برذاذ ماء من زجاجة.

لاحظ إلياس أنّ بمبي كانت غاية في التوتّر بسبب مجيئه، وأنّ يديها ترتعشان، وشَعَرَ بدافع قوي لأن يمسك بها وأن يعتذر لها لما سبّبه لها من إزعاج، ولكنّه اضطرّ إلى أن يتنفّس تنفّسًا عميقًا كي يسيطر على نفسه، وكاد أن يندم على سوء صنيعه، غير أنّ متعة وجودها قريبة منه إلى هذا الحدّ طغت على إحساسه بالذنب، فراقب حركاتها في المرآة البيضويّة المثبتة على الجدار، وأغمض عينيه لمّا لمسته، ولمّا فتحهما رأى أنّها كانت تراقبه بدورها، لكن كلماتها التي تفوّهت بها بعد ذلك لم تنسجم مع المودّة التي لاحت في تحديقتها:

ـ سأحلق شعرك، ولكن لا تأتِ إلى هنا بعد الآن.

ـ حسنًا. لا تقلقي. أعدك بألّا أحضر إلى هنا ثانية.

شعرت بمبي بالارتياح وابتسمت لأوّل مرّة، وقالت:

ـ وكيف تريد أن أحلق لك.

ـ لا أدري.

كان إلياس يلتزم بنمط معيّن من قصّ الشعر دائمًا، ولكنّه أدرك الآن أنّه غير مستعدّ تمامًا لتغيير قصّته. ومع هذا، قال:

ـ اجعليني أبدو وسيمًا من فضلك، جميلاً.

فغمغمت ريتّا في صوت كان سماعه إيّاه معجزة:

ـ أنت جميل من قبل.

وهنا انساب إلى سمعهما صوت انطلاق ضحكة في الجهة الأخرى من الغرفة، فقد كانت ريتّا وزبونتها تتبادلان القيل والقال

Twitter: @ketab_n

في حيويّة وحماسة وانشغلتا في عالم خاصّ بهما.

وقال:

ـ أريد أن أطلب منك طلبًا.

ردَّت متوجّسةً:

ـ ما هو؟

ـ انظري. أودّ أن أتعرّف إليك معرفة أدقّ، وأن أقضي وإيّاك بعض الوقت، ولكن إذا فضّلْتِ أن أبقى بعيدًا عنك، فأرجو أن تخبريني.

جفلت بمبي، وامتقع وجهها قليلاً وتمتمت بعد لحظة بدت بلا نهاية:

ـ لا تبق بعيدًا.

رفع إلياس يده اليمنى ـ اليد الأقرب إلى الجدار والمتوارية عن أنظار الآخرين ـ وأمسك بيد بمبي اليمنى.. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يلمسها فيها على نحو لم يكن عفويًّا أو مصحوبًا بالخجل، بل كان مصحوبًا بالإثم والذعر. أمسك بيدها وكأنّه إنسان يسقط ويمدّ يده إلى حبل، وضغط عليها في قوّة آذتها، ولكنّها لم تعترض، لأنّ الشعور نفسه ساورها ـ القوّة والتأخّر والاستحالة، وتضاءلت يدها في يده حتى باتت مثل عصفور.

ظلّا على تلك الحالة ثانية أخرى، إلى أن جذبتها وهي تقول:

ـ كيف تريدني أن أقصّ شعرك؟

فسمع إلياس نفسه وهو يقول:

ـ مثل شعره، من فضلك!

Twitter: @ketab_n

تابعت بمبي نظرته إلى المنضدة القريبة التي كانت عليها مجلّة مفتوحة على صورة رجل في حفل تكريم ـ نجم رياضي البنية من نجوم هوليوود، خزفي الأسنان، برونزي البشرة.

ـ مثله؟ لا، نعم... متأكّد؟

لم تستطع بمبي منع الضحكة التي انطلقت منها.

ـ تمامًا. طالما أردت أن أبدو مثل نجم من النجوم.

أمسكت بالمجلّة، ودرست الصورة في عناية، وإن كانت تعلم أنّه لا يهتمّ كثيرًا بالممثّل وأنّه يضيّع الوقت سدًى كي يظلّ قريبًا منها. بقيت على مدى نصف الساعة التالية تعمل في صمت، عاقدة حاجبيها في تأمّل. لم يتبادلا الكلمات، ومرّةً بعد أخرى كانت ريتّا تختلس نظرة إليهما لتتأكّد ممّا يدور، فإذا بها لا ترى إلّا بمبي وهي تعمل بجدّ والزبون الغريب يقرأ المجلّات الفاخرة واحدة تلو الأخرى.

ولمّا فرغت بمبي من عملها أمسكت بمرآة وجعلته ينظر إلى مؤخّر رأسه. تنهّد إلياس محاولاً ألّا تنهار معنويّاته، بسبب قصّة شعره القصيرة وشكل مؤخّر عنقه، وعندما خلعت عنه الصدريّة طرح عليها سؤالاً أراده أن يكون عابرًا:

ـ هل تهوين الأشرطة السينمائيّة يا بمبي؟

ـ ماذا؟

ـ أعني السينما. هل تحبّين الذهاب إلى السينما؟

أومأت بمبي برأسها مبتسمة، ففي السنوات الأولى من العيش في إنكلترا كانت بمبي تطلب من أطفالها أن يصحبوها إلى السينما

Twitter: @ketab_n

مرّات ومرّات، وكانوا يمتثلون لمطلبها. لكنّ اللغة كانت تمثّل عائقًا على الدوام، ووجدت صعوبة في متابعة الحوار.

وسألت:

ـ لماذا تسأل؟

اقترب إلياس الآن وعيناه مسمّرتان على عينيها:

ـ تركتُ شيئًا تحت مرشّة الشعر. أرجوك، انظري إليه.

ثم رفع صوته إلى درجة الحبور:

ـ حسنًا. شكرًا لك. لقد أتقنت عملك.

أطلّت ريتّا من الجانب الآخر من الصالة مسرورة لرؤيتها زبونًا آخر راضيًا مرضيًّا. وفي حين تبادلت هي وإلياس المزاح والنكات، ودفع ثمن الحلاقة، كانت بمبي جامدة في مكانها، ثابتة العينين على مرشّة الشعر. ثمّة تذكرة: الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الجمعة المقبل في سينما في حيّ إيست فينشلي. كان شريطًا سينمائيًّا قديمًا، بالأسود والأبيض، وصامتًا.

* * *

Twitter: @ketab_n

عـار

لندن، ٥ كانون الثاني ١٩٧٨

كان طارق مالكَ محلٌ يقع عند ناصية شارع كوينزبريدج، وكان يبيع على مدى اثنتي عشرة ساعة يوميًّا وطوال ستّة أيّام في الأسبوع، الحلوى والوجبات السريعة ومستحضرات التزيين والمشروبات الفوّارة والأطعمة المجمّدة والسكائر ومنوّعات أخرى. وكان لديه ستاند (حامل) يعرض عليه مختلف الصحف والمجلّات، التي كان بعضها يثير استياءه كلّما وقعت أنظاره عليه: «ماي فير» و«مين أونلي» و«فيستا» و«نيف» و«بنتهاوس» و«كلوب إنترناشيونال». في هذا البلد بذاءة أكثر ممّا ينبغي. لا فائدة من كلّ هذا العري. ولم يستطع برغم كلّ محاولاته أن يفهم كيف يمكن للرجال أن يجدوا متعة في هذه المجلّات، ولم يستطع أن يفهم أيضًا النساء اللواتي كنّ يتعرَّين فيها. أليست لهنّ أسر؟ آباء؟ أزواج؟ إخوة؟ وكان يحتفظ بالمجلّات غير المحتشمة في نهاية

Twitter: @ketab_n

الستاند ومن تحت علب سمك التونا والحليب، حيث يستطيع عشّاقها العثور عليها حتى إن كانت في ذلك المكان، ولكنّها لا تخدش العيون البريئة.

رنا طارق إلى الساعة جائعًا. الحادية عشرة والربع. كانت زوجته ميرال تأتيه بوجبة الغداء في تمام الساعة الثانية عشرة والنصف من بعد ظهر كلّ يوم، وهي تتألّف من الكفتة واللبن بالنعنع والباذنجان المدخّن بمعجون الطماطم والرزّ والحمّص. وكان سماور الشاي يئزّ في الجهة الخلفيّة من المحلّ معلنًا جهوزيّته للشرب، لأنّ طارق كان يحتسي في اليوم الاعتيادي، من الصباح وحتى المساء، زهاء ثلاثين قدحًا من الشاي، الذي يفضّله بلا حليب، ويكتفي بمكعّب من السكّر يمتصّه في كلّ مرّة.

وفي الوقت الذي كان فيه طارق يتناول طعامه، كانت ميرال تشغل نفسها بمسح الغرفة وتنظيف الرفوف وتلميع الكتابة على واجهة المحلّ التي حملت عبارة «أويسز ميني مارت» بدل «ماركت». كان طارق يريد إضافة حرف الكاف في وسط كلمة مارت ولكن يبدو أنّه لم يكن يملك الوقت لذلك. يضاف إلى ذلك، أنّ الزبائن لم يبد عليهم أيّ اعتراض.

وعندما يفرغ من تناول طعامه، كانت ميرال تأخذ الوعاء الفارغ وتهرع إلى المنزل لتنهي الأشغال المنزليّة. ربّما سيطلب من زوجته مساعدته في إدارة المحلّ يومًا ما، ولكنّه لن يسمح لها بالعمل في مكان بعيد وسط الغرباء على النحو الذي سمح فيه آدم

Twitter: @ketab_n

لبمبي بالعمل. ذلك عمل غير صائب، وإذا لم تكن ثمّة أزمة ماليّة، فإنّ على المرأة ألّا تبحث عن عمل.

لا يذهب طارق إلى المسجد القريب، كغيره من أصحاب المحلّات في المنطقة، لا قبل الغداء ولا بعده، فهو لم يكن ملتزمًا بممارسة الشعائر الدينيّة، على الرّغم من أنّ الذين شاهدوه بلحيته الكثّة ومسبحته المتدلّية من يده كانوا ميّالين إلى الاعتقاد بعكس ذلك، فهو كان يُطلِق اللحية بسبب ملاءمتها وجهه ولإخفاء بثور الجدري من تحتها، أمّا المسبحة فكانت عادةً دأب عليها أكثر ممّا هي دليل ورع وتقوى، كما أنّ لديه عددًا منها في البيت ـ عنبر ساطع وشذري فاتح ووردي كالمرجان وعقيق يماني كامد وأخضر يشمي. وكانت أصابعه تداعب المسبحة مداعبة سريعة ومتواصلة فتملأ المحلّ بصوت مستمرّ لم يتنبّه هو له بسبب ضجيج الحافلات المارّة من أمامه أو المركّبات التي تتوقّف مصدِرةً صوتًا طويلاً لدى توقّفها قرب إشارات المرور.

كان طارق أكبر إخوته الثلاثة وأوّل من غادر منهم إسطنبول ليعمل خارج البلاد. اشتغل بادئ الأمر في مصنع ينتج المكائن في بلدة صغيرة تُدعى تروسيدورف بألمانيا، ولكنّه وجد العمل شاقًّا ومرهقًا، والألمان تصعب استمالتهم، ولغتهم عويصة، فالألمان يدعونك إلى بلدهم للعمل وليس للاختلاط بهم، ويتوقّعون منك ترك العمل حالما تنتفي الحاجة إليك. وكان التأقلم وإيّاهم صعبًا ومستحيلاً، وكأنّك تعانق قنفذًا. ربّما تكمن

Twitter: @ketab_n

فيهم رقّة غامضة وجوهر لطيف، ولكنْ يصعب تجاهل الملاحظات الجارحة التي ينطوون عليها. وكان في وسع جالية المهاجرين أن تساعده في الثبات على قدميه كي يشعر أنّه أقوى، وبالتالي أنّه موضع ترحيب، ولكنّه لم يكن قطّ ذلك الرجل الماهر في إقامة علاقات، ولذلك لم تكن السنوات التي أمضاها في ألمانيا استثناء من ذلك.

وفي إحدى المرّات صادق عاملاً تونسيًّا، فصحبه هذا إلى غروبي فريهيت في المنطقة الحمراء في هامبورغ ـ إعلانات مضيئة ونوادي موسيقى وضحك بمختلف اللغات. وانتاب طارق الذعر والهلع لمَّا رأى نساءً يكشفن عن أجسادهنّ مثل تماثيل عرض الأزياء في واجهات المحلّات، ولكنّ سحناتهنّ المتعالية ونظراتهنّ الرزينة كانت مبعث اضطراب أيضًا. لم يكنّ مثل غانيات في أشرطة سينمائيّة تركيّة قديمة يعانين بلوى الحياة وقهرها.

وقال صديقه بلهجة ألمانيّة مبسّطة كي يفهمه:

ـ أتريد الدخول؟

ثم أشار إلى مدخل مزيّن بمصابيح كهربائيّة متلألئة.

ـ وماذا هناك؟

فلاحت ابتسامة على وجه الرجل وكرّر في هلع مصطنع:

ـ ماذا هناك؟ نساء أيّها الرجل. نساء شقراوات.

Twitter: @ketab_n

لكنّ طارق خفض من بصره ورنا إلى البقع على حذائه الثقيل وغمغم بجواب خفيض لم يسمعه الرجل:

ـ لا أريد الدخول.

لكنّ الرجل نظر إليه نظرة هزء واستخفاف:

ـ كما تشاء أيّها الرجل. إذا لم تستطع الذهاب، فإنّك لن تستطيع.

فكّر طارق في أن يضربه، يرفسه على عظم الساق بين الركبة والقدم بحذائه الثقيل الموحل، ولكن سرعان ما تلاشى الدافع، فراقب الرجل يدلف من الباب ويتوارى عن الأنظار تاركًا إيّاه في الشارع المعتم حيث بات في وسعه أن يسمع امرأة تغنّي من وراء نوافذ مغلقة.

وفي الأسبوع نفسه، عرف طارق من العمّال في المصنع أنّ الرجل كان يخبر كلّ فرد كيف أنّه ذهب إلى المبغى ولكنّه لم يشعر بالارتياح، فضحك الناس ضحكًا مكبوتًا من خلفه، وأشار بعضهم إلى أنّه شاذّ. كان طارق قد خطّط للزواج في ذلك العام، ولكن ذلك الحادث عجَّل من خططه، ولمّا جاء بعروسه من بلدة في الأناضول ـ وهي إحدى قريباته من جهة والده ـ، طلب من ميرال زيارة المصنع كلّ يوم في الشهر الأوّل، كي يرى الكلّ أنّه ليس واحدًا من أولئك الشذّاذ، فيسدّ أفواههم بذلك.

* * *

Twitter: @ketab_n

في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والعشرين فُتح الباب ودخلت ميرال تسير متمهّلة، متورّدة الوجنتين من شدّة الريح. قائمة الطعام لهذا اليوم تتألّف من شوربة العدس والفلفل الأخضر المحشو والحلوى. راقبته وهو يتناول الطعام برهة وجيزة من الزمن مزهوّة من فرط شهيّته. ثم قالت:

ـ جاءت بمبي إلى هنا في هذا الصباح.

ـ وماذا تريد؟

ـ لم تطلب شيئًا مباشرة، ولكنّني أظنّها بحاجة إلى المال.

ـ المال، المال، المال...

كان طارق قد شاهد ذات مرّة شريطًا سينمائيًّا يتحوّل فيه البطل إلى شقي كي ينقذ شقيقه الأصغر من الفقر، وليمنحه مستقبلاً أفضل من المستقبل الذي رآه الله مناسبًا له. وفي نهاية المطاف، وعلى نحو غير متوقّع، ألقى الأخ الأصغر ـ الذي أضحى مفتّشًا في جهاز الشرطة ـ القبض على البطل على الرّغم من أنّه احترمه وأحبّه وأعجب به وكان مدينًا له مدى الحياة.

لكن قصّة أسرتهم لم تكن قصّة أبطال وأوغاد، فعلى الرّغم من أنّ طارق كان قد بذل قصارى جهده لمساعدة أخويه في البقاء على قيد الحياة، معتقدًا أنّ قدْرًا من المساعدة يمكن أن يغيّر من قدَرهما، إلّا أنّه كان يعلم أنّه رجل محدود القدرات، وكذلك شأن آدم وخليل. وقد حذا أخواه حَذْوَه وأصبحا عاملين مهاجرين ـ

Twitter: @ketab_n

الأوّل في أستراليا والثاني في إنكلترا. وبعد مضي بضع سنوات تخلّى طارق عن عمله في ألمانيا وسافر إلى إنكلترا، حيث اتّفقا على أنّ الطقس فظيع ولكنّ الناس مؤدّبون.

وسأل طارق مستفسرًا بعد أن لمست لحيته شوربته:

ـ هل تعرف بمبي مكانه؟

فقالت ميرال:

ـ لا تعرف أيّ شيء، ولكن...

وهنا توقّفت، إذْ بدأت تصبّ الماء المغلي في إبريق الشاي الموضوع فوق السماور، ثم أضافت:

ـ ولكنّها تعرف أنّه انتقل للعيش في صحبة امرأة أخرى.

فقال طارق:

ـ حسنًا، وماذا تتوقّعين إن لم تكن امرأةٌ قادرةً على الاحتفاظ بزوجها في البيت...

ولكنّه لم يكمل عبارته.

لم يكن يتعيّن على آدم أن يتزوّج بتلك المرأة، فثمّة فتيات أفضل منها له، ولكنّه على الرّغم من ذلك، هام حبًّا ببمبي على نحو يتعذّر على التفسير. أمّا سبب اختياره لها أو سبب هذه السرعة المفاجئة، فهو ما لم يتمكّن طارق من إدراكه. ولم يكن

Twitter: @ketab_n

السبب كامنًا في أنّه لم ينتبه لجمال بمبي، غير أنّ هذا الأمر زاد في نظره من عدم أهليّتها بالثقة. إنّ الرجال مخطئون عندما يشتهون النساء الجذّابات. في إمكانهم مغازلتهنّ في أيّام عزوبيّتهم، ولكن على الزوجة أن تمتلك سجايا أخرى غير الوجه الجميل. وقد عارض منذ البداية هذا الزواج، لكن آدم كان وحيدًا في تلك القرية الكرديّة المنسيّة عندما طلب يد بمبي، وحيدًا وصغيرًا جدًا.

فعندما هربت والدتهم رفقةَ رجل آخر، كان طارق في السادسة عشرة من عمره، وخليل في الثالثة عشرة، أمّا آدم فلم يكن يتجاوز الحادية عشرة. كانت النساء في ملايين البيوت في إسطنبول يفعلن ما في وسعهنّ من أجل وحدة الأسرة ورضا الأطفال، ولكن والدتهم، والدتهم وحدها، هي التي تخلّت عنهم.

ليس في وسع كلّ شخص أن يفهم أنّ الشرف هو كلّ ما يملكه بعض الرجال في هذا العالم، فالأثرياء يقدرون على الخسارة وعلى استعادة سمعتهم وشراء الذمم بالسهولة التي يشترون بها سيّارة أو إعادة تأثيث دورهم، لكنّ الأمور مختلفة لبقيّة الناس، فكلّما قلت إمكانيّات المرء ازدادت قيمة شرفه. والإنكليز لا يفهمون هذه القواعد الموغلة في القدم، فزوجاتهم يمكن أن يقبّلن رجالاً آخرين ويحتسين الشراب ويراقصن الغرباء والابتسامات تلوح على وجوههنّ، أمّا في الجانب الآخر، الرجل الذي يلحق العار بشرفه إنّما هو رجل ميت، فلا تقدر على السير

Twitter: @ketab_n

في الطريق إلّا إذا كنت معتادًا التحديق إلى الرصيف، ولا يمكن أن ترتاد مقهًى أو تلعب النرد أو تشاهد لعبة كرة القدم في حانة، ولسوف يتهدّل كتفاك، ويزداد إحكام قبضتيك، وتغور عيناك في محجريهما ويغدو كيانك كلّه كتلة هامدة، وتنكفئ أكثر فأكثر عند سماع كلّ إشاعة، ولن ينتبه أحد إليك عندما تتكلّم، ولن تكون كلماتك أكثر قيمة من روث يابس، وستبقى السيكارة التي تقدّمها لشخص ما من دون تدخين، والقهوة التي تحتسيها مُرَّة إلى الأبد، ولن تُدعى إلى حفلات زفاف أو ختان أو خطوبة، خشية أن تأتي بحظّك النحس وإيّاك. وفي الركن الذي أنت فيه، حيث يحيط بك الخزي والعار، سوف تجفّ وتذبل مثل ثمرة مجفّفة... كان طارق على علم بهذا كلّه، لأنّه سبق أن حدث لأبيه، فبابا لم يمت بسبب تليّف الكبد. ربّما كان للكحول أثره في الإسراع بموته، ولكنّ العار هو الذي قتله في نهاية الأمر. كان آدم وخليل أصغر سنًّا من أن يفهما هذا الشيء، ولكن طارق شاهد كلّ شيء يحدث أمامه.

وبعد أن انصرفت ميرال، جلس طارق لحظةً هادئًا ليستغرق في التفكير. لقد رأى حتى الآن حالة شقيقه على أنّها مصيبة حلّت به أكثر ممّا هي شائبة أو نقيصة. المقامرة مرض، أسوأ أنواع المرض. ولكن تبذير المال على راقصة، على امرأة لا تختلف عن النساء اللواتي تظهر صورهنّ في المجلّات، أسوأ من ذلك بكثير. لا بدَّ له من أن يكلّم آدم كلامًا جادًّا، هذا إن استطاع العثور عليه، فعندما يهجر رجل بيته مثل هذا الهجران، فإنّ بقيّة

Twitter: @ketab_n

أفراد الأسرة يسهُل عليهم الانحراف عن جادّة الصواب. ولكي يضمن طارق عدم حدوث هذا الشيء، ينبغي له أن يبقي بمبي والأطفال تحت أنظاره، فشهرتهم واحدة، وإذا ما لحق العار بأحدهم فإنّ الخزي سيظلّ ملاصقًا له، كما حدث لطبرق الأكبر، فشرفهم هو شرفه.

* * *

Twitter: @ketab_n

تصميم الغلاف نجاح طاهر

تغادر بمبي تركيا، تاركة وراءها أختها التوأم وتابعة زوجها الحبيب آدم إلى لندن. وتحاول عائلة "طبرق" الكرديّة، عبثًا، في المنفى الابتعاد عن التقاليد والمعتقدات، التي تبقى تلاحقهم حتى آخر نقطة دم.

يجد أولاد عائلة طبرق أنفسَهم عالقين في فخّ الماضي. ومصدومين بجريمة مروّعة تقلب حياتهم رأسًا على عقب رواية قويّة تجري أحداثها بين تركيا ولندن، تحكي الفقدان والعذاب، الوفاء والخيانة، صراع الحداثة والتقاليد، فتمزّق العائلات إربًا إربًا.

أليف شافاك هي الروائيّة الأكثر مبيعًا في تركيا.
نالت جوائز أدبيّة عالميّة عديدة وتُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات.
صدر لها عن دار الآداب: "أربعون قاعدة للحبّ"، "لقيطة اسطنبول" و"شرف".

www.elifshafak.com

ISBN: 978-9953-89-271-9

دار الآداب
هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

@ketab_n
3.5.2014

رِوَايَة

أليف شَافَاك

تَرجَمَة
د. محمد درويش

شرف II

دار الآداب

أليف شافاك

شرف
II

رواية

دار الآداب ـ بيروت

Twitter: @ketab_n

شرف

Twitter: @ketab_n

شرف II

أليف شافاك / كاتبة تركيّة
الطبعة الأولى عام 2014
ISBN 978-9953-89-287-0

حقوق الطبع محفوظة
Honor by Elif Shafak
Copyright © 2012 Elif Shafak
http://www.elifshafak.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

Twitter: @ketab_n

الجزء المفقود

لندن، كانون الثاني ١٩٧٨

أسّست سينما فينِكْس في العام ١٩١٠ بواجهة مكسوّة بالآجرّ وعدد قليل من الدرج المؤدّي إلى البهو وصالة على طراز الفنّ الزخرفي[١]. وقد أسدت دار السينما خدمات إلى الشعب بعرض الأشرطة الإخباريّة والأشرطة الانهزاميّة طوال مدّة الحرب، ولكن لحسن الحظّ ظلّت من دون أن تلحق بها القنابل الألمانيّة أيّ ضرر. وقبل مدّة من الزمن، بعد أن استحوذ عليها موزّع أشرطة سينمائيّة متواضع الشأن، بدأت الدار تعرض أشرطة سينمائيّة خاملة الذكر وإن بقيت تعرض أحيانًا أشرطة كلاسيكيّة من إنتاج هوليوود عند

(١) آرت ديكو Art Deco: أسلوب زخرفي في الرسم والزجاجيّات والفخّاريّات والفضّيّات والأثاث والعمارة، بلغ ذروته في ثلاثينيّات القرن العشرين ويتميّز بألوانه القويّة وأشكاله الهندسيّة والتكوينات الطبيعيّة والتصاميم النسقيّة. والمصطلح مختصر عن التعبير الفرنسي art decorative المأخوذ أصلاً عن معرض Exposition des arts decoratifs (معرض الفنون الزخرفيّة) الذي أقيم في باريس سنة ١٩٢٥ (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الطلب! غير أنّ موقعها كان بعيدًا جدًّا عن مركز المدينة ممّا جعلها شاغرة من الروّاد طوال الوقت.

واليوم، لا يوجد سوى أربعة أشخاص في الصالة ـ شابّة وشابّ كانا غير مهتمّين بالشريط السينمائي قدر اهتمامهما بابتكار أساليب جديدة في تبادل القبلات؛ ورجل جلس وعلى رأسه قبّعته وبدا أكبر سنًّا من دار العرض نفسها؛ أمّا الرابع فهو إلياس، الذي جلس بمفرده جامدًا ومتوتّرًا في موقع يكاد يتوسّط السينما. كانت قد مضت بضع دقائق على بدء العرض ولكنّه ظلّ يحدّق إلى المدخل، فهي لم تأت.

شاهد إلياس المشاهد الأوّليّة متوجّسًا تمامًا. وكانت الكتابة على الشاشة تقول: صورة بابتسامة، وربّما بدمعة، ولكن أسارير إلياس انفرجت لمّا شاهد صورة تشارلي تشابلن. كان يهوى تشابلن دائمًا ـ إذْ كانت فكاهته تمتزج بالأسى وبإنسانيّته التي لا حدود لها، وبعينيه الحزينتين السوداوين. وشيئًا فشيئًا زال توتّره واستغرق ذهنه في التفكير في قصّة «اللقيط».

وبعد برهة وجيزة شعر إلياس بحركة صغيرة في نهاية صفّ الكراسي، ولكنّه لم يملك الجرأة للالتفات ومعرفة القادم. واقترب منه شخص ما في العتمة وجلس إلى جانبه، هادئًا مثل ظلّ. فازدادت دقّات قلبه من وراء قفصه الصدري عندما تبيّن وجه بمبي، جميلاً مشرقًا، من طرف عينه. كانت عيناها مسمّرتين على الشاشة وصدرها يعلو ويهبط في قوّة.

أراد إلياس أن يقول لها: يسرّني جدًّا أنّك أتيت. أتدرين؟ كنت قلقًا من أنّك منزعجة منّي. ولكنّه احترم صمتها وهمس

Twitter: @ketab_n

بكلمة. وركّز الاثنان في العرض.

شاهدت بمبي الشريط مندهشة اندهاشًا يزداد على ملامحها عند كلّ مشهد. فعندما عثر تشابلن على طفل مرمي في سلّة نفايات وربّاه وكأنّه ابنه، ابتسمت ابتسامة إعجاب وتقدير. وعندما رشق الطفل نوافذ الجيران بالحجارة كي يتمكّن المتشرّد المتنكّر في زيّ مركّب الزجاج من إصلاحها من جديد والحصول على بعض المال، ضحكت ضحكة مكتومة. وعندما أخذت دائرة الرعاية الاجتماعيّة الطفل بعيدًا ترقرقت الدموع في مآقيها. وأخيرًا، وعندما التمّ شمل الأب بالابن، أشرق وجهها بالسعادة والرضا وبعلامة تدلّ على شيء ما، ظنّ إلياس أنّه الحزن. وبدت مستغرقة التفكير في الشريط ومأخوذة به، ممّا دفع إلياس إلى الإحساس بالامتعاض والانزعاج. يا له من إحساس سخيف أن يشعر بالغيرة من تشارلي تشابلن!

راقبها إلياس وهي تحلّ شعرها لتشدّه إلى الخلف. وانسابت إلى أنفه رائحة الياسمين والورد، فكانا مزيجًا من عبق ساحر. وقبل أن ينتهي الشريط السينمائي بدقائق قليلة، واتته الشجاعة ليمسك بأصابع يدها وليشعر أنّه أشبه بمراهق في أوّل موعد غرامي له. وارتاح كثيرًا لأنّها لم تجذب يدها بعيدًا عنه، جلسا ساكنين كأنّهما تمثالان قُدَّا من الظلمة، خائفان من أيّ حركة تصدر عنهما فتضع حدًّا لتلك اللحظة البهيجة.

ولمّا أُضيئت الأنوار من جديد، استغرقا بعض الوقت حتى يعتادا على الحياة الحقيقيّة. وأخذ من فوره دفترًا ودوَّن عليه اسم سينما أخرى في منطقة أخرى من البلدة وقال:

Twitter: @ketab_n

ـ الأسبوع المقبل، في اليوم نفسه والموعد نفسه. هل تأتين؟

فقالت متلعثمة:

ـ نعم.

وقبل أن يجد فرصة لقول أيّ شيء آخر، وثبت بمبي من على قدميها واتّجهت نحو باب الخروج، مبتعدة عنه وعن كلّ شيء جرى بينهما أو كان من شأنه أن يجري بينهما لو كانا شخصين مختلفين. وأمسكت في راحة كفّها اسم المكان الذي اتّفقا على أن يلتقيا فيه في المرّة المقبلة، أمسكت بالورقة في قوّة وكأنّها المفتاح المؤدّي إلى عالم سحري، مفتاح سوف تستخدمه الآن إن كان في وسعها أن تحسم أمرها.

وهكذا بدأ كلّ شيء، وبدأ الاثنان يلتقيان في كلّ يوم جمعة في الوقت نفسه، وأحيانًا في أوقات ما بعد الظهيرة. فارتادا سينما فينكس أكثر من ارتيادهما أيّ مكان آخر، ولكنّهما التقيا أيضًا في عدد آخر من دور السينما، وكلّها بعيدة عن منزلهما، وروّادها قليلون. ولمّا كانت الأشرطة السينمائيّة تعرض مدّة غير قصيرة، فقد انتهى بهما الأمر إلى مشاهدة «اللقيط» مرّتين. ولكنّهما ذهبا أيضًا لمشاهدة «الملك وأنا» و«لص بغداد» و«كنغ كونغ» و«جان دارك» و«أحدب نوتردام» و«بن هور».

وكانا ينظران إلى هذه الأشرطة السينمائيّة ليس بوصفها حكايات من ماضٍ بعيد بل بوصفها أقدارًا ما تزال تظهر للعيان في مكان ما. ومهما كان الشريط السينمائي الذي يذهبان لمشاهدته، فإنّ الشيء نفسه يحدث: إذْ تظلّ ترنو إلى الشاشة في حين يُبقي عينيه عليها. وهام إلياس حبًّا بالتغيّرات الطارئة على وجهها كلّما

Twitter: @ketab_n

اتّخذت حبكة الرواية مسارًا جديدًا. وتولّد لديه الانطباع بأنّه يلتقي عديد النساء الساكنات في أعماقها، مشاهدًا جوانب متباينة من شخصيّتها متوارية عن أنظار الآخرين وبضمنهم هي شخصيًّا. وكانت ترمقه بنظراتها أيضًا أحيانًا وبالأسلوب نفسه، كأنّها تريد أن تكتشف أعماق روحه. واقشعرّ بدن إلياس وتساءل عمّا تراه فيه، أو إن كانت تفكّر في أنّه جديد بحبّها.

وفي الوقت المناسب اكتشف أشياء أخرى عنها، أجزاء من أحجية الصور المقطوعة التي لن يكملها إلّا بعد أن يكون قد مضى زمن طويل على ذهابها. وعلى الرّغم من اسمها، فقد أدرك أنّ لونها المفضّل هو الأرجواني، وأنّها تحبّ أن تغنّي الأغاني العاطفيّة الكرديّة القديمة وأنّها ذات صوت جميل. ولأسباب دينيّة لم تكن تتناول لحم الخنزير ولا الروبيان أو القواقع أو الحبّار أو عنب الأحراج، التي كانت كلّها تدفعها إلى صكّ أسنانها، ولكنّها على الرّغم من ذلك كانت تستطيع أن تتلمّظ بشرائح الليمون طوال النهار. واكتشف أيضًا صغر سنّها. وإذا كانت طريقتها في لبس الثياب وشخصيّتها تجعلها تبدو أكبر سنًّا، إلّا أنّها كانت أصغر منه بستّ عشرة سنة.

ورويدًا رويدًا بدأ يفهم الوضع. فقد كان هذا الانجذاب المبهم الذي لا يسبر غوره نحوها، نحو هذه المرأة الغريبة عن الحياة التي عاشها، إنّما هي أشبه بذكرى عن طفولة يستعيدها. فقد شعر لسبب مجهول لا يدركه عقله الواعي ولكن يدركه قلبه، بالحاجة إلى أن يحبّها وأن يحميها من العالم المتوحّش برمّته. لقد تذوّق من قبل مثل هذه العاطفة إزاء ثلاث نساء في حياته وهنّ:

Twitter: @ketab_n

أخته وأمّه وزوجته السابقة. ولكن شعوره نحو بمبي كان مختلفًا عن شعور آخر مرَّ به من قبل. فقد كانت بوّابته إلى عالم كان يحسّ أنّه عالم واقعي جدًّا وإن كان غامضًا وخطيرًا. واضطرب اضطرابًا شديدًا لما فكّر أنّ هذا الحبّ محرّم وغير مشروع، ولكن احتمال فقدانها في أيّة لحظة زاد من حدّة رغبته المشتعلة فيها. كانت الحلقة المفقودة في حياته، الصلة التي تربطه بماضيه وبأسلافه وبجانبه الشرقي. كان حبّها معوّضًا عن الأشياء الضائعة والزمن الضائع.

وفي كلّ مرّة، وقبل إضاءة الأنوار من جديد في دار العرض، كانا يبتعدان أحدهما عن الآخر ويمضيان كلٌّ في سبيله، وبهذا لا يراهما أحد معًا أبدًا ـ أو هكذا كانا يأملان.

كانت تخرج قبله في جميع الأوقات. أمّا هو، فيتأخّر عنها، يسير داخل صالة العرض السينمائي مدقّقًا النظر في الملصقات على الجدران، والقاذورات على الأرض والحلويات والمشروبات الفوّارة، وهو ما يزال يفكّر في أحداث الشريط السينمائي وفي الضوء المتلألئ في عينيها، محاولاً أن يعتاد الخواء الذي خلّفته من ورائها.

* * *

سجن شروزبيري ١٩٩١

استيقظ في منتصف الليل فزعًا. الظلام يسود الزنزانة باستثناء الضوء الأصفر الشاحب المتسلّل من الممرّ. يفترض بهذه المصابيح أن تهدّئ أعصابنا على حدّ وصف بعض الأطبّاء النفسانيين، لكنّها تدفعني إلى التقيّؤ.

Twitter: @ketab_n

للسرير ملمس خشن، يشبه النوم على كتل إسمنتيّة، لكن ذلك ليس هو السبب الذي يجعلني أستيقظ في مثل هذه الساعة النحس. يمكنني أن أقول إنّ ثمّة مكروهًا. أحبس أنفاسي وأصيخ السمع. الشخير والضراط والأنين والحفيف وكزُّ الأسنان من الزنزانات المجاورة. الناس الذين هم في الخارج يظنّون أنّ السجن مكان غاية في الهدوء والسكينة، ولكن هذا غير صحيح غير أنّه يبدو خاويًا على نحو غريب في هذه الليلة على الرّغم من الأصوات المألوفة. شيء ما مفقود، أو أنّني أفقد رشدي.

اعتادت أمّي القول إنّ الهواجس هي همسات الله في غابة مظلمة. فهو يخبرنا بين حين وآخر أن نكون حذرين وألّا نكون أصدقاء شخص ما، وألّا نفتح بعض الأبواب وإنْ لم نتنبّه لذلك. بيد أنّني غير متأكّد من أنّ ذلك هو الذي يحدث لي الآن. فالهاجس يمثّل شعورًا بأنّ شيئًا غير مستحبّ سوف يحدث. أمّا إحساسي فمختلف لأنّه نوع من الأسى الذي يصيبك بعد وقوع شيء ما، ويكون بعد فوات الأوان.

أتّكئ على مرفقي وأصيخ السمع. في البدء أتصوّر أنّ طيف أمّي زارني، ولكنّني سرعان ما أدرك أنّها ليست هنا في هذه الليلة. قلبي لا يخفق بشدّة، وهو ما يحدث في كلّ مرّة أشعر بوجودها. وما من أثر لوهج غريب في زاوية من زوايا الزنزانة أيضًا كثلج سقط مؤخّرًا. وليس ثمّة حفيف كالذي ينبعث من ستائر حرير. ولا عبق الياسمين والورد. ولا روائح حلاوة السمسميّة. ولن أنسى متى حدث ذلك أوّل مرّة. إنّه يصعقني صعقة نار الجحيم.

اعتادت أن تزورني مرارًا في الماضي، ثم قلّت زياراتها شيئًا

Twitter: @ketab_n

فشيئًا. وفي الأيّام الأخيرة، لم تظهر لي قطّ. وكلّ ما أخشاه هو ألّا تظهر من جديد. يا لها من فكرة ساذجة ولكن ما دامت تأتي إليَّ فثمّة أمل في أن تغفر لي.

في بادئ الأمر، فقدت صوابي من شدّة خوفي وذعري. ولم أستطع النوم خشية أن تصل في منتصف الليل وتخنقني. واستغرقت بعض الوقت حتى أعلم أنّ الأشباح لا تتصرّف مثل هذا التصرّف. فأنت تظنّ أنّها تبحث عن انتقام، ولكن كلّ ما تبغيه هو الفهم. لهذا، فهي تفرغ نظراتها عليك وتنتظر إيضاحًا. تحدّق إلى روحك. ولكنّها لا تتكلّم، ولا تسأل في الأقلّ.. هذا ما تفعله والدتي. إنّها أشبه بشريط صامت باستثناء الألوان.

لكن أمّي لم تأت الليلة. أجراسي المنبّهة لا صلة لها بها. ما هو إذًا؟ أزفر الهواء. أتنشّقه. ثم أحبس نفسي، وأصغي، في حذر أكبر. وعلى حين بغتة تستبدّ بي الدهشة. إنّ تريبي لا يشخر ولا ينتفض ولا يرفس أو يتكلّم في نومه وهو ما دأب عليه مهما كان مرهقًا. أنسلّ من سريري وأقترب منه.

كان موليًا ظهره إيّاي.

ـ تريبي!

لا جواب، ولا حركة تندّ عنه.

ـ هل أنت على ما يرام يا باتريك؟

لا أعرف سببًا يجعلني أناديه باسمه الحقيقي، وهو أمر لم أفعله منذ سنوات. غير أنّ الكلمات تخرج من فمي. ثم أزيح البطّانيّة من فوقه، فأشمّ رائحة كريهة. يبدو ضئيل الجسم على نحو غريب، وكأنّه انكمش في ليلة واحدة. أهزّه من كتفيه، ولكنّه ساكن

Twitter: @ketab_n

لا يتحرّك، فأهزّه من جديد، بقوّة هذه المرّة. قدماه تتدلّيان على نحو مضحك وكأنّهما قدما دمية مكسورتان. ذراعاه ثقيلتان وإنْ كان أكثر الناس الذين عرفتهم نحولاً وهزالاً.

ـ كفى يا تريبي بربّك! توقف أيّها الرجل!

أمدّ يدي لأجسّ نبضه. رقبته باردة ويابسة، «أبرد من حلمة ساحرة»، كما يردّد. ليس ثمّة دقّات قلب. فأرفع رأسه وأسنده إلى ذراعي وأتنفّس في فمه. الفم الذي قبّل زوجته وعددًا من النساء الأخريات. الفم الذي أطلق السباب والشتائم طوال الوقت ولكنّه دعا إلى الله أيضًا. الفم الذي دمّره ولكنّه كان أيضًا نعمته المنقذة. لا ردّ فعل.

أبدأ بالضحك، لأنّ الأمر مضحك، فإمّا أنّ ملك الموت أعمى أو أصيب بالخرف. على عزرائيل أن يكفّ عن عمله. ألا يرى الله أنّ التابع الأمين لا يؤدّي واجبه على أكمل وجه؟ لماذا يموت الناس الذين لا يستحقّون الموت دائمًا. كنت ألقّن تريبي كيفيّة استعمال قبضتيه. إنّه تلميذ رهيب، بطيء الفهم. ولكنّه يتعلّم. أجعله يضربني في المكان نفسه: على بطني. ثمّة أماكن قاتلة في جسم الإنسان، كالرأس والرقبة والحنجرة وقصبة الأنف أيضًا. لكن لو ضربني على هذه المناطق لبدت المشاجرة حقيقيّة، وعندئذٍ سيقع تريبي في ورطة. إنّ ضربه إيّاي على البطن أقلّ مدعاة للشبهة، فالكلّ يعرف أنّني ألاكم من أجل المزاح والعبث.

البطن هدف قاتل إن كانت الضربة مسدّدة تسديدًا قويًّا. نزيف داخلي. وإذا لم يعالج في غضون ساعات قليلة، فسوف يموت. وليس لديّ أدنى شكّ في أنّه سوف يُترك من دون علاج.

Twitter: @ketab_n

طبيعيٌّ أنّ تريبي لا يعرف كلّ هذه الأشياء. وسيكون كلّ شيء حادثًا مؤسفًا، ومن شأن مفتّش أن يحضر ويكتب تقريره، وسوف يدوّن السكرتير على الآلة الكاتبة التقرير ويبعث به إلى الصحافة. وستُظهر إحدى صحف الإثارة اهتمامها فتكتب: «موت متّهم بالقتل غسلاً للعار في السجن». وسوف يقتطع الضابط ماك لوخلين القصاصة ويحتفظ بها في ملفّه. وسوف يتحدّثون عنّي مدّة من الزمان، ولن يشعر أحد بالحزن عليَّ، ثم تُحفظ القضيّة، وكما هو الطبق النظيف الذي يأكل منه إنسان جائع، فإنّ تريبي سينجو بجلده وسأخرج أنا، حرًّا طليقًا في نهاية المطاف.

كان هوديني مذكَّرًا لا أكثر. يقول الضابط ماك لوخلين إنّه لا وجود لذلك الشيء وأنّ القصّة هي حكاية غير قابلة للتصديق، فالساحر لم يمت بسبب الضربات كما يخيّل للحمقى من أمثالي أن يصدّقوا، ولكنّني لا أكترث سواء مات هوديني لهذا السبب أو ذاك. فكلّما أشاهد ملصقه، أتذكّر أنّ من المحتمل أن يموت المرء ضربًا. ثم يذكّرني مرّة أخرى بأشياء أخرى. أشياء محزنة. فقد كان هوديني هو السبب الذي جعل عمّي طارق يكتشف أمر عشيق أمّي كما اكتشفه الآخرون وبضمنهم أنا شخصيًّا.

أحرّك تريبي إلى الجانب وأجلس بجانبه. شيء ما يفرقع من تحتي. ألقي نظرة لأعرف ما هو. فألتقطه وأبدأ بالضحك من جديد. «أيّها الوغد الحزين».

إنّها محقنة. متى فعل ذلك؟ أهي حادثة؟ أكانت محقنة ذهبيّة؟ كيف لم أنتبه لذلك؟ هل انتظرَ حتى استسلمتُ للنوم؟ إنّني مغفّل. قذر. أنام وكأنّني قنفذ بدين في وكره الشتائي. إنّني ناقم على

Twitter: @ketab_n

نفسي. أتفحّص السرير. الملاءة مبلّلة بالبول، واللعاب والقيء. حاول جسده أن يتخلّص من السمّ، ثم أتنبّه إلى قبضة تريبي اليسرى، المحكمة، التي بدت منها مفاصل أصابعه مثل مسامير مدبّبة. أضغط على الأصابع كي تنفتح. ثمّة قصاصة ورق، فأقترب من القضبان كي أتمكّن من قراءتها من تحت النور المنبعث من الممرّ.

أخي أليكس. إذا كنت تقرأ هذه الرسالة فهذا يعني أنّني قد أوضحت كلّ شيء. لقد أردت أن تذهب قبلي. صحيح؟ أيّها الأحمق. أتظنّني لا أدري؟ لكنّني كنت أريد مساعدتك. صدّقني، لكن كلّ ما في الأمر هو أنّني لم أعد أطيق التحمّل. لا تنزعج. سوف أنتظرك مهما حدث. سوف أذهب وألقي نظرة. كفاك حيلة. كفانا هوديني. إنّك إنسان طيّب. وعندما ألتقي والدتك سوف أخبرها بذلك.

صديقك / تريبي

انهمرت الدموع على وجنتيَّ. أصفع وجهي. لا فائدة. أشدّ شعري. بيد واحدة، ثم بيدين. أقوى، فأقوى. في وسعي أن أشعر بالجلد يتداعى والشعر ينجذب من مكانه. وطوال هذه المدّة، يصدر عنّي صوت يشبه صوت أنين كلب في الشارع. سيّارة صدمتني وانطلقت في سرعة. عظامي كُسرت. دهسني تريبي.

أنهض على قدميَّ. رأسي يوشك أن ينفجر. الأدرينالين يعيد إليَّ إحساسًا عرفته مرّةً معرفة جيّدة: غضب. وظننت أنّني تركته على قارعة الطريق. قبل عامين اثنين وضعته في كيس وأحكمت شدّه وأغرقته وكأنّه هرّة غير مرغوب فيها. عاهدت نفسي على أن

Twitter: @ketab_n

أمضي بقيّة حياتي محاولاً، نعم في الأقلّ محاولاً، أن أكون إنسانًا أفضل. إلى هنا ينتهي الكلام عن المحاولة، إذْ عثر عليّ من جديد، وتعقّبني وعاد أدراجه إلى البيت يشمّ الطريق، وها هو الآن صديقي القديم السيّد الغضب. مخلصًا ووفيًّا كدأبه.

أرفع ملصق هوديني من على الجدار وأمزّقه وأرمي بملاءة سريري وبطّانيّتي ووسادتي، أركل الجدران. وأسدّد اللكمات إلى الجدران، وأنقضّ على الجدران، وأضرب رأسي على الجدران.

أضواء. وقع خطوات. فوضى. شخص ما يدخل الزنزانة:

ـ ما الذي يجري؟

ويدخل آخرون. يدفعونني إلى الأرض، ويُبقون رأسي إلى أسفل. تُضاء الأنوار. نور زائد عن الحاجة. تؤلمني عيناي. هل هذا هو الضابط ماك لوخلين يقف على جسدي؟ ماذا يفعل هنا؟ نوبة ليليّة؟ الرجل يعشق مهنته.

يشقّون طريقهم في المكان، يفحصون نبض تريبي. يعثرون على المحقنة. يشاهدون القصاصة. يبدأ أحدهم في قراءتها في صوتٍ عالٍ. تبًّا. أحرّر نفسي. وأفاجئهم. أقفز من على قدميَّ. وأمسك القصاصة قبل أن يعرفوا ما فيها.

ويهتف سجّان شابّ وكأنّني كنت أغشّ في لعبة وأنّه خُدع:

ـ هه!

يتقدّم الضابط ماك لوخلين خطوة إلى أمام.

ـ ناولني إيّاها.

ـ هي خاصّتي!

Twitter: @ketab_n

ـ ما من شيء خاصّ بك أيّها المغفّل. ناولني إيّاها.

يحملق أحدنا في الآخر. وأخيرًا تحين اللحظة. يمكنه أن يظهر لي مدى كراهيّته لي، ويمكنني أن أظهر له أنّ الشعور متبادل. لقد انتهى التظاهر. وانتهت محاولات أن نكون أفضل ممّا نحن عليه. هكذا نحن. أحشر القصاصة في فمي.

يقول الضابط ماك لوخلين.

ـ آه، لا تفكّر في هذا أبدًا. يبدو أنّك شاهدت عديد الأشرطة السينمائيّة. صحيح؟

أبدأ المضغ. في بطء. لا ضرورة للعجالة. كلّهم يرمقونني بنظراتهم.

ـ سوف تندم على صنيعك ندمًا شديدًا يا أليكس. إنّني أمنحك فرصة أخيرة لإنقاذ مؤخّرتك. توقّف.

أمضغ. أمضغ. أمضغ. لم أعرف قطّ أنّ للورقة مثل هذا المذاق الطباشيري. أفكّر إن كان في وسع تربيي أن يشاهدني. هل تغادر أرواحنا أجسادنا مباشرة بعد موتنا وتحلّق نحو السماء مثل منطاد حارّ الهواء؟ أم أنّها تظلّ وإيّاها برهة وجيزة من الزمان؟ هل لبثت روح أمّي مدّة تراقب يدي التي أخرجت السكّين وطعنتها؟

أبلع القصاصة.

الضربة الأولى تصيب ذقني. لم أكن مستعدًّا لذلك قطّ. تصطكّ أسناني في قوّة. يعرف الضابط ماك لوخلين أين يسدّد الضربة، على العكس من تربيي المسكين. السجّانون الآخرون يشيحون بأنظارهم جانبًا، لا يوافقونه على ما صنعه. هذا ما

Twitter: @ketab_n

ألاحظه. فلديهم زوجات. أطفال. مواطنون طيّبون يريدون أن يناموا نومًا هنيئًا في الليل. لا أحد يريد أن تتلطّخ يداه بالدم. ولكنّهم لا يحاولون منعه. هكذا هو الحال مع المستأسدين. لا أحد يقول لهم: كفى! هذا هو السبب في كون المستأسدين على ما هم عليه. وينبغي لي أن أعرف لأنّني كنت وما أزال واحدًا منهم.

* * *

كانت أمّي تؤمن بالخرافات. في بيتنا خرز لطرد عين الحسد منتشرة في كلّ مكان. كانت تضع خرزًا زجاجيًّا في جيوبي، في حقيبة ظهري. وفي إحدى المرّات، عثرت على خرزة وقد خيّطتها في سترتي الجلديّة. لم نصفّر ليلاً ولم نفتح مظلّة داخل المنزل ولم نقلّم أظافرنا بعد الغروب. كنّا أحيانًا نرتدي ثيابنا الداخليّة مقلوبة لطرد الحظّ السيّئ. وعندما نجلس إلى مائدة العشاء، لم يسلّم أحدنا سكّينًا إلى الآخر. وكانت أمّي تبذل قصارى جهدها كي تحميني من الآخرين. ولكنّها نسيت ما الذي ينخر في قلبي. لا شيء يحمي الإنسان ممّا يكمن في داخله.

مرّت بضعة أسابيع على ختاني في اسطنبول، وكان الجرح قد تماثل للشفاء، وبدأت أمارس اللعب في الشارع من جديد. لا بدّ أنّ الوقت كان خريفًا، إذْ كانت الأشجار تلقي بأوراقها وطينها على الطرقات. ثمّة قناة على مقربة من منزلنا. لكنّنا لم نسبح فيها قطّ. فالماء كريه الرائحة، نتن. الناس يرمون فيه مختلف الأشياء. علب معدنيّة فارغة وزجاجات وصناديق ومطّاطيّات ومنشورات تدعو للشيوعيّة. وعثر أحد الأشخاص يومًا ما على بندقيّة على ضفّة الشاطئ.

Twitter: @ketab_n

في ذلك اليوم كنت أتنزّه على امتداد القناة مستغرقًا في التفكير في البندقيّة. من كان صاحبها؟ لصّ من لصوص المصارف، أم قاتل محترف؟ هل عثر عليه رجال الشرطة؟ لا بدَّ أنّني كنت غارقًا في التفكير وإلّا لتنبّهت إليهم وغيَّرت من اتّجاه سيري، أو اختبأت من خلف شجرة إلى أن يتواروا عن الأنظار، ولكنّني بدلاً من ذلك سرت نحوهم. ثلاثة صبيان. أكبر منّي ببضع سنوات.

ـ انظروا إلى مَنْ هنا! الأحمر الصغير خارج يتنزّه.

ـ أين والدتك يا اسكندر؟ أليست معك؟

فهززت رأسي.

فقال الصبي الأوّل.

ـ إنّها تدعوك دائمًا سلطاني وغير ذلك من الهراء الكردي.

ـ إنّه سلطان الأحياء القذرة.

لم يشارك الصبي الواقف في الوسط والذي بدا زعيمًا في التهكّم اللاذع. كان يراقبني، قلقًا عليَّ، ومرتبكًا بسبب سلوك صديقيه، ففهمت خطأً أنّ تلك علامة، فخطوت نحوه خطوة واحدة. إنّه سيحميني.

وسأل الزعيم:

ـ هل صحيح أنّك هربت من عمليّة الختان؟ وأنّك تسلّقت شجرة؟

لا بدَّ أنّني صعقت. كيف عرفوا بذلك؟ من أخبرهم؟

فقال وكأنّه قرأ ما يدور في ذهني:

ـ الأقاويل تنتشر.

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا حدث إذًا؟ هل خُتنت أم لم تُختن؟

قلت وأنا اسمع نبرة صوتي الضعيفة:

ـ خُتنت.

قال الزعيم:

ـ يقول إنّه خُتن، ولكن هل نصدّقه؟

دفعوني على الأرض، وجذبوا سروالي إلى أسفل، فصحت بأعلى صوتي.

ـ ما هذا؟ صغير جدًّا! مثل حبّة باميا. هروبه من الختان لا يثير الدهشة إذًا ـ لأنّ الجرح يكلّفه الشيء الكثير.

فقال الزعيم:

ـ ولكنّه لم يُختن ختانًا صحيحًا، وعلينا أن نكمل المهمّة.

هل كان يمسك بسكّين جيب في يده؟ أم أنّ الأشياء تتراءى لي؟ ما زلت غير متأكّد. كلّ ما أتذكّر هو أنّني تبوّلت على نفسي.

قال الزعيم:

ـ آه، لا. السلطان في مسيس الحاجة إلى الاغتسال الآن.

خلعوا عنّي بنطالي وسروالي الداخلي وجواربي وحذائي، ورموا بها كلّها إلى القناة. وقالوا:

ـ اذهب لجلبها، أو عد إلى البيت هكذا يرى الناس حبّة الباميا. ثم مضوا في سبيلهم، ولكنّني لم أصدّق أنّهم ذهبوا من غير رجعة. فجلست في ذلك المكان، واحتضنت ركبتيَّ، مرتجفًا قليلاً ومتوقّعًا خروجهم من وراء الأشجار ومهاجمتي. لا أعرف كم من الوقت مضى، فقد هبط الظلام، وبدأت السماء تمطر مطرًا خفيفًا،

Twitter: @ketab_n

ولكنّني لم أكترث.

وظهرت أمّي من الظلال رفقة جارتين. لا بدَّ أنّها كانت تبحث عنّي في كلّ مكان. كيف عرفت أنّني قرب القناة، المكان الوحيد الذي منعتني من الذهاب إليه وحيدًا؟ ولم تسألني أيّ سؤال، بل لفّتني بلفاع وأخذتني إلى المنزل وحمّمتني ومشّطت شعري وألبستني منامة نظيفة.

وقالت:

ـ هه! تبدو مثل سلطان من جديد.

وبعد مرور عشرة أيّام باتت لديّ عصابة خاصّة بي. لم تكن عصابة مدهشة، بل كانت تتألّف من خمسة أشخاص لا أكثر، موالين ومخلصين لي إلى أبعد الحدود. لم يكن ثمّة من يرغب في مصادقة الأولاد الغجر. كانوا أشدّاء. يدخّنون. يجمعون كلّ شيء. سدادات القناني. رقائق الألومنيوم. علب بخّاخة.. ولم يكترثوا لشيء.

ضربنا ولدين اثنين ولكنّنا لم نلمس الزعيم. أردت أن أجعله يتعرّق. لا أعرف إن كنت سأضرب أو متى! في ذلك الوقت تشاجرت وأبي أوّل مشاجرة خطيرة. حادثة الكبش.. فعاهدت نفسي على ألّا أكون ضعيفًا مرّة أخرى. وكنت محافظًا على عهدي.

وفي يوم من أيّام الآحاد، رنّ جرس الباب. ففتحت أمّي، لتجد امرأة واقفة تبكي. وقالت إنّ عصابة من الصبيان يرتدون أقنعة هاجموا ابنها قبل يوم واحد، وأنّهم رموه في القناة القذرة. وكاد أن يغرق لولا لوح خشبي أنقذ حياته. لم يكن يعرف السباحة،

Twitter: @ketab_n

وقالت إنّ أولئك الأولاد، أولئك الأشقياء، أرغموا ابنها على أن يشرب بوله. وسألت، ولم تسأل، إن كانت أمّي تعرف أيّ شيء عن ذلك لأنّ ابنها لم يعطها أيّ أسماء.

وانساب إلى سمعي صوت أمّي وهي تدعوها إلى المطبخ قائلة إنّها متأسّفة لما أصاب ولدها، وقدّمت لها الشاي وقطعة من قالب حلوى. لكنّ المرأة لم ترغب في تناول أيّ منهما.

قالت أمّي:

ـ بالأمس كان يوم غسيلي، وساعدني اسكندر في خلع الستائر وإعادتها إلى محلّها ثانية، وهكذا فهو في رفقتي طوال النهار. إن كنتِ تفكّرين في شيء ما، فإنّ ابني لا صلة له بكلّ ما حدث.

ـ هل أنت متأكّدة؟

ـ تمامًا.

بعد انصراف السيّدة، ذهبت أمّي إلى حجرة المعيشة حيث كنت أجلس تحت النافذة أراقب الأحذية وهي تمرّ. توقّعت منها أن تخبرني بشيء ما. ضربة على الرسغ. قرصة على الأذن في الأقلّ، ولكنّها اكتفت بنظرة سدّدتها إليَّ، نظرة طويلة وجامدة. وأظنّني شاهدت أثر الزهو في عينيها. ثم قالت:

ـ ماذا تحبّ أن تأكل وقت العشاء يا سلطاني؟ هل تحبّ أن أعدّ لك شوربة العدس على الطريقة التي تحبّها؟

لم نتحدّث عن الصبيّ الذي هاجمته. لا آنئذٍ ولا بعدئذٍ.

اسكندر طبرق

* * *

Twitter: @ketab_n

المعركة الباسلة

لندن، مارس ١٩٧٨

قبل أن يصل إلى البيت المحتلّ، أدرك أنّ ثمّة خطبًا ما. وبينما كان يقترب من المبنى القديم لاحظ أنّ النوافذ المطلّة من الطبقات الثلاث قد سُدَّت بالورق المقوّى والأقفاص ـ وبعضها عليه رموز فوضويّة[١]. وكانت درجات الحرارة قد انخفضت قبل

---

(١) فوضويّة :Anarchism: هي نظريّة الحرّيّة المطلقة التي تقوم على رفض سلطة الدولة أو أيّة سلطة قهريّة مماثلة: لم تُعرف هذه النظريّة إلّا في القرن التاسع عشر بوصفها مذهبًا في الوقت نفسه الذي ظهرت الاشتراكيّة. وترجع التيّارات الفوضويّة إلى ثلاثة منابع: ١ ـ الفوضويّة المسيحيّة ويمثّلها الأديب الروسي ليوتولستوي. ٢ ـ الفوضويّة الفرديّة ويمثّلها وليم غودوين الإنكليزي وماكس شتيرنر الألماني. ٣ ـ الفوضويّة الشيوعيّة ويمثّلها برودون الفرنسي وكروبتكين وباكونين الروسيّان. ويضع الفوضويّون عمومًا ـ ما عدا شتيرنر وتولستوي ـ حلًا يكاد يكون وهميًّا، بديلاً عن الدولة هو دعوتهم إلى إقامة الاتّحاديّة، أي أنّ تتكوّن بين الأفراد عقود تتوالى وتتكرّر وتقوم على الموافقة الحرّة بين الأفراد. هذا وقد اختفت الدعوة إلى الفوضويّة ومبادئها بعد أن اجتذبت الحركات الاشتراكيّة ـ على اختلافها ـ جماهير عريضة، ولم نعد نجد الآن أثرًا لها إلّا في

Twitter: @ketab_n

يوم واحد إلى ما دون الصفر وباتت قطرات الثلج متدليّة من الميازيب كالدموع. وكان الهواء مثقلاً بصمت، وبسكون غريب.

في ليلة عيد مولد توبيكو، الليلة التي حمل فيها الصبيان يونس إلى منزله، كان يونس قد وصل المنزل متأخّرًا جدًّا، وفي الحال عمدت بمبي إلى وضعه على الأرض بضعة أسابيع بعد أن كان قد جنَّ وساورها قلق شديد عليه كاد أن يجعلها تتّصل بالمستشفيات. وكانت في كلّ صباح تصطحبه إلى المدرسة ثم تعود إليه من بعد الظهر لتعود وإيّاه إلى المنزل. أمّا اليوم، فقد بدأت تعمل في أوقاتٍ دوامها في انتظام في محلّ حلاقة المقصّ البلّوري، وبات يونس حرًّا طليقًا مرّة أخرى. وعلى الرّغم من أنّه تعهّد لأمّه أن يعود إلى المنزل مباشرة بعد انتهاء أوقات الدوام في المدرسة، وعلى الرّغم من أنّه لم يكذب، فإنّه وجد نفسه، على الرّغم من إرادته، يركب درّاجته ويتّجه إلى العنوان الذي كان يعرفه معرفة جيّدة.

وبعد أن ركن درّاجته، وثب وثبات سريعة على امتداد الطريق الضيّق المؤدّي إلى المنزل، محاذرًا ألّا يتزحلق. ولدهشته الكبيرة وجد الباب موصدًا. لقد جاء إلى هذا المكان مرّات ومرّات ولكنّه لم يجد الباب موصدًا، ناهيك عن إحكام غلقه بالرتاج من الداخل. كان محتلّو البيت يكثرون من التباهي بأنّ هذا هو الملجأ الوحيد في لندن الذي ليس بحاجة إلى مفاتيح أو أقفال لأنّه بيت في كلّ الأحوال، وليس سجنًا أو ملكيّة خاصّة كبقيّة الأملاك.

ولمّا لم يكن المبنى مزوّدًا بجرس، فقد طرق يونس الباب،

= كتابات بعض الفنّانين والنقّاد القلائل (المترجم).

Twitter: @ketab_n

طرقه أوّلاً في أدب جمّ، ولكنّه سرعان ما تحوّل إلى طرق يثير الهلع والذعر. وظلّ يدقّ في عنف بضع دقائق من دون توقّف.

وفجأة صاح صوت من الداخل:

ـ اتركنا وشأننا!

فتوقّف يونس عن الطرق مصعوقًا. هل يعقل أن يكون محتلّو البيت قد انقلبوا عليه، لا يريدون رؤيته بعد الآن؟ هل هذا هو السبب الذي دفعهم إلى الحجر على أنفسهم؟ ولكنّه على الرّغم من ذلك واصل الطرق بهدوء وثبات.

فهدر صوت آخر:

ـ اغرب عن وجهنا أيّها الشوفيني[1].

وتدخّل صوت نسائي:

ـ تبًّا! سوف ندخل في معركة!

انتاب الصبيُّ الذعر. فبقدر ما كان يهوى توبيكو، فإنّه لم يكن مستعدًّا لمواجهة بيت يحتشد بالمحتلّين المشاكسين والهائجين.

وقال في صوت متهدّج:

ـ هذا أنا، أنا، يونس! هلّا سمحتم لي بالدخول؟

وساد هدوء قصير الأمد، أعقبه صوت ضحك. وما هي إلّا بضع ثوان حتى فُتح الباب مصدرًا صريرًا مزعجًا، ووقف رجل عند المدخل. كان يشبه المغنّي إيغي بوب، بلا قميص كالمغنّي نفسه،

---

(١) شوفيني chauvinist: صفة واسم يطلقان على من هو مغالٍ في الوطنيّة، ترجع في أصلها إلى نيكولاس شوفين أحد جنود الجمهوريّة والإمبراطوريّة الفرنسيّة، اشتهر بين زملائه الجنود حبّه الأعمى لنابليون بونابرت (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كاشفًا بذلك عن صدره العاري الأملس. وعندما شاهد يونس أشرق وجهه، وهتف من فوق كتفه:

ـ إنذار كاذب أيّها الناس! لم يعد هناك عائق! إنّه الطفل!

وقال يونس:

ـ مرحبًا. كنت راكبًا درّاجتي ومررت من هنا، فرغبت في رؤيتكم ومعرفة أحوالكم.

ـ لسنا بأحسن من ذي قبل. نحن نستعدّ لخوض معركة.

سأل يونس في هدوء:

ـ أيّ معركة؟

قال إيغي بوب في اهتياج:

ـ ضدّ السلطات.

كانت كلمة سلطة واحدة من تلك الكلمات التي يطلقها البالغون والتي سبق ليونس أن تناهت إلى مسامعه من قبل ولكنّه لم يفقه معناها قطّ. وقد سأل توبيكو يومًا ما عن معناها، فأخبرته مدفوعة بدافع الجواب إجابة بارعة:

ـ إنّها الشيء الذي يمتلكه الآباء بكثرة ولا تمتلكه الأمّهات أبدًا، أمّا الأولاد الذين هم على شاكلتك، فلا حقّ لهم فيها إلّا بعد أن يكبروا.

فسأل يونس وقد اتّسعت عيناه:

ـ وهل هو الشارب؟

ـ وهكذا، فعندما تفوّه إيغي بوب بالكلمة نفسها، تولّد لدى الصبيّ انطباع بأنّ محتلّي المنزل يستعدّون لمهاجمة الرجال من

Twitter: @ketab_n

ذوي الشوارب. فوقف في مكانه متسمّرًا مصعوقًا، وعلى وجهه نظرة تنمّ عن عدم تصديقه.

دفع إيغي بوب رأسه خارج الباب من دون أن يتنبّه لمشاغل الصبيّ وقلقه، وألقى نظرة خاطفة يمينًا وشمالاً ليتأكّد من خلوّ الطريق من أيّ نشاط مشبوه. ثم جذبه بعنف إلى داخل المنزل وأوصد الباب من الخلف، وأحكم سدّه بالرتاج الذي كان يتألّف من قضيب خشبي متحرّك مثبّت بسلك ومسامير:

سأل يونس:

ـ ماذا يجري؟

غير أنّ الرجل كان قد استدار على عقبيه وارتقى السلالم.

وعندما وصل يونس إلى الطبقة الثانية من المنزل لم يتمالك أن يصدّق عينيه، فقد كان محتلّو المنزل محتشدين هناك، بعضهم يصنع المنجنيق من مطّاط سميك، وبعضهم الآخر يهيّئ الهراوات والأنابيب التي تطلق منها المقذوفات بالنفخ في الفمّ فضلاً على السهام. وانهمك قسم آخر في إعداد الذخيرة. وبدأ كلّ واحد منهم ذا عزم وهدف، يعمل في حماسة من تحت غطاء من الإثارة. وكان الجوّ معبقًا بدخان السكائر والبخور والتبغ. وتربّع إبريق شاي، أو ما أشبه بذلك، من فوق موقد صغير ينفث بخاره، مصدرًا صفيرًا خفيضًا ومتعبًا. وبدا الإبريق نفسه ليونس وكأنّه يعمل في توتّر شديد.

كان الزعيم يقف في وسط هذه الجَلَبة مصدرًا الأوامر وكأنّه زعيم كشّافة. وكانت أمارات التركيز الشديدة البادية على وجهه الشبيه بوجه ابن عرس هي التي جعلت الصبيّ يرتاب في وجود أيّ

Twitter: @ketab_n

نظام لهذه الفوضى. وكان من بين ما مرَّ بباله من أشياء في تلك اللحظة هو الخروج من ذلك المكان في أسرع وقت. غير أنّ حاجته الماسّة لرؤية توبيكو تغلّبت على قلقه. أين هي؟ بذل قصارى جهده ليعرف مكانها، ولكنّه لم يشاهدها.

اقترب يونس من أحد الصبيان ـ وكان مجنّدًا صغير السنّ مسماري الشعر ودائري النظّارات ممّا زادت من اتّساع عينيه ـ يلقّب بوغارت.

ـ هه، أنت! ماذا تفعل؟

ـ مرحبًا بك يا يونس! أترغب في مساعدتي؟

فهزّ يونس كتفيه، وقال:

ـ حسنًا. ماذا ينبغي لي أن أفعل؟

ـ اسكندر.. هذا السائل في القناني. هذا كلّ ما هناك.

وهكذا أمسك الصبيّ القمع المطّاطي وبدأ يملأ زجاجات الخمر بمادّة التربنتينيّة لصنع قنابل المولوتوف. وبعد برهة وجيزة، قال يونس:

ـ ماذا ستفعلون بها؟ رائحتها غريبة!

فقال بوغارت:

ـ سوف نرمي بها على السلطات.

تصلّب يونس، وارتعش فكّاه، وتساءل عن السبب الذي يدفع بمحتلّي البيت إلى هذا الإصرار على رمي الزجاجات الكريهة على رجال من ذوي الشوارب. ثم ما الذي يمكن له أن يفعله ليجنّب والده هذه المعركة؟

Twitter: @ketab_n

فسأل:

ـ وهل ستهاجمون كلّ رجال السلطة؟

قال بوغارت في حين بدأت حنجرته تعلو وتهبط:

ـ لا، مستحيل! فأعدادهم كثيرة. الأوغاد. إنّهم يتناسلون كالجرذان. اللعنة عليهم!

قال يونس وهو يقف على قدميه:

ـ سأعود.

كان مضطرًّا إلى أن يفكّر في نفسه.

وجد يونس الضجّة نفسها في كلّ غرفة دخلها. الأمر جادّ إذًا! فالمحتلّون يستعدّون لحرب. ثم شاهد توبيكو. كانت تجلس وحيدة على حصيرة، محنيّة الرأس، مغمضة العينين، مستغرقة في التفكير. وجلس يونس إلى جانبها منتهزًا الفرصة لينظر إلى وجهها، شعرها الأسود، وَشْمها وأقراطها. حاول أن يفكّر في وسيلة لإنقاذها من المعركة القادمة وهو الشابّ الذي لا يملك شيئًا.

وسألته توبيكو في صوت خفيض، مغوٍ:

ـ أهذا أنت أيّها الصغير؟

شعر يونس أنّ وجهه احمرَّ.

ـ وكيف عرفتِ؟

ـ رأيتك قادمًا أيّها الأبله.

ثم التفتت جانبًا وغمزت له وقبّلته قبلة عجلى على وجنته، وقالت:

ـ الله! تبدو غايةً في الجدّ! ماذا يجري يا عزيزي؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا أفهم صراحة ما الذي يجري هنا!

فقالت توبيكو وقد التمعت عيناها في هزء:

ـ آه، إنّه المجلس، يريد طردنا من هذا المكان. هل تصدّق هذا؟ أرسلوا إلينا ورقة إنذار تمنحنا أسبوعًا كي نخرج من هنا. حدث هذا قبل تسعة أيّام. لهذا نحن نتوقّع مجيئهم في كلّ لحظة. السفلة!

ـ لكن لماذا؟

ـ لكي يبيعوا المبنى لقطط سمان مثلهم.

وهنا شعر يونس بالارتياح لمّا عرف أنّ القضيّة كلّها لا صلة لها بأصحاب الشوارب. ثم أجهد أذنيه وكأنّه يتوقّع أن يسمع صوت ضرب المنجنيق وسيّارات الشرطة أو الإسعاف تحيط بالمنزل، ولكن لم يكن هناك سوى الريح خارج البيت ـ ريح قارصة، باردة. وسأل الصبيّ وهو يتنفّس تنفّسًا بطيئًا:

ـ إلى أين يذهبون؟

فقالت توبيكو:

ـ لن يذهب أحد إلى أيّ مكان.

ـ ولكنّ المنزل يعود إليهم. صحيح؟

ـ لا، ليس كذلك. بعض البيوت مشاعة لكلّ الناس. ولو سألتني لقلت لك إنّ كلّ البيوت ينبغي أن تكون مشاعة.

ثم اعتدلت توبيكو ومضت تقول في صوت ثابت ثبوت نظراتها:

ـ خطّتهم هي طردنا من المنزل. وخطّتنا هي محاربتهم، لأنّك إن لم تحارب النظام فإنّك النظام نفسه.

Twitter: @ketab_n

قال يونس مقترحًا:

ـ ربّما سوف يغيّرون من رأيهم. الله أكبر.

ـ الله؟ لله كوكب آخر يشبه كواكبنا. ثمّة فتاة أخرى مثلي، وثمّة يونس آخر مثلك. هم يشبهوننا ولكنّهم ليسوا نحن، لأنّ ذلك مستحيل عندما نكون نحن هنا. ما رأيك؟

أصغى الصبيّ في عناية ولكنّ الكلمات غابت عنه مثل رمال تنزلق من بين أصابعه. فهو لم يسمع من قبل شخصًا يطرح أسئلة على الله. كما أنّه، لسبب من الأسباب لم يفهمه، ساوره الحزن، وقال:

ـ أمّي تقول إنّ الله يحبّنا.

فقالت توبيكو مختنقة الصوت، كأنّ الكلمة انحشرت في بلعومها:

ـ حبّ؟ الحبّ شيء متقلّب. آسفة لأخبرك بنبأ مزعج: لقد نسيَنا الله.

ضاقت عينا الصبي، ثم اتّسعتا من جديد. رمق يديه بنظرة وغمغم بكلام غير مفهوم، وكأنّه يردّد دعاءً. ومن بين الكلمات، وبقدر من التأجيل، سمعته توبيكو يقول مثل صدًى بعيد:

ـ لكنّني لن أفعل ذلك. لن أنساك.

* * *

في غضون الساعة المقبلة، رسم القائد الخطّة على سبّورة سوداء مسروقة من مدرسة قريبة. وكان ثقيلاً على نحو غريب، وكأنّه يتعاطى مسكّنات، ولكن ما إن بدأ خطبته المسهبة العنيفة حتى بدأ ينبض حيويّة ونشاطًا. وقال إنّهم سوف يصعدون إلى الدور

Twitter: @ketab_n

العلوي حيث يحتفظون بكمّيّة من الذخيرة تكفي لجيش صغير إذا ما هاجمهم رجال الشرطة. وسوف تقلّب الأسرّة في الدور الأوّل والمناضد في الدور الثاني على جوانبها لتستخدم متاريس. ومن وراء الخطوط، سيخوضون غمار معركة عنيفة تضطرّ معها الصحافة البريطانيّة إلى المجيء لمشاهدتها. وفي حين يرسل المراسلون صور المقاومة من أماكن الحدث، فإنّ الشبّان في أرجاء العالم كلّه سوف يتحدّثون عن وحشيّة مجلس هاكني، وستخبر الحكومة، في محاولة لإنقاذ ماء وجهها، المجلس كي يتراجع عن قراره، وبهذا يربح محتلّو المنزل المعركة.

فقال بوغارت وقد تدلّت سيكارة مشتعلة بين شفتيه وهو واقف على بعد قدم واحدة من قنابل المولوتوف:

ـ هذا أمر بعيد أيّها الرجل! سوف تكون هذه كومونة باريس[1] الخاصّة بنا.

---

(١) كومونة باريس Paris Commune: هي ثورة باريس المشهورة بثورة العامّة التي اندلعت العام ١٨٧١، وتُعدّ أوّل ثورة اشتراكيّة واعية بأهدافها ولكنّها فشلت فشلاً ذريعًا لسوء تنظيمها. فقد كانت فرنسا تتعرّض لهجوم ألماني بقيادة بسمارك ممثّل الطبقات السائدة في أوروبا الرأسماليّة الهادفة إلى سحق أيّة ثورة اجتماعيّة في فرنسا مثلما سحقت الثورة الفرنسيّة العام ١٧٨٩. وكان الناس في باريس قد بلغوا حدّ المجاعة وحتى لحوم القطط والكلاب باتت غالية الثمن، وكانت البطالة متفشّية في كلّ مكان، وطالبت الحكومة الفرنسيّة من التجّار غير القادرين على سداد ديونهم إشهار إفلاسهم أثناء حصار باريس. فاندلعت الثورة على الرّغم من تحذير كارل ماركس لاشتراكيي باريس من القيام بها لأنّ ظروفهم لم تتّضح بعد؛ واستطاعت الكومونة أن تضرب مثلاً في إقرار العدالة والأمن والإخاء والمساواة، وجرت أكثر الانتخابات حرّيّة في ظلّ التماسك الثوري وعاش وزراء الحكومة الثوريّة كالعمّال حتى إنّ زوجة وزير الماليّة كانت تذهب إلى المغسل العامّ لغسل الثياب. لكنّ الثورة أخفقت بسبب التآمر عليها ـ (المترجم).

Twitter: @ketab_n

لكن إيغي بوب قال محذّرًا:

ـ لكن حكومة الكومونة انتهت نهاية دمويّة تمامًا.

كان يونس يعلم أنّ أمّه سوف تصاب بنوبة قلبيّة إذا ما اقتحم رجال الشرطة المبنى في تلك اللحظة واقتيد هو وبقيّة محتلّي البيت إلى السجن. وفكّر أنّه لا بدّ أن يخرج من هذا المكان، وفي أسرع وقت. فإذا كانت هذه حرب، فإنّها ليست حربه. ومهما كانت السلطة، فإنّه لا يريد أن يرمي زجاجات حارقة ولا حجارة عليها. ولكنّه على الرّغم من هذه الأحاسيس التي مرَّت به، إلّا أنّه أخفق في التحرّك. بل ظلّ، مثل هرّة صغيرة في حاجة إلى الدفء، قريبًا من المرأة التي أحبَّ، يعدّ ذخيرة جديدة ويستمع إلى القصص الثوريّة، ويقضم الذرة المشويّة وينشد: ثوروا! ثوروا!

ولحسن حظّ الصبي لم تنشب المعركة التي خشيها في عصر ذلك اليوم، بل حدثت بعد ذلك بثلاثة أيّام عندما كان يونس في المدرسة. فقد كانت الاستعدادات غير مناسبة، وعلى الرّغم من بسالتهم في القتال، فقد اعتُقلوا جميعًا في غضون ساعات قليلة.

وتقرّر إطلاق سراح محتلّي المنزل كلّهم بعد يوم أو يومين بعد تدقيق رجال الشرطة الشامل والتعهّد بحسن السلوك والتصرّف الاجتماعي. في هذه الأثناء، أسرع المجلس إلى إحكام غلق المنزل بألواح خشبيّة، ولم يمض وقت طويل حتى صدر الأمر بإفراغه من كلّ محتوياته.

* * *

Twitter: @ketab_n

محظيَّة بلون الكهرمان

مكان على مقربة من نهر الفرات، نيسان ١٩٧٨

حرّكت جميلة يد الهاون لتطحن الزعفران الأحمر بلون الياقوت. هذا آخر ما تبقّى من هذه المادّة ولم تعرف متى ستتمكّن من الحصول على كمّيّة أخرى. وكانت بعض الموادّ الأخرى قد بدأت تشحّ مثل نبتة السمسق والطرخون ومخلب الشيطان، ولهذا ينبغي لها الذهاب إلى الجبال أكثر من مرّة فضلاً عن زيارة المهرّبين. غير أنّها شعرت في الآونة الأخيرة أنّها ليست ميّالة إلى ترك منزلها إلّا في حالة طارئة أو حالة ولادة، والأمران سيّان.

قضت الصباح كلّه في القبو تشتغل وتفكّر. فهذا هو ملاذها، مأواها: هذه الغرفة تحت الأرض المظلمة والمعتمة التي لا تتجاوز أبعادها ستّة عشر قدمًا طولاً وأربعة عشر قدمًا عرضًا والتي تفتقر إلى النوافذ وإن كانت تحتوي على باب أفقي صغير في أعلى مجموعة من الدرجات. وكان المكان كلّه يحتوي على رفوف خشبيّة تمتدّ من أسفل الجدران وحتى سقوفها. وكان على كلّ رفّ

Twitter: @ketab_n

عدد من القناني والأوعية من مختلف الأحجام والألوان وفيها أعشاب برّيّة ولحاء أشجار وزيوت عطريّة وبذور وتوابل ومياه معدنيّة وجلود ثعابين وقرون حيوانات وحشرات مجفّفة ـ ومئات الموادّ التي كانت تستعملها في إعداد الأدوية والمراهم. وكانت ثمّة أربع فتحات في زوايا مختلفة، ضيّقة جدًّا، تُهَوِّي الداخل الساكن والهادئ. ولكن على الرّغم من ذلك، كان الجوّ معبقًا برائحة مميّزة، هي رائحة ترابيّة لاذعة وإن كانت جميلة قد باتت عاجزة اليوم عن الإحساس بها. ولكن إذا ما هبط شخص ما إلى هذا المكان فسوف يدوخ وتغمره الرائحة. بيد أنّ هذا الشيء بعيد الاحتمال لأنّ ما من أحد سبق له أن وصل إلى هنا، ولن يصل أحد مستقبلاً.

كانت جميلة تقضي يوميًّا وعلى مدى السنوات الخمس عشرة المنصرمة ما لا يقلّ عن ساعتين في القبو تعدّ الخلطات التي قد يطلبها أحد ما، يقرع بابها في لحظة عاجلة. كانت هي الطبيبة المداوية. القابلة العذراء التي تتكلّم بلغة الطيور والزواحف والحشرات. حفيدة النبي سليمان. هكذا كان الناس يسمّونها في الحيّ. وكان ذلك سببًا مكّنها من العيش وحدها في البرّيّة. كان أهل الحيّ يحترمونها ويخشونها ويحتقرونها. ونتيجة لذلك، تركوها وشأنها. هذه المرأة التي لم تكن امرأة. ساحرة تخطو على أطراف أصابعها على حبل مشدود بين عالمين.

عندما تهبط جميلة إلى القبو وتصبح في داخله، تخرج من جسدها وتتحوّل إلى قناة لطاقة مبهمة تخترق الكون، تشفي وتعالج وتتكاثر. في القبو، تولد نفسها بنفسها، يتّسع رحمها ليشمل العالم

Twitter: @ketab_n

الطبيعي الممتدّ من حولها برمّته، كهف ملؤه الدفء والحنان تفقد فيه مسرورة كلّ إحساس بالذات. ولم تكن بقادرة على معرفة الليل من النهار. لم يكن ذلك أمرًا مهمًّا، إذْ كانت تحيا خارج الزمان، في دورة خاصّة بها. كانت أحيانًا تعمل في القبو من الشفق حتى الغسق تهيّئ الوصفات الأزليّة وتجرّب وصفات جديدة. عمل لا يبعث على الضجر. عينان مرهقتان ولكنّهما غير ضجرتين. لكلّ زهرة ولكلّ مادّة غير عضويّة سرّ إلٰهي زرعه الله. الناس غالبًا ما تفوتهم الدلائل. ينظرون إلى شجيرة الدبق ـ فيشاهدون نبتة طفيليّة تنمو على جذع الشجرة ولا يشاهدون المرهم اللازم للدورة الدمويّة الذي تمنحه الثقة. هذا ما كانت تحتاج جميلة إلى تحقيقه. فعندما تثق بك أشكال الحياة، تمنحك سرّها. ليس مباشرة، بل رويدًا رويدًا. ثم تعرف نوع النبتة التي تشفي حقًّا مرضًا معيّنًا. إنّ كلّ ما هو موجود في الكون، مهما كان صغيرًا أو تافهًا، هدفه أن يكون جوابًا على شيء آخر. وحيثما وُجدت مشكلة، وُجد لها الحلّ. وغالبًا ما يكون الحلّ، ويا للدهشة، قريبًا جدًّا. القضيّة هي أن تنظر، وكانت جميلة ناظرة.

لم تكن مهتمّة بالسفر إلى مناطق غير مألوفة أو اللقاء بالغرباء أو اكتشاف قارّات وراء الأفق. لا بدّ أنّ العالم ينطوي على مختلف الأشياء، لكنّ البشر متشابهون في كلّ مكان. ويكفي أن تشاهد المصابيح الغازيّة على التلال الممتدّة إلى أسفل وهي تومض بالنور ليلاً. لقد أراد الله منها أن تخدمه بالكشف عن أسرار الطبيعة، ولهذا السبب آمنت بأنّ مهمّتها تتمثّل في البقاء حيث هي. إنّها تعرف مداواة عديد الأمراض وإن كانت ثمّة أمراض أخرى لا

Twitter: @ketab_n

تعدُّ ولا تحصى ما زالت سرًّا من الأسرار. فمن تحت الثياب الزاهية الألوان، الطويلة الأكمام، والقمصان المزركشة، كانت ترتدي السروال على الدوام، الذي يساعدها في ركوب الخيل عند الضرورة. لا بدَّ لها أن تكون على أهبّة الاستعداد لكلّ طارئ، ليلاً ونهارًا.

ونسج الأهالي القصص والحكايات من حولها. وقالوا إنّ الجنّ هو الذي يعطيها تركيبة الأدوية التي تعالج المرضى بها. واعتقد آخرون أنّها تسلّلت إلى جبل كاف الذي لا يلقى فيه بشر أيّ ترحيب لأنّه موطن الحوريّات والجانّ والأشباح. وكانت جميلة تهزّ رأسها في دهشة عندما تسمع مثل هذه الحكايات التي لا تصدّق. وكان الأهالي الذي يقطنون في منطقة متعطّشة للأبطال والأساطير والمعجزات يتوقّعون منها أن تجسّد كلّ هذه الأشياء الثلاثة، ولكن جميلة كانت تعلم أنّها لا تستطيع أن تفعل إلّا ما يمكنها فعله. وكانت تساوم على ما تقدّمه من خمائر ومراهم اعتمادًا على قدرة الشخص المحتاج إليها، غير أنّها كانت تقدّمها من غير مقابل في أغلب الأحيان. وكانت تشتري بالمبالغ القليلة التي تحصل عليها موادّ إضافيّة.

واهتمّت جميلة كذلك بإعداد السموم وتحضيرها، وإن كانت لا تقدّمها إلّا لرهط قليل جدًّا من الناس. فالسمّ هبة من الله وبركة إلٰهيّة غالبًا ما ينسى الناس تقديرها حقّ قدرها. ويمكنك أن تنظر اليها بوصفها لعنة أو علاجًا شأنها شأن كلّ شيء آخر في الحياة. فالطبيعة خارج حدود الخير والشرّ. فالمادّة التي يمكن لها أن تشفيك، يمكن أن تصيبك بالمرض أيضًا. والمادّة التي يمكن لها

Twitter: @ketab_n

أن تجعلك مريضًا، يمكنها أن تشفيك أيضًا. كانت جميلة مؤمنة بأنّ مهنة صانع السموم لا تختلف عن مهنة أيّ حرفي آخر. وكانت كالصنائعي الماهر مسؤولة عن نوعيّة منتجها وليس عن الوسيلة التي يستخدمه بها الناس. فقد كانت تبيع السمّيّات للقضاء على فئران الحقول والذبابيات والجرذان والصراصير والأفاعي. وإذا كانت توافق على الرأي القائل إنّ منتجاتها يمكن أن تكون مميتة، فإنّها طالما خلصت إلى القول إنّ اللحوم مميتة أيضًا. فمن يلتهم كمِّيّات كبيرة جدًّا من اللحوم يصاب بداء النقرس وهو مرض قاتل إن تركه المصاب به من دون العلاج. ولكن لم يتوقّف أحد عن شراء اللحوم لذلك السبب، كما لم يذهب أحد لاعتقال الجزّارين.

تألّق جبين جميلة من تحت نور المصباح الزيتي عندما وضعت الهاون جانبًا وأخرجت علبة صغيرة مربّعة. عرق اللؤلؤ. في داخل العلبة حجر. حجر لا يقدّر بثمن. ألماس، أصفر بلون العسل وأكبر من حبّة بندق. أمسكتها بين أصابعها وتفحّصتها. ثمّة ناس في هذا الوادي على استعداد لأن يذبح أحدهم الآخر من أجل الحصول على مثل هذه الجوهرة المميّزة. مجانين! فالماس لا يمكن امتلاكه، بل يمكن النظر إليه فحسب. وكلّ مالك جديد ليس سوى محطّة موقّتة في رحلة ألماسة الطويلة. فهمت جميلة هذه القضيّة وآمنت بها. ألماسة في حوزتها الآن، ولكنّها يمكن أن تكون في مكان آخر غدًا. أمّا في هذه الأثناء، فقد استعملتها جميلة لإكمال تدابيرها. فبعض الحجارة تمنح دفئًا، نورًا داخليًّا، وعندما تحتفظ بها داخل جرعة دواء برهة وجيزة من الزمان، فإنّها تتخلّى عن روحها، تهدّئ من حافّاتها وتساعد في مزج الموادّ. لهذا

Twitter: @ketab_n

السبب كانت تحتفظ ببعض المجوهرات، لكنّ الماسة كانت هي الأفضل.

كان سكّان وادي الرافدين يطلقون منذ غابر العصور عبارة «دموع الله» على الألماس، وكانوا يعتقدون أنّ الألماس مصنوع من الغبار المتساقط على النجوم من شظايا تتكسّر من صواعق البرق في الليالي العاصفة. يضاف إلى هذا أنّ جميلة تناهى إلى سمعها من يقول إنّ الألماس هي قطرات متبلرة من العرق تتساقط في ربيع كلّ عام عندما تمارس أمّنا الأرض الحبّ مع السماء الأب. يا له من خيال جامح! إنّ الناس يسمحون لأفكارهم أن تندفع اندفاعًا جنونيًّا عندما يصادفون أشياء لا يستطيعون التحكّم فيها إلّا قليلاً، وكأنّهم باختراعهم هذه الحكايات سوف يتمكّنون من فهم كلّ ما من شأنه أن يربكهم إرباكًا مؤلمًا، ومن ذلك سكنهم القصير الأمد في هذا العالم.

إنّ الحياة البشريّة أقصر من مطر صيف مقارنة بقطعة من الماس. فبعد أن يصل البشر إلى سنّ الثمانين يصبحون شيوخًا ضعفاء، على حين تبقى الماسة في نظر الناس طفلاً رضيعًا. وخمّنت جميلة أنّ زهاء ثلاثمائة أو أربعمائة سنة قد مضت منذ استخراج قطعتها الماسيّة من المنجم وتلميعها. ما زالت شابّة. ويمكن أن تعيش الآف السنين، أو أكثر.

وعندما نعود إلى قضيّة الجشع من أجل اقتناء الماس، فإنّنا لا نجد فرقًا كبيرًا بين الأثرياء والفقراء، فضلاً عن أنّ هذا الجشع لا نهاية له حقًّا. فمن لا أمل له في امتلاك ماسة تجده يتطلّع إلى امتلاكها. ومن يملكها يتوق إلى حيازة ما هو أكثر من قطعة. الغشّ

Twitter: @ketab_n

والطمع والقسوة، عرفتها هذه الماسة منذ زمن مبكر. فتاريخها تاريخ دموي، وخان الجنود والجواسيس أحدهم الآخر من أجل أن يحظوا بماسة واحدة فحسب. وقدّمت الخادمات خدمتهنّ لسيّداتهنّ باحترام أكبر وأحبّت السيّدات أزواجهنّ حبًّا أكبر، وشعر الأزواج أنّهم أكثر رجولة في رفقتها من تحت سقوفهم. وتحوّل ما هو ملتبس إلى حقيقة مؤكّدة، وتطوّر الغزل إلى زيجات، والأصدقاء إلى أعداء، والأعداء إلى كتائب. وكما هو شأن عمود من شعاع الشمس الذي يعكس الثلج الناصع البياض، فإنّ الماسة الكهرمانيّة تزيد من بريق كلّ ما حولها بالأسلوب نفسه الذي تبدو فيه الشمس أكثر سطوعًا عندما تنعكس على الثلج الأبيض. لكنّها تنطوي على ظلمة حالكة في داخلها. فقد كانت جميلة تعلم أنّ ماسة في مثل هذه الروعة يمكن أن تبعد شخصًا ما عن روحه.

كانت الماسة هديّة من بيك، وهو رجل اعتاد أن يجمع مختلف الناس الذين ينحنون أمامه وينشر الذعر ويفرض الاحترام على حدٍّ سواء. وكانت جميلة قد أنقذت حياة ابنه الوحيد. وإذا كان الأطبّاء قد عجزوا عن شفائه، فإنّها بذلت أقصى ما في وسعها، تجهد نفسها في هدوء، معيدةً الطفل من مملكة عزرائيل بوصة فبوصة، وكأنّها تجذب زحافة من وسط الثلوج. وعندما فتح الولد عينيه أوّل مرّة وتكلّم، بكى البيك، بل صاح مثل معظم الرجال الذين يصيحون عاليًا وهم غير معتادين البكاء.

عرض البيك المال على جميلة، ولكنّها رفضت تسلّمه. نقود ذهبيّة. مستوطنة نحل تعطي عسلاً. مزرعة حرير. ولكن جميلة كانت تهزّ رأسها رافضة في كلّ مرّة. وكادت أن تمضي في سبيلها

Twitter: @ketab_n

عندما عرض عليها الماسة التي أسماها محظيّة بلون الكهرمان، فانجذبت إليها لا بسبب قيمتها بل لما تنطوي عليه من ألغاز وأحجيات في باطنها. يمكنها أن تصفها بأنّها حجر أسرار.

وقال البيك:

ـ يقولون إنّها ملعونة. لا يمكن شراؤها ولا يمكن الاستحواذ عليها عنوة. لا يمكن سرقتها، ولا يمكن أن تُمنح إلّا من القلب على أنّها هديّة. هكذا وصلت إليَّ، وهكذا سأعطيكِ إيّاها.

وشعرت جميلة في غمضة عين كأنّها هي والحجارة مرتبطتين ارتباطًا عميقًا وغامضًا يفوق قدرتها على الفهم. ولكنّها رفضت على الرّغم من ذلك. بيد أنّ البيك رجل ذكي، فأدرك أنّ جميلة كانت قد افتتنت بالجوهرة مثلما نفرت منها بعد أن ساورها قلق مفاده أنّها لو أخذتها، فإنّها لن تكون في مأمن بعد اليوم. وكان أحد الأسباب من وراء نجاتها من الأشقياء واللصوص في الوادي يكمن في أنّها لا تملك شيئًا يستحقّ السرقة. فلم يلحّ عليها البيك ولكنّه أرسل في الليلة نفسها الماسة مع رسول موثوق به. ومنذ ذلك اليوم ظلّت جميلة تؤدّي دور المضيف للمحظيّة الكهرمانيّة اللون.

ثمّة أشياء كثيرة غريبة عن الجنس البشري. فالبشر يظنّون أنّ الحشرات مثيرة للاشمئزاز ولكنّهم يشعرون بالسعادة عندما تحطّ دعسوقة على أصابعهم. وهم يمقتون الجرذان ولكنّهم يعشقون السناجب. وإذا كانوا يجدون النسور سببًا للنفور، فإنّهم يعتقدون أنّ العقبان مثيرة للإعجاب. كما أنّهم يمتعضون من البعوض والذباب ولكنّهم يحبّون اليراع. وإذا كان النحاس والحديد مهمّين

Twitter: @ketab_n

طبّيًّا، فإنّ الذهب هو المعدن الذي يعجبون به الإعجاب كلّه. كما أنّهم لا يعيرون أيّة أهمّيّة للحجارة من تحت أقدامهم ولكنّهم يجنّون جنونًا مطلقًا عندما يشاهدون المجوهرات الصقيلة.

بدا لجميلة أنّ البشر يختارون من بين كلّ ما يفعلون بضعة أشياء يفضّلونها ليغدقوا عليها من حبّهم وليفرّقوا من بقيّة الأشياء. ولم يفهموا إلّا قليلاً أنّ الأشياء التي لا تروقهم ضروريّة لدورة الحياة ضرورة الأشياء التي يعتزّون بها اعتزازًا كبيرًا. إنّ كلّ مخلوق من مخلوقات هذا العالم خُلق ليواجه التحدّي وليغيّر وليكمل شيئًا آخر. فبعوضة الماء لا تقلّ أهمّيّة عن ذبابة الليل أو البرونز عن الذهب. هكذا صمّم الله، صانع المجوهرات العظيم، الكون برمّته.

ثابت إلى رشدها وسط كلّ تلك الأفكار عندما سمعت صوت طَرْق حادّ وعالٍ. ثمّة شخص ما يدقّ بابها من فوق. فما كان منها إلّا أن وثبت على قدميها وأعادت الماسة إلى العلبة. كم مضى على الطرق؟ ارتقت الدرج وصدرها يعلو ويهبط. وعندما رفعت الباب الأفقي الذي يؤدّي إلى غرفة المعيشة، تلقّت الضجيج مثلما تتلقّى صفعة.

ـ افتحي الباب! أين أنت أيّتها القابلة العذراء؟

وضعت جميلة يديها على جانبي الباب الأفقي ودفعت بجسدها إلى الطبقة العليا ثم أغلقت الباب وغطّته بالسجّادة، وأخيرًا أمسكت بندقيّتها واتّجهت نحو الباب مستعدّة استعدادًا تامًّا.

ولكنّ الدهشة ألمّت بها عندما شاهدت المهرّب الذي اعتنت بزوجته قبل أيّام. والد الطفل ونصف الطفل. وكادت أن تسأله عن

Twitter: @ketab_n

حال الطفل عندما شاهدت الرجل الواقف وراءه. كان يحمل رفيقه على ظهره. آثار دم. متخثّر وغامق.

قال المهرّب:

ـ أختي جميلة... يجب أن تساعدينا.

وفهمت. كانوا قد عبروا الحدود إلى سوريا حاملين بضاعة تتألّف من الشاي والتبغ والحرير وربّما المخدّرات، لكنّ الأمور لم تسر كما يشتهون، إذْ كان ثمّة كمين تعرّضوا له، وأُصيب أحدهم بطلق ناري. ربّما كان في الإمكان تركه وشأنه في ذلك المكان ولكنّهم لم يتركوه بل حملوه طوال الطريق إلى هنا، وهو ينزف نزفًا شديدًا وكانت روحه توشك أن تغادر جسده. ولم تكن جميلة في حاجة إلى أن تنظر إليه نظرة ثاقبة كي تعرف أنّه يُحتضر.

قالت جميلة:

ـ أعتقد أنّني لا أستطيع تقديم أيّ مساعدة، بل يجب نقله إلى المستشفى.

مصّ المهرّب طرفي شاربه، ولم يبدُ عليه أنّه غاضب أو مستاء، بل كان نافد الصبر. قال:

ـ تعرفين أنّنا لا نستطيع نقله إلى هناك.

وتبيّن بعد قليل أنّهما اتّفقا على شيء ما، إذْ وضعا الرجل الجريح على أريكة ومضيا في سبيلهما، ولكنّ المهرب قال قبل أن يخطو خارج المنزل:

ـ أرجو أن تضرمي نارًا في حديقتك إذا ما توفي، لأنّنا سنراها وسنأتي لدفنه.

Twitter: @ketab_n

كان وجهه طويلاً، شديد النحول، وكان بارز الوجنتين، متهدّل الكتفين، كئيب الملامح، مفرطًا في الطول والنحافة. حاولت جميلة أن تخمّن عمره. ربّما هو في أواخر العشرينيّات من عمره ولكن قد يكون قد تجاوز سنّ الأربعين. ولمّا كان ممتقع الوجه، شاحبًا، قدره يزحف داخل أوردته، فإنّ عمره قد يكون معروفًا أو غير معروف تمامًا.

رفعته قليلاً وبكلّ ما تستطيع من رفق ووضعت وسادة من تحت رأسه، فشعرت به ثقيلاً وخفيفًا في الوقت عينه. صدر عنه صوت أشبه بالحشرجة، صوت مكتوم لا يشبه صوت البشر. كان ثمّة شيء ما في صدره، رصاصة أخرى مستقرّة في بلعومه. وانساب دم من أنفه. كانت جميلة قد رأت صعوبات جمّة قبل الآن وتغلّبت على عدد كبير منها، ولكنّها لم تصادف في حياتها كلّها ما جعلها تتهيّأ لمثل هذا الرعب الذي انتابها الآن.

ربّما يكون قتله رحمة به. فالجواد المكسور الساق يستحقّ أن يموت ميتة كريمة. ويكفي لهذا الرجل كأس من شراب يتكوّن من أعشاب الشوكران السامّة. نبتة قديمة وطيّبة. المثير للدهشة أنّ أعدادًا كبيرة من الناس تظنّها نبتة الشمرة، فتفيض أرواحهم من دون أن يدروا. وكان القرويّون يسمّونها «نفس الشيطان». ولكن كان لجميلة اسم أفضل لها وهو السديم الأرجواني. ليتها تمكّنت من جعل الرجل يبلع كمّيّة مناسبة وعندئذٍ سوف يستسلم لنوم الخزامى ويحلم حلمه الأخير. كادت أن تقتل نفسها مرّتين في حياتها: الأولى بعد أن أعادها المختطفون إلى أبيها وكانت ما تزال عذراء ولكنّها ملطخّة السمعة، والثانية في اليوم الذي علمت أنّ آدم طلب

Twitter: @ketab_n

يد بمبي. ولكن في كلتا الحالتين، كان إصرارها على المضيّ قُدمًا في الحياة والخوف من الجحيم، أو ضرورة أن تشاهد الشمس تبزغ كلّ صباح، هي التي أرغمتها على البقاء حيَّة.

عدَّلت جميلة من كتفيها، موطّنة العزم على ألّا تسمح لنفسها الانشغال في التفكير على الرّغم من قوّة الدافع الذي كان يدفع بها إلى ذلك الاتّجاه. فركّزت في جروح الرجل، ومزّقت ثيابه وجرّدته منها. وكادت أن تصرخ لمَّا شاهدت شدّة نحوله وهزاله، هشاشته وضعفه، وعظامه البارزة إلى الخارج. كان مصابًا بثلاثة جروح بليغة: أحدهما في ساقه والآخر في كتفه، أمّا الثالث فكان جرحًا حرجًا، قريبًا من العمود الفقري. من أصابه بهذا الجرح إنّما كان يطلق عليه النار من الخلف.

استخرجت جميلة رصاصتين ونصف الرصاصة وهي تعمل طوال ما بعد الظهيرة، التي أغمي فيها على المريض مرّتين من شدّة الألم. أمّا الرصاصة الثالثة فكانت تحت ركبته اليمنى ولكنّها كانت متناثرة، ولم تجد سببًا يدفعها إلى أن تغور عميقًا أكثر ممّا ينبغي لأنّ في إمكانه أن يعيش وإيّاها، إنْ كان قادرًا على اجتياز كلّ هذه المحنة.

وأدركت أنّه لن يعود إلى وضعه الطبيعي قبل الإصابة، فالرصاصات، شأنها شأن الحجر الكريم والألماس تنقل أرواحها إلى أجساد أولئك الناس الذين تلامسهم.

بعد مرور زمن طويل على مغيب الشمس من السماء، راحت جميلة في غفوة قصيرة وهي جالسة على كرسي بجانب الرجل، متصلّبة الرقبة، في هذه الليلة، كما في الليلة الماضية، ثمّة نذير

Twitter: @ketab_n

شؤوم يتردّد في صدرها ويقبض أنفاسها.

غير أنّها استيقظت على صوت آهاته، وكان يفتح فمه ويغلقه كأنّه سمكة خارج البحر. فأسرعت إلى غمر منديل في ماء وبلّلت به شفتيه الظامئتين.

ـ ماء، من فضلك!

فقالت جميلة في رقّة:

ـ آسفة. هذا كلّ ما يمكنك الحصول عليه الآن. وسأعطيك مرّة أخرى في وقت لاحق. أعدك.

فما كان منه إلّا أن شتمها بكلمات غير واضحة. كانت الحمّى قد بلغت به مبلغًا كبيرًا، يغيب عن الوعي تارة ويثوب إلى رشده تارة أخرى. وفكّرت إن كان رجلاً محترمًا. وهل لهذا الأمر أيّة أهمّيّة؟ وهل كانت لتمتنع عن محاولة إنقاذ حياته لو لم يكن محترمًا؟ لا بدَّ أنّه متزوّج وله أطفال. ولو مات الآن، فهل سيفتقده أحدٌ ما؟

أزاحت جميلة السجّادة رويدًا رويدًا وفتحت الباب الأفقي، لأنّ لديها عملاً ينبغي لها أن تنجزه في القبو: دواء يتعيّن تحضيره، ولكنّه دواء لها شخصيًّا في هذه المرّة ليساعدها في التغلّب على قلقها. اختلست نظرة إلى المريض الراقد من فوق السرير، واطمأنت إلى أنّه لن يستيقظ إلّا بعد مرور بضع ساعات. فحشرت نفسها داخل فتحة الباب، وما إن وازنت نفسها من فوق السلالم حتى أغلقت الباب بعد أن أمسكت به بأطراف أصابعها. لم يكن في وسعها أن تعيد السجّادة إلى مكانها، ولكنّها اقتنعت بأنّ الباب سيظلّ مغلقًا. وإذا ما استيقظ الرجل فسوف يظنّ أنّها خرجت لقطع

Twitter: @ketab_n

بعض الأخشاب. . وهكذا تركت الباب يأخذ مكانه من فوق الفتحة ولكنّه أصدر صوتًا قويًّا.

في تلك اللحظة، فتح المهرّب عينيه، لكن على الرّغم من أنّ الغشاوة كانت تغطّيهما، إلّا أنّه تمكن من إلقاء نظرة على الكوخ، نظرة تنقّلت ما بين كومة الخشب المرتّبة ترتيبًا أنيقًا والبندقيّة المعلّقة على الجدار حتى استقرّت أخيرًا على الباب الأفقي. غير أنّ نظرة لا سبيل إلى فهمها استقرّت في عينيه قبل أن يغيب عن وعيه ويستسلم لإغفاءة مؤلمة.

* * *

Twitter: @ketab_n

أسماء

لندن، نيسان ١٩٧٨

أغلقت الباب وتنفّست تنفّسًا عميقًا. حالات الهروب التي تنتابني في منتصف الليل باتت مألوفة في الآونة الأخيرة. كنت أوصد الباب من ورائي في الحمّام بعد أن يكون كلّ فرد قد أوى إلى سريره واستسلم للنوم. أشعلت شمعة وألقيت نظرة فاحصة إلى وجهي الذي تتغيّر ملامحه مع كلّ ذبذبة من ذبذبات وهجها. لم أكن مهتمّة في ملاحظة شكلي بعد أن بلغت الخامسة عشرة من عمري، لأنّني كنت أبغي، بدلاً من ذلك، أن أكتشف ما الذي يكمن من تحت السطح وأن أرتبط بتلك النفس الأخرى التي ما زال يتعيّن عليَّ اكتشافها.

لمعظم الفتيات اللواتي أعرفهنّ غرف نوم خاصّة بهنّ، وفي إمكانهنّ غلق أبوابهنّ إنْ كان ذلك يعجبهنّ. أمّا أنا، فالأمر ليس كذلك. فإذا ما أردت أن أغلق باب الغرفة التي يشاركني النوم فيها شقيقي الأصغر، فإنّ أسرتي سوف ينتابها الهلع معتقدة أنّ مكروهًا

Twitter: @ketab_n

قد حدث لي. لهذا أنا أعشق الحمّام ـ المكان الوحيد الذي يمكنني أن أكون فيه في خلوة رفقة أفكاري وجسدي.

نزعت كنزتي الصوفيّة وصدريّتي التي تشبه لون البشرة والتي كنت أكرهها كراهية شديدة. نهداي بارزان، تبدو عليهما أوردة زرقاء رقيقة، كنت أراها مثيرة للنفور. إنّهما عبئان يتعيّن عليَّ حملهما وكأنّني لا أحمل أعباء أخرى. ففي صباح هذا اليوم حاول أحد الصبيان من تلاميذ صفّي أن يلمسهما متظاهرًا أنّه يريد الحصول على كتاب من فوق رفّ ورائي. ولمّا لاحظت نيّته، تمكّنت من تفاديه في اللحظة الأخيرة. وفي تلك اللحظة تمامًا صكّ سمعي صوت مجموعة من الصبيان وهم يضحكون ضحكًا نصف مكبوت. لقد خطّطوا كلّهم لهذا الحدث. وأفاضوا في الحديث عنه. الحديث عن نهديَّ. فشعرت بالغثيان.

كان المطر يهطل خارج المبنى على شارع لافندر غروف. وعندما نظرت إلى النافذة من خلال المرآة سألت نفسي مرّات ومرّات عن شكلي لو كنت صبيًّا. أمسكت قلم الحاجب البنّي بلون البندق وعمدت بادئ ذي بدء إلى زيادة سمك حاجبيَّ وبعدها وصلتُ ما بينهما. ثم بدأت أرسم شاربًا من فوق شفتيَّ، ولم يكن شاربًا خفيفًا أو رفيعًا، بل جعلته كبيرًا، كثًّا، يلتفّ إلى أعلى. لو رآني اسكندر الآن لهزّ رأسه غير مصدّق وقال: لقد جُنَّ جنونك يا أختاه! كنت أحيانًا أشعر وكأنّني شخص لا يجاري الآخرين في ميولهم ومشاربهم، كأنّ ثمّة خطأ في المدوّنات السماويّة التي جعلتني أنتهي إلى هذا الوضع. كنت أبذل قصارى جهدي كي أكون أحد أفراد أسرة طبرق في حين أنّ قدري الحقيقي ينتظرني في مكان آخر.

Twitter: @ketab_n

وكان اسكندر يقول كلّما عرّفني بشخص ما خاصّة إذا كان ذلك الشخص فتًى:

ـ مرحبًا، هذه هي أختي. إنّها لا تهوى إلّا الخاسرين.

لم يتحقّق أيّ فشل، إذْ كان الفتى ينأى عنّي بعيدًا ولكنّني ما كنت لأكترث له. وعلى الرّغم من غرابة ما كان يقوله اسكندر، إلّا أنّه كان على صواب. فقد كنت أجد نفسي على الدوام منجذبة انجذابًا لا يقاوم إلى المضطهدين والمظلومين. وكنت حتى في مشاهدتي لعبة كرة القدم، أرغب رغبة شديدة في أن تكون نتيجة المباراة التعادل كي ينتهي بي الأمر إلى تشجيع الفريق الخاسر. وكانت فكرة صعوبة المشاعر التي تساور اللاعبين في تلك اللحظة والانسحاق تحت وطأة خيبة عشّاقهم يكفيان كي أشجّعهم.

وكانت أمّي تقول:

ـ أنت تشجّعين القواقع، تلك مشكلة.

كانت أمّي تعتقد بوجود نمطين من الناس في العالم: مشجّعو الضفادع ومشجّعو القواقع.

ففي القرية التي عاشت فيها أمّي وهي بنت صغيرة، كان الأطفال يمسكون بالضفادع من جدول ماء قريب. وفي يوم ما أمسكوا بأكبر ضفدع وقعت عليه عينا بشر. فأتى أحد الأولاد بطاس من بيته وقلبه من فوق الحيوان القبيح الذي ظلّ جالسًا من دون حراك من شدّة خوفه. وكان الأولاد يأتون طوال النهار ويدقّون على الطاس الزجاجي، ويقتربون أكثر لإلقاء نظرة أفضل على الضفدع، ينتابهم الحماس والنفور من مشاهدة عينيه الجاحظتين وجلده الحقير. ثم أخرج أحد الأولاد قوقعًا من جيبه

Twitter: @ketab_n

ووضعه من تحت الطاس المقلوب فما كان من الضفدع إلّا أن نسي محنته ورمز في ضحيّته وفي الوقت عينه، كان القوقع يتهادى في سيره مؤملاً التحرّر من سجنه غير واعٍ بالخطر المحدق به. ووثب الضفدع مرّة، ومرّتين وأمسك بالقوقع والتهمه تحت أنظار حشد الأولاد الذين كانوا يصيحون وهم يشاهدون سائلاً رغويًّا دبقًا ينساب من فمه.

وقالت أمّي إنّ الأولاد كلّهم شجّعوا الضفدع في ذلك اليوم وصفّقوا له وهتفوا: «ولكن لو كنتِ في ذلك المكان فإنّني أراهن على أنّكِ ستقفين إلى صفّ القوقع. إنّني أقلق عليك أحيانًا».

لا بأس إنْ كنت في معسكر القوقع ـ شريطة ألّا أضطر إلى مجاراة أولئك الذين تتّصف حياتهم بالسرعة، كما هو حال بعض البنات في صفّي. كانت مدرستي معروفة بالاستقطاب. فمن جهة، ثمّة فتيات مثلي وهنّ المجتهدات اللواتي يتراوحن بين القبيحات والعاديّات في جمالهنّ في أفضل الأحوال وينهمكن في الدراسة من أجل الحصول على أعلى المستويات. ولا يحظين باهتمام كبير باستثناء اهتمام المدرّسات. وهناك صنف الخَبَثْ وهنّ الفتيات اللواتي لا يكترثن لصفوفهنّ وتجدهنّ توّاقات للبدء في حياتهنّ فلا يجدن ضرورة في إضاعة دقيقة أخرى على تعليمهنّ. وأجمل فتيات هذه المجموعة هنَّ اللواتي يطلق عليهنّ اسم باربي.

كنت أراقب صنف باربي من الفتيات وأدرس أساليبهنّ وكأنّني أشرِّح أجناسًا جديدة في درس من دروس علم الأحياء. وكانت تلك الفتيات لا يتجاذبن أطراف الحديث إلّا عن الفتيان، وتشاطر إحداهنّ الأخرى في أدقّ المعلومات عن أيّ فتًى يحبّ أيّ فتاة.

Twitter: @ketab_n

وكنّ يحتفظن بسجلّات مفصّلة عن كلّ من يخرج في صحبة فتاة ويبذلن قصارى جهدهنّ لمعرفة إن كان هذان الاثنان قد مارسا الحبّ أم لا. وإذا عرفن أنّهما مارسا الحبّ، فكم مرّة؟ وإن كان الانتفاخ في بطن فتاة ما يرجع إلى الحمل أم لا، أو إن كانت ستحتفظ الفتاة بالطفل بعد الولادة أم ستطلب من أحد أن يتبنّاه. وكنّ على الدوام يغرمن بأحد الفتيان ثم ينفصلن رومانسيًّا أو جنونيًّا، يعشن كلّ يوم في حالة صعود وهبوط عاطفي يترك الشوق في عيونهنّ والقيل والقال العذب على ألسنتهنّ.

وكانت تزجية الوقت المفضّلة لديهنّ تكمن في التسوّق ككلّ. وكانت أمّهاتهنّ أو أخواتهنّ الأكبر سنًّا منهنّ يصطحبنهنّ إلى مراكز التسوّق لشراء الثياب الداخليّة. وفي حين كان الصنف الأوّل من الفتيات ينصحن بشراء صديريّات رياضيّة، إلّا أنّهنّ كنّ يلجأن إلى اختيار صديريّات مخرّمة ـ مثيرة جنسيًّا وأنيقة. وفي اليوم التالي تجدهنّ في المدرسة وهنّ يظهرن صديرياتهنّ لكلّ واحدة منهنّ في المرافق الصحّيّة ويكثرن من التعجّب والدهشة. فإذا كانت حاجة ما جيّدة فإنّها تتحوّل إلى ممتازة، وإلّا فإنّها تافهة. وينطبق الشيء نفسه على الطعام والثياب والمعلّمات والآباء ويصل الأمر إلى البلدان والشؤون الدوليّة.

وكان صنف باربي من الفتيات يتذمّرن أحيانًا بشأن الدورة الشهريّة أمام صديقاتهنّ الحميمات، وغير الحميمات على حدّ سواء، وأمام أصدقائهنّ من الفتيان وأمام أمّهاتهنّ، بل أمام آبائهنّ كما هو حال بعضهنّ ـ وتلك فكرة تكفي لأن تثير فيَّ الخوف والوجل. وسألت نفسي، وهو سؤال علمي في الأعمّ الأغلب، عن

Twitter: @ketab_n

السبب في اختلاف هذه الأمور من ثقافة إلى أخرى ناهيك عن اختلافها من بيت إلى آخر. فلو كلّمتُ أمّي عن دورتي الشهريّة لاحمرّ وجهها خجلاً، وعندئذٍ سأجدها تلقي عليَّ محاضرة، مفرداتها معتمدة على ما كانت تردّده جدّتي نازي.

هل يمكن للأمور أن تكون مختلفة لو أنّني كنت قد التحقت بمدرسة محلّيّة مع أطفال الجيران؟ لو كانت أسماء زميلاتي في الصفّ هي عائشة أو فرح أو زينب بدلاً من تريسي أو ديبي أو كلير، فهل من شأن انسجامي أن يكون أكبر وأسهل وأفضل؟ ربّما، ولكنّني لا أذهب هذا المذهب. أعلم أنّ الأمر يبعث على الشفقة، بيد أنّ الحقيقة هي أنّني كنت أفضّل أن أنجز واجباتي المدرسيّة أو أن أقرأ في كتاب مفيد على أن أتسكّع مضيّعة الوقت رفقة أندادي. ومع هذا، فقد كنت فخورة بمنجزي ويرجع الفضل في ذلك إلى معلّمتي في المدرسة الابتدائيّة الستّ باول. يا لها من امرأة مسكينة! فقد انتشرت أقاويل تفيد أنّ ابنها الوحيد مُنع من دخول المدرسة وأنّه انتقل من بيت الأسرة إلى منطقة لا تعرف عنه شيئًا. وبسبب محنتها وبلواها، فقد وهبت الستّ باول نفسها لمساعدة الأطفال المعوزين كي يقفوا على أقدامهم. وكنت أنا واحدة منهم.

سررت كثيرًا بشاربي، فبدأت أرسم لحية صغيرة على ذقني. نعم. كانت الستّ باول هي التي جاءت إلى منزلنا وكلّمت والديَّ وأقنعتهما على إرسالي إلى مدرسة أفضل. إلى مدرسة تؤكّد تدريس اللاتينيّة واليونانيّة وليس إلى مدرسة غير رسميّة.

وقالت لهما: بعد سنوات من التجربة يمكنني أن ألاحظ من مسافة بعيدة طفلة مميّزة. واستنادًا إلى خبرتي المهنيّة فإنّ ابنتكما يا

Twitter: @ketab_n

سيّد ويا سيّدة طبرق موهوبة وبارعة.

كما كلّمت الستّ باول مديري المدرسة الجديدة ـ وكلّهم من البيض والنصارى والإنكليز والطبقة المتوسّطة ـ وبصرف النظر عمّا قالته لهم، فإنّها نجحت في مسعاها. وعلى الرّغم من أنّني قوقعة في أعماقي إلّا أنّني وثبت وثبة ضفدع.

كنت أرغب في أن أصبح أديبة وليس أنثى فحسب. وذهب بي الأمر إلى أنّني اخترتُ لي اسم الشهرة الأدبي وهو جون بليك أونو ـ وهو اسم يتألّف من أسماء الشخصيّات الثلاث المفضّلة لديَّ: شاعر وأديب وفنّان تمثيلي وهم جون كيتس ووليم بليك ويوكو أونو.

غالبًا ما فكّرت في السبب الذي جعل أسماء الإناث مختلفة اختلافًا كبيرًا عن أسماء الذكور، وأنّها غريبة الأطوار، كأنّ النساء لسن حقيقيّات بل هنّ من نسج الخيال. أمّا أسماء الرجال فتجسّد القوّة والقدرة والسلطة مثل مظفر وتعني المنتصر، وفاروق ومعناه الشخص الذي يميّز الصدق من الكذب، وحسام الدين بمعنى سيف الدين. لكن أسماء النساء تعكس من جهة أخرى رقّة مثل رقة الزهريّة الفخاريّة. فالأسماء من مثل نيلوفار ويعني زهرة اللوتس، أو غولسرين ويعني زهور منتشرة، أو بينانز ويعني ألف تملّق، تجعل النساء زينة هذا العالم، تشذيب خفيف للشعر من جانبي الرأس ولكنّه ليس ضروريًّا جدًّا.

جَيْ. بي. أونو. اسم يُذكر أمام باعة الكتب بنبرة تنمّ عن حسن تقدير واحترام. صحيح أنّه ينطوي على قدرٍ من الغموض ولكنّه يوحي بصفات ذكوريّة وأنثويّة على حدٍّ سواء. اسم ليس في

Twitter: @ketab_n

حاجة إلى صديريّات للنهدين.

* * *

بعد أن فرغت من رسم اللحية الصغيرة، نظرت نظرة متفحّصة إلى وجهي. لا فائدة. ليس هناك من سينظر إليَّ طويلاً حتى لو تنكّرت بمظهر الرجال. آه، يا ليتني كنت أملك رشاقة أبي وعينيْ أمّي ـ الخضراوين، الواسعتين المتميّزتين بنظرة خاصّة بهما. ولكنّني على العكس من ذلك، أملك كلّ الملامح غير المتجانسة مجتمعة معًا، بما فيها رقبة أمّي القصيرة وعينا أبي الاعتياديّتان. فكان أنفي بصلي الشكل، منتفخًا وشعري بلغ به التجعّد حدًّا يرفض معه أن ينسدل إلى أسفل. أمّا جبيني فعريض أكثر ممّا ينبغي. ثم إنّ ثمّة شامة على ذقني، بنّيّة الشكل وقبيحة وبارزة. وقد طلبت من أمّي مرّات ومرّات أن تأخذني إلى طبيب لإزالتها، غير أنّ الشامة كانت واحدة من الأشياء التي لا تكترث لها أمّي أيّ اكتراث. كانت امرأة جميلة ـ هذا ما أكّده كلّ شخص. وكان أخواي وسيمين، لهذا من غير الإنصاف أن تذهب الجينات الخاصّة بالجمال في إجازة بين الولدين وتنساني.

كان ليونس وجهٌ ملائكيٌّ على الرّغم من أنّ ألق الطفولة بدأ يغادره. أمّا اسكندر، فكان وسيمًا بدوره ولكن وسامته كانت من نمط مغاير. وسامته جذّابة تنطوي على توقّد ووضاعة ـ الرائع القذر على حدّ تعبير الفتيات من صنف باربي. كنت أدرك أنّ عددًا من زميلاتي في الصفّ يروقهنّ أخي الجذّاب، وأنّهنّ صادقنني وناصرنني لأنّني أخته. وكان اسكندر يأتي أحيانًا ليقلّني من المدرسة إلى البيت، فيسدّد نظراته الخاطفة التي يتميّز بها الشبّان

Twitter: @ketab_n

الأشدّاء، يمينًا ويسارًا فتؤتي ثمارها لدهشتي الكبرى.

وهمست الفتيات:

ـ لن أرفض هذا الشابّ.

ـ إنّه يشبه مايكل كورليون في شريط «العرّاب» السينمائي. وكلّ ما هو في حاجة إليه بندقيّة.

وتذمّرتُ متسائلة:

ـ متى أجريتنّ آخر فحص على عيونكنّ؟

كنت لا أجد أيّ وجه شبه بين اسكندر وآل باشينو، ولكن حتى لو سمعن السخرية في صوتي، فإنّهنّ لم يكترثن لي. فقد كنّ يرين في أخي صفات الذكر التي لا سبيل إلى مقاومتها.

ومنذ انتقال أبي، تغيّر اسكندر تغيّرًا كبيرًا ـ فأصبح مغترًّا بنفسه متباهيًا، نكد المزاج، صعب الإرضاء، بَرحًا، يضيّع وقته رفقة أصدقائه وصديقته الفقيرة. وكان يتدرّب على الملاكمة ليل نهار، كأنّ العالم يحتشد بأعداء غير مرئيين. إن كان هذا هو ذعر المراهقة وقلقها كما يُقال، فلا أظنّني راغبة في أن أكبر.

كنت أنا وأمّي قريبتين إحدانا من الأخرى، ولكن كلّ شيء تغيّر في اللحظة التي بدأ فيها نهداي بالظهور ومررت بأوّل دورة شهريّة. وكان الشيء الوحيد الذي أبدت اهتمامًا به الآن هو عذريّتي. فكانت تكثر من مواعظها عن الأشياء التي لا ينبغي لي أبدًا أن أفعلها حتى في أشدّ أحلامي جموحًا. وأخبرتني أكثر من مرّة عمّا هو ممكن وما هو مسموح به. كانت قنوات اتّصالها الجبّارة مخصّصة للقوانين والممنوعات. وحذّرتني أمّي من الصبيان

Twitter: @ketab_n

قائلة إنّهم لا يسعون إلّا لشيء واحد، شيء واحد لا أكثر. في هذه السنّ، يكون معظم الصبيان أنانيين ووقحين، بعضهم لا يتخلّص من هاتين الصفتين أبدًا. ولكنّها على الرّغم من ذلك، لم تفرض مثل هذه القوانين على شقيقي. فيونس ما زال صغير السنّ، في حين كانت تعامل اسكندر معاملة مختلفة تمامًا. كانت صريحة: اسكندر ليس بحاجة إلى أن يكون حذرًا. يمكنه أن يتصرّف على هواه. بأيّة وسيلة كانت.

الشيء الذي لم تفهمه أمّي هو أنّني لم أكن مهتمّة بالصبيان أيّ اهتمام، فقد كنت أجدهم يبعثون على السأم والضجر، ضحلين، يعملون عمل الهورمونات. ولو لم تتكلّم في هذا الموضوع ليل نهار لما وجدت نفسي أُعيد النظر في موضوع الجنس. فقد كانت القواقع خنثويّة على الرّغم من كلّ شيء، تملك أعضاء تناسليّة ذكوريّة وأنثويّة. لم لا يمكن للبشر أن يكونوا كذلك؟ لو أنّ الله خلقنا على صورة القواقع لما كانت هناك قلوب محطّمة كثيرة ولما كان هناك ألم كثير في هذا العالم!

* * *

Twitter: @ketab_n

قلب من زجاج

منطقة على مقربة من نهر الفرات، نيسان ١٩٧٨

كان المريض يتّقد حرارة من فوق السرير، فعاينت جميلة درجة حرارته بوضعها شفتيها على جبينه، وهو أسلوب دأبت عليه مع الأطفال الرضَّع. ثم وضعت يدها الرقيقة على رسغه لمعرفة نبضه، فوجدته ضعيفًا وسريعًا. كانت دقّات القلب أشبه بطبول تنساب إلى المسامع من مكان بعيد وكأنّها أصوات حرب. كان الجسد البشري لغزًا، يحبّ القتال. وكان الجسد مقاتلاً وأكثر مقاومة من الروح على الرّغم من أنّ معظم الناس لا يعرفون ذلك. ولكن للجسد نقاط ضعفه شأنه شأن كلّ المحاربين العظام. يخاف المجهول، ويحتاج إلى أن يفهم العدو كي يتمكّن من مقاومته وضربه وردعه وتدميره. وإذا لم يعرف من هو الذي يقاتله، فإنّه لن يتمكّن من تحقيق النصر. وهنا يأتي دور جميلة. فمنذ بدء التاريخ، كان المعالجون من أمثالها يساعدون المرضى على استعادة قوّتهم كي يتمكّنوا من معرفة مرضهم. ولم تكن تعالجهم قدر ما كانت

Twitter: @ketab_n

تساعدهم كي يعالجوا أنفسهم.

وعندما بلّلت جميلة منشفة في محلول الخلّ ووضعتها على جبين المهرّب، لم تتمالك نفسها من التفكير، بأقلّ ما يمكن من التردّد، في نمط الرجل الذي تعالجه. فمن ناحية أولى، لا يساورها أيّ شكّ في أنَّ كلّ إنسان يستحقّ أن يعيش، ولكن هل يستحقّ كلّ إنسان أن يُبعث من الموت؟ تلك محنة طالما فكّرت فيها ولكنّها لم تتوصّل إلى أيّ نتيجة محدّدة. هل يولد البشر طاهرين، عفيفين، ثم ينشأون نشأة تفسدهم من بعد ذلك؟ أم أنّهم يحملون بذور الرذيلة منذ شهور حملهم؟ وقد ذكر القرآن أنّنا كلّنا خُلقنا من نطفة أمشاج، فكم زُرع من حياتنا الراهنة في تلك النطفة؟ هذا ما أرادت جميلة أن تعرفه. فاللؤلؤة، صافية ونقيّة، ولكنّها تنمو من ذرة تراب تغلغلت في محارة مصادفةً، هذا إن كان الافتراض صحيحًا. ويمكن حتى للبذرة السيّئة أن تتحوّل إلى شيء رائع. ولكن على الرّغم من هذا، ثمّة أوقات لا تنتج الذرة السيّئة إلّا شبيهاتها. بعض الأطفال الذين ساعدت على ولادتهم في هذا العالم سينقلبون إلى نصّابين وكذّابين ولصوص ومغتصبين وقتلة أيضًا. لو كانت تملك طريقة تتوقّع بها كيف سينشأ كلّ طفل، فهل ستلجأ إلى عدم المساعدة في ولادة قسم منهم؟ هل يمكنها أن تترك جنينًا في رحم أمّه، مدفونًا في راحة، كي تحول بينه وبين جلب المصائب والبلوى إلى العالم؟

في كلّ مرّة كانت جميلة تمسك مولودًا جديدًا بين ذراعيها، فإنّها تجد متعة في لمس أصابع قدميه الصغيرة وفمه الشبيه ببرعم وردة، وأنفه الشبيه بالزرّ، وكانت تشعر بالثقة من أنّ الخير وحده

Twitter: @ketab_n

هو الذي يأتي عن مخلوق بمثل هذا الكمال. ولكنّها شعرت أيضًا بين حين وآخر أنّ بعض الأطفال ليسوا متشابهين. منذ البداية. وقد تفطن الأمّهات إلى هذا الأمر لو لم تحجب ستارة الحبّ أحاسيسهنّ. أمّا هي، فمختلفة وفي وسعها رؤية الأشياء. لكن كلّ ما في الأمر هو أنّها لا تعرف ماذا تفعل بها بعد ذلك.

ثمّة قابلات قتلن الأطفال الذين أتين بهم إلى هذا العالم، وإن كان هذا صعب التصديق. وتلك هي قصّة النبي إبراهيم ـ القصّة التي سمعتها جميلة وبمبي من والدهما.

في يوم مشمس اصطحب بيرزو بناته الثماني لزيارة بركة ماء مقدّسة في أورفه. كانت نازي توشك أن ترزق بطفل من جديد، على الرّغم من تقدّمها في السنّ، فذهبت الأسرة إلى هناك لتدعو من أجل أن ترزق بولد. كانت السحب تشقّ طريقها على امتداد السماء مترامية الأطراف. الناس في كلّ مكان. همسات أصوات ناعمة تشبه حفيف ورق الشجر. واستبدّت الدهشة بالبنات وهنّ يشاهدن كلّ شيء، فتجمّعن، خجولات ولكنّهنّ متحمّسات أيضًا. أطعمن الأسماك. وفي طريق العودة أخبرهنّ والدهنّ عن الأسطورة الكامنة من وراء المكان. كان بيرزو رجلاً مختلفًا في ذلك النهار، رقيق العينين، رائع الابتسامة. كلّ ذلك قبل أن يُمنى كلّ شيء بإخفاق كبير.

كان الملك نمرود رجلاً لا حدود لطموحاته ولا لقسوته.. وفي يوم من الأيّام، أخبره كبير المنجّمين أنّ حكمه سيبلغ منتهاه عند ولادة صبي اسمه إبراهيم. ولمّا كان نمرود غير مستعدّ للتخلّي عن العرش، فقد أمر كلّ القابلات في إمبراطوريّته أن يقتلن كلّ

Twitter: @ketab_n

مولود صبيّ، من دون استثناء، ثريًّا كان أم فقيرًا. وهكذا انطلقت القابلات لتنفيذ الأمر. ففي بداية الأمر ساعدن الأمّهات على الولادة، فإذا كان المولود ذكرًا، قتلنه خنقًا، لكن والدة إبراهيم تمكّنت من الهروب والنجاة من هذا العمل الوحشي، وولدت من غير مساعدة من أحد في كهف من كهوف الجبال ـ مظلم ورطب ولكنّه آمن.

ولمّا بلغ إبراهيم أشدّه، قاوم أعمال النمرود الوحشيّة. فغضب الملك غضبًا شديدًا، وطلب من الناس، صغارًا وكبارًا أن يجمعوا الحطب وإضرام نار هائلة تستمرّ مشتعلة أيّامًا بلا انقطاع، ثم أمر برمي إبراهيم في النار، ولكنّ النبي إبراهيم خرج من النار بعد برهة وجيزة، من دون أن يلحق به أذًى باستثناء خصلة من شعره تحوّل لونها إلى أبيض. وفي لحظة واحدة، حوَّل الله النار إلى ماء والجمر الأحمر إلى أسماك. وهكذا ولدت بركة الماء المقدّسة في أورفه.

وعلى الرّغم من كلّ شيء، لم تمتعض جميلة من حياتها. فبعد أن تزوّج آدم وبمبي، أقنعت والدها أن تظلّ عازبة وأن تساعد القابلات في المنطقة. فوافق على طلبها معتقدًا أنّ رغبتها ليست سوى رغبة موقّتة، ولكنّها استمرّت على تلك الحال، ولم تندم على شيء حتى اليوم سوى أنّها لم تتمكّن من أن تصبح طبيبة. لو كانت الظروف غير هذه الظروف، لكان ذلك هدفها: أن تشتغل في مستشفى واسع ونظيف مرتدية صدريّة بيضاء وبطاقة بها تقول: الدكتورة بس جميلة.

* * *

مالت جميلة إلى أمام أكثر وقطّعت بصلتين إلى شرائح سميكة

Twitter: @ketab_n

ووضعت حلقاتها من تحت قدمي المريض وغطّتها بوشاح من كتّان. وفي حين أخذت قطع البصل تسحب الحمّى من الرأس باتّجاه الأجزاء السفلي من الجسد، ظلّت جميلة تغيّر المنشفة المبلّلة من فوق حاجبيه كلّ بضع دقائق، وقامت بما كانت تقوم به على الدوام عندما لا يكون لديها أيّ عمل تؤدّيه: الصلاة. وبحلول منتصف الليل، انخفضت درجة حرارة المهرّب، فشعرت جميلة بالاطمئنان واستسلمت للنوم وهي جالسة على الكرسي، وراودها حلم مزعج..

رأت نفسها في مدينة تحترق، وكانت وحيدة وحاملاً. وكانت مضطرة إلى العثور على مكان لتلد فيه ولكن أينما ولّت وجهها رأت الفوضى. فالمباني تنهار والناس يركضون متدافعين يمينًا وشمالاً، والكلاب تنبح في هلع وجزع. وفي غمار تلك الاضطرابات شاهدت جميلة سريرًا هائلاً بأعمدة سميكة ذات نقوش بارزة، ووسائد حريريّة. فما كان منها إلّا أن استلقت وولدت ابنة. وعندما سأل شخص ما عن اسم البنت، قالت:

ـ سوف أسمّيها بمبي تيمّنًا باسم توأمي التي قضت نحبها.

واستيقظت جميلة، ضربات قلبها متسارعة، وعاينت نبض المريض، فكان مقاربًا للنبض الطبيعي. لقد اجتاز المحنة. وفي الخارج، كان الصبح قد انبلج. فركت جميلة أطرافها المتيبّسة واحتست كأس ماء بارد، وحاولت ألّا تفكّر في الحلم، وأشعلت الموقد على مهل وبدأت تعدّ وجبة الفطور. فسخّنت قطعة من الزبدة ووضعت فوقها ثلاث بيضات، مضيفة إليها كمّيّة قليلة من الملح وشيئًا من نبتة إكليل الجبل. لم يكن الطهو من الأمور التي

Twitter: @ketab_n

تشغل بالها كثيرًا، فكانت تكتفي بأطباق بسيطة، ولمّا لم يكن لديها من تهتمّ به وترعاه، فإنّها لم تشعر بضرورة تهذيب مهاراتها في الطهو.

ـ يا للرائحة الطيّبة! ماذا تعدّين؟

جفلت جميلة واستدارت، فرأت المهرّب جالسًا من فوق السرير، أشعث الشعر، ذهبي اللحية قصيرها. وقالت:

ـ بيض لا أكثر.

وهنا قبع كما يقبع الخنزير استحسانًا أو استهجانًا، وقال:

ـ ومن أنت بحقّ السماء؟

ـ أنا جميلة، القابلة.

فبانت عليه أمارات التأنيب.

ـ ولماذا أنا هنا؟

ـ لقد أُصبت بطلق ناري. ونجاتك وبقاؤك على قيد الحياة أعجوبة. لقد مضى على وجودك في هذا المكان أسبوع. تفضّل. اشرب قليلاً من الشاي.

رشف رشفة ثم بصقها.

ـ ما هذا؟ لطعمه مذاق بول الحصان.

فقالت محاولة ألّا تبدو وقد أُهينت:

ـ يستحسن بك أن تشربه، كما يستحسن ألّا تبصق داخل بيتي.

قال هامسًا في صوت أجشّ:

Twitter: @ketab_n

ـ آسف. أعتقد أنّني يجب أن أشكرك على إنقاذك حياتي.

ـ بل عليك أن تشكر الله، فهو الذي ينقذ الحياة.

عبس لتلك الفكرة، ولزم الصمت برهة وجيزة.

ـ هه! قابلة. ألديك سيكارة؟

قالت جميلة:

ـ لا ينبغي لك أن تدخّن.

ـ أرجوكِ، نفس واحد!

اختلجت في نفس جميلة مشاعر متباينة ولكنّها أخرجت في نهاية المطاف كيس تبغ وبعض ورق السكائر، وبدأت تلفّ سيكارة. راقب يديها، الخشنتين والحمراوين والمشقّقتين والمتقرّحتين من كثرة الغسيل بالماء البارد، وراحتي يديها المتصلّبتين من قطع الأخشاب.

قال:

ـ أنت امرأة غريبة.

ـ هكذا يقولون.

ـ كيف يمكنك العيش وحيدة في هذا المكان. أنت في حاجة إلى رجل لحمايتك.

ـ هل لامرأتك رجل يحميها الآن؟ أراهن أنّها وحيدة مثلي. بعض النساء يتزوّجن ولكنّهنّ يبقين مستوحدات. والبعض الآخر منهنّ مستوحدات مثلي!

ابتسم المهرّب ابتسامة عريضة، وكشفت عيناه عن قدر من المرح:

Twitter: @ketab_n

ـ يمكنني أن أتزوّجك، ولن تمانع زوجتي، وستكون سعيدة بحضور رفيقة.

أشعلت جميلة سيكارة، وأخذت نفسًا ونفثت الدخان، ثم ناولته إيّاها كارهةً، ومتجاهلة يده التي لامست أطراف أصابع يدها في خفّة.

ـ شكرًا لكرمك. ولكنّني سعيدة هكذا.

رمقها بنظرة متفحّصة من دون أن يبدي أيّة ملاحظة. ثم تكلّم من جديد، والدخان ينساب من منخريه.

ـ كنّا أربعة عند اجتياز الحدود. هل أخبروك بما حدث للرجل الآخر؟

هزَّت جميلة رأسها غير متأكّدة إن كانت تريد أن تسمع هذا الكلام.

ـ لقد وطأت قدماه لغمًا أرضيًّا. صدّقيني، هذا هو الأسوأ. أنا لست خائفًا من الإصابة أو السجن، ولكنّني أخاف الألغام. على أيّة حال، لن يحدث هذا لي، وسوف أدفن من دون إصابة. بكلّ أعضائي. لا أعضاء مفقودة.

سألته من دون أن تعرف كيف تردّ:

ـ ألديك أطفال؟

ـ ثلاثة صبيان، والرابع في الطريق. وسيكون صبيًّا أيضًا، إن شاء الله.

ـ ألديك أيّة بنات؟

ـ نعم، أربع.

Twitter: @ketab_n

ثم مال إلى أمام، يسعل، ملتوي الوجه.

ـ لا بدّ لي من الذهاب. إنّهم بحاجة إليَّ.

ـ حسنًا، إنّهم بحاجة إليك قويًّا، مفعمًا بالنشاط والحيويّة، وليس ضعيفًا وجريحًا. ينبغي لك أن تحظى بقسط من الراحة أوّلاً، وبعدئذٍ في وسعك الذهاب.

ـ تناهى إلى مسامعي حديث الناس عنك، يقولون إنّ لديك زوجًا من الجانّ يزورك في الليالي الظلماء التي يُفتقد فيها البدر، وهو الذي يجهّزك بالأدوية السرِّيّة. صحيح؟

أخرجت جميلة صينيّة نحاسيّة دائريّة من الخزانة ووضعت عليها رغيف خبز وشايًا والمقلاة التي تئزّ بالبيض. وحملتها إليه في رفق، وابتسمت مضطرة وقالت:

ـ زوج من الجانّ! أعتقد أنّني امرأة اعتياديّة، وحياتي مثيرة للسأم أكثر ممّا تتخيّل.

غير أنّ جميلة سرعان ما ندمت على تفوّهها بهذه العبارة، إذْ الأفضل أن يظنّ الرجل أنّها مخلوقة غريبة، امرأة لا تشبه غيرها من النساء. ولا ينبغي لها أن تُظهر له، ولا لأيّ شخص آخر، عيوبها وهشاشتها وإنسانيّتها، إذْ لو عرفوا أنّ لديك قلبًا من زجاج لكسروه.

* * *

Twitter: @ketab_n

صبي من شمع

لندن، مايس ١٩٧٨

في اليوم الذي اعتُقل فيه محتلّو البيت، اقتيدت توبيكو أيضًا إلى الحبس، ولكنّها على العكس من الآخرين توارت عن الأنظار بعد إطلاق سراحها بوقت قصير. لم يعرف أحد إلى أين ذهبت. فما كان من يونس الذي استبدّ به القلق إلّا أن طرق باب بيت جيران المنزل المحتلّ، ففتح له رجل عجوز الباب قليلاً ورنا إليه من وراء سلسلة الأمان.

ـ آسف لإزعاجك. إنّني أبحث عن صديقتي، الفتاة ذات الشعر الأسود والوشم، والتي كانت تقطن في المنزل المجاور.

ـ أتعني أين يعيش المجانين أجمعين؟

ردَّ يونس متحيّرًا:

ـ آه!

فقال العجوز:

Twitter: @ketab_n

ـ لا أعرف أيّ فتاة ذات شعر أسود ووشم. ليتهم ذهبوا من غير رجعة. إلى حيث القت!

ثم صفق الباب في قوّة.

فقرّر يونس أن يفتّش في البلدة بمفرده، فركب درّاجته الهوائيّة وطاف الشوارع، شارعًا في إثر شارع، مسرعًا نحو كلّ امرأة حتى وإن كانت تشبه توبيكو شبهًا بعيدًا. كما فتّش في الأسواق ومحلّات التسوّق وغسيل الثياب وأماكن بيع المشروبات الروحيّة للاستهلاك في البيوت، ولكنّه بقي عاجزًا عن العثور عليها.

وهكذا إلى أن حلَّ يوم في بواكير مايس وكان ينعطف في سيره من حول ناصية شارع كنغز لاند، على بعد خطوات قليلة من سينما ريو، وكان فكره في كلّ مكان وفي اللامكان لأنّه كان يأمل في العثور على توبيكو، عندما لمحت عيناه الناعستان شابًّا وشابّة واقفين أمام منصّة لبيع الزهور، مولين ظهرهما له، ومنشغلين في اختيار أصّ من الزهور. لم يعرف ما الذي جذبه إلى الشابّين، ولكن شيئًا غامضًا جعله لا يقدر على إشاحة نظره عنهما.

مدّ الرجل يده ولمس معصمها، مداعبًا إيّاه في خفّة ومحبّة. كان جسدها يميل نحوه وكأنّها توشك أن تضع رأسها على كتفه في أيّة لحظة. وعلى حين بغتة، شعر يونس بانزعاج في أعماقه، وضغط في أذنيه: معرفة بشعر المرأة الكستنائي، والثوب الأخضر، بأكمامه الطويلة وأزراره الذهبيّة، وقوامها الجميل وذراعها الرشيقة... وخفق قلب الولد، واحمرّ وجهه وزمَّ شفتيه.

جذب الرجل المرأة إليه وهمس في أذنها، لمس عنقها بشفتيه، لمسًا سريعًا وقصيرًا، ربّما مصادفة بريئة وغير مقصودة،

Twitter: @ketab_n

وخجولة، فما كان منها إلّا أن التفتت قليلاً وابتسمت، كاشفة بذلك عن غمّازة في وجنتها اليمنى.

أمّاه.

استدار الولد بدرّاجته ومضى مسرعًا، وفكّر وهو تحت تأثير الصدمة والذعر اللذين استبدّا به، أو ربّما فكّر جانب واحد من عقله أنّه لم يشاهد أمّه على ذلك النحو من قبل. كانت المرأة التي رآها قبل قليل هي أمّه، ولكنّها لم تكن تشبهها. كانت تحيط بها هالة من السعادة، وكانت مشرقة، كالزهور التي كانت تبتاعها.

عاد يونس في ذلك المساء مثل صبيّ من شمع، ممتقع الوجه، لا روح فيه ولا حيويّة. فضايقه اسكندر وأسماء إلى حدٍّ بعيد قائلين إنّه يشبه أحد التماثيل في متحف مدام توسو. وانتاب القلق بمبي خشية أن يكون قد أُصيب بأنفلونزا في معدته، فحاولت أن تسقيه شايًا بالنعنع، ولكن يونس رفض مزاحهم وتجاهله، وأصرَّ على أن يأوي إلى النوم مبكرًا.

في تلك الليلة، بال في فراشه.

* * *

Twitter: @ketab_n

هارون المهرَّب

منطقة على مقربة من نهر الفرات، مايس ١٩٧٨

خرجت جميلة في أواخر عصر ذلك اليوم لجمع الحطب. وفي طريق عودتها، جلست من فوق صخرة، واستغرقت في التفكير. كانت قد ثبّتت رسالة في حزامها، فأخرجتها وحدجتها بنظرة من عينيها النهمتين وكأنّها نسيت ما هي. لكنّ الرسالة كانت حقيقيّة بخلاف الوحوش التي كانت تراودها في أحلامها، حقيقيّة كالجبال المحيطة بها، ومثلها، مثقلة بالاحتمالات. وبدأت تقرأها:

أختي العزيزة جميلة:

لا بدَّ أنّني أرسلت لك مئات الرسائل طوال هذه السنين. لقد مررت بأوقات طيّبة وأوقات عصيبة، وهذه أصعب رسالة أكتبها إليك. لقد التقيت شخصًا ما يا أختاه. بالله عليك لا تقطّبي جبينك، ولا تصدري حكمًا عليَّ، بل امنحيني فرصة لأشرح لك وإنْ كنت غير متأكّدة من أنّني أفهم ما يحدث. أنا لا أستطع أن

Twitter: @ketab_n

أبوح بسرّي إلّا لك. لا أحد يعرف. إنّني غبيّة، بليدة الذهن، خائفة، ولكنّني مفعمة بالفرح والأمل أيضًا. كيف؟

كنت مقتنعة طوال هذه المدّة أنّ فؤادي جافّ، ذابل، مثل قطعة من الجلد متروكة تحت أشعّة الشمس منذ زمن طويل، عاجزة عن حبّ أيّ شخص سواك أنت وأولادي. أمّا أن أحبّ رجلاً، فهذا ما لا أعتقده. وعندما التقيته، شعرت وكأنّني أعرفه منذ زمن. لم أستطع وصف هذا الشعور، وحاولت أن أبعده عن أفكاري. ولكنّني فشلت.

هو طاهٍ، مثلك يعرف لغة الاعشاب والتوابل. الشبّان يتظاهرون هنا في شوارع لندن. كلّ شخص ثائر لسبب من الأسباب، أمّا هو فليس بثائر. يقول إنّ الصبورين من الناس هم وحدهم الذين يمكنهم الطهو. رجل ينتمي إلى أكثر من بلد وله أكثر من اسم، بلا وطن. لعلّه يحمل مسقط رأسه على ظهره مثل سلحفاة معمّرة.

أعرف أنّك أصبت بالهلع. أعرف ماذا ستقولين لي: هذا عار. شبح ماما سيطاردني إلى ما لا نهاية. وشبح بابا أيضًا. «أفضّل أن أشاهد جثّة بنت من بناتي في نهر دجلة على أن تلحق العار بي». هذا ما قاله بعد هروب هديّة. أتتذكّرين ذلك؟

أخبريني. كيف يمكنك أن تمنعي شخصًا من القراءة إذا كنت تلقّنينه الحروف الأبجديّة؟ وكيف يمكن لمن ذاقت الحبّ أن لا تظمأ له؟ إنّك إذا ما رأيت نفسك من خلال عيني حبيبك، فإنّك لن تكوني بعد ذلك الفتاة نفسها. كنت عمياء طوال هذه المدّة، ولكن بما أنّ عينيَّ مفتوحتان الآن فإنّني أهاب النور. ولكنّني لا أحبّ أن

Twitter: @ketab_n

أعيش عيشة مزدوجة. لا، لقد انتهى ذلك.

لا تغفري لي يا عزيزتي إن كنت لا تجدين المغفرة في فؤادك ولكن أرجو منك أن تحبّيني. الآن وكلّ يوم. وسأحبّك بدوري. دائمًا وأبدًا.

توأمك الهائمة بك

بمبي

واستنتجت جميلة أنّ أختها قد أُصيبت بالجفاف مؤكّدًا. ثمّة شيء يبعث على الوهن بسبب الحبّ. قوّة غامضة تجرّدك من أحاسيسك وقوّتك. قد لا يكون آدم مهتمًّا، ولكن من شأن كلّ فرد أن يسرع للقذف في سمعة بمبي ـ الأصدقاء والجيران والأقارب هنا وهناك. وحتى لو تمكّنتْ من الحصول على طلاق سهل فهل سيوافق هذا الطاهي على الزواج بها من فوره كي يضع حدًّا للأقاويل ـ هذا الرجل الذي يحمل وطنًا متنقّلاً، ولا يملك إحساسًا بالماضي؟ إنّه رجل بلا هويّة، نصراني على الأرجح، فزاد في الطين بلّة. كلّما أنعمت جميلة في التفكير في الموضوع، أدركت إدراكًا أكبر استحالته. ينبغي لها أن تُخرج شقيقتها من لندن، لتكون في مأمن، بعيدة عن الخطر. يتعيّن عليها أن تحمي بمبي من القيل والقال، ومن القدح في سمعتها، وإذا اقتضت الضرورة، من نفسها.

تسارعت الأفكار في ذهنها حتى وصلت كوخها ودخلته حاملة على ظهرها حزمة من الحطب، ووضعت حملها بالقرب من المدفأة واستعادت أنفاسها. ولاحظت من طرف عينها أنّ المهرّب قد غادر مكانه من فوق الأريكة بعد بضعة أسابيع أمضاها تحت عنايتها

Twitter: @ketab_n

ورعايتها، وبات قادرًا في نهاية المطاف من الوقوف على قدميه. التفتت نحوه نصف التفاتة مبتسمة. وهنا لاحظت البندقيّة في يده.

قال مصوّبًا البندقيّة في اتّجاهها:

ـ إنّك تثيرين دهشتي بأسرارك. أتساءل عمَّا تخبّئين.

ـ كيف يمكنني أن أخبّئ شيئًا؟ إنّني قابلة، ولا أحصل على أجر لقاء عملي.

بدا مقتنعًا بكلامها أوّل وهلة، ولكنّه قال بعد هنيهة:

ـ حسنًا سوف نرى. خذيني إلى القبو أوّلاً.

تلعثمت جميلة في الكلام وهي تردّد في نفسها: كيف اكتشف القبو؟ ثم قالت:

ـ ماذا؟ لا يوجد شيء فيه. لا شيء سوى حليٍّ رخيصة وقديمة.

فقال لها:

ـ الحليُّ القديمة جميلة.

كانت أوردة وجهه منتفخة، وعيناه متّقدتين، وأضاف:

ـ هيَّا. دلّيني على الطريق.

لكن جسدها الذي لم يألف تلقّي الأوامر من أيّ شخص تصلّب وأبدى مقاومة.

ـ تحرّكي وإلّا فجّرت رأسك وأطعمتك للكلاب.

ثم همس:

ـ وعندئذٍ سأهبطُ إلى القبو في كلّ الأحوال.

Twitter: @ketab_n

أزاحت جميلة السجّادة جانبًا وفتحت الباب الأفقي وتراجعت خطوة إلى الوراء كي يتمكّن من رؤية أسفل القبو.

قال:

ـ لا. سوف نهبط معًا. أنت أوّلاً، لكن انتظري...

رمى لها بحبل وجعلها تربط يديها من الأمام ربطًا يجعلها تتمكّن من استخدامهما إذا دعت الضرورة وإنْ كان بشيء من الإحكام كي لا تستطيع حلّ العقدة في سهولة.

ـ لا يمكنني الهبوط إلى أسفل على هذا النحو.

ـ آه، أنت امرأة ذكيّة. ستجدين حلًّا.

شقّت جميلة طريقها هابطة أسفل السلالم درجة درجة وهي توازن ثقل جسدها بصعوبة بالغة، وهبط من ورائها. وكان في وسعها أن تشعر أنّه يتألّم، فما زالت جروحه لم تتماثل للشفاء بعد، ولكن طمعه كان أقوى من ألمه.

وقال وهو ينحني إلى أمام وكأنّه يوشك أن يتقيّأ:

ـ ما هذه الرائحة؟

شعرت جميلة بالرائحة لأوّل مرّة منذ سنين، رائحة توابل نفّاذة، منتشرة في المكان.

وهتف متعجّبًا:

ـ حسنًا، حسنًا. ماذا فعلتِ هنا؟

ثم نظر من حوله وأمسك بزجاجة تحتوي على بذور خردل وهزّها في ريبة، وأضاف:

ـ كنت أعرف. أنتِ ساحرة. والآن، أخبريني عن الكنوز التي تخبّئينها.

Twitter: @ketab_n

ـ لا شيء. أعشاب وأدوية كما ترى. إنّني أحضّر الأدوية، وقد جعلك أحد هذه الأدوية تتماثل للشفاء. هل تتذكّر ذلك؟

قال:

ـ ظننتك قلت إنّ الله وحده هو الشافي. أتدرين؟ كنت على حقّ. لا أحد سوى الله. هو الذي أنقذني. الرجال الذين لم يمرّوا بنصف ما مررت به باتوا اليوم في عداد الموتى. هم في قبورهم، وأنا حيّ أرزق. إنّني أنجو على الدوام.

وَكَزها بنهاية البندقيّة، ففقدت توازنها موشكة على السقوط. وقال وهو يخطو خطوة مقتربًا منها وسدّد نظراته إلى وركيها ونهديها:

ـ إنّني في شوق لمعرفة نكهتك. إذًا أنت لم تتعرّفي إلى رجل. مسكينة. ربّما ينبغي لي أن أجبرك على الركوب وإيّاي أيّتها القابلة العذراء.

بدأ يفتّش الطاولة، موليًا ظهره إيّاها إلى حدٍّ ما. فأفرغ محتويات الزجاجات، واشتمّ الأوعية الزجاجيّة، وفرَّغ الحاويات وحطّم بعض الأغراض من غير اكتراث، فدار عقل جميلة وتشوّش ذهنها، إذْ كانت المحظيّة الكهرمانيّة فوق الرفّ، في علبة عرق اللؤلؤ. وقالت في صوت متوتّر بسبب الجهد الذي كانت تبذله لإخفاء قلقها:

ـ لنصعد إلى الطابق العلوي.

ـ وماذا في الطابق العلوي؟

ـ سأطهو لك الطعام وأغسل قدميك.

Twitter: @ketab_n

كان وقع الكلمات يشبه وقع السكّين، إذْ توقّف المهرّب، وعيناه تفتّشان.

ـ أتظنّينني غبيًّا؟

قالت مذعورة:

ـ لا، على وجه التوكيد، فأنت رجل ذكي.

ـ لماذا تتملّقين إليَّ؟ لم هذا التحوّل؟ ينبغي لك أن تضربيني.

ثم أضاف بعد هنيهة:

ـ إلى أين تنظرين؟

أدركت جميلة غلطتها. ففي غمرة ارتباكها، كرّرت النظر إلى الرفوف من ورائه، فلاحقت عيناه عينيها، ولم يستغرق وقتًا طويلاً حتى عثر على العلبة.

ـ آه، أيّتها الساحرة القذرة! انظري إلى هذا الجمال! لا بدّ أنّها تساوي ثروة. من أين سرقتها؟

ردّت جميلة منهكة:

ـ كانت هديّة.

فسأل وهو يضع الماسة في جيبه:

ـ آه، نعم؟ أتتوقّعين أن أصدّقك؟ هيّا. استديري. سنصعد الآن. أنت في المقدّمة. وبلا حيل.

ما إن تحرّكت جميلة لتتّجه نحو الدرج حتى ضربها بأخمص البندقيّة، فمالت وترنّحت واصطدم جبينها بدرجة من درجات السلّم المعدنيّة، وغابت عن وعيها، وبات العالم بلون الدم.

ثابت إلى رشدها بعد مرور ساعات، رأسها يدور ومعدتها

Twitter: @ketab_n

تتقلّب، والألم في صدغيها موجعًا أشدّ الوجع، فلم تتجرّأ على فتح عينيها. لبثت على الأرض بضع دقائق تئنّ وتتألّم مثل هرّة عمياء، ثم نهضت شيئًا فشيئًا، في بطء شديد، منتظرة كي تعتاد عيناها الظلمة.

عثرت على شفرة، فقطعت الحبل من حول معصميها. كانت الفوضى تضرب أطنابها في أرجاء القبو، وكأنّ جيشًا هاجمه وسلبه من محتوياته. وشاهدت علبة عرق اللؤلؤ على الطاولة. لم تسنح لها الفرصة لتقصّ على المهرّب أسطورة الماسة. كانت الماسة ملعونة، فلا يمكن إلّا تقديمها أو تسلّمها على أنّها هديّة. لذلك لا يمكن مصادرتها، ولا يمكن أخذها عنوة، كما لا يمكن بيعها.

صعدت الدرج تجفل مع كلّ درجة ترتقيها. ولمّا وصلت الطابق الأعلى، شاهدت الباب الرئيس مفتوحًا، الوادي صامتًا وهادئًا، يخلو من العواصف. وبدأ كلّ شيء يثير ذعرها وهلعها على حين بغتة. فالأرض التي رعتها وحمتها طوال هذه السنين بدت لها محتشدة بالعقارب والأفاعي والنباتات السامّة والمتطفّلين الأشرار... مصائد نُصبت لها. فبدأت تبكي، وتصغي لنفسها وهي تولول وكأنّها تسترق السمع إلى غريب، تجهش بالبكاء في قوّة وعنف على النحو الذي يجهش به شخص ما نسي كيف يبكي وتذكّر فجأة الآن كيف يبكي. ومضى بقيّة النهار في بطء شديد، يثير الألم والعذاب. لم تتجرّأ على الخروج من البيت. ولم تؤدّ صلاتها. ولم تأكل طعامها، بل جلست على الأريكة ترشف الماء من كوب وضعتها فوق حجرها، لا تحسّ بأيّ شيء من حولها.

ثم صكّت أسماعها بعض الأصوات. رجال. جياد. كلاب.

Twitter: @ketab_n

مسحت عينيها براحتي كفّيها، فكانت لمسة أصابعها الخشنة مؤلمة على بشرة وجهها. وفكّرت أنّه لا بدَّ قد عاد رفقة أصدقائه.

ماذا يريد أكثر من ذلك؟ جسدها؟ حياتها؟ لم تستطع العثور على بندقيّتها. لقد أخذها منها أيضًا. وأمسكت بخنجر ولكن يديها ترتعشان ارتعاشًا قويًّا جعلها تدرك أنّها لن تمتلك القوّة الكامنة لاستخدامه، ولهذا أعادته إلى مكانه، واتّجهت نحو الباب موطّنة العزم على مواجهة قدرها.

قدم أربعة رجال على جيادهم وقت الغسق، ولكن واحدًا منهم لا أكثر هو الذي وثب من فوق جواده واقترب منها، حذاؤه الثقيل الطويل الرقبة يسحق ما تحته وكأنّه يسير وسط طبقة سميكة من الوحل. وسرعان ما استدلّت جميلة على زعيم المهرّبين، الرجل الذي أنجبت زوجته طفلاً ونصف الطفل. وهو الرجل نفسه الذي ترك في منزلها المهرّب الجريح وتسبّب لها في كلّ هذا الشقاء وهذه التعاسة.

ـ أختي جميلة . . . أيمكنني الدخول؟

تنحّت جميلة جانبًا من دون أن تتفوّه بكلمة واحدة وفسحت له الطريق كي يدخل.

شاهد الكدمة على جبينها وعينيها المتورّمتين.

وقال:

ـ لن أمكث طويلاً، فقد تسبّبنا في ألم كبير لك. لقد حضرت لأعتذر منك عمّا حدث. كان رجلاً لا يستحقّ منكِ أيّ شفقة.

أدركتْ أنّ الواجب يقتضي منها أن تقول شيئًا ما، لكنّ

Twitter: @ketab_n

الكلمات لم تصل شفتيها.

وقال:

ـ لقد أحضرت لك بعض الأشياء. هديّتي لك.

أخرج من جيب سرواله كيسين من الحرير يفتحان ويغلقان بخيط يجذب إلى الجانب، أحدهما أحمر وثانيهما أسود. ثم مدَّ يديه إلى يديها وأمسك بهما برهة وجيزة وهو يحدّق إلى عينيها. ثم وضع الكيس الأحمر في راحة كفّها اليسرى، والكيس الأسود في راحة كفّها اليمنى.

ولمّا وجدت نفسها أخيرًا قادرة على الكلام، سألت:

ـ أين هو الآن؟

ـ لن يسبّب لك أيّ متاعب بعد الآن. صدّقيني.

ـ ما اسمه؟ لا أعرف حتى اسمه.

فقال قبل أن يعود أدراجه إلى الوراء نحو جواده:

ـ كان اسمه هارون. هذا ما كتبناه على شاهد قبره!

استغرقت جميلة بعض الوقت كي تدرك العبارة، وعندما أدركتها شهقت. ثم فتحت الكيس الأحمر، مشدوهة مذعورة، فوجدت داخله المحظيّة الكهرمانيّة اللون تخلب الألباب. ثم فتحت الكيس الثاني، لتجد فيه أذنين مروّعتين، داميتين. عندئذٍ أدركت جميلة أنّ الكيسين صُنعا من مادّة واحدة، أحدهما تحوّل لونه إلى الأسود بسبب الدماء. أخيرًا، وعلى الرّغم من أنّ هارون سار في حقل ألغام، إلّا أنّه دُفن وبعض أعضائه مفقودة.

اندفعت جميلة من وراء الزعيم مدفوعة بدافع ما، ومرَّت بها

Twitter: @ketab_n

لحظة من الزمان خشيت فيها أن يكون قد اختفى وتحوّل إلى شبح آخر من الأشباح التي تتخيّلها في حياتها. ولكنّها لاحظت الجياد الأربعة تهبط الطريق كثير الأخاديد، وقالت في صوت مختنق:

ـ انتظرني.

فما كان منه إلّا أن جذب المهماز، فحذا رجاله حذوه.

ولمّا وصلت إليهم، تردّدت، لا تعرف كيف تعبّر عمّا يدور في رأسها. ثم دفعت خصلة من الشعر تحت وشاحها وتوسّلت:

ـ أرجوك. إنّني في حاجة إلى مساعدتك.

ـ أخبريني.

ـ إنّني أريد الذهاب إلى أختي في إنكلترا. إنّها في ورطة، وهي في حاجة إليَّ.

تبادل الرجال النظرات، ولكنّها مضت في الكلام:

ـ لا أملك جواز سفر ولا مالاً. لا شيء. لا بدّ لي من السفر بحسب طريقتك، بصورة غير شرعيّة.

ثم فتحت يدها، واستأنفت قائلة:

ـ ولكنّني أملك المحظيّة الكهرمانيّة، وفي إمكاني أن أهبها لمن أشاء، وقد اخترتك أنت. وستكون رجلاً ثريًّا ولن تجلب عليك النحس. ثق بي.

ـ أتريدين منحي الماسة لقاء ترتيب رحلة إلى الخارج؟

ـ نعم.

عقد زعيم المهرّبين حاجبيه وجذب طرفي شاربه، مستغرقًا في التفكير، وقال:

Twitter: @ketab_n

ـ ليس هذا سهلاً، ولا يشبه عبور الحدود إلى سوريا.

ـ تناهى إلى سمعي أنّ ثمّة رجالاً ينظّمون مثل هذه الرحلات، لكنّني لا أستطيع العثور عليهم. أمّا أنت فتستطيع ذلك. هل تتذكّر الابن الأصغر لأحمد؟ ألم يسافر بتلك الطريقة؟ إلى أيّ بلد رحل؟ إلى سويسرا؟ لقد ساعدوه على الاختباء في شاحنة. صحيح؟ لقد أفلح في سفره.

ما إن تفوّهت جميلة حتى بدأت الكلمات تتدفّق مثل نهر، وكانت تتكلّم من صميم فؤادها، بكلّ حماسة وإلحاح، يدفعها في ذلك دافع ضروري لم تدركه، ولعلّها لا تستطيع السيطرة عليه.

راقبها الزعيم من دون حراك، ولكن جميلة سرعان ما شاهدت في عينيه الغائرتين مختلف المشاعر: قلق وتفهّم وضياع وإعجاب غامض. وقال:

ـ سأبذل قصارى جهدي. وإذا شاء الله أن يحقّق ذلك، فإنّه سوف يتحقّق.

داخت جميلة وارتعشت وسَرَت البرودة في أوصالها وهي ترفع يديها وتفتح راحتيهما. فسقط آخر ما تبقّى من شعاع الشمس الآذنة بالمغيب على الماسة، وقالت:

ـ خذها، وليباركك الله.

أشاح الزعيم بوجهه جانبًا وكأنّه يكلّم الريح الآن، وقال غلطة:

ـ احتفظي بها، فأنت جديرة بها يا جميلة.

ثم أومأ برأسه إيماءة صغيرة ورفس جانبيْ جواده من دون أن

Twitter: @ketab_n

ينبس بكلمة أخرى، فلحق به رجاله. راقبتهم جميلة وهم يبتعدون، يحيط بها الغبار الذي انبعث من حوافر الخيل وكأنّه ذكرى تطاردها.

* * *

سجن شروزبيري ١٩٩١

عندما أرجع من الحبس الانفرادي أجد شخصًا آخر في سرير تريبي. بهذه السرعة. أعتقد أنّني كنت أتوقّع إلى حدٍّ ما أنّ بعض الوقت سيمضي قبل مثل هذا العمل، ولكن سجن شروزبيري مملوء حتى الاكتظاظ. وفي كلّ يوم، ثمّة نزلاء جدد. يذكّرني نظام السجن بالمصنع الذي كان يشتغل فيه أبي. المحكومون يأتون إلى السجن وكأنّهم قطع بسكويت من فوق حزام ناقل. السجّانون يتولّون مهمّة تنظيمهم وحفظهم وقفل الأبواب من ورائهم، جماعات جماعات. المكان يحتشد بهم تمامًا، حتى لم يعد ثمّة مكان للحداد على أيّ فرد.

يبدو رفيقي في الزنزانة لا بأس به من أوّل وهلة، لا يوحي بأيّ ضرر. لا أسأله عن سبب وجوده في هذا المكان، ولا يتطوّع هو شخصيًّا للحديث عن ذلك. أنت لا تثير مثل هذه القضايا. رجل نحيل البنية، صغيرها، عالي الجبين، أخرق الفكّ، تعوزه الرشاقة، وجهه واضح المعالم. ينعكس الضوء المنبعث من الأعلى على شعر رأسه، وللوهلة الأولى، تجذبني رقّة مشاعره.

يقول وهو ينحني انحناءة خفيفة:

ـ اسمي زيشان.

Twitter: @ketab_n

ثم يتوقّف عن الكلام، وكأنّه ينتظرني كي أعرّفه إلى نفسي، لكنّني أشبك ذراعيَّ على صدري وأعبس في وجهه، صامتاً.

ثم يقول:

ـ زيشان سعيد بالتعرّف إليك.

يا له من كلام مضحك. إنكليزيّته ركيكة. أظنّه في سنّ الأربعين، من الشرق الأقصى، أسمر البشرة، متوسّط الطول. يحاول أن يتكلّم قليلاً، لكنّني لا أشجّعه. يستحسن رسم خطّ يفصل بيننا منذ الآن. لو كان غيره في محلّه لتخلّى من فوره عن الكلام معي. سوف يساوره القلق بشأن صحّة ما سمعه عنّي من أمور، وبشأن استطاعته النوم نومًا آمنًا في هذه الليلة، وفي كلّ ليلة على مدى الأشهر القليلة القادمة. لكن يبدو أنّ زيشان مرتاح. وبعد أن لبثت صامتاً طويلاً، حسمت أمري على أن أفصح له عن شيء يفكّر فيه.

أقول له:

ـ توفي الرجل الذي كان ينام فوق ذلك السرير.

يقول زيشان:

ـ آه، أسمع ذلك وأسمع أيضًا أنّكما صديقان وفيّان. لا بدَّ أنّ وفاته صعبت عليك. آسف جدًّا، جدًّا. تقبّل اعتذاري.

ـ أتعني تعازيك؟

ـ صحيح.

أعود بخفّي حنين. الشفقة تفاجئني باستمرار. لا أعرف ماذا أفعل بها. فأقول له:

Twitter: @ketab_n

ـ أنا لا يهمّني من أنت، ولا ما هو اسمك. وسأخبرك بالقواعد السارية في هذا المكان، وكلّما تعلّمتها على نحو أسرع، كان ذلك أفضل لك. القاعدة الأولى: لا تقتحم أبدًا المكان المخصّص لي. القاعدة الثانية: لا تطأ على أصابع قدمي. القاعدة الثالثة: لا تزعجني. واضح؟

تطرف عيناه مرتبكًا. فيشيح بنظره عنّي، وينظر بعينيه الصغيرتين المائلتين إلى الجدار، ومن الجدار إليَّ ثانيةً. ويقول:

ـ واضح لزيشان.

وسرعان ما نسمع الأصوات. وقت فتح الزنزانات صباحًا. وتفتح أبواب الزنازين على مصارعها. نلتزم الصمت، منتظرين التعداد والتدافع والعدّ وسريعًا.

يظهر الضابط ماك لوخلين للعيان. ثمّة ضماد يلفّ أذنه اليسرى. نتبادل أنا وهو النظرات الثاقبة. لم يغفر لي التهامي رسالة تريبي، ولم أغفر له زيادة توتّره أعصابي. لم يغفر لي عضَّ أذنه، ولم أغفر له إرساله إيّاي إلى الحبس الانفرادي. أنا وهو متعادلان وفي المربّع الأوّل من جديد، ولكنّنا أكثر حدّة.

يقول الضابط ماك لوخلين:

ـ إنّني أراقبك. غلطة واحدة أخرى وسوف ألحق بك هزيمة ساحقة.

أقضم جوانب لساني ولا أنطق بكلمة. أتنفّس تنفّسًا عميقًا كي أحافظ على توازني. يقف قريبًا جدًّا منّي فأرى الشعيرات في منخريه. هذه المسافة جيّدة. يمكنني أن أسدّد ضربة لأنفه برأسي. زاوية مثاليّة. لكن، يا للأسف، تركت الفرصة تفوتني.

Twitter: @ketab_n

عندما أصبحنا منفردين، يحدّق زيشان إليَّ، ملؤه حبّ الاستطلاع.

ـ لِمَ هو غاضب منك؟

ـ لأنّه فأر يتظاهر أنّه رجل.

يضحك زيشان كأنّه يسمع أفضل نكتة.

ـ الرجل ـ الفأر. تعبير يعجبني.

ثم يستغرق في التفكير.

ـ ثمّة أيضًا الرجل ـ السمكة والرجل ـ الطائر والرجل الأفعى والرجل الفيل. لا يوجد سوى عدد قليل من الرجال ـ البشر في هذا العالم.

ليست لديَّ فكرة عمَّا يقول. ثمّة مسحة غريبة تحيط بهذا الرجل لكنّني لا أعرف ما هي. ليس سهلاً ثنيه عن مراميه، كما أنّ ابتسامته تؤرقني. أوشك أن أخبره أن يبعدها عن وجهه عندما يقول:

ـ ليس سهلاً الشجار دائمًا.

أقول مفكّرًا في السؤال:

ـ ماذا؟ أتسألني إن كان الشجار صعبًا طوال الوقت؟

ـ نعم، نعم. أسألك. شجار، شجار، ألا تتعب منه؟

أحملق في وجهه ذاهلاً، لكن يبدو أنّه لن يتوقّف، ويبدو صريحًا، محبًّا للاستطلاع. وأسأله:

ـ من أين أنت؟

ـ آه.

Twitter: @ketab_n

ولكنّه يمسك عن الكلام، وكأنّني طرحت عليه أحجية لا سبيل إلى حلّها، ثم يمضي قائلاً:

ـ أوّلاً، أنا وُلدت في بروناي.

ـ وأين تقع بحقّ الجحيم؟

يبدو أنّني ألحقت به إهانة، وهو ما لاح على وجهه. يقول:

ـ بروناي دار السلام. جزيرة بورنيو. نحن مستعمرة بريطانيّة. ثم نالت بروناي استقلالها.

ـ حسنًا، يبدو أنّ موظّفي الملكة لم يؤدّوا واجبهم أداءً حسنًا في تعليمكم اللغة الإنكليزيّة. هه؟

ولكن زيشان يقول متجاهلاً ملاحظتي.

ـ إنّني أتعلّم أشياء جديدة في كلّ يوم. زيشان تلميذ شاطر. أسخر منه. ما زلت لم أحسم أمري إن كان يثيرني أو أنّه معتوه.

وأسأله:

ـ قلت لي: أوّلاً إنّك وُلدت في بروناي. وما معنى هذا؟

يشرق وجهه مبتسمًا، كاشفًا عن أسنانه ـ الصغيرة والضيّقة والمرقّطة والشبيهة بالرزّ الجافّ.

ويكرّر زيشان:

ـ أوّلاً، وُلدت في بروناي. ثانيًا، وُلدت في العالم كلّه. لهذا، فأنا أنتمي إلى كلّ الأماكن. العالم هو بيتي.

وفجأة ينهار.

ـ آه، تبًّا لك. لا تقل لي إنّك واحدٌ من أولئك الصليبيين. هل أنت إنسان مزعج؟

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا؟

ـ سؤال: هل أنت عضو في جمعيّة أو ما أشبه ذلك؟

لا يفهم، ويبدو هلوعًا لحظة من الزمان.

ـ لأنّني أخبرك أنّني لا أريد أن يعظني أيّ شخص عن الطريق القويم. لقد سئمت وتعبت من كلّ ذلك الهراء. يستحسن بك أن تخرج من علبة الصابون.

فيردّد من دون أن يفهم:

ـ علبة صابون؟

ـ أعني هل أنت متطرّف؟

ـ متطرّف؟

ويشرق وجه زيشان، سعيدًا لأنّه فهم أخيرًا. لكن ملامح الجدّ بدت على محيّاه.

ـ المتطرّف يقول إنّ الناس مخطئون أجمعين. أنا على حقّ. يقول زيشان إنّ الناس على صواب كلّهم، وأنا مخطئ. فكيف يمكن أن أكون متطرّفًا.

ـ لا بأس.

يمكنني أن أوافق على ذلك، ولكن فكرة جديدة استبدّت بي:

ـ إذا قلت إنّك من كلّ مكان، فما هو دينك إذًا؟

فيقول:

ـ الحبّ هو ديانتي.

أقلّب عينيّ:

Twitter: @ketab_n

ـ لم أسمع بمثل هذا الكلام.

يبدو محتارًا برهة من الزمان.

ـ الأذن تسمع ما يمكنها سماعه. أصوات كثيرة في هذا العالم لا نسمعها.

ـ هل أنت إذًا بوذي أم يهودي أم مسلم أم نصراني؟ ما أنت؟

فيقول:

ـ أي، أي، أي.

ثم يضرب صدره.

ـ الكون كلّه في إنسان واحد.

ـ وذلك الإنسان هو أنت؟

فيقول مؤكّدًا على الكلمة الأخيرة:

ـ ذلك الإنسان هو أنت.

حسنًا. هذا يكفيني. انتهت اللعبة. ها هو الآن يقودني إلى الطريق الخطأ. أنا لا يروقني الناس الذين يعتقدون أنّهم أقوم الناس، الذين يظنّون أنّ لديهم إجابة عن كلّ شيء.

ـ الكون؟ هه! سأقول لك ما الذي يحتويه: العدوان والوحشيّة والفساد والإرهاب...

ثم أضيف:

ـ والقتل.

يقول زيشان كأنّه لم يسمع من قبل أيّ كلمة من تلك الكلمات:

ـ آه.

Twitter: @ketab_n

فيغمض عينيه. وفي لحظة من الزمان يتولّد لديّ الانطباع أنّه سوف يأوي إلى السرير لينام. ولكنّه سرعان ما يبدأ الكلام في صوت رائق:

ـ انظر إلى الطبيعة، فترى الحيوانات تفتك بالحيوانات. كبار البعوض يلتهم صغار البعوض. الذئب يأكل الحمل. آه. سفك دماء كثيرة. ولكن في الطبيعة، نجد الحيوان يحمي الحيوان. الأسماك تسبح معًا. والطيور تطير أسرابًا.

ـ لأنّ أسماك القرش والصقور منتشرة في كلّ مكان. وإذا ما بقيت رفقة الجماعة فثمّة فرصة للنجاة.

ـ المخلوقات تهتمّ بالمخلوقات اهتمامًا كبيرًا.

ـ نعم. يا له من هراء جميل.

ويفتح عينيه.

ـ ليس زيشان هراءً.

ـ حسنًا، يؤسفني أن أعلن عن نبأ حزين. الطبيعة كلّها في حالة حرب. والشيء نفسه ينطبق على هذا المكان. الشيء نفسه في كلّ مكان. إنّه سباق جرذان.

يميل إلى أمام وينظر شزرًا إليَّ:

ـ انسجام في كلّ مكان...

يقول ويتفوّه بكلمة «انسجام» harmony وكأنّه يقول howmany. ثم يسترسل في الكلام:

ـ الشيء نفسه هنا، لكنّ السؤال الأهمّ هو: هل ثمّة انسجام داخلك؟

Twitter: @ketab_n

لعلّ سؤاله هو السؤال الصحيح على أيّة حال. لا أملك فكرة عن عدد الأشخاص الكامنين في أعماقي.

أقول:

ـ لا بأس. إذا كان كلّ شيء يعني الانسجام المقيت، وإذا كان الشرّ يوازي الخير، فهذا يعني أنّ لكلّ امرئ ما شاء له من الأفعال، يفعلها كما يريد. ما الفرق؟

ـ لا. ليس الأمر كذلك. إنّك لا تستطيع أن تفعل ما تريد، بل لا تفعل إلّا ما يقدّره الله لك. لديّ عناصر. ولديك عناصر. العنصر الأكبر عند زيشان هو الماء. أمّا عندك فربّما هو النار. نعم. نعم. أظنّك نارًا. فإذا لم يكن ثمّة انسجام داخل المرء، فإنّه يكون غاضبًا على الدوام. مخاصمًا على الدوام. يبعث على الشفقة. حادّ اللسان كالسهم. الكون غابة كما قلت. وفي الغابة الكبيرة، أصنع حديقتي الخاصّة بي.

ـ أيّ حديقة لعينة تتحدّث عنها؟

يقول زيشان وكأنّه يكتب رسالة لي:

ـ صديقي العزيز، الغضب نمر. فعندما تشاهد نمرًا تفكّر: آه، يا له من حيوان عظيم. أريد نمرًا. ولكنّك لا تستطيع تدجينه. لا أحد يستطيع، لأنّ النمر سيأكلك.

ـ عليك أن تنسى موضوع النمور الغاضبة، فنحن لا نتعلّم أيّ شيء منها، بل نتعلّم من البشر، وهذا أمر جميل. نتعلّم من الاختلاف وليس من التشابه.

ـ الأنا تشبه النسر. طير كاسر. النسر يقول: طِرْ معي

Twitter: @ketab_n

وستصبح إنسانًا قويًّا. لكن تلك كذبة. إنّها حيلة. إذا كانت الأنا الخاصّة بك قويّة فهذا يعني أنّك ضعيف. وإذا كانت الأنا ضعيفة، فأنت قوي.

يتحدّث في بطء ولكن في ثقة. يلتقط كلماته في عناية، وكأنّها زهور من زجاج. وعندما يفرغ من كلامه أقول:

ـ شيء واحد أفكّر فيه لا غير...

ـ ما هو.

ـ لماذا لم يحبسوك في جناح المجانين.

ـ ما هذا؟

أؤشّر بسبّابتين على أذني مديرًا إيّاها من حولها، فيفهم هذه الإشارة المتعارف عليها عالميًّا من حيث دلالتها على الجنون. فيضحك، ضحكة تنمّ عن بهجة وسعادة ويقول:

ـ نعم، نعم، صحيح. إنّهم يقولون إنّ زيشان أصيب بمسّ من الجنون إلى حدٍّ ما.

* * *

حضرت الشرطة في ذلك اليوم إلى منزل كاتي، فأسرعت بالخروج من الباب الخلفي. كنت محظوظًا، سرقت درّاجة هوائيّة وانطلقت بها بعيدًا عن حيّ هاكني بأسرع ما يمكنني، وبعدها ركبت مجّانًا. فقد أقلّني طالبان فرنسيّان يتكلّمان بلهجة ثقيلة، وكانا فرحين فرحًا شديدًا. لم يسبق لي أن التقيت أشخاصًا مثليين، بل لم ترقني فكرة المثليين أصلاً. غير أنّني لم أكن في موضع يسمح لي أن أحكم عليهما. لاحظا حالتي الشقيّة وشعرا بالورطة التي أنا

Twitter: @ketab_n

فيها، فلم يطرحا عليَّ أيّ سؤال. واشتريا لي وجبة غداء، وقدَّما لي السكائر، وأسمعاني شيئًا من موسيقى غربية.

أوصلني الطالبان إلى بلدة واريك، ولكن قبل أن يمضيا في طريقهما، دخّنّا نحن الثلاثة الماريجوانا خارج القلعة. أتذكّر الآن كيف ضحكنا ضحكًا كاد يصيبنا بالجنون، ولكنّني لا أتذكّر النكتة التي أضحكتنا، هذا إن كانت ثمّة نكتة. وبعد ذلك مضى الاثنان في سبيلهما إلى الشمال.

وعلى حين بغتة بقيت وحدي، وبعد مرور أربعة أيّام، أُلقي القبض عليَّ - فقد قبضوا عليَّ نائمًا في العراء، في أحد المتنزهات. في ذلك الوقت، كنت أتضوّر جوعًا، منهكًا، حتى إنّ اعتقالي بدا راحة لي إلى حدٍّ كبير. وكنت أثناء سير التحقيق هادئًا ومتعاونًا. لم يخبروني أنّها ماتت، إلّا بعد حين من الزمان. وكنت واثقًا أنّ إصابتها لم تكن بليغة. ليست سوى طعنة بخنجر على مقربة من كتفها الأيمن. ما مدى خطورة إصابتها؟ ثم جاء أحد الضبّاط وقال لي:

ـ ألا تعلم؟ لقد قتلتها.

قلت ذاهلاً:

ـ ماذا تعني؟

ـ لقد قتلت والدتك أيّها السافل المريض. كيف ستخرج من تلك الورطة؟

لم أصدّقه، وظننت أنّها خدعة كي يجعلني أعترف. حيلة قديمة من تلك الحيل التي يلجأ إليها رجال الشرطة. ولكنّهم أمسكوا بصحيفة ووضعوها أمامي. ربّما كانت القصاصة نفسها التي

Twitter: @ketab_n

وضعها الضابط ماك لوخان في ملفّي الشخصي. هكذا عرفت أنّ والدتي توفيت.

كنت متلبّد الأحاسيس أثناء المحاكمة. تجمّدت على النحو نفسه يوم كنت فوق الشجرة في يوم ختاني. الصحافة. المصوّرون. جمع من الناس احتشد حاملاً الشعارات المضادّة لي خارج قاعة المحكمة. غرباء تمامًا. وهناك جمع من الناس وقفوا مؤيّدين لي. غرباء تمامًا أيضًا. وشاهدت أخي يونس، واسع العينين، غير مصدّق. في تلك اللحظة صعب عليّ التنفّس، توقّفت رئتاي. فسقطت على الأرض مثل رجل عجوز مجهّز بجهاز التنفّس. ظنّوا أنّها نوبة من نوبات الربو. وكان الطبيب رقيق الحاشية، ففحصني، ولكنّه لم يجد فيَّ شيئًا. ثم جاءني الطبيب النفساني. رجل فظيع. كلّه سوء. فرميت بمنفضة السكائر على رأسه، ولكنّها أخطأته لسوء الحظّ.

في الليلة الأولى التي أمضيتها في الحبس، كنت قد تهاويت على سريري وحدجت السقف بنظراتي. ساعة كاملة. وفكّرت إنْ كان الطبيب النفساني على حقّ. هل ثمّة أشياء مطمورة في أعماقي؟ هل أصابني مسّ من الجنون؟

كان المدّعي العامّ قد قال أثناء المرافعة:

ـ إنّه ليس بمجنون. هذا الشابّ في كلّ قواه العقليّة. ويستحقّ الإعدام.

في تلك الليلة التي أعقبتها، لم يغمض لي جفن. بحسب تجربتي، كلّما كان نومك سيّئًا، ازددت نزقًا وسوء طبع. وهكذا سارت الأمور. فشعرت في السنوات الأولى في الحبس وكأنّها

Twitter: @ketab_n

كابوس لا نهاية له. وكنت أيضًا كابوسًا للآخرين. جعلت أيّامهم شاقّة، صعبة. وبعد مضي مدّة من الزمان، مرّت بي ليلة أتذكّرها جيّدًا. كانت السماء تمطر خارج السجن. عاصفة قويّة ورعد وبرق وما أشبه. ثم توقّف سقوط المطر، واستقرّ صمت كان وقعه أشدّ وأقسى. في تلك اللحظة، ساورني شعور هو الأشدّ غرابة. شعرت كأنّ أمّي موجودة معي في هذا المكان. لم تكن مستاءة أو منزعجة قطّ. فهي قد تجاوزت مثل هذه الصفات.

وبدأتُ أجهش بالبكاء. بكيت، وضاقت أنفاسي، وآلمتني. وانهمرت من عينيّ كلّ تلك الدموع التي لم أستطع أن أذرفها طوال حياتي.

* * *

بعد أن أنفقت أسبوعين رفقة زيشان، أجدني وقد خرجت عن إحدى قواعدي. فسألته:

ـ ما الذي أتى برجل مثلك إلى هذا المكان؟

بانت عليه ملامح الخيبة وهو يقول:

ـ آه، يقولون إنّ زيشان اقترف جريمة فظيعة. لكن لا يوجد دليل. لكن ثمّة رجلاً استمعت إليه المحكمة لأنّه يتحدّر من أسرة معروفة. يقول إنّه شاهدني أسرق حقيبة يد، وألحق الأذى بسيّدة عجوز وأنّها في غيبوبة في المستشفى.

ـ هل هاجمت سيّدة عجوز من أجل النقود؟

فيقول:

ـ لا يقترف زيشان مثل هذا العمل. وعندما تفتح السيّدة عينيها

Twitter: @ketab_n

فسوف تقول الحقيقة. إنّني أنتظر، وأدعو.

ـ حسنًا، دعني أفكّر إن كنت قد فهمت فهمًا صحيحًا. أنت تقول إنّك في السجن بسبب جريمة اقترفتها؟ هل تتوقّع منّي أن أصدّقك؟

ينظر إليَّ نظرة غريبة وكأنّه يفكّر في أسلوب لذكر نبأ عاجل.

ثم يقول:

ـ إنّني أفكّر عن سبب حدوث هذا الأمر منذ اليوم الذي جاءت الشرطة فيه إلى منزلي. لا شيء يحدث عبثًا. لله غاية. ما هي؟ أطرح السؤال من دون جواب، ولكنّني أفهم الآن.

ـ بماذا تفكّر؟

ـ استمع! أنا لا أعرف لماذا وضعني الله في السجن. دائمًا أردّد: لماذا؟ لماذا؟ ثم ألتقيك، فيروح عنّي الحزن.

ـ إنْ لم تتوقّف عن هذا الهذيان فسوف أجعلك حزينًا حقًّا.

لكنّه لا يبدو خائفًا البتّة.

ـ أنا أفهم الآن السبب في وجود زيشان هنا. شكرًا لك.

ثم يتوقّف هنيهة، ويتنهّد.

ـ لو أتيتَ إليَّ لكان الأمر أسهل. لكنّك لم تأت. لهذا اضطررتُ إلى المجيء إليك. وهكذا يصبح زيشان سجينًا. ثمّة سبب لكلّ ذلك.

ـ هراء! أتريد أن تقول إنّك بريء من أيّة تهمة، وإنّ قوّة كونيّة هي التي أرسلتك إليَّ؟

ـ نعم. أنت على حقّ الآن.

Twitter: @ketab_n

يشرق وجهه مبتسمًا، سعيدًا مثل طفل يملك بالونًا جديدًا.

الرجل في أشدّ حالات الجنون، طار عقله. حالته تزداد سوءًا بمرور كلّ يوم، إلّا إذا كان يتعمّد ذلك، ولكنّني أفطن لحالته فجأة. فأمسك به من قبته وأدفعه في اتّجاه الجدار.

ـ هل وضعك الضابط ماك لوخلين هنا معي؟ هل كانت تلك فكرته لتلقيني درسًا؟ تريد أن تصيبني بالجنون. صحيح؟ هل هذه هي الخطة؟

يرفع رأسه إلى أعلى وكأنّني أسدّد له لطمة.

ـ أقول لك إنّ الله هو الذي أرسلني إلى هذا المكان، وأنت تقول ماك لوخلين. صاحبك ماك لوخلين صغير ولكنّ الله عظيم.

أتركه وشأنه وأفرك صدغيَّ ـ إنّه بداية صداع. أسأله:

ـ كم عمرك؟

يخفض من بصره ويقول خجلاً:

ـ سبعة وستّون عامًا.

ـ لا تمزح.

ـ إنّني صادق.

ـ لا تبدو في السابعة والستّين.

فيقول:

ـ شكرًا لك. زيشان يبدو لنفسه!

ـ هل تعني أنّ زيشان يعتني بنفسه؟

ـ نعم، نعم. يعتني.

Twitter: @ketab_n

مرّة أخرى يبدأ بالهذيان:

ـ جئت إليك. لم تكن ثمّة فائدة تُرجى منّي مؤّخرًا، لهذا أرسلني الله إلى هنا لأنّ الله لا يحبّ الكسل. علينا أن نعمل كلّنا في جدّ.

ـ أيّ عمل؟

ـ يقول المتصوّفة...

ـ ما هذا الكلام؟

ـ المتصوّف هو شخص ينظر إلى أعماق القلب، ويعتقد أنّ الناس أجمعين مرتبطون أحدهم بالآخر. الاختلاف ظاهري لا أكثر، في البشرة والثياب وجواز السفر. لكن قلب البشر واحد. في كلّ مكان.

ـ هنا قد عدنا من جديد. كلام فارغ.

يبتسم، إمّا لأنّه لا يفقه ما أقول أو لأنّه يريد أن يتجاهلني.

ـ المتصوّفة يعتقدون أنّنا عندما نموت ونبعث من جديد، فإنّ الله سوف يطرح علينا أربعة أسئلة: كيف أنفقت وقتك؟ من أين حصلت على مالك؟ كيف أنفقت أيّام شبابك؟ أمّا السؤال الرابع فهو غاية في الأهمّيّة: ماذا فعلت بالعلم الذي منحتك إيّاه؟ هل تفهم؟

ـ لا.

فيقول:

ـ أنا عالم. أنا معلّم.

ـ أتذكّر أنّك قلت إنّك طالب.

Twitter: @ketab_n

ـ كلّ معلّم هو طالب.

ـ آه، امنحني استراحة.

فيردّد في هدوء:

ـ أنا معلّم وأنا هنا لأمنحك من علمي.

سبق لي أن عرفت كلّ أنواع الرجال في هذا المكان، بين السجّانين وزملائي من النزلاء على حدٍّ سواء: المضطربون عقليًّا والمجانين وأكثر الرجال حزنًا وأضعفهم وأحقرهم، وفي بعض الأحيان، كلّ هؤلاء يتمثّلون في رجل واحد. ولكن لم يكن ولن يكون هناك أيّ شيء في شروزبيري يشبه زيشان. وُلد في بروناي ونشأ وترعرع في العالم. لا أعرف ماذا أفعل به.

اسكندر طبرق

* * *

Twitter: @ketab_n

أســماء

لندن، مايس ١٩٧٨

جاء العمّ طارق والعمّة ميرال لزيارتنا رفقة أطفالهما الأربعة. وبعد تناول العشاء اجتمعنا من حول التلفاز لمشاهدة مسلسل كورونيشن ستريت ونحن نحتسي الشاي ونقضم الفاكهة. كان الحديث الدائر في الحجرة قليلاً باستثناء بعض الملاحظات العابرة التي توجّه إلى الشخصيّات الظاهرة على الشاشة. وكان الجالسون يتطلّعون إلى ما سيحدث بعد أن أفلحت سوزي في إغواء ستيف وضبطتهم غايل متلبّسين في وضع عاطفي حميم. وكان العمّ طارق يرى أنّ العلاقة لن تدوم طويلاً، ووافقته الرأي العمّة ميرال، لكن لم يأخذ أحد آخر كلامها على محمل الجدّ لأنّها كانت دائمًا لا تفهم ما الموضوع. واضطررت إلى ترجمة المشاهد الأساسيّة لها لأنّ إنكليزيّتها لا تمكّنها من متابعة الحبكة. وكنت أحيانًا أُضيف بعض العبارات من عندي لتعزيز الخطّ الدرامي.

وبعد أن انصرف الضيوف، وأوى كلّ فرد إلى سريره، عدت

Twitter: @ketab_n

من جديد إلى الحمّام، أنظر إلى نفسي في المرآة عندما أيقظني طرْق على باب من أحلام يقظتي.

فقلت من ثقب المفتاح:

ـ مشغول!

لكن طرْقة أخرى تناهت إلى السمع، وكانت خجولة ولكن فيها شيء من الإلحاح. انتابني القلق وأنا أفتح الباب لأجد يونس واقفًا في منامة بيتربان، وهتف:

ـ آه، يا إلٰهي! ماذا فعلت في نفسِك؟

لم أتذكّر إلّا في هذه اللحظة أنّني وضعت لي لحية صغيرة على وجهي. فقلت وأنا أُدرك أنّ خير وسيلة للدفاع هي الهجوم الجيّد:

ـ وماذا تفعل أنت هنا في هذه الساعة؟

ـ إنّني مضطر إلى التبوّل.

وهنا انتقلت إلى الكلام باللغة التركيّة بعد أن شاهدت الملاءة مطويّة من تحت إبطه.

ـ هل أنت متأكّد أنّك مضطر إلى التبوّل؟ يبدو لي أنّك قد تبوّلت قبل قليل.

أشاح أخي بوجهه عنّي، وساد صمت قصير، انتظر أثناءه أحدنا الآخر ليقول شيئًا ما، أيّ شيء.

قلت موافقة:

ـ لا بأس. ثانية واحدة لا غير. حسنًا؟

أغلقت الباب وأشعلت الأنوار وأطفأت الشمعة وتفحّصت وجهي مرّة أخرى أمام المرآة. ثم مددت رأسي من وراء الباب وقلت:

Twitter: @ketab_n

ـ دعني أقول لك شيئًا ما. لِمَ لا تترك الملاءة هنا؟ وسأهتمّ أنا بها.

وبعد تردّد لم يستمرّ سوى لحظة، ناولني يونس الملاءة وهو يبتسم ابتسامة تنمّ عن خجل. ملأت الحوض بماء فيه صابون ووضعت فيه الملاءة. توقّعت منه أن يذهب إلى غرفته، ولكنّه فضّل أن ينتظره ويبصبص من وراء الباب الموارب.

ـ هل فرغت يا أختاه؟

ـ تقريبًا. ليس سهلاً أن تغسل في حوض الأطباق.

ثم استأنفت مستفسرة في صوت تعوزه الحيويّة:

ـ ما السبب الذي يدفعك إلى التبوّل في فراشك دائمًا؟

لبث يونس صامتًا.

ـ آه، لا تقلق، فأنا لن أخبر أحدًا.

وجدت لدهشتي البالغة أنّه غير مرتاح، بل على العكس: فقد لاحت على وجهه أمارات الوجوم وخيبة الأمل، وارتعشت شفتاه. فتقدّمت منه خطوة واحدة وأنا أبتسم لعينيه الواسعتين البريئتين ولأذنيه البارزتين، للفتى الذي طالما أحببت.

ـ آسفة يا يونس الصغير، فأنا لا أقصد جرح مشاعرك.

ـ إنّ مشاعري لم تجرح، بل إنّ كلّ ما هناك هو أنّ بالي مشغول بأمور كثيرة في هذه الأيّام.

ـ مثلاً؟

فقال:

ـ لا أستطيع أن أخبرك، فذلك سرّ.

Twitter: @ketab_n

ـ الأسرار تتطلّب الحذر. فأنت ترغب في البوح بها، ولكن ما إن تفعل ذلك حتى تخونك العبارة. مثل الملك ميداس[1]. صحيح؟

ـ ومن هذا؟

وهكذا أخبرته بقصّة الملك الذي كانت له أذنان كبيرتان دفعتاه إلى إخفائهما من تحت قبّعته. فوعده الحلّاق أن لا يبوح بهذا لأيّ شخص، وكان الوحيد من بين الناس الذي يعرف الحكاية. لكنّ الذي كان يدفعه إلى البوح بهذا السرّ كان قويًّا جدًّا ممّا جعله يبوح به إلى قصبة، وهي أكثر الكائنات المسالمة التي خطرت بباله. ثم جاء شخص وصنع آلة ناي من القصب وعزف عليها في حفل، فذاع السرّ وانتشر. وفي غضون أيّام قليلة عرف الأهالي أنّ للملك أذني حمار.

قال يونس:

ـ أتعنين أنّني يجب ألّا أخبر أحدًا؟

ـ حسنًا، إذا كان ما أقوله ضروريًّا، فإنّني أقول احتفظ بالسرّ لنفسك، إذْ لا يمكنك الوثوق بأيّ شخص، ولو حتى بقصبة.

توقّعت منه إلى حدٍّ ما أن يضحك ولكنّه لم يضحك، بل حدّجني بنظرة حزينة قبل أن يستدير على عقبيه ويتوارى عن الأنظار في الممرّ.

---

(١) الملك ميداس King Midas: هو ملك فيرجيا الأسطوري الذي طلب من الآلهة أن يتحوّل كلّ شيء يلمسه إلى ذهب؛ فلبّت الآلهة طلبه، ولكن عندما تحوّل طعامه إلى ذهب لمَّا لمسه بيده، دعا الآلهة إلى التخلّي عن طلبه القديم. ثم صدر له الأمر بأن يغتسل في مياه نهر باكتولوس، فجرى النهر من بعد ذلك من فوق رمال ذهبيّة (المترجم).

Twitter: @ketab_n

فتمتمت وإنْ كنت أعلم أنّه لن يتمكّن من سماعي.

ـ طابت ليلتك يا عزيزي.

شعرت بانقباض في صدري وأنا واقفة في محلّي، تعلو رغوة الصابون يديَّ. ساورني شكّ. فعندما كنت أحلم أنّني صبيّ وأفكّر في كلّ الأسرار الأخرى، فإنّ أشياء كانت تحدث أمامي من دون أنْ أراها. وسوف أتذكّر في وقت لاحق تلك اللحظة، مدركةً أنّ تلك هي اللحظة التي تتفجّر فيها الحياة الاعتياديّة التي أعرفها وأنّنا بدأنا ننسلّ واحدًا تلو الآخر إلى عالم آخر حيث تحدث أشياء كثيرة بسرعة بالغة. ومنذ ذلك الوقت فكّرت إنْ كانت الأشياء لتبدو مختلفة لو أنّني تصرّفت تصرّفًا آخر في تلك الليلة. لو أنّني تركت أخي يشاطرني سرّه الذي كان ينهشه من الداخل فلربّما، نعم ربّما لا أكثر، استيقظت في وقت مبكر وأصبحت قادرة على تحذير أمّي قبل أن تنعطف الأحداث انعطافًا سيّئًا.

* * *

Twitter: @ketab_n

الصفعـــة

لندن، حزيران ١٩٧٨

في هذا السبت بالذات، لم يذهب اسكندر للملاكمة. كما أنّه لم يلتق كاتي، إذْ كانت له ولرفاقه خطط أخرى، فقد غادر المنزل بعد الساعة التاسعة صباحًا بوقت قصير، ولفحت وجهه ريح دافئة. وبدا العالم، وقد فتح ذراعيه له، فدبَّ فيه الإحساس بالحيويّة والانتعاش والاستعداد لكلّ شيء. رفع قبّة سترته إلى أعلى وحافظ على وقع خطواته. كان يؤمن بأنّ طريقة سير الإنسان تكشف الكثير عن شخصيّته ـ عيوبه وفطنته وشجاعته تنعكس كلّها في أسلوب سيره. سار اسكندر إلى أمام مسرعًا قليلاً، معتدل القامة، مرفوع الهامة وكأنّه يقدّر مزايا المارّة استعدادًا لخوض القتال.

كان الصبيان في انتظاره في كهف علاء الدين. أربعتهم جالسون في تثاقل من حول طاولة بلاستيكيّة في الجزء الخلفي من الكهف. ولمّا اقترب اسكندر منهم أومأ برأسه في اتّجاههم. فما كان منهم إلّا أن ردّوا الإيماءة بإيماءة، فلاحظ الاحترام الذي يشعّ

Twitter: @ketab_n

من عيونهم ـ وهو نوع من الاحترام الذي لم يسبق لأبيه أن لاحظه في أيّ شخص وخاصّة بين خلّانه المقامرين، ربّما باستثناء الأيّام التي ربح فيها.

قال اسكندر من دون أن يوجّه كلامه إلى أحدٍ تحديدًا:

ـ مرحبًا. أين أرشد؟

فقال فريد وهو مغربي قصير القامة يتكلّم بصوت هادئ ورقيق:

ـ لم يأتِ بعد.

فقال عزيز مبتسمًا ابتسامة كشفت عن أسنانه المنفرجة:

ـ لعلّه شعر بالخوف والجبن. إنّني لا ألومه بعد أحداث هذا الأسبوع.

كان الصيف قاسيًا. ففي كلّ يوم، كان الحديث يدور عن حادثة في مكان ما. الرجال مُروّعون في الشوارع والنساء يُشتمون والأطفال يُبصق عليهم. وفي الليالي، كانت الحجارة تُرمى على بيوت المهاجرين، والثياب المعلّقة على حبال الغسيل تقطّع إربًا إربًا، أو يرمي روث الكلاب داخل صناديق رسائلهم. لكن أسوأ الأمور حدثت قبل ستّة أيّام.

ففي وقت مبكر من صباح الحادي عشر من شهر حزيران، احتشدت مجموعة من الشبّان حليقي الرأس في نهاية زقاق بريك لين. وبحلول منتصف النهار، تضاعف عددهم، وواصلوا توافدهم إلى المكان سيرًا على الأقدام وبواسطة الدرّاجات والسيّارات والحافلات الصغيرة. جاء بعضهم من أماكن نائية مثل بوتني، ثم

Twitter: @ketab_n

بدأت المسيرة وعلت الهتافات: الجبهة الوطنيّة جبهة رجل أبيض. لكن ممّا يبعث على الاستغراب هو غياب الشرطة عن المكان، حتى عندما بدأ المحتجّون الهجوم على دكاكين المهاجرين وهم يهتفون في صوتٍ عالٍ: «اقتلوا الأوغاد السود» ويحطّمون زجاج السيّارات الأمامي والنوافذ، ملحقين أضرارًا بالملكيّة الخاصّة.

وقال فريد:

ـ هل سمعت ما قاله رجال الشرطة بعد ذلك؟ أطلقوا على الحادث: «غضب عفوي».

انقطع الحديث بدخول علاء الدين مالك المحلّ، الذي كان رجلاً يفتقر إلى التوازن، عريض المنكبّين، في منتصف الخمسينيّات من عمره، إحدى ساقيه أقصر من الأخرى. وكان دائمًا لطيف العبارة مع الآخرين. اقترب من الصبيان مبتسمًا ولكنّه لم يصافح أحدًا سوى اسكندر، وسأله عن أحواله في المدرسة وعن أمّه وعن أحوال دكّان عمّه في هذه الأيّام العصيبة. أسئلة أجاب عنها في احترام وفي اقتضاب أيضًا:

وأخيرًا قال علاء الدين:

ـ ماذا ستأكل الآن؟ لقد انتظر أصدقاؤك مجيئك كي تطلب الطعام.

شعر اسكندر بالسرور لمّا سمع ذلك.

ـ لدينا ضيف قادم. وسوف نطلب الطعام لدى وصوله.

شاهد الجالسون علاء الدين يمضي في سبيله وهو يعرج. أمّا اسكندر، فقد التفت إلى عزيز واستأنف حديثه:

Twitter: @ketab_n

ـ وهل من أخبار أخرى؟

ـ آه، نعم. ثمّة صبي تعرّض للضرب من يوم أمس. بنغالي. وقد عثروا عليه ينزف دمًا على مسافة قريبة من بيت أرشد، ممّا يرفع العدد إلى أربعة خلال شهر واحد!

تلوّى وجه اسكندر وهو يحرّك فكّه، وهنا قال سوني:

ـ أنت تعرف ما الذي يدفعني إلى الجنون؟ هؤلاء العنصريّون الملاعين عندما يقولون إنّهم ليسوا عنصريّين. وهم ليسوا مضطرّين إلى أن يكونوا كذّابين فوق كلّ ذلك!

كان اسمه سلڤاتوري على الرّغم من أنّ الكلّ كانوا ينادونه سوني. كانت أسرته قد انتقلت إلى حيّ هاكني قادمة من إحدى قرى صقلية. وهو يتحدّث الإنكليزيّة في سرعة وبلكنة قويّة تجعلان نصف الأشياء التي يتفوّه بها غالبًا ما تضيع وسط بعضها بعضًا.

ـ متى سيأتي هذا الشخص إذًا؟ هذا الثرثار المشهور!

كان شيكو هو الذي طرح هذا السؤال وهو ينقر بأصابعه من فوق قائمة الطعام. كان والده مغربيًّا وأمّه إسبانيّة.

فقال عزيز:

ـ لا تصفه بهذه الصفة. احترم الرجل. صفه بالخطيب.

ـ لا فرق. أتعرف ما يقولون؟ الأحمق يتكلّم والحكيم يستمع؟ وهذا الرجل دائم الحديث. وما عليك إلّا أن تقوم بعمليّة حسابيّة!

اتّكأ اسكندر في جلسته وقطّب جبينه وشبك ذراعيه، فكانت إشارة غيّرت من الجوّ من حول الطاولة فانقلب من الحديث المرح

Twitter: @ketab_n

إلى تبادل الكلام على نحو جادّ ورزين.

ـ سيصل بعد نصف ساعة. ظننت أنّه يستحسن لو كنّا التقينا وتبادلنا الحديث. الأمور لا تسير على ما يرام. ولسوف نكون أغبياء لولا نتنبّه إلى الكتابات على الجدران.

خفض شيكو من بصره في حين أومأ الآخرون برؤوسهم، وهم متوتّرو الأعصاب.

وقال اسكندر:

ـ إنّهم يريدون طردنا من هذا البلد اللعين. أنت وأنا وهو... العرب. والأتراك والإيطاليّون والجامايكيّون واللبنانيّون والباكستانيّون... هل يا ترى سنجلس ونضحك؟ مثل البطّ اللعين في مدينة الألعاب؟

هذا ما يريد أباؤنا أن نفعله: أن نبتسم وننتظر حتى يقتلونا. لكنّنا لسنا مثل البطّ. صحيح؟

قال شيكو:

ـ لا، لسنا.

ـ انظر، لقد سبق لي أن سمعت هذا الشخص يتكلّم. إنّه جيّد. جيّد حقًّا. لندعه يأتي ويخبرنا بما لديه. وإذا كان لا يروقكم، فإنّه لن يروقكم. انتهينا. ولكنّه على الأقلّ ليس بطّة. نحن نعرف هذا كلّنا.

في هذه اللحظة، فُتح الباب ودخل أرشد، واضعًا يديه في جيبيه. ولمّا شاهد اسكندر الفتاة التي تسير من وراء صديقه، تبدّلت ملامح وجهه:

Twitter: @ketab_n

ـ عجبًا ما الذي تفعله هنا؟

فقال أرشد:

ـ مرحبًا. لا تلمني أيّها الرجل. حاولت أن أوقفها...

نظر اسكندر إلى أسماء وقال:

ـ عودي إلى البيت.

فقالت:

ـ لا. أريد أن أسمع أيضًا.

راقب الصبيان المشادّة بابتسامات يشوبها الحذر.

وقال اسكندر:

ـ لقد سئمت عنادكِ ياسيس. لن أجادلكِ.

ـ حسنًا، لا تجادل إذًا.

ـ أنت تثيرين أعصابي. هذا لا يناسب الفتيات.

ـ ولم لا؟ أتعتقد أنّ هؤلاء الأشقياء حليقي الرؤوس يهاجمون الرجال فحسب؟ أنت على خطأ. إنّهم يهاجمون النساء أيضًا. والفتيات. إذا كنتُ أصلح ضحيّةً، فإنّني أصلح أيضًا للقتال.

فقال عزيز:

ـ إنّها على حقّ.

وقالت أسماء بعد أن لقيتْ تشجيعًا:

ـ آه، هيًّا بربّك يا أبي.

هزَّ اسكندر رأسه وإن كان بقوّة أقلّ هذه المرّة، وقال:

ـ لا بأس. لكنّني لا أريد أن أسمع أيّ شيء منك. ولا كلمة.

Twitter: @ketab_n

فقالت محاولةً ألّا تفسد الفرحة الظاهرة على محيّاها:

ـ نعم. سوف أجلس هنا مثل جثّة.

ثم أضافت في بهجة وحبور:

ـ إنّني أتحرّق شوقًا لمعرفة شكل هذا الرجل، وإنّني واثقة أنّني سأستدلّ عليه مباشرة.

لكن ثبت خطأ هذا الافتراض. فعندها دلف الخطيب الآن إلى المقهى التي امتلأت عن نصفها بالروّاد، لم يستطع أحد من أفراد العصابة الاستدلال عليه باستثناء اسكندر. أمّا الآخرون، فقد توقّعوا أن يروا شخصًا مفتول العضل، مثيرًا للإعجاب، لا يمكن تحديد عمره، يرتدي ثيابًا نصفها تقليدي ونصفها الآخر غريب الشكل، شعره يتطاير في كلّ اتّجاه، عيناه تلمعان مثل الزمرّد. وهكذا، فعندما دخل رجل هزيل البنية في أواسط العشرينيّات من عمره، عاديّ الملامح، كالح البنطال، لم ينظروا إليه ولو ثانية واحدة، إلى أن اقترب منهم وحيّاهم.

قال اسكندر:

ـ آه، أجلس من فضلك.

وعرَّفه بالحاضرين مستثنيًا من ذلك أسماء. ثم طلب الطعام وكان مؤلّفًا من حمّص وبابا غنّوج وكباب وفلافل... وملأ اسكندر طبق الضيف، وهو أمر بلا معنى لأنّ الرجل أكل مثلما يأكل طائر، فكانت شهيّته الضعيفة سببًا في تواني الحاضرين عن الأكل ـ بمن فيهم سوني الذي كان جائعًا على الدوام، فتوقّف عن تناول طعامه.

Twitter: @ketab_n

وبينما كانوا منهمكين في شرب الشاي، بدأ الخطيب يلقي كلمته. كان صوته واطئًا ولكنّه ارتفع بعد ذلك ارتفاع الموج، متوقّفًا كلّ بضع دقائق ليستأنف الكلام من بعد ذلك وكأنّه يقرأ في كرّاس غير مرئي. تحدّث عن مراحل الرأسماليّة وكيف أنّ البشر اقتربوا من يوم الدينونة: إنّنا كلّنا ننظر من أعلى الجرف. وسنرى كلّنا سقوط هذا النظام. لقد أعطي شبابنا المخدّرات كي لا يشكّوا في صلاحيّة النظام. والسياسيّون في كلّ مكان يديرون نصف عمليّات المخدّرات السرّيّة في العالم. وما الإيديولوجيّات كلّها إلّا من ابتكارهم لتشويش أذهان الشبّان باستمرار. وما المذاهب إلّا مخدّرات جديدة، حبوب منوّمة تعطى للجماهير.

فقال سوني متوتّرًا لأنّه لم يأكل ما يكفيه:

ـ عمّتي من أنصار حرّيّة المرأة. شعرها أقصر من شعري وهي ترتدي البنطال على الدوام.

فقال الخطيب ملاحظًا:

ـ النسويّة في نظرنا هي مثل رجل ثلجي في الصحراء. لا ضرورة لها. أتعرف لماذا؟

ـ لأنّها تجعل النساء قبيحات. فهنّ لا يحلقن حتى سيقانهنّ. يا له من أمر كريه.

كتم الصبيان ضحكة في حين قلّبت أسماء عينيها بين الحاضرين. لكنّ اسكندر كان الشخص الوحيد الذي حدّج الخطيب بنظراته، فالتقت عيونهما لقاءً ينمّ عن فهم مشترك، وإحساس مشترك بأنّهما تجاوزا ردود الأفعال الصبيانيّة.

وقال الخطيب:

Twitter: @ketab_n

ـ أودّ أن أقول إنّ هذا الصديق على حقّ لأنّ النسويّة تجعل مظهر النساء يبدو غير طبيعي، ولكن هذه نتيجة وليست سببًا. أمّا أنا فإنّني أسأل عن السبب الذي يجعل النسويّة لا تعني شيئًا لنا.

فأجاب اسكندر:

ـ لأنّها مشكلتهم. إنّها اختراع غربي.

تناهى إلى سمع علاء الدين الكلمات الأخيرة وهو يحمل صينيّة مملوءة بأقداح الشاي، فعقد حاجبيه مرتابًا. وخمَّن اسكندر تخمينًا عرّفه علاء الدين عن هذا الخطيب ولم يرقه: إنّ أمثال أولئك الأشخاص يزرعون بذورًا سيّئة وسط الجماعة، فما الذي يفعله في هذا المكان وهو يحشو رؤوس الصبيان بهذه القضايا؟ وهنا لزم الخطيب الصمت وكأنّه أدرك امتعاض علاء الدين، ولم ينبس بكلمة إلى أن قُدّمت المشروبات وتُركوا وشأنهم وحيدين من جديد.

واستأنف الخطيب كلامه وقد التمعت عيناه تقديرًا وإعجابًا:

ـ تمامًا. النسويّة هي ردّهم على مشكلاتهم، غير أنّ هذا الحلّ أعرج. فهل في الإمكان أن نجفّف بحيرة بإسفنجة؟ هكذا هو تأثير النسويّة. فإذا لم يمتلك الغربيّون قيمًا أسريّة ولا يكنّون احترامًا للمرأة، فإنّ مجموعة من الناشطات اللواتي يهتفن في الشوارع بأعلى أصواتهنّ لن يغيّر أيّ شيء.

نخرت أسماء، فرمقها اسكندر من زاوية عينه بنظرة باردة، تنذر بخطر وشيك، فما كان منها إلّا أن غمغمت:

ـ آسفة.

Twitter: @ketab_n

فردَّ عليها اسكندر:

ـ تأدّبي.

وإذ تنبَّه الخطيب لتبادل الكلمات السلمي بينهما، فإنّه تظاهر بعدم الانتباه، ومضى يقول:

ـ الناس مشوَّشون في الغرب، فهم يخلطون السعادة بالحرِّيّة والحرِّيّة بتعدّد الزيجات. أمّا نحن فإنّنا نحترم أمّهاتنا وأخواتنا وزوجاتنا، ولا نرغمهنّ على ارتداء ثياب تشبه ثياب الدمية باربي. إنّها صناعة شاملة: مساحيق التجميل والأزياء ومصمّمو الأحذية. هل سمعتم عن أنوريكسيا نيرفوسا؟

فهزّ الصبيان رؤوسهم.

ـ إنّه الهوس بصورة الجسد. النساء اللواتي يعانين ذلك يمارسن الحمية طوال الوقت. فيلجأن إلى التقيّؤ من بعد تناولهنّ الطعام. وفي كلّ عام، تدخل عشرات النساء في أوروبا والولايات المتّحدة المستشفيات بسبب هذا المرض. بعضهنّ يمتن. عجز في القلب. ولكنّهنّ ما زلن يعتقدن أنّهنّ بدينات.

ـ أيّها الأخوة لا تنسوا أنّ الأطفال في آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط يموتون جوعًا، لا يتمكّنون من العثور على لقمة خبز، ولم يذوقوا طعم الحلاوة في حياتهم، على حين أنّ النساء في الغرب يأكلن الحلوى بالشوكولا والبراندي في أرقى المطاعم. أمّا السكّان في العالم الثالث فيتضوّرون جوعًا. وليست مصادفة أنّ الصناعتين الرئيستين في الغرب هما آلة الحرب وآلة الجمال. ويستخدمون آلة الحرب للهجوم والسجن والتعذيب والقتل. ولا تقلّ آلة الجمال عن هذه الآلة شرًّا. ملابس برّاقة ومجلّات أزياء ورجال خنثويّون ونساء

Twitter: @ketab_n

مسترجلات. كلّ شيء مشوّش، وآلة الجمال تسيطر على أدمغتكم.

خيَّم على الطاولة إحساس بالخوف. تفحّصت أسماء أظافرها وهي تكتم شهقة. كانت تتمنّى لو أنّ اسكندر تمكّن من تخفيف الجوّ. لو أنّه ربَّت على ظهر الرجل وأخبره أن يأخذ الأمور ببساطة وأن يجعلهم يغرقون في الضحك. في وسعه ذلك لو شاء، فهو يملك القدرة على ذلك. وفكّرت أنّه يملك ذلك النوع من الجرأة وذلك النمط من الخفّة. ولكنّها عندما رفعت رأسها، لم تكن الأمارات التي ارتسمت على وجه شقيقها هي الأمارات التي كانت تتمنّاها. فسألته:

ـ هل يمكننا أن نطلب شايًا إضافيًّا يا أليكس؟ فأنا ظمآنة بسبب كلّ هذا الحديث.

رنا الخطيب إلى ساعته.

ـ حان الوقت لكي أذهب. يسرّني التعرّف إليكم.

ثم نهض واقفًا والتفت إلى اسكندر، وأضاف:

ـ لماذا تدعوك بالاسم أليكس؟

ـ لا تهتمّ لذلك. إنّها أختي... الكلّ يناديني بهذا الاسم. إنّه، كما تعلم، اسم مصغّر لـ...

لكنّ الخطيب حَمَلَ عليه قائلاً:

ـ ليس أليكس اسمًا مصغّرًا لاسكندر. فكّر فيه مرّة أخرى أيّها الأخ. هل ينبغي لنا تغيير أسمائنا كي يتمكّن البريطانيّون من لفظها لفظًا أكثر سهولة؟ لا بدَّ أن يكون الأمر معكوسًا. عليك أن تجعل كلّ شخص يتعلّم اسمك الكامل ويلفظه لفظًا صحيحًا.

Twitter: @ketab_n

ثم انصرف تاركًا صمتًا مريبًا في أثره.

أمّا اسكندر، فقد وثب واقفًا على قدميه متوتّرًا:

ـ سوف أصحب أسماء إلى المنزل وأعود!

ـ هه! لا أريد الانصراف الآن.

لكن اسكندر كان قد وصل الباب.

ـ الآن، من غير إبطاء!

فامتثلت أسماء متذمّرة، ولمَّا أصبحا خارج المقهى، هتفت:

ـ تبًّا! لم يرقني ذلك الرجل، المعتدّ بنفسه، المغرور.

ـ قد لا يروقك ولكنّه مقاتل.

ـ إنّه فظّ.

ـ عندما يكون الواقع فظًّا فإنّكِ مضطرة إلى أن تكوني فظّة أيضًا.

ـ كفى بربّك! إنّه ليس سوى فحل حقير، لم يكلّف نفسه عناء النظر إليَّ.

ـ هذا لأنّه احترمك أيّتها المرأة! أتفضّلين الرجال الذين يسدّدون نظرات غراميّة إلى ساقيك؟ أهذا ما تريدين؟

فقالت أسماء رافعةً ذراعيها إلى أعلى:

ـ آه! ماذا دهاك؟ هوِّن عليك! ما هذا الهراء الذي يحتشد به رأسك؟

ـ تنبّهي إلى ما تقولين يا أسماء!

ـ آه، لقد أخفتني!

Twitter: @ketab_n

ـ لقد سمعتني. لن تأتي إلى اجتماعاتنا بعد اليوم، فأنا لا أستطيع مراقبتك طوال الوقت.

قالت في حدّة:

ـ ومن يقول إنّك يجب أن تراقبني؟ في وسعي أن أهتمّ بنفسي. شكرًا جزيلاً لك. الغلطة غلطة أمّي، فهي التي ربّتك هذه التربية: يا ملاذي! يا أسدي! وأنت الآن تظنّ نفسك سلطان حيّ هاكني!

ـ اخرسي!

لم تتنبّه أسماء إلى التبدّل الذي طرأ على نبرته ولا إلى قبضة يديه إلى أن فات الأوان، فقد استرسلت أكثر ممّا ينبغي في الكلام.

ـ كنّا فريقًا، أنا وأنت. كان مزاحًا، وكنّا نضحك. أمّا الآن، فليس الأمر مزاحًا. انظر إلى نفسك ـ انظر إلى مدى الجدّ الذي أوصلت إليه نفسك.

أمسك اسكندر بكتفها ودفعها إلى الحائط.

ـ الناس يُضربون في الشوارع، وفي الأسبوع الماضي تعرّض رجل عجوز إلى الضرب بالحجارة حتى فقد وعيه. أيّ مزاح هذا الذي تتحدّثين عنه!

ـ آه! أنت بطل كبير إذًا. أنقذونا رجاءً.

الصفعة. جاءت على حين بغتة وكأنّها من العدم. فأمسكت أسماء خدّها، عاجزة عن الحركة من هول الصدمة.

قال من دون أن ينظر إليها:

Twitter: @ketab_n

ـ ابتعدي عن هذا المكان. أحذّرك.

راقبته وهو يعود أدراجه إلى المقهى مسرعًا. في يوم ما، كانت تعتقد أنّها تعرف شقيقها الأكبر مثلما تعرف ظهر كفّها، ولكنّها لم تعد تعرفه الآن. سبق له أن حماها من الآخرين. أمّا الآن، فقد شعرت أسماء أوّل مرّة أنّها مضطرة إلى أن تحمي نفسها منه.

* * *

Twitter: @ketab_n

سمكة سلمون بنّيّة كبيرة

لندن، تمّوز ١٩٧٨

عندما شاهد يونس بعد أسابيع من البحث اليائس توبيكو، غمره إحساس هو مزيج من الارتياح والخوف. الارتياح لأنّه عثر عليها بعد أن كان قد فقد الأمل تقريبًا، والخوف الشديد من فقدانها من جديد. فما كان منه إلّا أن تشبّث بها كتشبّث السمك بصدفه.

كانت توبيكو قد تغيّرت إلى حدٍّ ما، وازداد وزنها. وكان شعرها الفاحم السواد، الملمح مثل حصاة سوداء تحت المطر، ما يزال طويلاً، ولكن أطرافه باتت الآن ذات لون أخضر متوهّج. كما استبدلت الحلقة الفضّيّة من على شفتها السفلى بزرّ برّاق من أزرار الزينة، ووضعت في كلّ أذن ستّة قلوب قرمزيّة اللون، صغيرة ولمّاعة، وكأنّها قطرات صغيرة من الدم. عدّها يونس وتنبّه مرّة أخرى إلى مدى صغر حجم أذنيها وروعة جمالها.

زمّت توبيكو شفيتها ورفضت أن توضح له أين أنفقت كلّ ذلك الوقت والسبب الذي حال بينها وبين ترك رسالة له عن وجهتها.

Twitter: @ketab_n

هنا وهناك، كنتُ بحاجة إلى تغيير الجوّ يا طفلي. واستاء يونس لمّا عرف المكان الذي كانت تقيم فيه: بيت صغير من ثلاث غرف رفقة الزعيم وأمّه. وكان ثمّة عدد آخر من محتلّي ذلك المنزل بمعيّتهم.

كان والدة الزعيم، السيّدة باول، معلّمة متقاعدة وأرملة. الحقّ أنّها لم تكن متسامحة أو متساهلة مع هذه الجماعة من الصبيان إلّا قليلاً وهم يسكنون تحت سقف بيتها، ولكنّها وافقت على أن تضيفهم برهة من الزمان بأمل تزجية وقت أطول مع ولدها الوحيد. وقد انتقلت إلى غرفة النوم في الدور العلوي ونقلت معها جهاز التلفاز وكيس الماء الساخن لتدفئة الفراش، وتركت بقيّة البيت للشبّان. وكانت نادرًا ما تخرج من غرفتها، إذْ كانت تتناول كلّ وجبات طعامها في الغرفة وتتظاهر أنّها لا تعير بالاً للصخب والضجيج المتواصلين ولا لرائحة السكائر والماريجوانا المنبعثة من الدور الأرضي.

وفي المرّة الأولى التي زار فيها يونس هؤلاء الصبيان في تلك الشقّة، جلس فوق الأريكة بجانب توبيكو، ضئيلاً ومتبسمًا.

قال الزعيم موضحًا:

ـ إنّه حلّ موقّت إلى أن نعود أدراجنا إلى المكان القديم. ولسوف نلمّ شمل الآخرين من جديد.

وقال بوغارت والسيكارة تتدلّى من بين شفتيه وآلة الغيتار ذات الوترين بيده:

ـ سوف نستعيد بيتنا وعندئذٍ لن يتمكّن أحد من طردنا، وسوف نضربهم على مؤخّراتهم في المرّة القادمة.

ثمّة فتى جديد يُرافقهم، أصلع الرأس باستثناء كتلة شعر كثيفة

Twitter: @ketab_n

على قمّة رأسه، عمد إلى صبغها بمختلف تدرّجات اللون البرتقالي. وكان يلقّب بالسيّد فيلتش (السارق) لأنّه لم يكن يؤمن بضرورة دفع ثمن أيّ شيء: الكتب وأجهزة التسجيل والطعام والثياب الداخليّة. وفي يوم ما، سرق زوجًا من حذاء برقبة طويلة من نوع دوك مارتنز، حاملاً كلّ فردة داخل كمّ من أكمام معطفه المصنوع من قماش الغبردين. وبينما كان يجلس في المؤخّرة مبتسمًا، قال:

ـ نعم، أنتم كالهررة تلعقون جراحكم.

أصغى يونس لهذرهم ولغوهم، مسرورًا لأنّهم دخلوا حياته من جديد، وسكن سكونًا غريبًا بأساليبهم غير التقليديّة. ولمّا تنبّه بوغارت إلى حالة السرور البادية على وجه يونس، قال:

ـ هذا الصبيّ يشبه الهرّة أيضًا.

فقال الزعيم مخاطبًا توبيكو وهو يغمز لها:

ـ وأنتِ السلّة الدافئة التي يستريح فيها.

فضحكت توبيكو ضحكة قصيرة كي لا تجرح مشاعر يونس. ثم التفتت إلى بوغارت وسألته في محاولة لتغيّر دفّة الحديث:

ـ ماذا كنت تعزف؟

ـ آه، إنّها معزوفة أغنية ألّفتها. كنت أفكّر في أنّ الحملة على ذلك البيت كانت يوم أحدنا الدامي ـ نوعًا ما. ولهذا ألّفت الأغنية وعنوانها الثلاثاء الدامي!

لم يكن بوغارت بحاجة إلى حافز أفضل، فبدأ يغنّي. وكان اللحن سيّئًا، والكلمات أسوأ بكثير:

Twitter: @ketab_n

أنا على الحافّة. أنا عاطل

مثل حجارة مرميّة في هذه الحفرة!

هذه الحفرة، هذه الحفرة، هذه الحفرة، هذه الحفرة..

الجنود القدامى لا يقرعون قبل النقل بالعربات؟

الثلاثاء الدامي هو أسوأ الأيّام.

ثوروا ضدّ النظام.. فهو بلا روح!

بلا روح، بلا روح، بلا روح، بلا روح..

سدَّ إيغي بوب أذنيه بأصابعه، وكان يرتدي صدريّة أفغانيّة وقميصًا برتقاليّ اللون، يكشف عن حلمتيه، وقال:

ـ آه، هلّا أغلقت فمك؟

فصاح بوغارت مندهشًا، متوقّفًا في منتصف الطريق:

ـ ماذا؟

فقال إيغي بوب:

ـ هذا هراء أيّها الرجل!

وقالت توبيكو:

ـ ولم يكن اليوم الذي حدثت فيه الغارة يوم ثلاثاء، بل أربعاء!

فعبس بوغارت وقال:

ـ من يقول هذا؟

أصغى يونس بمسرورًا وقلقًا في الوقت نفسه، مدركًا مدى سهولة انتقالهم من المزاح الطفولي إلى حرب شاملة عندما يرمون

Twitter: @ketab_n

الحجارة ويغلقون الأبواب في عنف، ويصيحون ويشتمون بعضهم بعضًا أو يشتمون أنفسهم.

وقال بوغارت هازئًا:

ـ وماذا تعرفون أيّها الجماعة، يا أصحاب الرؤوس الشبيهة بمقابض الأبواب؟

ثم توقّف هنيهة وعبس في وجه توبيكو، وقال:

ـ وأنتِ لا تتذكّرين حتى ماذا تناولتِ في فطورك.

فقالت توبيكو مقترحةً:

ـ لنسأل يونس. إنّه محايد.

فاعترض الزعيم:

ـ تبًّا، إنّه متساهل ويتّفق وإيّاكِ دائمًا. قولي إنّ الثلج أسود وستجدينه يوافقك تمامًا.

تورّد وجه يونس، ولكنّه تظاهر بعدم الاكتراث وأدرك أنّ الوضع يقتضي منه قول شيء ما ـ أن يتفوّه بعبارة تثير اهتمامًا يكفي لإبعاد أنظارهم عنه. ولهذا قال:

ـ أريد وشمًا.

فضحك بوغارت ضحكة صغيرة، وقال:

ـ قف. هذا الفتى رابط الجأش!

قال ايغي بوب:

ـ ليكن ذلك.. ليس من مشكلة، فأنا أفضل فنّان يصنع الوشم في البلدة.

Twitter: @ketab_n

قالت توبيكو متسائلة في طيبة:

ـ ألن تغتاظ أمّك يا عزيزي؟

كان يونس قد فكّر في هذا الأمر.

ـ حسنًا، سوف تغتاظ إذا ما رأته. لكن إذا ما رسمته على ظهري، مثلاً، فلن تعرف بأمره.

قال السيّد فيلتش:

ـ ولد ذكي.

قال إيغي بوب وهو يفرك كلتا يديه:

ـ سأذهب وأحضر أدواتي.

فقال يونس في هدوء:

ـ وأنا مضطرّ إلى الذهاب والتبوّل.

كان الدور العلوي من المنزل يحتوي على بابين، كلّ باب على جهة من جهتي الممرّ. وبعد أن تردّد يونس قليلاً، فتح الباب الأيسر فاستبدّت به الدهشة عندما رأى امرأة تجلس فوق السرير، مرتدية ثوب نوم بنفسجيّ اللون، وتقضم بسكويتة هشّة وتشاهد حلقة جديدة من برنامج ذا ساوث بانك شو. كان شعر رأسها يشبه عشّ العصفور، وفكّر يونس أنّها حتمًا كانت تبكي لأنّه شاهد خطوط مستحضر تجميل الأهداب والجفون وقد انساب من على وجنتيها. ولاح على وجهها ما يشير إلى أنّها مخبولة.

ـ آسف أيّتها السيّدة.

كاد يونس أن يغلق الباب عندما تمتمت المرأة من دون أن تحوّل أنظارها عن شاشة التلفاز.

Twitter: @ketab_n

ـ هل جنَّدوك.

توقّف الفتى عن الحركة لا يدري إنْ كانت الكلمات موجّهة إليه.

ـ عفوًا؟

فكرّرت المرأة قولها:

ـ هل جنَّدوك؟ هل أنت أصغر متشرّد في إنكلترا.

فردّ يونس مذعورًا:

ـ لا.

قالت وهي ما تزال تنظر إلى التلفاز:

ـ حسنًا جدًّا. لقد عملت طوال حياتي رفقة الأطفال، ولكنّني لا أتمكّن من مساعدة ولدي.

راح يونس ينظر الآن إلى المرأة في عناية أكبر، فعرف أنّها السيّدة باول، المعلّمة التي جاءت لتحدّث والديه عن مستوى أخته في المدرسة. ولاحظ مدى شبهها بالزعيم ـ واسعة الجبين، طويلة الأنف، مدوّرة الشفتين، وذات عينين رماديّتين جاحظتين إلى حدٍّ ما.

واستأنفت حديثها:

ـ كان ولدي بديعًا جدًّا عندما كان في مثل عمرك. الأطفال رائعون عندما يكونون صغار السنّ. ثم يبدأون بالسير وكسر الأغراض وما إن يكبروا حتى يكرهوك!

التفتت السيّدة باول إلى يونس، تسدّد نظراتها وكأنّها أشعّة ضوء كشّاف. ثمّة جيوب سود من تحت عينيها، وبدت مرهقة، بحاجة إلى النوم.

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا تسمّي والدتك يا عزيزي؟

ـ إنّني... إنّني أسمّيها ماما.

ـ أخبرها أنّها أمّ محظوظة. فولدي يسمّيني «النظام». يظنّني مهرّجة بورجوازيّة.

ثم تنهّدت وأضافت:

ـ أتظنّه على حقّ؟

فردَّ يونس مرتبكًا:

ـ آه، لا.

وتذكّر أنّه وعد توبيكو قبل برهة وجيزة ألّا يدع النظام يقترب منه. ولكنّه على الرّغم من ذلك لم يطلق ساقيه للريح. ومضى يقول:

ـ أظنّك سيّدة رائعة. كلّ ما هو مطلوب منك أيّتها السيّدة باول هو أن تنظري إلى نفسك تحت أشعّة الشمس.

صعقت المرأة أوّل وهلة قبل أن تنفجر ضاحكة في صوت أجشّ، ولكن عندما نظرت إلى يونس ومضت عيناه بوميض جديد:

ـ هذا أجمل ما سمعت مؤخّرًا.

ـ وداعًا أيّتها السيّدة.

عندما قفل يونس راجعًا إلى غرفة المعيشة، وجد توبيكو جالسة على مقربة من النافذة، تنظر إلى عصفور في الحديقة، ريشه متقزّح الألوان من تحت أشعّة شمس الأصيل. وكان لديها كوبان من شراب الشوكولا الحارّ. وبينما هما يحتسيان مشروبهما، قال يونس:

Twitter: @ketab_n

ـ هل لي أن أطرح عليك سؤالاً؟

ـ على وجه التأكيد يا صغيري.

قال متوتّرًا:

ـ تقول أختي بخصوص الأسرار، إنّ السرّ يجب أن يبقى محفوظًا لا يشاطر ثالث فيه. ولا حتى إن كان الثالث قصبة.

رمقته توبيكو بنظرة فاحصة تنمّ عن حبّ استطلاع، وقالت:

ـ لست واثقة عن أيّ شيء تتكلّم.

ـ أعتقد أنّني أريد أن أسألك... إن كان ثمّة شخص تحبّين وأنّه يملك سرًّا لا أحد يعرف عنه شيئًا وأنّه يسبّب الحرج... ولكنّك تكتشفين ذلك السرّ. فهل تظنّين أنّ الواجب يستدعي إخبارها به أم لا؟

ـ آه، هذا سؤال صعب جدًّا، ولكنّني أعتقد أنّ المستحسن الاحتفاظ به.

بعد أن تفوّهت توبيكو بهذه الكلمات، وضعت رأسها فوق كتف الصبيّ في عناية ورفق، من دون أن تضغط عليه في قوّة. فشعر يونس بقلبه يقفز بين ضلوعه وتمنّى لو أنّ تلك اللحظة استمرّت إلى ما لا نهاية. ولكن سرعان ما عاد الزعيم، وبقيّة الشلّة، حاملاً صندوقًا يحتوي على إبر وتصاميم لوشوم مختلفة.

وقال إيغي بوب:

ـ حسنًا.. لنبدأ العمل. تنبّه! قد يكون العمل مؤذيًا قليلاً. فهل تمانع؟

أومأ يونس برأسه وعضّ شفته.

Twitter: @ketab_n

ـ ما شكل الوشم الذي تريد؟ كلمة؟ رمزًا؟

وسأل يونس:

ـ هل يمكنك أن ترسم لي حوتًا؟ كالذي بلع النبي يونس؟

وعندما أصبح الوشم كاملاً، بدا وكأنّه سمكة سلمون كبيرة وبنّيّة ـ السمكة التي كانت قد تمنّت الجدة نازي أن تتحوّل إليها في الحياة الآخرة، في عالم منسيّ.

* * *

Twitter: @ketab_n

ربّ الأسـرة

لندن، أيلول ١٩٧٨

كان اللقاء الرابع لاسكندر بالخطيب مختلفًا الاختلاف كلّه عن اللقاءات السابقة. كان الرجل يريد لقاءه على انفراد وفي مكان آخر، وليس في كهف علاء الدين. فاتّفقا على اللقاء في حديقة فكتوريا بارك.

وعندما دلف اسكندر إلى الحديقة من البوّابة الملكيّة، خطا خطوات واثقة في اتّجاه نافورة فكتوريا، ولكنّه أبطأ في سيره عندما أبصر الخطيب يقف موليًا ظهره إلى شجرة كستناء الحصان، وإلى جانبه حقيبة مدرسيّة، وواضعًا يديه في جيبيه. كان وجهه ينمّ عن استغراق في التفكير لا سبيل إلى معرفة كنهه. وكان مظهره يجعل من الصعب معرفة إن كان ينتظر منذ مدّة زمنيّة طويلة أم أنّه جاء قبل قليل. وكان يضع نظّارة سميكة الإطار على أنفه، فأبرزت تقاطيع وجهه المربّع الشكل. وكان يحتذي حذاءً بنّي اللون، مدبّبًا، وسترة كالحة اللون، فضفاضة، وبنطالاً من جينز كالذي تشتريه أمّ لابنها.

Twitter: @ketab_n

هكذا كان اسكندر يفكّر في نفسه.

قال اسكندر رافعًا يده محييًا:

ـ مرحبًا.

ابتسم الخطيب ابتسامة واهنة:

ـ تعال! دعنا نتمشّى قليلاً.

وافق اسكندر وإن لم يكن مزاجه رائقًا للسير:

ـ مؤكّدًا.

كانت الشمس مشرقة والسماء صافية. وكانت البحيرة هادئة بالقرب منهما، أشبه ما تكون بسجّادة خضراء، وعلى الجانب الآخر منها ثمّة طبقة رقيقة من ضباب شاحب. الآباء والبنون يرمون بقطع الخبز إلى البطّ. بعض الأشخاص يمارسون رياضة الجري. شابّ وشابّة مستلقيان على العشب في وضع غرامي ساخن. ولاحظ اسكندر أنّ الخطيب يشيح بأنظاره، وأنّ تغضّنًا رقيقًا يكسو جبينه. وبعد أن تعبا من السير، وجدا مصطبة شاغرة فجلسا فوقها لتجاذب أطراف الحديث.

قال الخطيب:

ـ تبدو لي مثل شخص يتمتّع بصداقات قويّة.

قال اسكندر مبتسمًا:

ـ نعم.

ـ وهل أنت زعيمهم؟

تردّد اسكندر قليلاً، فهو لم يشر إلى نفسه قطّ على أنّه الزعيم.

قال الخطيب وهو يقرأ أفكاره:

Twitter: @ketab_n

ـ لا بأس. لا بأس إن كنت مسؤولاً عنهم، ولكنّك لا تتصرّف على هذا الأساس. شيء نبيل.

قال اسكندر:

ـ شكرًا لك.

لم يسبق لأحد أن وصفه بالنبل، ولهذا لم يستطع إلّا الإحساس بالفخر والاعتزاز.

ـ إنّ رفاقك مهذّبون ولكنّهم ما زالوا فتيانًا. ما يزال أمامهم طريق طويل. أمّا أنت فمختلف عنهم. أنت أكثر نضجًا منهم. كيف حدث هذا؟

سمع اسكندر نفسه يقول:

ـ والدي غائب عنّا. وكان لزامًا عليَّ أن أكبر بسرعة فائقة. أتفهم ما أقول؟

أومأ الخطيب برأسه:

ـ حسنًا! هذا يفسّر الأمور.

انتاب اسكندر إحساس دافئ بالجدارة، وسَرَت في أوصاله دماء جديدة. لم يسبق له أن تنبّه إلى هذا الأمر، وإن كان حاضرًا أمامه طوال الوقت. لقد كبر في سرعة فائقة.

ـ أنا أكبر أخوتي، كما ترى. ولديّ أخ وأخت أصغر منّي سنًّا.

قال الخطيب:

ـ أتذكّر أختك.

كان صوته يشوبه التوتّر.

Twitter: @ketab_n

ـ آه. يؤسفني أنّها كانت مفتقرة إلى اللياقة معك في آخر مرّة.

ـ لا بأس. لا تلمها، فهي صغيرة السنّ. وفكرها مشوّش. فهي تلتقط ما تشاء من غيرها من البنات، ومن المجلّات التي تطالعها. ثم هناك التلفاز. قصف من الدعاية والإعلان.

قضم اسكندر شفته مصغيًا.

ـ المشكلة هي أنّ الأمور أصعب على النساء. فثمّة أشياء كثيرة تجعل أدمغتهنّ تنحرف عن المسار الصحيح، مثلاً، بريق عالم الأزياء والبحث عن أزواج أثرياء والأثاث الجيّد الصنع. قضيّة لا نهاية لها.

قال اسكندر:

ـ هذا صحيح.

ـ إذا لم يكن لديك مانع فسأطرح عليك هذا السؤال: ما سبب غياب والدك؟

التوى فكّ اسكندر قليلاً وكأنّه يبلع أوّل جواب خطر بباله. شعر بالارتباك، بأنّه تحت المراقبة. هل هذا اختبار؟ هل تُراه يريد أن يعرف شيئًا ما عن أبيه؟ هل تُراه يريد التأكّد إن كان اسكندر يثق به؟ فإذا كان اختبارًا، فإنّه لا يروقه. فقال باقتضاب:

ـ لديه حياة أخرى.

ـ أفهم ذلك.

ـ أنت لا تبوح بأصغر الأشياء عن نفسك، ولكنّك تتوقّع من الآخرين أن يكشفوا لك عن مكنونات صدورهم.

ابتسم الخطيب، ولاحت على ابتسامته مظاهر السخرية.

Twitter: @ketab_n

ـ هذا هو الشيء الذي يروقني فيك. لديك عدد كبير من القذائف. وإذا لم يرقك رأي أحدهم، فأنت لا تحتمله. أنت بطبعك تتقبّل المخاطرة. لا أحد يضايقك.

قال اسكندر:

ـ هذا صحيح.

ـ حسنًا. أحترم رأيك. أعتقد أنّني مثلك، لا أحبّ التحدّث عن نفسي. ولكنّني سأتحدّث الآن ما دام أنّك طلبت ذلك.

اكتسبت ملامح وجه اسكندر قليلاً من الارتياح، وشعر بقليل من الحرج بسبب ما أبداه قبل لحظات من نقد.

ـ ولد أبي خالد في مصر وجاء إلى برمنغهام في سنة ١٩٥١. وتعلّم الإنكليزيّة بنفسه أثناء اشتغاله في نوبات العمل الليلي. إنْ لم تعمل في جد، فلن ينتهي بك المطاف إلى تحقيق أيّ شيء. أتدري؟ كان ذلك خوفه الأكبر: ألّا يحقّق أيّ شيء. فما كان منه إلّا أن غيَّر من هندامه وطعامه وعاداته، ولكن لكنته ظلّت كما هي. تزوّج فتاة إنكليزيّة فولدت أنا. شخصان لطيفان. لا تسيء الظنّ بي. المشكلة هي أنّهما انشغلا انشغالاً كبيرًا بهذا العالم ممّا جعلهما ينسيان أشياء كثيرة. لم يدخل الإيمان إلى قلبيهما. وأنا أرثي لحالهما.

مرقت من أمامهما فتاة تحتذي حذاء تزلّج، وترتدي بنطالاً قصيرًا وسترة بيسبول، وكلاهما أرجوانيّ اللون. حدّج اسكندر ساقيها بنظراته الثاقبة قبل أن يعود إلى الحديث عمَّا كان يفكّر فيه:

ـ نعم، ولكنّهما والداك في نهاية المطاف.

Twitter: @ketab_n

ـ وأنا أحبّهما، غير أنّ هذا لا يعني أنّني أحترمهما. الحبّ والاحترام شيئان مختلفان. فإذا ما أخطأ والداك، فإنّ الواجب يقتضي منك أن تقف في وجهيهما.

وقال اسكندر من دون أن يعرف إلى أين سيصل به هذا الكلام.

ـ عندما نشأنا وترعرعنا، لم يكن والدنا حاضرًا. ثم هجر البيت. على هواه. حدث ذلك منذ سنة تقريبًا.

كان اسكندر يحاول أن يخفّف من وطأة الموضوع، ولكنّه لم يتمكّن من إخفاء القشعريرة التي انتابت صوته.

دفع الخطيب نظّارته إلى الوراء ورنا إلى اسكندر.

ـ إذًا أنت ربّ الأسرة الآن. لا بدّ أنّ الأمر صعب. ينبغي لك أن تكون قويًّا، ذا بأس. حسنٌ أنّك تتعلّم الملاكمة، ولكنّك بحاجة أيضًا إلى الجانب المعنوي.

قال اسكندر:

ـ أفهم ما تقول.

ولكن لم يكن اسكندر متأكّدًا من أنّه كان قد فهم.

وهنا فتح الخطيب الحقيبة المدرسيّة وأخرج منها كرّاسين، وقال:

ـ هذان الكتابان لك. وبعد أن تفرغ من قراءتهما، سوف نتحدّث في شأنهما. أرجو أن تخبرني بما يروقك في كلّ واحد منهما. ولا تتردّد في إطلاعي عمّا لا يعجبك فيهما.

ـ تحبّ أسماء الكتب. أمّا أنا فلست بذلك القارئ الذي يعتدّ به.

Twitter: @ketab_n

ـ حسنًا. لا بدّ من تغيير هذه الحالة إذًا.

لم يبدُ عليه أنّه يتكلّم هذا الكلام بصفة الآمر، وإنّما كان مصمّمًا على تحقيقه. وأضاف:

ـ العقل في حاجة إلى أفكار مثلما تحتاج السيّارة إلى وقود لتنطلق على الطريق. وعلى وجه العموم، فإنّ الكتب مصدر الأفكار.

ـ أعتقد أنّك على صواب.

ـ كما أرجو أن تحتفظ بالكتابين لك. هلّا قبلت بهما؟

فقال اسكندر:

ـ في وسعك أن تثق بي.

وكاد أن يقول ما هو أكثر من ذلك عندما خفض بصره ونظر إلى ساعته، ولكنّه اكتفى بالقول:

ـ آه، لا. ينبغي لي أن أذهب.

فرقع الخطيب لسانه على أسنانه، ولاحت في نظرته ملامح الخديعة:

ـ فتاة.

ـ نعم.

ـ إنكليزيّة؟

ـ نعم.

ـ ولِمَ ليست بنتًا من بناتنا؟

فوجئ اسكندر بالسؤال. فقد فكّر دومًا بأنّ الاختلاف بينه

Twitter: @ketab_n

وبين كاتي على أنّه صراع شخصيّات وليس أكثر من ذلك. يضاف إلى ذلك، كان الخطيب نفسه إنكليزيًّا بكلّ ما في الكلمة من معنًى. صحيح؟ وعندما تكلّم اسكندر من جديد، كانت نبرته يشوبها القلق.

ـ لا أدري. هكذا شاءت المصادفة.

ـ هه! وهل هي فتاة طيّبة؟

قال اسكندر وإن كان لا يدري ما يعني بجوابه:

ـ لا بأس بها.

ـ حسنًا. اذهب الآن. لا تتركها في الانتظار. سأدعو الله أن يرشدك إلى الطريق المستقيم.

تمتم اسكندر متظاهرًا أنّه لم ينزعج بتطفّل الرجل:

ـ شكرًا لك، وسألتقيك في الجوار.

* * *

Twitter: @ketab_n

الـديـن

لندن، ٣٠ أيلول ١٩٧٨

دلف اسكندر إلى دكّان طارق في وقت متأخّر من عصر يوم السبت، وكانت قبّة سترته مرفوعة إلى أعلى. نهض عمّه واقفًا على قدميه ليحيّيه، وافترّ ثغره عن ابتسامة فخر واعتزاز. لقد تغيّر الفتى كثيرًا في تلك السنة، فبات أطول قامة من والده وأكثر لياقة وأشدّ قوّة وبأسًا. وكان شارب خفيف قد لاح من فوق شفته العليا، وعيناه تفيضان حيويّة الشباب.

ـ انظروا إلى من جاء إلى هنا: ابن أخي المفضّل!

ابتسم اسكندر ابتسامة باهتة، وقال:

ـ كيف حالك يا عمّاه؟

قال طارق:

ـ لست أحسن من قبل. لمن أدين بهذا السرور؟

ـ سوف ألتقي بعض الأصدقاء في الحيّ، ففكّرت في زيارتك أوّلاً.

Twitter: @ketab_n

كان الفتى يتكلّم مزيجًا من العامّيّة الإنكليزيّة والتركيّة. وعلى الرّغم من أنّ لكنته لم تكن فظيعة، إلّا أنّ مفرداته اللغويّة كانت محدودة جدًّا حتى إنّه غالبًا ما لجأ إلى استخدام الكلمات نفسها ليعني بها أشياء مختلفة. وبينما كان طارق يصغي، فكّر في إرساله للعيش في اسطنبول فترة من الزمان ـ وربّما من غير رجعة. أو من الأفضل أن يكلّم بمبي لتأتي بخطيبة له، فتاة متواضعة من إحدى قرى الأناضول.

ـ وكيف حال المدرسة؟ هل أنت مرتاح في الدراسة؟ وهل يعاملك المعلّمون معاملة حسنة؟

فأجاب اسكندر من غير مبالاة:

ـ المدرسة جيّدة.

ـ وملاكمتك؟

أجاب اسكندر:

ـ لديّ مباراة عن قريب ولكن ماما لا توافق عليها.

ـ حسن.. لا يمكنني أن ألومها، فهي تخشى أن يصيبك مكروه.

لبث اسكندر صامتًا بعض الوقت، مصغيًا إلى صوت خرزات المسبحة.

ـ لي صديق في ورطة يا عمّاه.

ـ وهل جاء هذا الصديق إليك طالبًا النصح والإرشاد؟

ـ نعم. أنا في مقام الأخ الأكبر للصبيان، ولهذا السبب جاء إليَّ.

Twitter: @ketab_n

ـ وما مشكلة صديقك تحديدًا؟

ـ إنّه في حاجة إلى المال.

كبت طارق زفرة.

ـ كم هو المبلغ الذي تتحدّث عنه؟

عندما ذكر اسكندر المبلغ، مسَّد طارق لحيته وسأل:

ـ لماذا يحتاج ولد بهذا العمر إلى مثل هذا المبلغ الكبير؟

لاحت أمارات القلق على وجه اسكندر واختلس نظرة إلى عمّه، ولكنَّ صوته كان هادئًا لا يشوبه أيّ ارتباك عندما أجاب:

ـ يبدو أنّ صديقته حبلت، ويحتاج المال للطبيب في العيادة.

صرَّ طارق على أسنانه، وقال:

ـ هذه الفتاة... أهي إنكليزيّة مائة في المائة؟

قال اسكندر:

ـ نعم، لماذا تسأل؟

كان الجواب يبعث على الارتياح إذْ تبيّن أنّ الفتاة ليست من بنات الجيران أو من جالية أخرى من الجاليات المهاجرة إلى لندن. وهذا يعني أنّ القضيّة لا تنطوي على وجود أسر أو آباء أو إخوان يطلبون ثأرًا. وأرسل طارق زفرة عميقة وكأنّه يدرك كلّ الأسئلة التي قرّر ألّا يطرحها. وتنبّه إلى أنّ الفتى يراقبه، فما كان منه إلّا أن وقف على قدميه وسار نحو الخزانة التي كان يحتفظ بها في إحدى زوايا الدكّان.

ولمّا عاد رآه اسكندر يحمل أوراقًا نقديّة بين يديه، ووضعها أمامه، فشعر أنّه مضطرّ إلى أن يختلس نظرات خاطفة هنا وهناك

Twitter: @ketab_n

بعد أن ساوره إحساس بالقلق. وقال طارق:

ـ قل لصديقك إنّك سوف تساعده.

ردّ اسكندر

ـ شكرًا لك يا عمّي.

ـ ولكن دعه يعلم أنّ هذه هي المرّة الأخيرة التي تمدّ له فيها يد العون. على صديقك أن يسيطر على نفسه، وإلّا فسوف يتورّط في مشكلات أكبر! ابعث له بتحيّاتي وتأكّد من أنّه سيفهم ما أقول.

قال اسكندر:

ـ لا تقلق.. سأتأكّد من أنّ الرسالة سوف تصله.

ثم وضع النقود في جيبه واتّجه نحو الباب، ولكنّه توقّف:

ـ عمّي!

ـ نعم.. أهناك شيء آخر؟

غمز طارق بعينه، وانتابه شكّ مفاجئ من أنّ الفتى في ورطة شديدة لا تفلح بضع أوراق نقديّة لحلّها.

ـ لا شيء. كلّ ما أردت أن أقول هو أنّك تقوم مقام أبي.

وهنا انشرحت أسارير طارق، وقال:

ـ على الرحب والسعة في كلّ وقت يا ولدي. إنّني هنا لأساعدك.

أومأ اسكندر إيماءة صغيرة وبدا الجدّ عليه بغتة، وقال:

ـ سترى أنّني سأسدّد هذا الدين يومًا ما.

* * *

Twitter: @ketab_n

رجل من العالم الآخر

لندن، تشرين الأوّل ١٩٧٨

عندما دلفت ميرال إلى المحلّ في وقتها المعتاد من يوم الجمعة، وجدت زوجها منهمكًا في مكالمة هاتفيّة. كان طارق قد دفع ذقنه إلى أمام وراح يجذّب لحيته على النحو الذي يفعله دائمًا وأبدًا عندما يوشك أن يفقد أعصابه. ومهما كانت هويّة المتحدّث على الطرف الآخر من الهاتف، إلّا أنّه بدا وكأنّه هو الذي يتولّى معظم ما يدور من حديث. مرقت ميرال في هدوء من جانبه واتّجهت إلى مؤخّر المحلّ حيث فتحت قِدْرها المعدني وراحت تعدّ طعام الغداء لزوجها. كانت قد أعدَّت في هذا النهار طبق مانتي المؤلّف من قطع من العجينة المحشوّة باللحم المتبّل، ووضعت قطعًا أخرى من الفلفل الحارّ في صلصة اللبن والزبدة، أكثر ممّا اعتادته. وساورها قلق خشية ألّا تعجبه.

وما إن أعدَّت المائدة حتى أمسكت بمنشفة مبلّلة وراحت تنظّف الرفوف من الغبار، بينما أخذت الأساور الذهبيّة ترنّ في

Twitter: @ketab_n

معصمها رنينًا يبعث على السرور. وأنعمت النظر في علب اللحم والفاصوليا المطبوخة وزجاجات الصوص البنّيّة وأنبوبات سلطة الكرنب وسلطة البطاطا وزجاجات البصل المخلّل ـ أطعمة لم تذقها في حياتها.

وكانت سألت زوجها يومًا ما:

ـ من يشتري مثل هذا الطعام؟

فكان ردّ طارق عليها:

ـ زوجات عصريّات لا وقت لديهنّ لطبخ الطعام، إذْ يستغرقن في العمل وقتًا طويلاً. وفي المساء، يحضرن لشراء بعض السمك المعلّب ويخلطونه بكريمة السلطة ويسمّين ذلك عشاءً.

وفكّرت ميرال في نمط أولئك النساء، وتساءلت عن نوع الأسر التي تحدّرت منها. ولم تُثر دهشتها حتى النساء اللواتي تظهر صورهنّ على أغلفة المجلّات الخاصّة بالرجال قدر ما أثارتها هذه الزوجات اللازوجات. فالفتيات اللواتي يظهرن في المجلّات إمّا أن يكنّ مخدوعات أو دُفعت لهنّ مبالغ طائلة كي يقفن أمام العدسات في ثياب عيد ميلادهنّ. هنّ ساقطات. وليساعدهنّ الله حتى يهتدين إلى الطريق المستقيم. أمّا الزوجات العصريّات، فلسن ضحايا بأيّ حال من الأحوال. فهنّ يملكن المال ويقدن السيّارات ويرتدين الثياب الأنيقة، بل للبعض منهنّ أولاد، ومع هذا لا يقمن بحشو الفلفل الأخضر لأزواجهنّ.

وراود ميرال شكّ عميق في أنّ لزوجة أخيها مثل هذه الأفكار، خفية غير معلن عنها. فهذه بمبي تتمتّع بقدر من الاستقلاليّة لا يمكنها أن تفهمه، قدر من التمرّد في بحر هادئ.

Twitter: @ketab_n

لكن زوج بمبي ليس بالرجل الصالح، فهو لم يأت منذ عشرة أشهر، وقبل ذلك، لم يره أحد في الجوار. زوجها ليس كذلك أبدًا.

وصاح طارق وهو ما زال يمسك سمّاعة الهاتف:

ـ أيّتها الزوجة!

ـ ماذا؟

التفت طارق قليلاً وأشار إلى الباب، فقد رأى ثلاثة زبائن يدخلون المحلّ. ولدان وبنت. كانوا صغارًا جدًّا. ربّما في مثل عمر ابنتي الكبرى، كما ظنّت ميرال. كان أحد الولدين يزيّن حاجبيه بزينة فضّيّة، فيما اكتست قمّة رأسه بكتلة من شعر برتقالي اللون، وكأنّها عشّ بناه طائر غريب. أمّا الولد الآخر، فكان طويل القامة، هزيلاً، لا يرتدي أيّ قميص من تحت صدريّته الأفغانيّة، كاشفًا بذلك عن صدره الخالي من الشعر. أمّا البنت، فكانت ذات شعر فاحم بلون الغراب، بشرتها شاحبة بلون الطحين، ترتدي جوارب طويلة ممزّقة، وتعلو كلّ بقعة بارزة من جسدها وشوم من كلّ لون ونوع.

أغمضت ميرال عينيها برهة وجيزة وكأنّها كانت تأمل في أن ينصرف هؤلاء الصغار عندما تفتح عينيها من جديد.

وغمغمت الفتاة:

ـ أراهن أنّها لن تخدمنا.

وسأل الصبي الذي لا يرتدي قميصًا وهو يميل من فوق النضد، متّهمًا ومسرورًا في آن واحد:

Twitter: @ketab_n

ـ آه، لا. هل أثرنا خوفك أيّتها السيّدة؟

تسلّلت رائحة أنفاس الشابّ إلى أنف ميرال، رائحة هي مزيج من الجعة والسكائر، فتراجعت إلى الوراء من غير عمد، ورنت إلى زوجها بنظرة جانبيّة. كان طارق ما يزال منهمكًا في المكالمة الهاتفيّة، ولم يبدُ عليه أنّه سوف يفرغ منها أبدًا.

وسألت ميرال في حذر:

ـ نعم، ماذا تريدون؟

كم مرّة طلبت ميرال من زوجها أن يشدّد من الإجراءات الأمنيّة في المحلّ، ولكنّه رفض مسوّغًا رفضه بارتفاع الكلفة. وكان السلاح الوحيد الذي فكّرت فيه ميرال الآن، إذا ما اقتضت الضرورة، قضيبًا ينتهي طرفه بشبكة ويستعمل لإنزال البضاعة من فوق الرفوف العالية.

سأل الفتى البرتقالي الشعر:

ـ هل لديك شراب الزنجبيل أيّتها السيّدة؟

فردّت ميرال رافعة ذقنها إلى أعلى كأنّها على استعداد لتلقّي ضربة:

ـ ليس لدينا شراب الزنجبيل.

كان صوتها ضعيفًا يفتقر إلى الأمان. ولما كانت لا تملك أيّة فكرة عمّا يتحدّثون به، فقد رأت أنّ الأسلم هو رفض الطلب مباشرة. لكنّ الفتى الذي لم يكن يرتدي قميصًا اكتشف أمر الثلّاجة حيث تحفظ المشروبات الغازيّة.

ـ آه، أيّتها السيّدة. لديكم كمّيّات كبيرة منها هنا، فلِمَ تقولين ليس لديكم؟

Twitter: @ketab_n

قال ذو الشعر البرتقالي، رافعًا أنفه إلى أعلى:

ـ ربّما تخطّط لشربها كلّها!

فقاطعته الفتاة:

ـ لا تكن سخيفًا.

ثم أشارت إلى الرفوف من وراء النضد، وأضافت:

ـ أعطني علبة من هذه الحلوى من فضلك.

نظرت ميرال إلى العلبة في دهشة، وفكّرت: تبًّا! ما الذي تبغيه هذه البنت؟ ثم أمسكت بالحلوى واحدة تلو الأخرى والبنت تصيح: لا ليست هذه.. إلى أن عثرت على الحلوى المطلوبة.

وهنا قطع حديثهم صوت طارق مدوّيًا. واقترب منهم واضعًا يديه من وراء ظهره، يسبّح في مسبحته، وقال:

ـ مرحبًا.

ثم التفت إلى زوجته، وسألها بأدب جمّ:

ـ والآن، ماذا عندنا هنا؟

أوضحت ميرال وهي تضع العلبة فوق النضد بقوّة:

ـ حلوى خطميّة.

فأومأ طارق رأسه:

ـ حسنًا. سأتولّى أنا بقيّة الأمر.

عادت ميرال إلى عملها في التنظيف على مضض، ولكن سرعان ما ألمّت بها الدهشة عند رؤيتها الشابّ البرتقالي الشعر وهو يسرق قطعتين من النوغة. وبعد تردّد قصير، قرّرت أن تتظاهر بأنّها

Twitter: @ketab_n

لم تشاهده ما دام أنّه لم يستمرّ في سرقة ما هو أغلى قيمة وثمنًا. راقبت زوجها منشغلاً في نقاش مرح مع زبائنه. واشترى الفتيان علبة سكائر وعلبة كبريت وكيسًا من تويغليت إضافة إلى شراب الزنجبيل والحلوى الخطميّة. ومضوا في سبيلهم مودّعين ميرال التي لم تجد بدًّا من التلويح لهم.

وما إن اختلت ميرال بزوجها حتى تذمّرت أمامه، وقالت:

ـ انظر إليهم.

فهزّ طارق كتفيه، وقال:

ـ ماذا في وسعكِ أن تفعلي؟ فهم شبّان وسريعو الغضب.

وفكّرت ميرال: بل هم شبّان وإنكليز. فلو أنّ أحد أبنائهما ارتدى مثل تلك الثياب، لأُصيب زوجها بنوبة. كانت هي في الأقلّ متماسكة. في البيت وفي الشارع أو في الدكّان ـ هي الشخص نفسه في كلّ مكان. ولم تفهم كيف يمكن لشخص أن يثقب بشرته أو يسير متسكّعًا، ممزّق الثياب، تمسك أطرافها الدبابيس الآمنة! لم تشأ ميرال أن تتظاهر أنّها توافق هؤلاء الشبّان على نمط حياتهم لأنّهم زبائن لا أكثر.

لم ينتبه طارق إلى الأفكار التي كانت تدور في ذهن ميرال عندما أكبّ على الغداء وهو واقف، وقال:

ـ هذا الطعام يحتوي على الكثير من التوابل.

ـ لم لا تجلس وتأكل على مهل؟

ـ لا وقت لديَّ. إنّني مضطر إلى الخروج.

ـ ماذا تعني؟ أنا لا أستطيع الانتظار هنا. لديّ شوربة من على الموقد.

Twitter: @ketab_n

فقال طارق وهو يمضغ الطعام:

ـ البنات في البيت، وسوف يعتنين بها. القضيّة عاجلة يا زوجتي. لقد اصطدمت بالموزّعين. وإذا لم أحلّ المشكلة اليوم، فلن يكون لدينا ما نبيعه يوم غد، لا حليب ولا زبدة ولا بيض. كما أنّنا لن نتسلّم الخبز أيضًا.

فتنهّدت وسألت:

ـ وإلى أين أنت ذاهب؟

ـ آه، إلى الجانب الآخر من لندن اللعينة!

* * *

استقلّ طارق الحافلة لأنّه كان يمقت ركوب قطار الأنفاق لما تسبّبه له هذه القطارات من انزعاج عند تنقّله بواسطتها تحت سطح الأرض: عندما توافينا المنيّة، فإنّ الأمر سوف ينتهي بنا تحت التراب، فما الفائدة إذًا في الذهاب إلى تحت الأرض ونحن ما زلنا أحياء؟

لم يكن طارق يعرف ذلك الجزء المسمّى ساوث ـ ويست لندن الذي يتّجه إليه. فهو يقع على مسافة بعيدة، والحافلة تسير في بطء، غير أنّ السوّاق ليسوا مضربين على الأقلّ. كان يستشيط غيظًا لأنّه مضطر إلى الذهاب إلى مثل هذا المكان النائي ليحلّ ما يعتقد أنّه سوء تفاهم بسيط. ورتّب الحديث الذي سوف يجريه مع المدير، فقد نهره الرجل على الهاتف بأنّه لم يعد لديه أيّ عقد معهم. غبي! أخرج طارق ورقة مطويّة من جيبه الداخلي وتفحّصها. سوف يشعرون بالخزي إذا ما أظهر العقد أمامهم.

Twitter: @ketab_n

وللتعويض عن ذلك، فإنّهم سوف يلجأون إلى عرض حسم خاصّ عليه. وفي كلّ الأحوال، عليه أن ينهي هذا الاختلاف من فوره. إنّه رجل عصامي ولن يسمح لبيروقراطي جبان أن يحطّم سنوات من العرق والدماء والدموع.

غيَّر من الحافلة مرّتين، وشعر لاحقًا أنّ ساعات طوالاً قد مضت، وأخيرًا ترجّل في منطقة بركستون. على الرّغم من أنّ فترة ما بعد الظهر كانت باردة، فإنّ الشمس كانت ساطعة على نحو غير متوقّع مثل حفل مفاجئ. بعض أهالي الحيّ كانوا مستمتعين بالدفء ما دام موجودًا في زقاق كولد هاربور. ولاحظ طارق أبناء الإنكليز، أنوفهم الصغيرة محمرّة، بشرتهم شاحبة، وثيابهم على الدوام أخفّ ممّا ينبغي! كانت الأمّهات التركيّات يُلبسن أطفالهنّ سترات، واحدة من فوق الأخرى، ويضعن فوقها بطّانيّة من حياكتهنّ قبل أن يخرجن معهم إلى خارج البيت. أمّا الأمّهات الإنكليزيّات فكنّ يكتفين ببنطال قصير وسترة خفيفة؛ وفي بعض الأحيان لم يلبس الأطفال أيّ جوارب! لماذا لا يتجمّدون؟.. ولم يفهم طارق طول حياته أنّ القدرة على التعامل مع البرد يمكن أن تكون ثقافيّة في أصلها.

كان يفضّل التوقّف عند مقهى لتناول الشاي، ولكن هذا ليس من ضمن ميزانيّته. فهو الوحيد من بين أفراد أسرة طبرق الذي يمتلك من الحكمة وقوّة الإرادة ما يمكنه من توفير المال لاستعماله وقت الضرورة. كان خليل منفردًا بنفسه ويحيا حياته الخاصّة في أستراليا، ولم يستفسر منهم إن كانوا في حاجة إلى أيّ شيء. أمّا آدم، فلا أمل يرجى منه؛ فهو يقامر، ويسلّم كلّ ما يربحه من مال

Twitter: @ketab_n

للراقصة الروسيّة التي تتناولها الألسن بالأقاويل، وإن لم يكن طارق قد رآها حتى اليوم.

سار طارق في خطوات ثابتة وعلى مهل من أمام محلّ إسكافي ومكتبة دينيّة ودكّان خيري رثّ المظهر وصفوف من بيوت متماثلة مشيّدة بالآجر الأحمر.

وعلى العكس من الطريق العامّ، لم يشاهد طارق هنا أيّ عابري سبيل. بدت له المنطقة مهجورة، وكانت دار السينما نفسها ذات مظهر غريب وكأنّها أثر من آثار قرن آخر من الزمان. هذه المدينة موغلة في القدم، مملوءة بآثار الماضي. وقد عثر طارق ذات يوم على شظايا عندما حفر تربة حديقته.

وفكّر في حال ميرال في الدكّان في تلك اللحظة. ينبغي لها أن تتعلّم الإنكليزيّة في سرعة إن كانت تريد مساعدته في عمله. وربّما يتعيّن عليها أن تشتري معجم الجيب وتتأكّد من أنّها تحفظ عن ظهر قلب خمس كلمات في الأقلّ يوميًّا. لقد بقيت زوجته تعيش طوال هذه السنين في إنكلترا وهي لا تتكلّم سوى اللغة التركيّة في عالمها الصغير، ولم تكن لديها أيّة مشكلة. ولكنّه أدرك الآن أنّ ميرال يجب أن تحقّق ما هو أفضل من ذلك. فطارق لم يعد شابًّا، وبات الآن يتحمّل مسؤوليّة أسرتين ـ أسرته وأسرة شقيقه.

لكنّ اللغة الإنكليزيّة الضعيفة التي تتكلّم بها ميرال لم تكن السبب الوحيد لعلاقتها المتوتّرة مع الزبائن. لقد كانت جافّة في معاملة الزبائن، تصدر أحكامها عليهم كما تشاء، ولا تعرف كيف تسهر على خدمة الآخرين. وإذا كانت هذه المرأة قد أنفقت حياتها في العناية بزوجها وأطفالها وأقربائها وجيرانها، فإنّها، ويا للغرابة،

Twitter: @ketab_n

لم تتمكّن من الاهتمام بالغرباء، في حين أنّ زوجها، الذي لم يهتمّ بأيّ فرد داخل البيت أو خارجه، كان لطيفًا في معاملته الزبائن.

توارت الشمس من جديد عن الأنظار، من خلف سحب كثيفة رماديّة اللون. ثمّة عاصفة تنذر بالهبوب.. وطارق يحثّ خطاه مسرعًا بعد أن وصل أخيرًا إلى حيث وجهته.

* * *

كان اللقاء عنيفًا، إذْ لم يسمحوا لطارق بمقابلة المدير الذي كان لديه «اجتماع مهمّ». وكشف طارق للمعاون عن عقده وهو خائب الأمل، فأخبره هذا أنّ ثمّة شرطًا مفاده أنّ في وسع الشركة أن تطلب إجراء بعض التعديلات المحدّدة وأن تنهي العقد من دون إخطار سابق. فهدّد طارق بالبحث عن مجهّز آخر، فردَّ عليه: «كما تشاء».

وبعد مرور عشرين دقيقة، خرج من المبنى مهمومًا مغمومًا، ولكنّه ليس مهزومًا. ينبغي له أن يستفسر في الجوار قليلاً وأن يستمع إلى مشورة غيره من أصحاب الدكاكين في حيّ هاكني وأن يتّصل بشركة أخرى. المشكلة الوحيدة هي أنّه كان يجب أن يستمع الآخرون إلى مشورته وليس العكس. لديه سمعة لا بدَّ من الاحتفاظ بها. وعندما اقترب طارق من دار السينما، خفض من سرعة سيره وألقى نظرة متأنّية إلى الملصق المثبّت على الجدار خارج المبنى.

Twitter: @ketab_n

رجل من العالم الآخر

هاري هودیني

على الرّغم من أنّ طارق لم يكن من عشّاق السينما، إلّا أنّه كان يبدي اهتمامًا بحياة الساحر الكبير، لأنّ الرجل الذي يتمكّن من الفرار وهو معلّق رأسًا على عقب في صهريج مملوء بالماء، مقيّد الرسغين والقدمين، يستحقّ قدرًا من الاهتمام. وهكذا دخل البهو، ورنا إلى ما حوله. ثمّة لوحة معلّقة على الجدار تحتوي على عدد من الصور والمراجعات النقديّة. وبعد أن أمعن النظر، خاب أمله عندما علم أنّ الشريط قديم وصامت. أسود وأبيض بلا أدنى ريب. هل ثمّة من يشاهد مثل هذه الأشرطة؟

وفي حركة كأنّها تردّ على تساؤله، فُتحت أبواب مدخل الصالة وخرج منها شابّ وشابّة إنكليزيّان. لقد انتهى الشريط وبدأ الروّاد القلائل يغادرون. وشاهد طارق امرأة من وراء الشابّين كانت تتابع طريقها نحو باب الخروج، وعيناها مسمّرتان على الأرض.

خطا طارق إلى أمام غير متعمّد، كأنّه يريد أن يقبض على

Twitter: @ketab_n

زوجة أخيه. . كاد أن يهتف باسمها، أن يسألها عمّا كانت تفعله في هذا المكان بمفردها، وأن يعرض عليها مرافقته إيّاها إلى البيت عندما شاهد رجلاً في خريف العمر يتقدّم من بمبي. أمسك بها من ذراعها وتمتم بشيء ما في صوت خافت وناولها قصاصة ورق أخذتها منه مبتسمة، ووضعتها من فورها في جيبها.

وقف طارق من خلفهما مشدوهًا، مشوّش العقل، مقلّبًا بصره إلى الأمام وإلى الخلف من تحت ملصق إعلاني يقول:

ما من شيء على وجه الأرض يمكنه وضع هوديني في السجن.

* * *

Twitter: @ketab_n

القـــرار

لندن، تشرين الأوّل ١٩٧٨

عندما اقترب اسكندر في صباح يوم السبت من المقهى الذي سيلتقي فيه كاتي، ألمّت به الدهشة وهو يرى طارق يقف خارج المقهى يذرع الأرض جيئة وذهابًا، جاذبًا لحيته في قوّة.

ـ ما الذي تفعله هنا يا عمّاه؟

ـ إنّني أنتظرك. لقد عرَّجت على مقهى كهف علاء الدين فأخبرني أصدقاؤك أنّك ربّما في هذا المكان.

تقلّبت معدة اسكندر وفكّر في نفسه: ترك عمّي طارق دكّانه أثناء ساعات الافتتاح للبحث عنّي؟ ثم قال:

ـ هل كلّ شيء على ما يرام؟

ـ ينبغي أن نتحدّث. حديث رجل لرجل.

ـ هل الموضوع يخصّ النقود التي أعطيتني إيّاها في ذلك اليوم؟

Twitter: @ketab_n

ـ آه، اخرس، واستمع إلى ما سأقول.

ـ لكن يتعيّن عليَّ أن ألتقي شخصًا ما الآن.

فقال طارق في صوت تشوبه حشرجة:

ـ لا تقلق لهذا الأمر.

لم يدرك اسكندر إلّا في تلك اللحظة شدّة توتّر عمّه، وتصبّب العرق من جسده وكأنّ النهار قائظ. وجلس الاثنان على سور حديقة قريبة، يخيّم عليهما صمت ثقيل. أشعل طارق سيكارة، في حين فكّر اسكندر إنْ كان في وسع كاتي أنْ تشاهدهما من حيث تجلس داخل المقهى، وما الذي يتعيّن عليه قوله لها إنْ خرجت وسألته عمَّا يدور بينهما.

وقال طارق:

ـ أيّ بنّي! لديّ خبر مزعج لك.

ـ نعم، أظنّ ذلك.

جذب طارق أنفاسًا مرتبكة من سيكارته، وكان الدخان يخرج من بين منخريه، وأخيرًا قال في صوت بالغ الهدوء:

ـ الأمر يخصّ والدتك.

* * *

دخل اسكندر المقهى مطبق الشفتين، حادّ النظرات، ممتقع الوجه وكأنّه شبح. سار في اتّجاه كاتي التي كانت تنتظره من حول طاولتهما المألوفة، توشك أن تفرغ من تناول كعكة صغيرة مدوّرة، وتحتسي ما تبقّى من ثاني كأس من مزيج الحليب بالموز والفراولة.

قالت كاتي متنهّدة:

Twitter: @ketab_n

ـ تأخّرت من جديد!

ـ آسف.

ـ لقد اعتدت تأخّرك كما تعلم، ولكنّني كنت أتوقّع أن يكون موعدنا اليوم مختلفًا. فكّرت أنّك سوف تهتمّ بشخص آخر.

أمسك اسكندر يدها وقبّل أطراف أصابعها.

ـ لماذا تتذمّرين؟

ـ لماذا؟ وكأنّك لا تعرف السبب.

ثم توقّفت عن الكلام وكأنّها توشك أن تقول شيئًا آخر، بيد أنّها انفجرت باكية.

أخرج اسكندر مبلغًا من المال من جيبه ووضعه في راحة كفّها.

ـ سوف يساعدك هذا المال قليلاً.

ولمّا رآها صامتة، أضاف:

ـ حصلت على المال من عمّي، ولم تسنح لي الفرصة لأعطيه لكِ لأنّك كنت لا تريدين رؤيتي.

ـ حسنًا، قلت لك إنّني أريد أن أفكّر في الموضوع مليًّا، بمفردي.

ـ إذًا؟

ـ إذًا، أعد النقود إلى مكانها.

قالت كاتي ذلك في حدّة وتراجعت إلى الوراء وكأنّها لمست قطعة متّقدة من الجمر.

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا تعنين؟

ـ غيَّرت رأيي يا أليكس.

ـ غيَّرتِ ماذا؟

ـ لا تنظر إليَّ مثل هذه النظرة... كلّ ما هناك... أنّني لم ألجأ إلى الإجهاض، لأنّني أريد الطفل.

فهتف اسكندر مندهشًا:

ـ هل أصابك مسّ من الجنون؟

ثم خفض صوته ومضى قائلاً:

ـ أنتِ ما زلتِ في السادسة عشرة من عمرك. وسوف تصاب والدتك بنوبة قلبيّة.

ـ لا بأس. إنّها تعرف بالأمر.

ـ لا بدَّ أنّك تمزحين.

همس اسكندر وقد استبدّ به شكّ جديد:

ـ آه، فهمت. إنّها هي التي غسلت دماغك.

ـ هذا غير صحيح. لماذا تنزعج كلّما ذكرتها.

ـ لأنّنا تحدّثنا عن هذا الموضوع مرارًا وتكرارًا، واتّخذنا قرارًا مشتركًا! وذهبت إلى عمّي وحصلت على النقود. وقد عثرت على العيادة الطبّيّة، وحدّدت لك موعدًا. وقد لبثتِ تؤجّلين الذهاب مرّة، مرّتين.. وأخيرًا قرّرنا أن نذهب. والآن تقول الأميرة إنّها غيَّرت رأيها!

بدأت كاتي تبكي من جديد، لكن بكاءها كان مختلفًا هذه المرّة، خاليًا من الشفقة على الذات. وسقطت دمعة في كأس

Twitter: @ketab_n

العصير تاركة نقطة مالحة من فوق سطح العصير الوردي اللون.

ـ هذا الطفل ثمرة الحبّ، وله الحقّ في أن يولد.

ـ هراء، يا كاتي ايفانز.

فاحتجّت قائلة:

ـ لا، ليس هراءً. إنّني أشعر منذ الآن أنّني مرتبطة به... أو بها، مهما كان. لقد مضت ثلاثة أشهر على هذا الحمل.

ـ ماذا؟ لماذا لم تخبريني؟

قالت في غَلَظة:

ـ أنا شخصيًّا لم أعرف. لكن لا يهمّ. فعندما يولد طفلنا، أريد منك أن تأتي لتعيش وإيّانا، أنا وأمّي.

عقد اسكندر ما بين حاجبيه.

ـ هل تؤمنين بهذه التفاهات؟ لقد جنّ جنونك!

دفعت كاتي كرسيّها إلى الوراء في قوّة محدثة صريرًا، وقالت في صوت حادٍّ وعالٍ ينمّ عن مشاعر جريحة وآلام نفسيّة، صوت لا سبيل الى معرفة صاحبته:

ـ لن أجلس هنا لتكلّمني مثل هذا الكلام. إنّني خارجة.

ـ إلى أين ذاهبة؟

ـ إلى البيت. لأستلقي. أمّي تقول إنّني لا ينبغي أن أرهق نفسي كثيرًا.

ضرب اسكندر على الطاولة ضربة قويّة جعلت بعض الزبائن يختلسون نظرة خاطفة إليهما. لكن كاتي لم ترعوِ:

Twitter: @ketab_n

ـ أقول لك ما يأتي: لِمَ لا تهدأ قليلاً وتفكّر في بعض الأسماء؟ قم بتهيئة اسمين من أسماء البنين والبنات.

لبث اسكندر جالسًا هادئًا يدخّن سيكارته تدخينًا عميقًا، واضعًا رأسه بين يديه، معدته تتقلّب من جديد. لم يرفع بصره إلى أعلى، وكان يشعر أنّ النادل يراقب هذه المشاهد الصغيرة وهي تبدأ، مفكّرًا في الشيء الذي ينبغي له أن يفعله بعد أن اندفعت صديقته ومضت في سبيلها لا تلوي على شيء. في هذه اللحظة، لم تكن لديه الرغبة لرؤية أصدقائه أو الذهاب إلى البيت. أكل ما تبقّى من كعكة كاتي ودفع عنه الفتات التي تساقطت في حضنه. وتمنّى لو أنّه تمكّن من فهم تلميحات العمّ طارق الفظيعة من دون أن يترك أثرًا منها. ولمّا شعر أنّه في كامل وعيه، أخرج أحد الكرّاسين اللذين أعطاهما له الخطيب قبل فترة وجيزة من الزمان، وكان يحملهما معه في داخل جيب سترته ولم يفتحهما. حاول أن يطوف وسط الجملِ الرنّانة، ولكنّ الكلمات كانت تنزلق في مجموعة مشوّشة من الحروف. وسرعان ما تخلّى عن القراءة ونادى على النادل ليطلب طعامًا أكثر ممّا يقدر على تناوله. على أيّة حال، لديه المال.

* * *

Twitter: @ketab_n

أمّ

لندن، تشرين الأوّل ١٩٧٨

قاد يونس درّاجته على امتداد شارع ريتشموند؛ تداعب الريح خصلات شعره الناعم. كان يرتدي قميصًا أبيض، مزرّرًا في إحكام إلى رقبته التي بدت ورديّة اللون تبعث على الخوف. لم يفكّ أيّ زرّ من أزراره لأنّه كان يعتقد أنّ ذلك يجعله وسيمًا أكثر. يضاف إلى ذلك، كانت ثيابه منسجمة تمامًا مع السترة الجلديّة التي وإنْ بدت كبيرة الحجم على جسده، إلّا أنّها كانت أكثر الثياب التي ارتداها خفّة. وجنتاه متّقدتان من العار الذي شعر به.

في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، نهض يونس من فراشه وأمامه مهمّة ينبغي أن ينفّذها. سار على أطراف أصابع قدميه تحت النور الباهت الذي يضيء الممرّ، واتّجه نحو غرفة شقيقه. كان اسكندر قد عاد متأخّرًا ليلة أمس بعد أن شارك في الملاكمة، وبات منهمكًا. كان يشخر شخيرًا واهنًا، مكوّرًا مثل كرة، رأسه من تحت الوسادة. السترة التي اشترتها له أمّه لمناسبة عيد ميلاده الأخير

Twitter: @ketab_n

مرميّة فوق أحد الكراسي. الجدران مغطّاة بملصقات: حرب النجوم، محمّد علي في الحلبة، طريق التنّين لبروس لي، سوبرمان يطير من فوق مانهاتن، جيمز دين يقود درّاجة بخاريّة، الراية البريطانيّة، كيني بيرنز في مواجهة فرانك ستابلتون في أرسينال ضدّ نوتنغهام فوريست.

وشعر يونس وهو يختلس النظرات من حوله بحسد لم يعرف أنّه يتّصف به. لاسكندر عالمه الخاصّ به في هذا المكان. أدوات رياضيّة، مدرّبون، والأهمّ من هذا كلّه الحرّيّة. لا أحد يفسد عليه حياته كما يبدو أنّه غير مدين بأيّ تفسير لأيّ إنسان. ليس هذا عدلاً. وعرف يونس أنّه ليس الوحيد الذي تراوده مثل هذه الأفكار.

وضع يونس ذراعيه في السترة الجلديّة بعد أن عثر على شيء جديد يسرقه، مرتبكًا وجذلاً، مرتبكًا لأنّه كان يسرق شيئًا من أخيه، وكانت تلك السرقة سرقة حتى إنْ كان سيعيد ما سيأخذه في ذلك المساء. وشعر أيضًا بالجذل فضلاً عن شعوره بالضخامة إلى حدٍّ ما، بعد أن طمأن نفسه أنّ توبيكو سوف تعجب به إعجابًا أكبر وهو يسلك هذا السلوك. كانت السترة باردة، آخر صيحة. المؤكّد أنّ توبيكو سترى أنّه لم يعد ذلك الصبي الصغير.

في تلك اللحظة، تقلّب اسكندر في سريره، وانحرف رأسه قليلاً من فوق الوسادة. فكتم يونس أنفاسه ووقف من دون حراك. وانتظر حتى تأكّد من أنّ شقيقه يغطّ في نوم عميق. تذكّر الأيّام التي كان فيها بابا يؤنّب اسكندر ويعاقبه لكلّ غلطة يرتكبها. على أيّة حال، تلك أحداث من الماضي البعيد. والآن، يعتقد اسكندر،

Twitter: @ketab_n

كما يبدو، أنّه مسؤول وأنّه غضبان، والوصول إليه بالغ الصعوبة. ليت ماما وقفت في وجهه وجعلته يوافق أنّها هي الزعيم، ولكنّها متحفّظة ومشتّتة الفكر وباردة أكثر ممّا ينبغي.

السرّ. بذل يونس قصارى جهده، ولكنّه لم يستطع أن يكره الرجل الذي شاهده رفقة ماما. من هو؟ كيف يمكنه جعلها تبتسم تلك الابتسامة بعد أن عجز الكلّ عن فعل ذلك؟ هل يحاول إبعادها؟ غير أنّه لا يستطيع أن يطرح السؤال. لا يستطيع الحديث. لا أحد يستطيع.

وبينما كان يونس يقود درّاجته في سرعة وقوّة مرتديًا سترته، قرّر ألّا يتزوّج أبدًا. فوضى تضرب أطنابها في كلّ مكان، موغلة في الإيلام. ما السبب الذي يدفع كثيرًا من الناس إلى الزواج، بينما لا يريد إلّا عدد قليل حقًّا البقاء متزوّجين؟ كان يونس يهوى العيش في بيت جماعي ولكنّ الشيء الوحيد الذي كان لا يعجبه بخصوص مثل هذا البيت هو انتشار القاذورات والغبار فيها. وبخلاف ذلك، فإنّ قناعته كانت كبيرة بأنّ الحياة التي قضاها في ذلك البيت رفقة الصبيان كانت سعيدة جدًّا. وعندما يكبر، سوف يلجأ إلى بيت آخر رفقة توبيكو بدلاً من تأسيس أسرة، وسيكون لديهما عدد كبير من الأصدقاء وكمّيّات كبيرة من الطعام في البرّاد، وإذا ما أضحى لديهما أطفال، فسوف يعملان على تنشئتهما معًا.

ركن يونس درّاجته الهوائيّة إلى سور خشبي وأقفلها، وحثّ خطاه إلى المنزل الذي تملكه أمّ الزعيم. ولدهشته البالغة، وجد الباب مواربًا، ففتّش الحجرات في الدور الأرضي والمطبخ والحمّام، ولكنّه لم يجد أثرًا للصبيان. وفكّر في احتمال أن يكونوا

Twitter: @ketab_n

قد خرجوا لشراء بعض الحاجيّات أو لجمع قطع الأثاث من الجوار. كلّ شيء هادئ سوى أصوات تنبعث من حنفيّة يقطر منها الماء وصرير الأنابيب. قرّر يونس أن ينتظر في غرفة المعيشة يقلّب كومة من المنشورات والكتب الهزليّة والنشرات الإعلانيّة المجّانيّة ـ وكانت إحداها قد نشرت صورة شابّ يحطّم واجهة محلّ زجاجيّة.

وكانت ثمّة عبارة من تحت الصورة تفيد:

الدولة تشنّ حربًا اجتماعيّة على رعاياها.

أتعرفون السبب؟

لأنّ تلك هي وظيفتها. هذا هو معنى الدولة.

قاوموا أجهزة الدولة الإيديولوجيّة.

قاوموا سعادتهم الإجباريّة.

لم يكن يونس يعرف معنى الأجهزة الإيديولوجيّة، ولكنّه كان يملك فكرة عن معنى «الدولة»: امرأة منتفخة الصدر، جذّابة الشخصيّة ومؤثّرة. كلّما كانت ماما ترغب في أن تطري على إحدى النساء لما تملكه من قوّة ومهارات، فإنّها كانت تقول: هذه امرأة، دولة في ذاتها. لكنّ الشيء الذي لم يفهمه إنّما هو السبب الذي يجعل الصبيان منزعجين من مثل هؤلاء النساء وأجهزتهم.

كان الفتى يواصل تقليب النشرات عندما جفل لدى سماعه صوت موسيقى صادحة. وأدرك من فوره شيئين اثنين: إنّ الصوت قادم من الدور العلوي، وإنّه أشبه ما يكون بصوت أغنية جذّابة من أغاني البوب التي كان الصبيان ينفرون منها نفورًا شديدًا. لم يكن من شأن الصبيان أن يستمعوا إلى مثل هذه الموسيقى. وافترض أنّ

Twitter: @ketab_n

السيّدة باول ربّما كانت هي التي تستمع إليها. لكن هذا الاحتمال غريب أيضًا، إذْ تذكّر مدى البؤس الذي كان يلوح على تلك المرأة عندما التقاها، ولم يستطع أن يتصوّر المرأة نفسها مَنْ تستمع إلى مثل هذه الأغنية المرحة!

ارتقى يونس السلالم بدافع حبّ الاستطلاع وتمكّن من سماع صوت امرأة يرافق الموسيقى، فتوقّف أمام الغرفة وطرق الباب، وانتظر. ثم طرق ثانية. ولمّا لم يسمع أيّ ردّ، اختلس نظرة.

رأى توبيكو في وسط الغرفة مغمضة العينين إلى حدٍّ ما، تمسك بيديها فرشاة شعر، بينما راح جسدها يهتزّ ويتموّج وهي تغنّي وترقص. كانت قد دفعت الأثاث جانبًا ليكون ثمّة متّسع في الغرفة، وأسدلت الستائر لتحجب ضوء النهار الذي لم يتسلّل منه داخل الغرفة إلّا شعاع قليل. وفي هذا الجوّ المعتم، بدت طويلة ونحيفة، لا تشبه نفسها تمامًا.

تسمَّر يونس في مكانه، دهشًا من الأميرة التي أحبّها. وبعد برهة بدت له دهرًا، انتهت الأغنية: تيك تشانس أون مي.. غنّت توبيكو مستخدمة مكبّرة صوت، وجثت على ركبتيها تهزّ رأسها، بينما انشغلت يدها في رسم حركات لولبيّة في الهواء، هي مزيج من أغاني البوب السويديّة والرقص الهندي. وما إن انتهت الأغنية حتى فتحت عينيها، متنبّهة إلى أنّ ثمّة من دخل الغرفة. فالتفتت نحو الباب وشهقت.

ـ آه، يونس! لقد أرعبتني!

تمتم يونس:

ـ معذرة. لم أقصد إرعابك.

Twitter: @ketab_n

نهضت توبيكو، دائخة إلى حدٍّ ما، وحاولت أن تبتسم ابتسامة خجول تعوزها الثقة بالنفس. ثم وضعت فرشاة الشعر من فوق منضدة الزينة، وأطفأت جهاز التسجيل وفتحت الستائر فرمشت عيناها من تحت الضوء.

ـ ماذا تفعل هنا؟

أجاب يونس:

ـ جئت لأراكِ، فوجدتُ الباب الأمامي مفتوحًا. ما الذي كنت تصغين إليه؟

فأجابت توبيكو متمهّلة:

ـ آه، كنت أصغي تزجية للوقت. للسيّدة باول عدد كبير من هذه الأغاني التافهة.

ـ وأين هي؟

ـ لديها موعد عند الطبيب، ولن تعود قبل الساعة الثالثة.

ثم خفضت من صوتها حتى أضحى همسًا:

ـ أظنّها ذهبت إلى طبيب نفساني.

قال يونس متأمّلاً:

ـ حقًّا؟ كانت مكتئبة اكتئابًا شديدًا.

ثم استبدّت به فكرة أخرى، فقال:

ـ الموسيقى التي كنت تستمعين إليها هي لفريق آبا. صحيح؟

ـ كيف تعرف ذلك؟

قال يونس مبتسمًا:

Twitter: @ketab_n

ـ ماما تحبّها أيضًا.

ـ حسنًا. أنا لا أحبّها، لأنّها لا تلائم مزاجي وهي تافهة جدًّا. ما رأيك؟

نظر يونس إلى توبيكو نظرة ملؤها الدهشة، فهذه هي المرّة الأولى منذ أن التقيا، يجد فيها فتاة صغيرة. وأدرك أنّه لم يكن هو وحده الذي حاول أن يبدو أكبر سنًّا وأشدّ غلظة ممّا هو عليه.

قالت توبيكو من دون أن تدرك ما يدور في ذهنه:

ـ لديك سترة جميلة.

فقال يونس:

ـ شكرًا لك.

لكنّه لم يترك الموضوع يذهب سدًى.

ـ أتعتقدين أنّ في إمكانك إعادة تلك الأغنية كي تعلّميني ماذا كنت تفعلين؟

فتبسّمت توبيكو ابتسامة ماكرة.

ـ أتريد أن تراقصني أيّها التويج؟

على الرّغم من تورّد وجنتي يونس خجلاً، إلّا أنّه لم يتراجع.

ـ نعم. لِمَ لا؟

وافقت توبيكو.

ـ حسنًا. لكن ما دام أنّك قدّمت هذا العرض، فإنّني أفضّل أن أرتدي ثيابًا جميلة.

فتح الاثنان الخزانة، فاستبدّت بهما الدهشة عندما شاهدا أنّها تحتشد بالملابس والإكسسوارات والأحذية والقبّعات الفخمة.

Twitter: @ketab_n

قالت توبيكو:

ـ لا بدَّ أنّ هذه السيّدة تنفق كلّ مالها على الثياب.

فقال يونس:

ـ ليس لديها ثوب أسود.

لكن توبيكو لم تأبه لقوله وهي المرأة التي لم تلبس سوى ثياب الشابّات غريبات المظهر، ورنت في دهشة إلى وشاح أرجواني وتنّورة بلون الصوف وقميص ليلكي. وثمّة رداء ليلي يتألّق بنثار معدني، وسترة بنّيّة ومعطف طويل من الفرو يصل الكاحلين، ناعم الملمس.

أخرجت توبيكو ثوبًا طويلاً من الساتان والتفتا، ذا لون أرجواني فاتح جدًّا وكأنّه مائل إلى البياض، ضيّق الخصر وبحمّالتي كتف رفيعتين جدًّا. وكانت تزيّنه مئات المجوهرات.

قال يونس:

ـ سوف تظهرين غاية في الجمال إذا ما ارتديت هذا الثوب!

لكنَّ توبيكو هزّت رأسها وكأنّها وجدت الفكرة منافية للعقل؛ ولكنّها قالت بعدئذٍ:

ـ هل يمكنك أن تتركني وشأني بضع دقائق؟ لا تأتِ حتى أناديك.

انتظر يونس في الممرّ وقتًا بدأ له كأنّه الدهر كلّه. ولمّا دعته للدخول، وجد أمامه امرأة مختلفة، امرأة لها وشم توبيكو وعيناها، أمّا غير ذلك فليس له صلة بها. كانت قد أرخت شعرها وتخلّصت من مساحيق التجميل، واستبدلت صبغ الشفاه الأسود بآخر وردي. أمّا ظلال العينين فقد أزيلت تمامًا. وبدلاً من الجوارب الشبكيّة

Twitter: @ketab_n

الممزّقة، ارتدت جوارب ضيّقة بلون البشرة. واحتذت بحذاء ذهبي وأقراط ماسيّة، وافترّ ثغرها عن ابتسامة خجول. أمّا جوّ الغرفة فكان معبقًا بعطر جذّاب وساحر.

أطلق يونس صفيرًا على النحو الذي علّمه إيّاه اسكندر، وقال:

ـ أنت تبدين وكأنّك...

ولكنّه أمسك عن الكلام مدركًا أنّ ما من كلمة تمتلك قوّة كافية لتصف ما تشاهده عيناه، فتجرّأ وأكمل عبارته:

ـ أنت تبدين ـ وكأنّك دولة!

فضحكت توبيكو، وقالت وهي تبسط ذراعيها:

ـ أنا الدولة.

ثم أمسكت فرشاتيْ شعر، واحدة لها وواحدة ليونس. ثم فتحت جهاز التسجيل، فانطلقت الموسيقى وبدأ الاثنان يخطوان خطوات أنيقة على المسرح، يدًا بيد، والابتسامة تعلو وجهيهما. آلاف الناس جاؤوا للاستماع إليهما في هذه الليلة. التذاكر نفدت كلّها منذ أسابيع، الكثيرون ينتظرون خارج قاعة الموسيقى. عزف يونس على البيانو وعلى الغيتار والطبول والساكسوفون، خفيفًا مثل ريشة، باردًا في سترته الجلديّة. أمّا هي، فقد غنّت ورقصت، ورفرفت تنّورتها. وعند كلّ عبارة تتكرّر في الأغنية، يقفان ظهرًا لظهر، ويميل أحدهما نحو الآخر، فيجنّ جنون المشاهدين.

ولمّا انتهت الموسيقى، كانا الاثنان على الأرض يلهثان. وطوّقت توبيكو يونس بذراعيها، وقالت:

ـ سألتني في ذلك اليوم عن الأسرار. حسنًا، سيكون حبّنا

Twitter: @ketab_n

لفريق آبا هو سرّنا. عدني أن تحافظ عليه.

في عصر ذلك اليوم، عرف يونس أشياء عن توبيكو لم يتخيّل قطّ أنّها يمكن أن تكون صحيحة. فقد دخّنت سيكارة وهي ما تزال مرتدية زيّ فريق آبا، واعترفت له أنّها لم تهجر صديقها السابق توبي، بل إنّ الأمر كان معكوسًا، إذْ إنّه هو الذي تخلّى عنها محطّمًا بذلك قلبها. ثم التقت من بعد ذلك الزعيم، ولكنّها لم تحبّه وإن كانت غير قادرة على التخلّي عنه. كانت في السابق أكثر جرأة، ولكن بمرور كلّ يوم، تجد نفسها وقد غدت أكثر اعتمادًا وأكثر تعلّقًا. وقالت إنّ سبب ذلك كلّه يرجع إلى أنّها مصابة بعقدة اليكترا التي لا سبيل إلى علاجها. فهي تضاهي الرجال الذين تحبّهم بوالدها، ولكنّها على الرّغم من ذلك تنافس والدتها. ثم أطلعت يونس على قصيدة قصيرة بعنوان «أمّ». ولكن في اللحظة التي بدأ يونس بقراءتها، صكّت مسامعهما أصوات وقع أقدام في الدور الأرضي. لقد عادت السيّدة باول.

قالت توبيكو مذعورة:

ـ آه، تبًّا.. لا.

وقال يونس:

ـ لا تقلقي. سأهبط إليها وأشغلها ريثما تغيّري ملابسك.

ثم وضع القصيدة في جيب سترته وهرع يهبط السلالم.

* * *

رشق اسكندر وهو جالس إلى مائدة العشاء يونس بنظرة تنمّ عن تهديد ووعيد، ولكنّه رفض أن يسأله عن مكان سترته التي

Twitter: @ketab_n

اختفت طوال النهار. وبعد العشاء، قال إنّه سيخرج للتنزّه قليلاً.

فهو يرغب في زيارة الصبيان ويلعب لعبة سنوكر مدّة وجيزة من الزمان، إلّا أنّه بحاجة إلى أن يستجمع شتات أفكاره. وعلى الرّغم من اعتراض والدته، مضى في سبيله من غير أن يكترث لها. فمنذ أن تحدّث إلى عمّه، كان يعامل أمّه معاملة باردة وإن لم يواجهها.

كان المساء باردًا ومنعشًا، فجذب اسكندر قبّة سترته وحشر يديه في جيبه. شيء ما في جيبه. قصاصة ورق. أخرجها وقرأها تحت عمود النور في الشارع.

حوَّل اسكندر القصاصة من يد إلى أخرى ودعكها قبل أن يرمي بها في سلّة النفايات. شخص ما يمارس اللعب وإيّاه. حاول طوال الليل أن يعرف من هو، ولمّا عجز، عاد إلى السطرين الأخيرين من الرسالة اللذين ظلّا يدوران مرارًا وتكرارًا في ذهنه:

الأمّ تكذب، الأمّ تكذب

وهي ليست المرأة التي تقول إنّها هي.

* * *

سجن شروزبيري، ١٩٩١

يوم بطيء. بطيء على نحو مؤلم. أعمل في مغسلة الثياب حتى الساعة الحادية عشرة والنصف. أرجع لتناول وجبة الغداء. أقرأ كتابًا بعد الظهيرة وأستمع إلى زيشان وهو يهذر في موضوعيْ الحبّ والانسجام. وفي تمام الساعة الرابعة تقفل الأبواب علينا. وبعد انقضاء نصف ساعة يأتي الضابط ماك لوخلين.

يقول:

Twitter: @ketab_n

ـ يبدو أنّك سوف تستقبل زائرًا عمّا قريب.

ـ من هو؟

ـ لماذا لا تنتظر حتى ترى بنفسك.

أنا شخصيًّا لم يزرني أحد باستثناء أسماء، كما أنّها توقّفت عن المجيء في هذا العام. ولكنّني في دهشة من أمري، إذْ أرى الضابط ماك لوخلين يؤكّد الزيارة. ففي ضوء سجلّي الحافل مؤخّرًا، فإنّه يتمكّن من منع حدوثها من دون اعتراض. أقضي بقيّة المساء مفكّرًا وكأنّني عصفور في عشّه. وهنا أدرك أخيرًا أنّ الضابط ماك لوخلين يعلم جيّدًا أنّ كلّ من يأتي لزيارتي سوف يفقدني توازني ويربكني. فهو يعوّل على هذا الشيء. فأنا أحمي نفسي داخل قوقعة لا يدخلها أحد، ولكن ثمّة عددًا قليلاً من الناس الذين في وسعهم تحطيم أعصابي. عدد قليل جدًّا. في وسعهم اختراق درعي مثلما يخترق شبح الجدران.

يقول زيشان:

ـ تبدو قلقًا.

لا أنكر ما قاله سواء أكان سؤالاً أم ملاحظة.

ـ نعم، ممّا يبعث على تحطيم الأعصاب ألّا أعرف من ذا الذي سيحضر لزيارتي يوم غد.

فيقول زيشان:

ـ نحن لا نعرف ماذا سيحدث يوم غد، ولكنّنا نبدأ على الدوام يومًا جديدًا ونحن في أمل.

لست في مزاج رائق كي أستمع إلى هذا الهذيان. لهذا السبب

Twitter: @ketab_n

أستلقي على سريري وأغمض عينيّ عن العالم الخارجي. يبدو أنّه يوم سيّئ آخر. لقد مررت بأيّام كثيرة سيّئة في حياتي. لكن ثمّة يومًا واحدًا هو أسوأ الأيّام قاطبة: الصباح المقبل.

في الصباح الذي يعقب اقترافك جريمة، تستيقظ من ليل لا قرار له. في مكان ما من دماغك، ثمّة علامة، ضوء أحمر يومض. تحاول تجاهله. ثمّة فرصة، مهما كانت ضئيلة، في أنّ كلّ ذلك كان حلمًا، تتشبّث بتلك الفرصة، مثل رجل يسقط، ولكنّه يمسك بأوّل حبل يشاهده. تمرّ دقيقة واحدة. ساعة. وتفقد الإحساس بالوقت حتى تحين اللحظة التي تُفاجأ بها: فالحبل ليس مربوطًا بأيّ شيء، طرفه سائب. فتصطدم بالواقع، رأسك أوّلاً.

ها أنا في ذلك المكان، في لافندر غروف، ممسكًا في يدي سكّينًا. أسمع صوت الصراخ. عويل لا نهاية له. شخص ما يولول. الصوت، يا للغرابة، صوت أمّي. لكن هذا غير معقول، لأنّها مستلقية على الأرض، تنزف دمًا. يزداد الصدى في رأسي. أرنو إلى يدي اليسرى. يدي الأقوى، ولكنّني أجدها مرتخية وكأنّها كانت ملتصقة بجسدي التصاقًا موقّتًا وأضحت الآن يد شخص آخر. أرمي بالسكّين من تحت سيّارة واقفة. لو تمكّنت، لرميت يدي أيضًا.

بدأت أركض. سترتي ملطّخة بالدم. لا أستطيع أن أوضح السبب في عدم محاولة أيّ شخص الإقدام على إيقافي. ولكنّهم لم يوقفوني. اندفعتُ في الأزقّة والحدائق الخلفيّة، من دون أدنى فكرة عن المكان الذي كنت أقصده.

ممّا لا ريب فيه أنّني قطعت عددًا من الطرقات، واصطدمت

Twitter: @ketab_n

بناس وأثرت مخاوف كلاب. لا أتذكّر. نصف الساعة القادمة مربك، ولكنّني أتذكّر أنّني عثرت على هاتف.

اتّصلت بالعمّ طارق، وأخبرته بما فعلت. ران صمت أخرق. ظننت أنّه لم يسمع ما قلت، لهذا السبب أعدت عليه القول، قائلاً له إنّني عاقبت أمّي بسبب علاقتها الغراميّة المحرّمة. ومن الآن فصاعدًا، لن تفعل مثل هذا الشيء ثانية. قلت إنّ جرحها ليس بليغًا، ولكنّه سوف يستغرق مدّة من الزمان كي يتماثل للشفاء. كنت قد طعنتها طعنة واحدة في الجهة اليسرى من صدرها لكي تتبيّن مدى فظاعة الإثم الذي اقترفته. وسوف يمنحها ذلك وقتًا تفكّر في غلطتها وتندم عليها. وسوف ترتعد فرائص ذلك الرجل، فيتركنا وشأننا. لقد غُسل شرف الأسرة.

بدا صوته مختنقًا:

ـ ماذا فعلت يا بنيّ؟ هذا فظيع!

جفلت؟

ـ و... ولكن... تحد... ثنا... ع... ن... هذا.

وقال عمّي:

ـ لم نتكلّم بلا أدنى شكّ.

كان الرجل الذي أخبرني بكلّ شيء، وألحّ عليَّ مرّات ومرّات بأنّني يجب أن أتصرّف ومن فوري، تبخّر في الهواء. صُعقت.

ـ عليك أن تخبر الشرطة يا ولدي اسكندر. وسوف أخبرها أنّ هذا هو ما قلته لك تمامًا عندما اتّصلت بي هاتفيًّا، فأنت لا يمكنك أن تهرب من القانون!

Twitter: @ketab_n

وعلى حين بغتة راودني شكّ غريب وهو أنّ عمّي طارق قد تدرّب على هذه اللحظة. هل كان ينتظر كلّ هذا؟ يهيّئ خطاباته، وما سيقوله لي هاتفيًّا، وماذا سيشاطر أولد بيل، وماذا سيعلن في المحكمة. لقد هيّأ نفسه لكلّ شيء.

ـ هل تسمعني يا بني؟ أخبرني عن مكانك!

تريّثت وخلعت سترتي ورميتها في سلّة نفايات، وبعدها توجّهت إلى منزل كاتي في البيون درايف. كنت قد أوصلتها إلى بيتها سيرًا على الأقدام مرّات كثيرة، ولكنّني لم أدخله. قرعت الجرس، فارتحت كثيرًا عندما فتحت هي نفسها البٰاب لي.

قالت وقد أشرق وجهها عن ابتسامة:

ـ أليكس! يا لها من مفاجأة! كنت أعرف يا عزيزي أنّك سوف تأتي.

قادتني كاتي داخل المنزل وقالت إنّ أمّها سوف تكون مسرورة عندما تعلم أنّني قرّرت أن أحضر وأن أعيش وإيّاهم. طوّقتني بذراعيها وكانت بطنها المنتفخة والصلبة تفصل بيننا. لم يبدُ عليها أنّها حامل في شهرها الرابع، كما أظنّ، بل لاحت وكأنّها قد بلعت كرة.

طلبت من كاتي أن ترشدني إلى الحمّام، حيث غسلت يديَّ. الشخص الظاهر في المرآة لم يكن مختلفًا عن الشخص الذي رأيته في الأيّام الماضية. توقّعت إلى حدٍّ ما أن يكون هناك شيء غريب على وجهي، عينيّ، ولكن لم يكن هناك أيّ شيء. غسلت يديَّ من جديد، وفركتهما فعثرت على قاصر، فسكبته في راحتي كفّيَّ، ثمّة جروح في كفّيَّ، فشعرت بألم رهيب. ولكنّني

Twitter: @ketab_n

استمررت في الفرك. ثمّة شيء ما تحت أظافري: قذارة؟ صبغ؟ دم؟ لا يريد أن يزول.

جاءت كاتي لتسألني إن كان كلّ شيء على ما يرام، ثم عانقتني. أنعمت النظر في المرآة. أنا وهي وطفلنا. وشعرت بالفخر والاعتزاز. ولاحظت أنّها كانت تبتسم الابتسامة نفسها التي تلوح على وجه «سيّدة القصر». يا له من إحساس بالنجاح!

أغلقت صنبور الماء، وقالت:

ـ نظافتك كافية لي يا حبيبي.

ذهبنا إلى غرفة المعيشة، وكانت والدة كاتي جالسة تنتظرنا فوق كرسيّ بالقرب من النافذة، تتدثّر بدثار حريري يشبه ما نراه على شاشة التلفاز. أزرق ملكي. يمكنك أن تشاهد نهديها، والنمش الذي يغزو جميع أجزاء صدرها، وكأنّه جوز الطيب. كانت قد مشّطت شعرها مؤخّرًا، وطلت شفتيها بأحمر الشفاه. من ينظر إلى رأسها، يعتقد أنّها تناولت عشاءها في أحد المطاعم الراقية، ولكن كلّ شيء آخر يجعلها تبدو جالسة في المنزل. حاولت أن أركّز انتباهي في وجهها، كما حاولت ألّا أختلس النظر إلى ما دون رأسها.

قدّمت لي السيّدة إيفانز شايًا في أكواب مصنوعة من الخزف العظمي وحلوى فاكهة ساخنة. أكلنا في صمت. ثمّة صور بإطارات معلّقة على الجدران. بالعشرات. يبدو والد كاتي في بعض تلك الصور. لم يدهشني شكله على أنّه نمط الرجل الذي يضلّ ويتشدّد.

كانت السيّدة إيفانز تراقب كلّ حركة من حركاتي. وساورني الإحساس أنّها تنظر مليًّا تحت أظافري. فأخفيت يديَّ.

Twitter: @ketab_n

ـ أخبرتني ابنتي يا أليكس أنّك تريد أن تسمّي الطفلة الصغيرة ماغي إن كانت بنتاً، وتوم إن كان المولود ذكرًا.

التفتُّ إلى كاتي، ولكنّها أشاحت بوجهها عنّي.

ـ نعم، أظنّ ذلك.

ثم سألتني السيّدة إيفانز بعد ذلك إن كنت أعتقد أنّني أصلح أبًا مسؤولاً عن أبنائه. فقلت إنّني لا أعرف ولكنّني سأبذل قصارى جهدي.

وقالت:

ـ أحياناً يكون قصارى الجهد عن امرئ ما مُضرًّا.

بدت عبارتها وكأنّها واحدة من العبارات التي سمعتها من التلفاز، أو شخصًا ما أسمعها إيّاها قديمًا. وقالت إنّها سوف تمدّ لنا يد العون ـ مشروع موقّت ـ إلى أن نقف على أرجلنا. سوف تفعل هذا الشيء مع حفيدها الأوّل. وابتسمت. كانت أسنانها بيضاء لؤلؤيّة ورائعة.

أخبرتني كاتي في الليل أنّنا يجب أن ننام في غرفتين منفصلتين، وأنّني يجب أن آخذ الوسادة من غرفة الجلوس. وقالت إنّ هذا الأمر موقّت، وإنّنا سرعان ما سوف نتزوّج وعندئذٍ سوف ننام على سرير واحد. إلى الأبد.

أحضرت لي ملاءة نظيفة، وكيس وسادة. وخلعت بلوزتها في رفق. كان نهداها منتفخين، وحلمتاها حلقتين سوداوين. بإمكاني أن أشاهد الأوردة ـ زرقاء وكبيرة وباردة. وطلبت منّي أن أضع أذني على بطنها. في البدء، لم أسمع أيّ شيء، ولكنّني شعرت

Twitter: @ketab_n

بحركة بعد قليل تشبه حركة شخص يتمطّى بعد استيقاظه من نوم عميق. كرة، مرّتان، أربع مرّات. شيء يشبه السحر. وفكّرت إن كانت ماما قد سمحت لبابا أن يصغي لبطنها عندما كانت حاملة بي.

قلت وأنا أدفع كاتي بعيدًا:

ـ آسف. إنّني مضطرّ إلى النوم.

ـ مؤكّدًا يا حبيبي.

وعندما تركتني وحدي، استلقيت ونظرت من حولي. ستائر شبكيّة ووسائد مزخرفة بالزهور، وورق جدران مثير، وزهريّة مزخرفة فوق رفّ الموقد، وساعة كبيرة. وراودني الإحساس في أنّني لن أنام أبدًا، ولكن ما إن لمس رأسي الوسادة حتى رحت في نوم عميق وغبت عن الوجود. استيقظت فجرًا، لأجد كاتي تقف بجانبي، ممتقعة الوجه، واسعة العينين.

وقالت:

ـ ثمّة شرطيّان بالباب يا أليكس.

نهضت من مكاني وأمسكت برأسها بين راحتي كفّيَّ وقبّلتها. كان لفمها مذاق الملح، مذاق الخوف!

ـ إنّهما يسألان عنك.

سرنا إلى الممرّ، وشاهدنا والدة كاتي واقفة بجانب الباب بثياب النوم. ثمّة آثار كريمة على وجهها، وكانت شفتها السفلى ترتعش. جذبت ابنتها إلى جانبها وكأنّني مصاب بمرض معدٍ. وشاهدت أضواء سيّارة الشرطة في الخارج. ضابطان. أحدهما

Twitter: @ketab_n

يشبه جيمز كالاهان ولكنّه لم يكن يضع نظّارات. لم يشاهداني بعد. فطلبت من كاتي أن تخبرهما أنّني أرتدي ثيابي.

لم يكن قرار الفرار قرارًا واعيًا، ولكنّني اتّخذته. فذهبت إلى المطبخ وفتحت الباب وتسلّلت إلى الحديقة وقفزت من فوق السياج.. فالسياج الثاني. وفي حين كانت كاتي تكلّم الشرطيين، كنت قد خرجت من شارعها ودلفت إلى شارع آخر.

* * *

آخر يوم من أيّام شهر تشرين الثاني ١٩٧٨، كنت أوشك أن أغيّر من رأيي عندما شاهدتها تنعطف من وراء ناصية الشارع. كانت خارجة للتسوّق: الأكياس في يديها، وتسير على مهل، من غير عجالة. فار الدم في عروقي، لأنّني كنت قد منعتها من ترك المنزل.

خفّضت من سرعة مشيها، ترمق عازفًا من عازفي الشارع بنظراتها، مولية ظهرها إليَّ. نظرت نظرة فاحصة إلى هيئتها الجانبيّة. كانت مشرقة الوجه بابتسامة، فتلاحقت أمواج الامتعاض والاستياء في أعماقي. ألم أخبرها بألّا تغادر المنزل، ألّا ترتدي ثيابًا تكشف عن سيقانها؟ وها هي الآن تتحدّى قوانيني، وتسخر منّي!

لحقت بها. رنت إلى واجهة أحد المحلّات، ولم يبدُ عليها أنّها كانت تتعجّل العودة إلى البيت. ظننت أنّها تنتظر لقاء عشيقها، ولكن لم يحدث أيّ شيء من هذا القبيل. وعندما اقتربنا من شارعنا، تعثّرت فسقطت محفظة نقودها، محفظة بلون الخاكي لم أرها من قبل. وبينما هي تلتقطها من

Twitter: @ketab_n

فوق الأرض، لاحظتني من ورائها.

وهمست كأنّ اسمي سرّ من الأسرار:

ـ اسكندر...

اسكندر طبرق

* * *

Twitter: @ketab_n

العصـا والحزمـة

لندن، تشرين الأوّل ١٩٧٨

كان العثور على الخطيب أصعب ممّا كان اسكندر يتصوّر. فقد ذهب إلى عدد من المقاهي وأجرى بعض المكالمات الهاتفيّة، ولكن من دون جدوى. ولم يدرك إلّا في هذه اللحظة أنّه لم يعرف عن الرجل إلّا النزر اليسير. فعلى امتداد تلك الشهور، كان الخطيب هو الذي أرسل رسالة يطلب فيها لقاءه وليس العكس. ولم تكن لديه أيّة فكرة عن محلّ سكنى الخطيب وكيفيّة قضاء وقت فراغه. وتذكّره وهو يقول له إنّه طالب يدرس في معهد من معاهد البوليتكنيك. أمّا موضوع الدراسة فكان لغزًا من الألغاز شأنه شأن أيّ شيء آخر.

لكنّ اسكندر تمكّن من العثور عليه بوساطة صديق أحد أصدقائه، في محترف فنون قتاليّة نتن الرائحة في شارع بريك لين، يحيط به نصف دزّينة من الشبّان يرتدون بنطالات قصيرة، ويجلسون متقاربين على حصران مفروشة فوق الأرض، وكأنّهم طيور حمام

Twitter: @ketab_n

اجتمعت من تحت جملونات. وكان بعض هؤلاء الشبّان يتصبّب عرقًا واضحًا على صدره، والمناشف من حول الرقبة. بدوا وكأنّهم فرغوا قبل قليل من تمرين شاقّ، وتجمّعوا الآن لمناقشة أمر على درجة بالغة من الأهمّيّة قبل أن يذهبوا للاستحمام. وعندما شاهدوا اسكندر يقترب منهم، التزموا الصمت، يرمقونه بنظرات تنمّ عن عدم ثقة جعلتهم لا يرون ضرورة في إخفائها.

قال الخطيب وهو يغمز للآخرين:

ـ حسنًا، أعرفه.

لم تعجب اسكندر غمزة العين ولا نبرة الصوت، ولكنّه حيَّاهم على الرّغم من ذلك بهزّة صغيرة من رأسه وحركة خفيفة من شفته وكلمة واحدة. مرحبًا!

وثب الخطيب وثبة رشيقة وسريعة ووقف على قدميه، ووضع يده اليمنى جهة قلبه، وقال:

ـ السلام عليكم أيّها الأخ. هل ترغب في الانضمام إلينا؟

ـ لا، شكرًا لك. إنّني مضطرّ إلى الذهاب إلى مكان آخر. جئت لأسلّم وأُعيد الأشرطة التي أعطيتني إيّاها آخر مرّة.

همهم الخطيب ببضع كلمات غير مسموعة لأصدقائه، وتقدّم إلى أمام. ولاحظ اسكندر مدى ضآلة الرجل بعد أن كان قد تجرّد من معطفه الشتوي وكنزاته الصوفيّة: كتفان ضيّقان ومعصمان نحيلان وساقان معوجّان اعوجاجًا قليلاً.

ـ لم تكن مضطرًّا إلى السير كلّ هذه المسافة لهذا السبب!

قال اسكندر وهو ما زال غير واثق من السبب الذي دفعه إلى

Twitter: @ketab_n

المجيء إلى هذا المكان:

ـ لا بأس.

ـ حسنًا. دقيقتان لا أكثر.

سار الاثنان إلى ركن هادئ وجلسا، وكان قبالتهما عدد من أدوات رفع الأثقال. وشاهدا رجلاً قصيرًا متين البنيان، منتفخ الأوداج وهو ينوء من تحت أثقال لا يستطيع حملها. وكان يتصبّب عرقًا باديًا على محيّاه، واكتسى وجهه ببقع حمر، ولم تعد لديه، كما يتّضح، أيّة قوّة في ذراعيه.

اختلس اسكندر نظرة شزر إلى الخطيب، وتمتم:

ـ لم أعرف أنّك تعمل في هذا المكان. ماذا تشتغل؟

ـ إنّني أمارس رياضة التايكوندو. لست مقاتلاً على الرّغم من ذلك، بل لست شيئًا في الحقّ، وإنّما أنا رجل أفكار.

ـ لماذا تأتي إلى هذا المكان إذًا؟

ـ لأنّ أمثالنا من الرجال يتعيّن عليهم أن يعرفوا كيف يدافعون عن أنفسهم. هل صكّ سمعك ما حدث يوم أمس في حيّ نورث إند؟ هاجم أربعة من أصحاب الرؤوس الحليقة صاحب دكّان بنغالي. أربعة ضدّ واحد. متعادلون، هه؟

ـ لم أسمع بذلك الحادث.

ـ ألقوه أرضًا وحلقوا رأسه بالشفرة، ورسموا رموزهم التافهة على جمجمته. وبلغ الخوف والذعر بالمسكين حدًّا دفعه إلى الغثيان والتقيّؤ. وكانت زوجته تبكي طوال الوقت.

توقّف الخطيب عن الكلام برهة ليستردّ أنفاسه.

Twitter: @ketab_n

ـ حسنًا. على الأقلّ ينبغي أن تعرف كيف تدافع عن نفسك.

أومأ اسكندر برأسه، وإن لم يكن متأكّدًا إن كان ذلك هو السبب الذي دفعه إلى ممارسة رياضة الملاكمة. فهو لا يمارس الملاكمة من أجل محاربة الأعداء، متخيَّلين كانوا أم حقيقيّين، وإنّما لجأ إليها لأنّها كانت حقيقيّة وصادقة. الملاكمة تأمّل رجل مقابل رجل في الحياة. فأنت وحيد في الحلبة، وليس ثمّة لعب جماعي، وما من بديل ينتظر ليؤدّي مهامّك وهو جالس في الخطوط الجانبيّة. كلّ رجل لنفسه.

الطيّبون والأشرار، الشرفاء والسفلة، الجشعون والكرماء. كلّهم هناك. وإذا ما أردت أن تعرف شخصيّة إنسان ما على حقيقته، فإنّ كلّ ما يتعيّن عليك أن تفعله هو مشاهدته وهو يلاكم.

وقال الخطيب:

ـ أنت ملاكم رهيب. طبيعي.

ـ وكيف عرفت؟ إنّك لم تشاهدني قطّ.

ـ بل شاهدتك. شاهدتك مرّتين خفية. أنت لا تراوغ القتال الذي ينطوي على مخاطرة. كما أنّ دفاعك متين جدًّا وكأنّك تعلم من أين ستأتي الضربة المقبلة. تلك موهبة نادرة، ينبغي أن تكون فطريّة.

لم يعرف اسكندر إن كان يتعيّن عليه الشعور بالانزعاج أم الفخر، ولهذا لبث صامتًا.

أمّا الخطيب، فقد أمسك عن الكلام برهة وجيزة، عيناه لا تفارقان اسكندر، وقال:

Twitter: @ketab_n

ـ ثمّة أمر أودّ أن أسألك عنه يا أليكس. هل لديك استعداد لتدريبنا على القتال؟ فالأخوة يمكنهم الاستفادة من خبرتك.

أرسل اسكندر زفرة مفكّرًا:

ـ لا أدري أيّها الرجل. أحبّ أن أقاتل بمفردي.

وعلى حين بغتة، عبس الخطيب وقال:

ـ انظر! سأكون صريحًا وإيّاك. أنت سيّد نفسك، وفي وسعي أن ألاحظ ذلك. من دون قيد أو شرط. هكذا تريد. ولكن لا تنسَ أنّ كبار المقاتلين هم كبار من الداخل ومن الخارج. وإذا كنت تتمتّع بقيم أشدّ متانة وقوّة فلن يقهرك أحد.

ـ لا أريد أن أكون قويًّا لا أُقهر.

فسأل الخطيب وهو يرمق اسكندر بنظرة تنمّ عن تسلّط ونبرة تدلّ على التحدّي:

ـ ماذا تريد إذًا؟

لم يسبق أن طرح اسكندر على نفسه هذا السؤال، لذلك لم يجد جوابًا جاهزًا.

فألحَّ عليه الخطيب:

ـ لماذا جئت إلى هنا تبحث عنّي؟ لأنّ جانبًا منك يعرف الحقيقة. أنت بحاجة إلى الانتماء إلى مكان ما. أنت بحاجة إلى هدف في الحياة، إلى اتّجاه جديد. انضمّ إلينا.

بذل اسكندر قصارى جهده كي يفكّر في شيء ما يقوله، فينقذه من المأزق، لكنّه فشل. ففتح سترته وأخرج منها الأشرطة التي كان قد استعارها.

Twitter: @ketab_n

ـ هل استمعت لها؟

ـ نعم.

لكنّ الخطيب تذمّر وقال:

ـ أنت لم تكمل الكراريس التي أعطيتها لك. ولا واحدًا منها. والآن الأشرطة. هل كان الطلب أكبر من قدرتك؟

ـ انظر. أخي وشقيقتي يستعملان جهاز التسجيل طوال الوقت. ولكنّني استمعت إلى شذرات منها. ثمّة شيئان استمتعت بهما، مثل الجزء الخاصّ بالأخوّة. عصا واحدة تنكسر في سهولة، أمّا الحزمة فلا تنكسر.

ـ ولكن؟

ـ ولكنّني... لا أعرف أيّها الرجل. أشياء كثيرة تشغلني الآن. فصديقتي في ورطة.. وأنا مضطرّ إلى الاهتمام ببعض الشؤون الأسريّة.

لم يقل الخطيب شيئًا، إذْ كان يعلم أنّ اسكندر ينتمي إلى ذلك النوع من الفتيان، كلّما طرحت عليه مسألة أقلّ، أخبرك بما هو أكثر.

قال اسكندر:

ـ كلامك في البداية ضَرَب على الوتر الحسّاس فيَّ. أعني، إنْ كان والداك على خطأ، فما عليك إلّا الوقوف في وجههما. صحيح؟

ـ نعم، ولكن لا ترتبك، فما عليك إلّا أن تلجأ إلى الله. لأنّ الله أكبر من أبويك. ولكن احترس. إن كنت أنت لا تعرف الله

Twitter: @ketab_n

وتعصى والديك، فسوف تضيع، ولن تكون ثمّة مبادئ تتمسّك بها أيّها الرجل.

ـ دعني أقول لك... شخص ما قريب منّي...

وهنا زرّر اسكندر سترته حتى ذقنه، واسترسل:

ـ أعني، هذا افتراض، شخص ما في أسرتي ارتكب إثمًا، وأنا أحاول أن أعرف واجبي.

تصلّب الخطيب وهو يشعر بجسامة الطلب. رمق اسكندر بنظرة تشي باهتمام متزايد، ولم يتنبه إلّا في هذه اللحظة إلى تلك الرعشة التي تلوح على طرف فمه وأطراف أصابعه. وسأل:

ـ من، على سبيل المثال؟

ـ لنقل أمّي.

ران صمت قلق قبل أن يقول الخطيب:

ـ حسنًا، كلِّم والدك، فهذا واجبه أكثر ممّا هو واجبك، لكن إن لم يكن حاضرًا... فإنّ المسؤوليّة ملقاة على عاتقك. فأنا لن أسمح لأمّي أو أختي أو زوجتي أن تُلحق العار بي.

فسأل اسكندر:

ـ لكن ماذا في وسعي أنْ أفعل؟

ـ لن أخبرك بما ينبغي لك أنْ تفعله ما لم تثق بي ثقة كاملة. أتفهم ما أقول؟ تعال وانضمّ إلينا، كن جزءًا من شيء أكبر حجمًا أيّها الرجل، فذلك هو الطريق الصحيح، وفيه الإجابة عن كلّ تساؤلاتك.

ـ حسنًا، سأفكّر في الأمر.

Twitter: @ketab_n

ـ نعم، اذهب وفكّر في الأمر مليًّا، ولكن لا تضيع الوقت طويلاً، فقد يحدث حادث ما وأنت منشغل في التفكير.

* * *

وقف اسكندر في ذلك المساء عند أبواب ناد لم يسبق له أن دخله. وكان قد توقّع هذا المشهد في ذهنه مرّات ومرّات حتى بات مألوفًا له على نحو لافت للنظر. ولم يكد يتقدّم خطوة واحدة إلى الأمام، حتى أوقفه حارس ضخم يفوق حجمه بمرّتين. بدلة زرقاء ونظّارات شمسيّة عاكسة على الرّغم من أنّ الشمس كانت قد غربت منذ زمن طويل، وصلعة تشبه بيضة ورقبة قصيرة وسمينة تبدو للناظر إليها وكأنّ رأسه يتربّع من فوق كتفيه مباشرة.

ـ كم عمرك أيّها الفتى؟

قال اسكندر عاقدًا العزم على ألّا يرهبه الحارس:

ـ عمري يفي بالغرض المطلوب.

ـ هذه الإجابة غير واردة في كتابي.

ـ لا أعرف ما هو كتابك، ولكنّني مضطر إلى الدخول.

جذب الحارس نظّارته الشمسيّة من فوق أنفه دهشًا أكثر ممّا هو منزعج، فبانت عيناه الصغيرتان والقريبة إحداهما من الأخرى على نحو لا يناسب وجهه. تستحيل عليه القراءة.

ـ هل أراك تختبر صبري أيّها الصبي؟ لقد نفد صبري وأنا قد حذّرتك.

شعر اسكندر بالحرارة تمتدّ إلى وجنتيه. كان في وسع الحارس أن يطرحه أرضًا إن شاء، ولكنّه على الرّغم من ذلك شعر

Twitter: @ketab_n

أنّ الرجل لا يمثّل أيّ تهديد بخلاف مظهره. جعجعة بلا طحين. لا أكثر من إحساس، وإنّ أحاسيسه صادقة إذا ما تعلّق الأمر بالشجار في الشارع.

ـ حسنًا، إنّني أبحث عن أبي. فهل هذه جريمة؟

لاح على وجه الحارس ظلّ من ظلال حبّ الاستطلاع.

ـ وهل يشتغل والدك هنا؟

ـ لا، ولكنّه يتعقّب امرأة تعمل هنا.

أخذ الحارس نفسًا عميقًا وطويلاً، وقال:

ـ آه، وأنت، كما أظنّ، تأمل في أن يُعَرّفك إلى هذه السيّدة.

ـ لا، أيّها الرجل. لماذا أتعرّف إليها؟

ـ سؤال لا أكثر. والآن، لنعد إلى أبيك. هل لديك أمر يدعو إلى معاتبته أو محاسبته؟

ـ أنا لا أفتّش عن المتاعب، كلّ ما أريد هو أن أكلّم الرجل العجوز.

أعاد الحارس نظّارته الشمسيّة إلى وجهه، وقال:

ـ ثلاث دقائق، ولن تزيد عنها ثانية واحدة. أدخل، وبحث عن أبيك واحضره إلى هنا، وإن لم تعد في الموعد المحدّد، فسوف أدخل وأكسر ساقيك. هل فهمت؟

ـ هذه هي التذكرة أيّها الرجل. شكرًا لك.

دخل اسكندر النادي، وحشر يده في جيبه، وتحسّس الترموس الزجاجي فيه. إنّها أعجوبة، لأنّ الحارس لم يفتّشه. سائل حمضي. عملي وفعّال. كلّ ما هو مطلوب منه أن يسدّده إلى

Twitter: @ketab_n

وجهها، وعندئذٍ لن يرغب والده في رؤيتها من جديد. ولن يرغبها أيّ رجل.

كم مرّة تخيّل اسكندر هذه اللحظة؟ سوف يدخل النادي الذي سيكون مفعمًا بالصخب والضجيج معبقًا بالسكائر ومحتشدًا وخانقًا، ويتوجّه مباشرة إلى المشرب للحصول على شراب. ربّما سوف يشرب الويسكي، بمكعّبات الثلج ومن دون ماء أو أيّ مزيج آخر. اختيار صحيح كما يظنّ. وسيفرغ من شربه في جرعتين، وعندئذٍ يتسلّل إلى الجانب الخلفي من النادي، وحنجرته ما تزال تؤلمه. سوف يسير على امتداد الممرّات الضيّقة التي تفوح منها رائحة العرق والعطور. ولن يستغرق وقتًا طويلاً حتى يعثر على حجرتها. وسوف يقرع الباب الذي كتبت عليه الاسم: روكسانا. ولكنّه لن ينتظر الجواب قبل الدخول.

سوف تقول له: من أنت؟ في صوت يشوبه الهلع والذعر، وسيكون وجهها مملوءًا بالأصباغ، شفتاها حمراوين مثل الدم، ونهداها واضحين من وراء الثياب.

أنا ابن الرجل الذي سرقته من أسرته.

تغيّرت تلك الجملة في كلّ مرّة تخيّل فيها اسكندر المشهد. وكان يستبدلها أحيانًا بعبارة: أنتِ لا تعرفينني، ولكنّني أعرفك أكثر من اللازم. وفي أحيان أخرى كان يُغيّرها إلى: أنا الذي ينبغي أن أطرح عليكِ هذا السؤال: من تظنّين نفسك كي تحطّمي أسرتنا؟

وسوف يكون ردّ فعل المرأة مختلفًا أيضًا. وستكون في الأعمّ الأغلب مرتبكة، وتعتذر. ولكنّها قد تغضب أحيانًا، وتنهار أعصابها.. وتخيّل اسكندر خنجرًا رفيعًا قُذف نحو الجدار، وكأس

Twitter: @ketab_n

شمبانيا تحطّم. فكّر في كلّ خيار. فإذا ما تحوّلت إلى امرأة اعتدائيّة، مهلوسة، فإنّه سوف يُخرج الزجاجة من جيبه. أمّا إذا كانت نادمة، فسوف يأخذ الأمور ببساطة ويمنحها فرصة ثانية.

وفكّر أيضًا أنّها قد ترمي نفسها فوق الأرض / الأريكة/ الكنبة/ السجّادة، وتنهمر الدموع على وجنتيها، وهذا هو السيناريو المفضّل لدى اسكندر، وقد تقول وهي تجهش بالبكاء:

ـ آه، لم أكن أعرف أنّه متزوّج، ولم أكن أعرف أنّ لديه أسرة، فهو لم يخبرني قطّ.

في هذه الحالة، لن يُخرج اسكندر الزجاجة، بل سوف يهدّئ من روعها، وسوف تعده ألّا تلتقي آدم من جديد، وسوف تحافظ على وعدها حتى عندما تكون قد باتت امرأة عجوزًا شمطاء.

كان عقل اسكندر يقلّب كلّ هذه الأفكار وهو يتفحّص النادي، واستبدّت به الدهشة لما رأى أنّ المكان لا يحتوي إلّا على بضعة أشخاص، معظمهم من العاملين في النادي. الوقت ما زال مبكرًا على مجيء المقامرين. سار إلى المشرب الذي كانت تفوح منه رائحة عذبة منبعثة أصلاً من مئات المشروبات على مرّ مئات السنين. ثمّة مرآة بيضويّة مزدانة بالأضواء إلى الخلف، ولوح خشبي لمّاع من فوق نضد المشرب. وهنا مسح اسكندر بيده النضد ومرّرها على امتداد الكتابات والرموز المحفورة على سطحه الصلب.

كان عامل المشرب ـ وهو رجل يتحدّر من جذور أفرو ـ كاريبيّة صفّف شعره في ضفائر مشدودة ـ يجفّف قدحًا، فنظر إلى الزبون وقد التمعت عيناه استياءً.

Twitter: @ketab_n

ـ كم عمرك؟

ـ عمري يفي بالغرض المطلوب.

ـ هل لي أن أرى بطاقتك أيّها السيّد الذي يفي عمره بالغرض المطلوب؟

ـ هه! إذا كنت في هذا المكان، فإنّه يعني أنّ عمري يسمح لي بالحضور إلى هنا، وإلّا لما سمح لي بالدخول ذلك الرجل الضخم الجثّة الواقف عند المدخل. صحيح؟

قال عامل المشرب:

ـ محاولة جيّدة. سأقدّم لك كأسًا من الماء متلألئًا وفوّارًا، من غير ثلج. وهذا هو أكثر ما يمكنك الحصول عليه منّي.

رشف اسكندر الماء، ووقف أمام خشبة المسرح يرنو إلى الستائر على كلا الجانبين. هل عادت يا ترى؟ هل يذهب ويبحث عنها الآن؟ لمس الزجاجة مرّة أخرى وشعر أنّها باردة ودافئة في الوقت نفسه. ما زال يفكّر في خطوته القادمة، ويلمّ أطراف شجاعته للمواجهة التي تنتظره عندما شاهد الحارس يبحث عنه. نقر الرجل على ساعته، عابسًا وعنيدًا. فرغ اسكندر من شرب الماء وشكر عامل المشرب وخرج. لم تسر الأمور كما خطّط لها.

انتظر من فوق الرصيف منشغل الفكر. ولاحظ بعد مدّة قصيرة بدت له دهرًا، شخصًا قادمًا في اتّجاهه، أشعث الشعر، مطأطأ الرأس، واجسًا في خطوته وكأنّه يخاف أن تخونه ساقاه ويسقط، فلم ينتبه إلى الفتى عندما مرَّ من أمامه.

ـ أبي...

Twitter: @ketab_n

توقّف آدم والتفت، فأشرق وجهه عن ابتسامة حقيقيّة وبسيطة، ولكن سرعان ما تغيّرت سحنته وعبس وهو يقول:

ـ هل حدث شيء لأخيك أو لأختك يا اسكندر؟

ـ لا، إنّهما على ما يرام.

بدا آدم مرتاحًا برهة وجيزة، ولكن سرعان ما حلَّ الشكّ محلّ هذا الارتياح، وأعقبه انزعاج.

ـ ما كان ينبغي لك الحضور إلى هذا المكان.

لم يتوقّع اسكندر مثل هذا الكلام، فقد توقّع أن ينزعج والده عند رؤيته أو يضطرب، أمّا أن يغضب منه، فهو ما لم يكن في حسبانه. فقال في حدّة من دون أن يبدو على ملامحه أيّ إحساس:

ـ ولا أنت.

بوّز آدم واتّقدت عيناه.

ـ تنبّه لما تقول أيّها الصبي. لا يمكنك أن تكلّمني بهذه اللهجة.

فقال اسكندر:

ـ أريدك أن ترجع إلى البيت أيّها الأب.

لم تفت هذه الملاحظة على آدم، فقال:

ـ عد إلى أمّك قبل أن أدقّ عظامك.

ـ ماذا دهى عظامي اليوم؟ كلّ واحد يريد أن يدقّها!

وقفا صامتين مدّة قصيرة، واستغرق الأب والابن في التفكير، كلّ واحد منهما يحدّق إلى الآخر، ويتحدّاه كي يتكلّم أوّلاً. في تلك اللحظة طغى على آدم إحساس غريب وكأنّه يحدّج مرآة

Twitter: @ketab_n

بأنظاره، متأمّلاً في شخصه أيّام صغره. ابنه يشبهه ولكنّه يتمتّع بامتيازات أكثر، ولكن من دون القلق والاستسلام اللذين كلّفاه باهظًا.

أخيرًا قال آدم:

ـ سأعود عندما يحين الوقت.

ـ ومتى سيحين الوقت؟ عندما تتخلّص من العاهرة...

وانهالت الصفعة على الفور. وبدا اسكندر مصعوقًا بما تفوّه به أكثر ممّا صعق بردّ فعل والده، إذْ لم يصدّق أنّه تفوّه بمثل هذه اللهجة، فذلك مناقض لتربيته.

سعى الحارس إليهما لمَّا شاهد الصفعة.

ـ أنتما الاثنان! هوّنا عليكما وإلّا سوف أستدعي الشرطة.

همهم اسكندر وكأنّه يكلّم نفسه:

ـ لا بأس.

ثمّة نظرة غريبة تنبعث من عينيه، وميض مفاجئ. والتفت إلى أبيه في هدوء تامّ، وقال:

ـ إذا ضربتني مرّة أخرى فسوف أضربك، وإن لكمتي أقوى وأشدّ.

امتقع وجه آدم، وشعر بألم حادّ في صدره جعله لا يقدر على التنفّس برهة وجيزة. ولم يكن سبب ذلك الصدمةَ والأسى والإحساس بالخزي لأنّ ابنه أهانه أمام غرباء فحسب، بل ثمّة شيء أعمق وأشدّ ألمًا. إدراك متأخّر. فقد فهم الآن أنّ هذا هو ما كان ينبغي له أن يفعله قبل سنوات، عندما ضربه والده، وواصل ضربه

Twitter: @ketab_n

حتى بعد أن أضحى آدم أطول منه. هذا الشيء الذي كان يتعيّن عليه أن يفعله. يا له من ندم يبعث على الألم!

تقدّم آدم من اسكندر خطوة أخرى وصفعه من جديد صفعة أقوى. وهنا حدث أمر مهول. فقد جأر اسكندر مثل حيوان جريح ودقَّ رأسه بجدار النادي. ضرب جبهته مرّة، مرّتين، ثلاث مرّات. بوم، بوم، بوم.

حاول آدم أن يسيطر عليه من غير جدوى بينما زعق اسكندر:

ـ لا تلمسني.

بيد أنّ الحارس تمكّن من إبعاده عن الجدار، وإن كانت حاجة اسكندر لإيذاء نفسه قد بلغت به مبلغًا عظيمًا لا سبيل إلى وقفه، فغرز أسنانه في كتف الحارس حتى جرحه، ووطأ على قدم الرجل، وضربه برأسه ضربة هائلة على ذقنه وهو ما لم يتوقّعه الحارس، ففقد توازنه واتّقد وجهه وهجم.

حاول آدم أن يتدخّل.

ـ لا، لا.. أرجوك. لا تضربه، إنّه ولدي.

تجمّع أناس آخرون من حولهم: زبائن ونادلون وعدد من الراقصات ومن بينهم روكسانا تراقب المشهد، مندهشة حزينة.

وبعد أن تمّ الفصل بينهما، كان الحارس يرتجف.

ـ لا أريد أن أراك ثانية في هذا المكان. أتسمعني؟ وإذا ما شاهدتك في هذه المنطقة، فإنّني أقسم بالله على أن أضربك ضربًا مبرحًا حتى تفقد ذاكرتك.

جذب آدم ابنه من ذراعه في رفق وثبات.

Twitter: @ketab_n

ـ هيّا . . لنذهب.

سارا صامتين بضع دقائق، وما إن تواريا عن الأنظار حتى جلسا على الرصيف تحت نور مصباح الشارع. كانت أنفاس اسكندر زفرات وتنهّدات، وشعر بطعم الدم في فمه. وقال منهكًا:

ـ إنّ أمّي تلتقي بشخص ما.

ـ ماذا؟

قال اسكندر:

ـ لقد سمعتني. عليك أن تعود إلى البيت لترتيب الأوضاع فيه.

أخرج آدم سيكارة وأشعلها وقدّمها لولده. ولمّا رأى الدهشة تكسو وجهه، قال:

ـ هيّا . . أعرف أنّك تدخن منذ زمن!

ثم أشعل سيكارة أخرى له، وراحا يدخّنان جنبًا لجنب. كان برد الليل قارصًا، رتيبًا، ولكنّه مفعم بالاحتمالات.

ـ وهل تحبّه؟

لم يستطع اسكندر أن يصدّق أذنيه.

ـ ماذا تقول يا أبي؟

وضع آدم يده على ركبة ابنه!

ـ انظر إليَّ. أعرف أنّك لا تفهم. لو حدث هذا الأمر قبل عشر سنوات لكنتُ أصبتُ بالجنون، ولفعلت كلّ ما في وسعي لوضع حدّ لذلك. أمّا الآن، فقد بلغت من الكبر ما يكفي لكي أعرف أنّني لا أستطيعُ أن أرغم أمّك على أن تحبّني. فقد طلبت

Twitter: @ketab_n

منّي الطلاق مرارًا وتكرارًا، غير أنّني تجاهلت طلبها، ولكنّه كان طلبًا صحيحًا.

عندما سمع اسكندر كلمة «حبّ» من شفتي أبيه تولّته الدهشة. صحيح أنّ ثمّة أوقاتًا مرَّت سابقًا ارتاب في السبب والوسيلة اللذين جمعا بين أبويه، لكنّ الأمر لم يعد يخصّ الحبّ الآن. فآدم والده، ربّ الأسرة وليس عاشقًا رومانسيًّا.

ـ لكن يا أبتاه...

ـ استمع إليَّ. ثمّة رجل قال لي في يوم ما إنّ حبّ الرجل انعكاس لشخصيّته، ولكنّني لم أفهم معنى كلامه يومئذٍ. أمّا الآن فقد فهمته.

ثم ترك دخان السيكارة يندفع من بين منخريه.

ـ تظنّني لست غاضبًا من والدتك. أنا غاضب. ولكنّني أشدّ غضبًا من نفسي أنا، إذْ لم يحبّ أحدنا الآخر. كان زواجنا غلطة فادحة. ولكنّني لست نادمًا عليه لأنّكم أبنائي: أنت وأسماء ويونس.

ثم حدث شيء لم يأخذه آدم على محمل الجدّ في بداية الأمر، ولكنّه سوف يتذكّره بعد مرور سنوات بكلّ تفاصيله وبندم عميق. فقد نقر اسكندر بإصبعه على سيكارته وراقب ضوءها الباهت وسط الظلمة المحيطة بها، وقال:

ـ إن لم تتولَّ هذه القضيّة، فسوف أتولّاها بنفسي.

* * *

Twitter: @ketab_n

الحـــبل

لنـدن، تشرين الأوّل ١٩٧٨

حثّت بمبي خطاها وهي تقترب من السينما التي أضحت تعرفها الآن معرفة جيّدة. وكان وقع كعبي حذائها الواطئ من فوق الرصيف ثابتًا، مهدّئًا. لم ترفع بصرها إلى أعلى أو إلى ما حولها، بل ظلّت أنظارها مركّزة في الأرض وكأنّها عادت طفلة صغيرة وكأنّ ما تفعله ليس سوى لعبة تمارسها. فإذا لم تشاهد العالم، فإنّ العالم ربّما لن يراها.

كانت تتعمّد الوصول متأخّرة في كلّ مرّة، فتصل السينما بعد مرور خمس أو عشر دقائق على بدء الشريط السينمائي، لأنّ ذلك يقلّل من فرص من يريد أن يراهما معًا. ولكنّها على الرّغم من هذا، فقد باتت مؤخّرًا أقلّ حذرًا واحتراسًا، بل وصل الأمر بها في مرّتين اثنتين أن سارت وإيّاه في الشارع، مرّة لشراء بعض الزهور، ومرّة أخرى للاستماع إلى عازف من عازفي الشوارع. كانت ما تزال مشغولة البال، مهمومة، كعهدها دائمًا، ولكن كان ثمّة حافز

Twitter: @ketab_n

يحفّزها الآن، حافز داخلي، صوت يتطلّع إلى الخروج، إلى أن يكون مسموعًا. ولمّا لم تكن لديها أيّ تجربة مماثلة سابقًا، فإنّها لم تعرف ماذا تفعل بهذه الجسارة التي كانت، ولم تكن أيضًا، جزءًا منها!

تنصّلت بعض خيوط معطف بمبي الرمادي اللون بالباب وهي تدفعه دفعًا قويًّا وتفتحه. دخلت المبنى، تتنشّق الرائحة النتنة المنبعثة من منافض السكائر والروائح المألوفة القادمة من محلّ بيع المرطّبات والذرة المشويّة بالزبدة ورقائق البطاطا والحلوى. وإذا ما أطالت النظر إلى السجّاد المبقّع أكثر ممّا ينبغي، تراها تُصاب بالدوار. وشعرت براحة وطمأنينة غريبتين. وما إن وطأت الردهة، حتى غمرها إحساس بالخفّة إذْ باتت هادئة، مستترة. وتوقّفت الأرض عن الدوران بها، فغاب إحساسها بالدوار أيضًا. ومن دون أن ينشغل بالها بالمستقبل، سمحت للّحظة الزمنيّة أن تحيط بها.

فحص المرشد الشابّ عند مدخل الصالة تذكرتها وفتح لها الباب وأشار إليها أن تتبعه. كان الشريط السينمائي قد بدأ، وكان الجوّ معتمًا إلى حدٍّ ما، يغمره ضوء فضّي ينبعث من الشاشة كلّما ظهر مشهد مضيء. وبينما كانت تتبع ضوء المصباح اليدوي الذي كان يحمله المرشد الشابّ، ألقت بمبي نظرة سريعة من حولها، فشاهدت عشرة أو خمسة عشر شخصًا وهو عدد أكبر من المعتاد. فشعرت في لحظة عابرة بشيء من التوتّر لم تألفه قبل قليل.

كان إلياس يجلس في المكان نفسه دائمًا. الصفّ الأوسط والمقعد الأوسط. وفي إحدى المرّات، كان شخص آخر قد جلس في ذلك المقعد، فكان جلوسه إشارة خاطئة جعلت بمبي تتوجّه

Twitter: @ketab_n

نحوه وتجلس بجانبه. فما كان من الرجل إلّا أن ابتسم وقال: مرحبًا حبيبتي!

فانتاب الهلع والذعر بمبي وقفزت من مكانها واتّجهت نحو الصفّ الأمامي حيث كان إلياس ينتظرها مبتهجًا، غير متنبّه لوصولها.

سارت بمبي على مهل، حذرة كي لا تتعثّر بأحد، وتجاوزت الصفوف الفارغة، واحدًا تلو الآخر. لاحظت رجلاً وامرأة كبيرين في السنّ مستغرقين في تأمّل الشريط السينمائي وهما متشابكا الأيدي. حاولت أن تتخيّل نفسها وإلياس في هذا الوضع، وفي هذه الحالة؛ شاخا وتقدّم بهما العمر ولكنّهما ما زالا مغرمين أحدهما بالآخر. لكن هذا الحلم نفسه لم يبدُ لها واقعيًّا.

وبينما هي تواصل تقدّمها إلى أمام، مشتّتة الفكر، لم تنتبه إلى الرجل الجالس في الصفّ الخلفي الذي كان قد أخفى نفسه بأن جلس منزلقًا في كرسيّه، ومال برأسه قليلاً إلى الجانب حتى بات ظلًّا لا أكثر. كان يجلس في العتمة، يراقب وينتظر.

توقّف ضوء المصباح اليدوي عند الصفّ ـ ج. كان إلياس جالسًا بمفرده في الوسط، يظلّل عينَيْهِ انتظارٌ لم يشأ أن يسمح لنفسه بالاستغراق فيه. شكرت بمبي المرشد وانزلقت من فوق كرسيّها، متسارعة الأنفاس. التفت إليها إلياس وابتسم، ثم مدَّ يده إلى يدها، سبّابته تنساب من فوق أناملها مثل رجل ضرير يستدلّ على حبيبته باللمس. ضغط على يدها في رفق، فضغطت بدورها على يده. على امتداد هذه الشهور المنصرمة، أتقن الاثنان لغة مفعمة بالإشارات وشحيحة بالكلمات، ومال في بطء إلى أمام وطبع قبلة

Twitter: @ketab_n

على باطن معصمها متنشّقًا رائحة جسدها. خفق قلب بمبي خفقانًا شديدًا ولكنّها لم تنظر إليه حتى هذه اللحظة. وبدا هذا الوضع وكأنّه لعبة من لعب أيّام الطفولة. فإذا كانت لم تره حتى الآن، فلن يكون مرئيًّا، وإن لم يكن مرئيًّا، فربّما لن يختفي.

شاهد الاثنان شريط الشرّير والطيّب والقبيح، وهو شريط لم يسبق لها أن شاهدته. أمّا هو، فكان قد شاهده. وهو أوّل شريط غير صامت. قبل أسبوع، فرغت دار السينما من عرض مجموعة من الأشرطة الصامتة وبدأت تعرض سلسلة جديدة من أفلام الغرب الكلاسيكيّة. ولمّا كان الاثنان قد اتّفقا على اللقاء في هذا المكان الذي أراحهما كثيرًا، فإنّهما لم يريا سببًا يدعوهما إلى تغيير خططهما. يضاف إلى ذلك، افتراض إلياس أنّ الشريط بما فيه من شخصيّات قليلة وحوار مقتضب سيسهل عليها متابعته.

وبعد مرور ثوانٍ قليلة، وجدت بمبي نفسها مستغرقة في الشريط، لا سيّما أنّ بلوندي وتوكو وإنجيل آيز راحوا في نزعات لا تنتهي، يتسبّبون في أخطار شتّى، ويتخلّصون منها. ولمّا رأت الأحداث تسير قُدُمًا، بدأت تنحاز. فعندما سأل الشرّير: إذا كنت تريد العمل من أجل أن تعيش، فما السبب الذي يجعلك تقتل نفسك في العمل؟ خفضت من بصرها، وفكّرت في السؤال إلى أن أدركت فحواه. وعندما هزأ الشرّير بالصالح، وقال له إنّهما ليسا مختلفين كثيرًا، لم تستطع بمبي أن تداري فزعها، فجفلت. وفي وقت لاحق، بدأت تفكّر في مغزى ما هو صالح وسيّئ على نحو لم يسبق لها أن فكّرت فيه من قبل. كانت رسائل أختها هي التي أرغمتها على ذلك. فقد كانت أختها التوأم أختًا محترمة، فاضلة

Twitter: @ketab_n

وطاهرة، لا يرمش لها جفن. أمّا هي فقد ظلّت سيّئة، غير طاهرة وغير عفيفة. لكنّ الأمر لم يكن دومًا على هذا الشكل. كم تغيّرت الأحوال في سرعة! ما من شيء دائم، وكلّ شيء يتطوّر ويتدفّق على الدوام.

وعندما امتطى توكو ظهر حمار والأنشوطة تحيط برقبته وهو يوشك أن يُشنق، بانت على محيّا بمبي أمارات الفزع، وأشاحت بوجهها جانبًا. وفي لحظة عابرة، خُيّل لها أنّها شاهدت شخصًا ما في الصفّ الخلفي يراقبها. ولكن عندما نظرت من جديد لكي تتأكّد، كان الظلام حالكًا يحول بينها وبين التأكّد. وهنا سمعت القبيح يقول: الذين تحيط الحبال برقابهم لا يُشنقون دائمًا.

أغمضت بمبي عينيها. ومرّت بها لحظة عصيبة شعرت أنّها في زمان آخر ومكان آخر.

وقال إلياس هامسًا في أذنها:

ـ هل أنتِ على ما يرام يا حبيبتي؟ يبدو لي أنّك قد شردتِ بعيدًا.

ثم أضاف هامسًا في مزاح:

ـ إنّه شريط سينمائي لا أكثر.

أومأت برأسها. كانت تعرف جيّدًا أنّه شريط سينمائي لا أكثر. لأنّ الذين تحيط الحبال برقابهم في الحياة الحقيقيّة يُشنقون دائمًا.

* * *

كانوا ثماني أخوات، تتراوح أعمارهنّ بين التاسعة والعشرين. أكبرهنّ هديّة، وهكذا كانت حقًّا، هديّة من الخالق، البكر،

Twitter: @ketab_n

وموضع الاعتزاز الكبير، وإن كانت بنتًا. وجهها يشبه القلب، حادّة الأنف، عيناها لوزيّتا الشكل واسعتان، رماديّتان مثل غيوم مثقلة بالعواطف. ولمّا كانت هديّة هي البنت البكر في أسرة كبيرة ودخل ضئيل، فقد أنفقت طفولتها تلعب مع أطفال حقيقيين بدلاً من اللعب بالدمى. وكانت على الدوام تنجز مهامّ التنظيف والطبخ والمسح والغسيل، وإطعام الصغار وأرجحتهم في المهد. كانت تحنّي راحتي كفّيها، وتزيّن معصمها بالأساور المصنوعة من الذهب المزيّف، ولكن لم يكن يبدو مزيّفًا أيّ شيء تتزيّن به. ولم تتذكّر بمبي أنّها سمعت هديّة تتذمّر ولو مرّة واحدة وإن كان الآخرون أوّاهين طول الوقت. وتقبّلت هديّة دورها على نحو ما، كما تقبّلت تحمّل مسؤوليّاتها التي لا أوّل لها ولا آخر. فتقدّم بها العمر قبل أوانها، وأصبحت البنت ـ المرأة. ولمّا وافت المنيّة نازي، حلّت هي محلّها، تهتمّ بأخواتها، ولا سيّما التوأمين اللتين كانتا صغيرتين. ولمّا تزوّج بيرزو ثانية، رأت البنات في المرأة الجديدة زوجة بابا ولا غير ذلك، لأنّ أمّهنّ لم تكن سوى هديّة.

وكان يروقها القول: لن أتزوّج أبدًا، وسوف أرعى أخواتي إلى أن يرتبطن كلّهنّ برباط الزوجيّة. أمّا أنا، فسوف أموت عانسًا.

على الرّغم من أنّ هذه الكلمات كانت تبعث على التفاؤل عندما تسمعها الأختان التوأمان، إلّا أنّها لم تكن صائبة كما اتّضح بعدئذٍ. ففي شتاء العام ١٩٥٧، بدأت هديّة تلتقي شخصًا يمتهن الطبابة ويلقّح المرضى، عيّنته الحكومة لتوفير اللقاحات المضادّة لمرض السلّ. وكان معظم القرويين لا يثقون به، وكلّ الأطفال يكرهونه. كيف بدأ كلّ شيء؟ وكيف التقيا؟ هذا ما لن تعرفه بمبي

Twitter: @ketab_n

البالغة اثني عشر عامًا يومئذٍ، ولن تتمكّن من فهمه وهي المرأة الراشدة اليوم!

كان الحبّ مرضًا، منشّطًا ومنعشًا، ولكنّه مرض على الرّغم من ذلك. وعلى حين بغتة بدت هديّة أكثر جسارة من أيّ وقت مضى، لا تعرف معنى الخضوع والاستسلام. وكانت زوجة أبيها تخشاها بدورها، ولا تستطيع أن تتأمّر عليها، ولا تشعر بالاطمئنان والراحة في حضورها. كانت هديّة امرأة حازمة، ثابتة الجنان. فالفتاة التي لم تكن تهتمّ بنفسها لحظة واحدة، أمست الآن توّاقة للتعويض عمَّا فاتها من زمن ضائع. وفي ليلة صافية كان القمر فيها هلالاً يشبه منجلاً ذهبيًّا، هربت رفقة ذلك الرجل الذي قلّما عرفته.

وفي صباح اليوم التالي، لم يكن ثمّة أحد ليتولّى مهمّة التلقيح. فابتهج أطفال القرية وفرحوا، ورموا بكلّ ما تبقّى من لقاحات في نهر الفرات، وأزالوا كلّ أثر من آثار الرجل الغريب الذي تطفّل على حياتهم، وحقنهم على طريقته الخاصّة، وبالتالي سرق بنتًا من بناتهم.

تذكّرت بمبي الحزن الذي خيَّم على الدار الذي أصبح خاويًا، مثقلاً بالهموم بغتة. وبدا مصابهم مصاب من مات له أحد. لكن حال هديّة كان أسوأ من الموت، إذْ لم يسأل عنها أحد، على الأقلّ لم يسأل أحد في صوت عالٍ، وكان اسمها مرادفًا لما هو دنس.

كانت زوجة الأب، امرأة حقود، تسبّ وتلعن: «ليحرقك الله في نار جهنّم!». متخيّلة هديّة في كلّ مكان. وعلى حين بغتة تفجّر كلّ ما كان يثور في داخلها إلى هياج حادّ ومرير، لا سيّما الخزي

Twitter: @ketab_n

والعار من إخفاقها في إنجاب ولد لرجل تزوّجها لهدف واحد وهو أن يكون له ولد، ومحنتها لأنّها ناضبة وقاحلة مثل صحراء، واستيائها لأنّها مضطرة للعناية بثماني بنات أنجبتهنّ امرأة أخرى.

بيد أنّ بيرزو لبث صامتًا غريبًا، غائر العينين، مطأطأ الرأس، مستغرقًا في التأمّل والتفكير. وكان نادرًا ما يخرج إلى المقهى، فيبقى في الدار طول النهار، متحفّظًا في الكلام، واجمًا، يدخّن السكائر التي يبقى رمادها معلّقًا بطرفها مسافة بوصة.

كان شتاءً قاسيًا. ومرّت أربعة أشهر.. وفي أصيل يوم من أيّام بواكير فصل الربيع، رجعت هديّة إلى البيت. كان ينبغي لها أن ترسل رسالة كي تتأكّد إنْ كانت أسرتها مستعدّة لإيوائها، ولكنّها بدلاً من ذلك استقلّت حافلة وعادت أدراجها إلى البيت وكأنّ شيئًا لم يكن. تبيّن لها أنّ المضمّد كان رجلاً جبانًا، فهو، وإن كان قد وعدها بالزواج، غيَّر من رأيه عند أوّل اعتراض أبدته أسرته فتخلّى عنها في المدينة الكبيرة وتركها وشأنها.

ندمت هديّة على ما حدث، وخافت. ولكن هذا البيت هو الوحيد الذي تعرفه، ولم يكن أمامها مكان آخر تلجأ إليه. ولدى وصولها، وجدت الباب مفتوحًا، فجرجرت خطاها ودخلت. ولم يكن بيرزو ولا زوجته في الدار. لكنّ الأختين التوأمين كانتا في الدار، وفي اللحظة التي شاهدتا فيها هديّة، صاحتا بأعلى صوتهما من فرط فرحهما وبهجتهما، وصفّقتا بأيديهنّ محتفلتين بعودة أختهما ـ الأمّ. وطافتا من حولها في حلقات مثلما تطوف الكواكب في مدار الشمس.

غير أنّ هديّة كانت قد تغيّرت وباتت مفتقرة إلى الأمن

Twitter: @ketab_n

والأمان، متحفّظة وصامتة. جلست فوق الديوان وهي تضمّ ركبتيها إلى بعضهما، تسدّد نظراتها إلى الأرض. كانت وهي جالسة في دارها مثل ضيف غير متأكّد إن كان مرغوبًا فيه أم لا.

وبعد برهة من الزمان، دخلت زوجة الأب في بطء وتثاقل، حاملة كومة هائلة من الصوف على ظهرها. وكانت متورّدة الخدّين من تحت الثقل الذي تنوء بحمله، ومحدودبة الظهر. لم تنتبه إلى وجود هديّة في بادئ الأمر، ولكنّها سرعان ما لاحظت الصمت الثقيل في الحجرة وقلق الأختين التوأمين.

ـ ماذا يجري هنا؟ هل دخلت هرة وأكلت لسانيكما؟

لم تكد تفرغ من إكمال جملتها، حتى شاهدت الفتاة الجالسة في ركن الحجرة. الهاربة. التي جلبت العار. فأنزلت حملها من على ظهرها ووضعته على الأرض ووقفت قبالة الفتاة، جامدة إلى أبعد الحدود. ثم خطت خطوة واحدة باتّجاهها، وأبدت حركة من شفتيها وكأنّها تبصق على الأرض.

امتقع وجه هديّة.

وفي المساء، وعندما كانت جميع الأخوات مجتمعات في الدار، لم تتجرّأ إحداهنّ على أن تكلّم هديّة خشية إثارة حفيظة زوجة أبيهنّ، ولم يقدّمن لها الشاي أو الطعام. كما أنّ الأخوات أنفسهنّ لم يأكلن شيئًا يذكر. مرّت بضع ساعات على هذه الحال إلى أن ظهر للعيان بيرزو أمام الباب. وما إن دخل الدار حتى شعرن أنّه قد علم بعودة هديّة. الحقّ أنّه سمع بخبر عودتها، ولكنّه آثر التريّث واستمع إلى ما قاله رجال آخرون. ولهذا لم يكن مسرعًا في العودة إلى البيت.

Twitter: @ketab_n

وَثَبت هديّة على قدميها وركضت كي تقبّل يده، ولكنّه تراجع.

وقال في صوت عالٍ يسمعه الكلّ:

ـ ليس لديّ أولاد، ولم يرزقني الله بولد ولم أفهم سبب حرماني من الولد إلّا في هذا اليوم.

كتمت البنات أنفاسهنّ وأصغين، في حين تهدّل كتفا هديّة.

واسترسل بيرزو في كلامه:

ـ الآن أعرف السبب. فلو كان لديّ ولد، لطلبت منه أن يقتلك ويغسل العار الذي لحق باسم أسرتنا الشريفة، وعندئذٍ سوف يزجّ بأخيك في السجن بسببك، ويقضي حياته حتى يتعفّن بين أربعة حيطان.

لم تبكِ هديّة ولم تولول أو تطلب العفو والمغفرة، بل ظلّت عيناها مسمّرتين على عنكبوت فوق حافّة النافذة، وظلّت ساكنة بلا حراك، لا تنبس بكلمة.

ومضى بيرزو في كلامه وسط الصمت المطبق:

ـ لم أظنّ يومًا أنّني سأتفوّه بهذا الكلام، ولكنّني سعيد لأنّني بلا ولد.

وفي المساء، وفي حين استعدّت البنات للنوم على حصران مفروشة على الأرض، بات في وسعهنّ سماع والدهنّ وزوجته يتحدّثان في حجرة أخرى، ولكنّهنّ لم يفهمن ما دار من حديث. ورنت الفتيات إلى هديّة التي كانت ما تزال متربّعة على الديوان، في حين كانت ضفائرهنّ غير مجدولة ويرتدين ثياب النوم القطنيّة السميكة. ونهضت بمبي في هدوء.

Twitter: @ketab_n

فهمست جميلة:

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ لا بدَّ أنّها جائعة.

ـ هل أصابك مسّ من الجنون؟ بابا وزوجته لم يستسلما للنوم بعد، وسوف يكتشفان أمرك.

هزَّت بمبي كتفيها وسارت على أطراف أصابع قدميها إلى المطبخ وعادت تحمل بعض الخبز ومقدارًا من الجبنة والماء. وحملت الطعام تحت أنظار شقيقاتها إلى هديّة التي تناولت الماء فحسب.

وفي صباح اليوم التالي تناول بيرزو فطوره في وقت متأخّر على غير عادته. وبينما راح يرشف شايه من دون حليب ويقضم رغيف خبزه، انتظرت البنات.

وقال من دون أن ينظر إلى عينيْ أيّ واحدة منهنّ:

ـ سوف أذهب إلى المقهى.

لمّا سمعت بمبي هذا الكلام، انتابها الهلع لأنّ والدهنّ لم يذهب إلى المقهى منذ اليوم الذي هربت فيه هديّة. فما الذي تبدّل الآن كي يذهب إلى هناك؟

وقالت زوجة والدهنّ في تذمّر:

ـ ماذا أفعل بها تحت سقف بيتي؟

قال باقتضاب:

ـ أنت تعرفين ماذا تفعلين.

وعلى إثر ذلك، طلبت زوجة الأب الواجمة، المكفهرّة

Twitter: @ketab_n

الوجه، منهنّ أن يغادرن المكان، فثمّة عمل طويل في الانتظار، وسجاجيد بحاجة إلى حياكة.

وفي حين بدأت الأخوات ينتعلْن أحذيتهنّ ويرتدين معاطفهنّ، تلكّأت بمبي قليلاً وقد استبدّ بها رعب هائل. ثمّة شيء ما سوف يحدث ولكنّها لا تدري ما هو. وقبل أن يغادرن المنزل، شاهدت زوجة أبيها تحمل الصينيّة النحاسيّة الكبيرة والمدوّرة التي تستخدم لتناول وجبات الطعام، وتفرش قطعة القماش على الأرض وتضعها من فوقها وتثبّت القاعدة الخشبيّة وتوازن الصينيّة عليها. في البدء ظنّت بمبي أنّ المرأة سوف تقدّم الطعام لهديّة، ولكنّه طعام غريب، بلا أطباق، بلا ماء، بلا خبز.

في هذه الأثناء لم تتحرّك هديّة، وبقيت مثل تمثال من الملح.

وكان آخر شيء تراه بمبي هو قِدْر كبير، فتاقت إلى معرفة ما يحتويه، وقالت منتهزة الفرصة:

ـ أشعر أنّني لست على ما يرام. ثمّة ألم في بلعومي. ربّما سأمكث في البيت.

فهزّت المرأة رأسها:

ـ إنّها أوامر والدك. ولا واحدة تبقى في الدار.

ذهبت البنات إلى أحد الجيران واشتغلن طول النهار في حياكة السجّاد. كنّ يعرفن النقوش عن ظهر قلب: أزرق ضارب إلى الرمادي ووردي فارسي وأخضر وبنّي بلون القرفة. كانت بمبي تهوى صنع الألوان: أحمر من الحنّة وأصفر من الكركم وبنّي من قشور الجوز المطحونة. وبينما هي تنقع الغزل في طاس من المنّ، أفضت إلى أختها بدخيلة نفسها.

Twitter: @ketab_n

فسألت جميلة وقد اتّسعت عيناها:

ـ ماذا تعنين أنّها قدّمت لهديّة قِدْرًا كبيرًا فارغًا؟

فهمست بمبي:

ـ أقسم أنّها فعلت ذلك. لعلّه لم يكن فارغًا ولكنّه غريب، إذْ لو كان يحتوي على طعام لرأيت البخار. صحيح؟ أو لشممت رائحة شيء ما. ولكن لا شيء!

قالت جميلة لأنّها لا تدري ما تقول أكثر من هذا:

ـ عودي إلى عملك.

وتبادلت الأختان التوأمان العمل وقت العصر، إذ تركت بمبي أختها جميلة كي تعدّ الصبغة في حين انهمكت هي في الحياكة. العمل شاقّ. عضلات عينيها تؤلمها، وأناملها متقرّحة. وبدأت تؤلمها تلك الأجزاء من جسدها التي لم تكن تحسب لها أيّ حساب.

وأدخلت بمبي سرًّا في نقوش السجّادة نقشًا لم يكن جزءًا منها. ولو تنبّه له أحد ما، وكانت واثقة أنّ أحدًا ما سوف يتنبّه له، فسوف ينتابهنّ القلق، ولكنّها لم تستطع منع نفسها من ذلك. وكان النقش علامة صغيرة، متمثّلة بالحرف هاء الذي سيكون تذكّره باسم شقيقتها. وعندما ينتهي العمل، فإنّ السجّادة سوف تباع إلى تاجر من أهالي المنطقة، الذي سيبيعه بدوره إلى تاجر أكبر شأنًا. وسوف تنتقل السجّادة من ذلك التاجر إلى دكّان أنيق من دكاكين السوق الكبير في اسطنبول. وسيراها رجل وامرأة من السيّاح الذين وفدوا لقضاء بضعة أيّام في المدينة وسيشاهدانها معروضة في الواجهة الزجاجيّة ويشتريانها حتى إن كلّفتهما ثمنًا باهظًا. وسوف تنتقل

Twitter: @ketab_n

السجّادة بعد ذلك إلى مدينة باريس أو أمستردام أو نيويورك، أو إلى أيّ مكان يقطن فيه المشتريان وسيكون حرف الهاء متواريًا عن الأنظار، ولكنّه باقٍ إلى ما لا نهاية في كلّ الأحوال.

عادت الأسرة إلى البيت وقت الغروب ـ الأخوات السبع وزوجة والدهنّ. وما إن يقتربن من أسوار الحديقة حتى تتلبّس بمبي موجة من الذعر تسري في أرجاء جسدها. فتركض كالمجنونة، وينتابها شعور ينذر بالشؤم، شعور بالغضب أكثر ممّا هو شعور بالخوف، غضب عارم لا يتأجّج ضدّ أحد قدر ما يتأجّج ضدّ نفسها لأنّها لم تتصرّف قبل الآن. تتصرّف إزاء أيّ شيء؟ لا تدري.

كانت هي التي عثرت على هديّة، جسدها يتأرجح مثل دمية من خرق، مكسورة الرقبة، متدلّية من كلّاب نحاسي مثبّت في السقف وكان يستعمل مرّات ومرّات في الماضي لصنع أرجوحة يُؤرجح فيها الأطفال حتى يستسلموا للنوم.

لقد شنقت نفسها بالحبل الذي قُدّم لها داخل القِدْر.

* * *

حاول راعي بقر المسمّى الشرّير أن يبتسم في وقت جُذبت الأنشوطة جذبًا قويًّا من حول رقبته. وقال مازحًا في صوت متلعثم:

ـ أنت تمزح يا بلوندي... لا أظنّك تمزح معي مثل هذا المزاح!

حَوَلَ بلوندي عينه وأجاب بهزّة من رأسه:

ـ لست أمزح، إنّه حبل يا توكو.

Twitter: @ketab_n

أطبقت بمبي شفتيها في قوّة وأدركت أنّها لا تستطيع رؤية هذه المشاهد. ونهضت قليلاً وقالت:

ـ إنّني ذاهبة الآن.

فسأل إلياس:

ـ ماذا؟ لماذا يا حبيبتي؟ لماذا تذهبين مبكرة اليوم؟

ـ نعم، لا... سوف أذهب الآن.

ـ بسبب الشريط؟ ألم يعجبك؟

ـ لا، نعم... آسفة.

ـ هل أصحبك؟

ـ إبقَ أنت، أرجوك.

ثم نهضت بمبي على قدميها تاركة إيّاه من دون أيّ تفسير. وبينما كانت تحثّ خطاها نحو باب الخروج وتمرّ من بين الصفوف الخلفيّة، فرك الرجل الجالس في ذلك المكان صدغيه كي يخفي وجهه بيديه.

ولمّا انتهى الشريط، أُضيئت الأنوار، فنهض إلياس من محلّه مثلما نهض الآخرون. لم يعرف كيف يجد تفسيرًا لانصراف بمبي المفاجئ. فمشى في جهد نحو الردهة، معذّب القلب. وهنا نقر شخص ما على كتفه.

ـ معذرة. هل لديك عود ثقاب؟

شابّ. مراهق. أصغر من أن يكون مدخّنًا. ولكن ليس الشأن شأنه كي يخبره بذلك، وحتى لو أخبره، فإنّه عرف أنّ الفتى لن يستمع له.

Twitter: @ketab_n

فقال الياس:

ـ آسف. لست مدخّنًا.

ـ حقًّا؟

ثمّة شيء في نظرة الشابّ المراهق، واضطراب في كلامه أثارا وجل إلياس، فجفل. ولكن قبل أن يتمكّن من التفوّه بكلمة أخرى، أومأ الفتى إيماءة صغيرة، وقال بنبرة قويّة وسهلة:

ـ حسنًا، استمتع بواحدة.

ـ شكرًا، وأنت أيضًا.

خرج إلياس من الباب المزدوج، تاركًا الصبيّ واقفًا في مكانه وما يزال يرقبه، فلمست سترته الخيوط الرماديّة التي خلّفتها بمبي هناك قبل ساعة واحدة لا أكثر.

* * *

Twitter: @ketab_n

حجارة رمليّة

أبو ظبي، تشرين الثاني ١٩٧٨

بعد مرور أسبوع واحد على الشجار الذي نشب أمام النادي، تخلّت روكسانا عن آدم من أجل شخص آخر ـ وكان هذا رجل أعمال أستراليًّا له مصالح تجاريّة في منطقة الخليج العربي.

وما إن ضاعت روكسانا من آدم حتى شعر بغمامة من خدر تجلّله وكأنّها ليل بهيم يخيّم على وادي الأشباح. وبقي مشتّت البال والفكر، متحفّظًا في الكلام، لا يعرف أين هو، شاردًا، فاقدًا ثقته في نفسه. ولم يعد يعرف ما الحقيقة، بل لا يعرف إن كان قد فهمها أصلاً. حياته متاهة من المرايا، في كلّ مرآة يشاهد انعكاسًا مختلفًا عن نفسه، ولكنّه لا يدري أيّ هذه الانعكاسات يمثّل آدم الحقيقي. ولكن على الرّغم من كلّ شيء، لم يرجع إلى البيت، ولم يعد بقادر على البقاء في الشقّة التي كان يعيش فيها رفقة روكسانا التي كان قد استأجرها باسمها. ولم يكن الذهاب إلى منزل طارق خيارًا جيّدًا إلّا إذا كان آدم على استعداد كي يسمعه وهو يُلقي عليه مواعظه. لهذا

Twitter: @ketab_n

لجأ إلى صديقه بلال الذي وإن لم يكن متعاطفًا مع المحن التي ألمّت به، إلّا أنّه لم يصرف النظر عنها.

مرّت الأيّام مرورًا بطيئًا يورث الألم والقهر. ثمّة وجع في معدته وكأنّه بلع ثقلاً من حديد بدا يضغط على بدنه. ولمّا كان قليل الشهيّة، فقد تخلّى عن وجبات الطعام. وكان يدخّن ثلاث علب، وفي أغلب الأحيان أربع علب من السكائر يوميًّا. وظهر عليه مرض طفولته، الربو. ولمّا أضحى واضحًا لكلّ من حوله أنّه لا يمكنه الاستمرار على هذه الحال، حاول بلال أن يقنعه بالعودة إلى أسرته.

قال آدم:

ـ لا يمكنني ذلك، فلو ذهبت الآن، فسوف أتركهم غدًا من جديد.

ـ ولكن ما سبب هروبك من أهلك؟

ـ السبب؟

كان هذا السؤال من الأسئلة التي لم يتعوّد آدم أن يطرحها على نفسه، أو على الآخرين في هذا الخصوص. كان يعرف كيف يتصرّف في الأسئلة ذات الصلة بكيف: كيف يضع البسكويت في علبة، كيف يشغّل آلة، وبماذا: ماذا يفعل أمام طاولة الروليت، وماذا يراهن؟ أمّا الأسئلة الخاصّة بالسبب، فهي أسئلة موغلة في جانبها التجريدي ولا يمكن سبر غورها.

وعلى مقربة منهما، دوّت صافرة سيّارة شرطة، فتشتّت انتباههما لحظة، وعندما بدأ آدم يتكلّم من جديد، كان صوته رزينًا، وكتفاه متهدّلين.

Twitter: @ketab_n

ـ انظر إليَّ. كنت أفكّر في هذا الأمر وأقلّب فيه النظر. فالصينيّون لن يرحموني، وديوني كبيرة جدًّا. إنّني أريد الخروج من هنا، فهذه المدينة تقتلني.

فسأل بلال في دهشة:

ـ إلى أين تريد الذهاب؟

ـ الحقّ أنّني فكّرت في الذهاب إلى أبو ظبي.

كانت أبو ظبي هي المدينة التي سافرت إليها روكسانا، ولكن آدم لم يشأ أن يخبر صديقه بهذه المعلومة. وعوضًا عن ذلك قال:

ـ تناهى إلى مسامعي أنّ ثمّة مدينة جديدة قيد الإنشاء هناك. مكاتب وعمارات سكنيّة وأسواق تجاريّة... وسوف يكونون في حاجة إلى العمّال، آلاف العمّال. ليس لمدّة سنة أو سنتين، بل لوقت طويل.

ـ أليس المكان هناك صحراء كلّه؟ كيف يشيدون ناطحات سحاب من فوق الرمال؟

ـ آه، قد لا تصمد الرمال، ولكنّ المال يصمد هناك.

ناقشا كلّ التفاصيل: كم من المال سيحصل عليه آدم شهريًّا، وكم يحتاج من الوقت للعمل كي يشتري سيّارة مرسيدس ـ بنز عسليّة اللون وملمّعة تلميعًا جيّدًا يمكّنك من رؤية انعكاس السحب وهي تمرق عاليًا، من فوقها، وكم هو رائع أن يعود إلى إنكلترا رجلاً ناجحًا محمّلاً بالهدايا لأطفاله. ورسم الإثنان حلمًا بالغ الحيويّة جعل بلال يندب حظّه بعد مرور أيّام قليلة ويقول:

ـ آه، لو كنت بلا أسرة وبلا هذا العمل اللعين في لندن لرافقتك إلى هناك!

Twitter: @ketab_n

ـ يمكنك أن تلتحق بي بعدئذٍ. سوف أراسلك، وأعطيك عنواني.

قال بلال:

ـ سوف يعاملك العرب معاملة مختلفة. فهم لن ينظروا إليك على أنّك مواطن من الدرجة الثانية، بل أنت ضيفهم!

ضيف يستدفئ بالشمس. هذه الفكرة نفسها بعثت الدفء في قلب آدم. لقد مرّت ثمانية أعوام على مجيء آدم إلى لندن للعمل ولكنّه ما زال غريبًا، متطفّلاً. أمّا بقيّة المهاجرين الذين عرفهم فكانوا أفضل حالاً، وأكثر سعادة على العكس منه. ولكن حتى إن كان ثمّة مستقبل أكثر إشراقًا هنا، خاصّة للجيل الجديد، فإنّه ليس جزءًا منه.

المؤكّد أنّ العرب لن يروقهم البريطانيّون، كما أنّ أبو ظبي لن تكون مثل لندن، فليس في أبو ظبي أمطار تنهمر مدرارًا، أو نقانق مصنوعة من لحم الخنزير وملفوفة بشرائح من لحم الخنزير وكأنّهم يتعمّدون مضاعفة الإثم، وليس فيها مطابخ صغيرة في بيوت عفنة، أو طماطم بلا طعم، ولا مراهقون يصبغون شعرهم باللون البنفسجي ويثيرون الرعب والهلع في الشوارع بجنونهم وثمالتهم. البريطانيّون مؤدّبون كثيرًا: فهم يبصقون في وجهك بأدب يجعلك تتوقّع منهم أن يناولوك منديلاً بعد ذلك. ولا يمكنك أن تضرب إنكليزيًّا لأنّه سوف يردّ لك الضربة. لقد استغرق الإنكليز سنوات طويلة كي يثنوا عليك من جهة وكي يقولوا لك إنّهم طردوك من العمل. أمّا مع العرب، فإنّ الأمور أكثر صراحة، وأكثر شفافيّة. فعندما يقول لك أحدهم: مرحبًا بك، فإنّه يعنيها حقًّا. ربّما

Twitter: @ketab_n

سيتمكّن من إحضار أطفاله بعد مدّة من الزمان، وسيكون ذلك شيئًا لطيفًا.

ولكن على الرّغم من أنّ آدم كان يحلم بحياته في أبو ظبي التي تغمرها الشمس الساطعة، إلّا أنّه كان يعلم أنّ قضيّة التحاق أطفاله به ليست سوى حلم من أحلام اليقظة، إذْ كانت أسماء لندنيّة بكلّ ما في الكلمة من معنًى، وتحبّ هذا البلد، «هذه المدينة». أمّا بخصوص ابنه الأصغر، فقد كان ابنًا فريدًا متميّزًا، رأس عجوز من فوق كتفين شابّين، هذا ما كانت تردّده بمبي دائمًا. فقد كان يونس أكثر أفراد أسرة طبرق حكمة وإنْ كان ضعيفًا أمام الحبّ ـ وهو المرض الذي كان يسري في جسد أفراد الأسرة أجمعين. أمّا اسكندر... فإنّ آدم شعر بالحرج وهو يتذكّر المشاجرة، لكنّ الأهمّ من هذا، هو أنّه مضطر إلى الاعتراف بأنّه أخفق في أن يكون في مستوى ظنّ ابنه.

عندما تصبح أبًا أوّل مرّة، فإنّك تفترض أنّ ولدك امتداد لك. فهو يمنحك الفخر والاعتزاز، والإحساس بالنجاح والأصالة إلى أن تدرك شيئًا فشيئًا، أنّ الطفل مخلوق يصنع نفسه بنفسه، ولا يمكنه أن يحيد عن قدره مهما تمنّيت له من أماني، ومهما بذلت من محاولات لإرغامه على أن يحذو حذوك. وفي اللحظة التي فهم فيها آدم هذه الحقيقة لم يستطع الحيلولة بينه وبين الإحساس أنّه مخدوع ومهزوم. عندما كان في أيّام مراهقته، لم يسلك هذا السلوك. لقد استمع إلى أبيه، وكان يحترمه على الدوام، ويطيعه. لو علم أنّه يملك جناحين، وأنّه من جنس مختلف، لتمكّن من الطيران. لكن فات الأوان الآن. فالحرِّيّة التي أخفق في الحصول

Twitter: @ketab_n

عليها من أبيه، فإنّ ولده الآن يطلبها منه.

لقد انتهت حياة آدم في لندن. وعلى الرّغم من صعوبة ترك أطفاله من ورائه، إلّا أنّه تمنّى أن يذهب، وإن لمدّة ليست طويلة، وأن يصبح حرًّا مثل ريشة، يطفو من جديد من فوق تيّار أقوى منه. سوف تكون أبو ظبي بلدًا جديدًا. وسوف ترفع أبو ظبي من معنويّاته. وعندما يصبح في أبو ظبي سوف يعثر على روكسانا ـ كلّ شيء في أوانه. وسوف تعود إليه وسوف يرحّب بعودتها. المشكلة الوحيدة التي تواجهه هي أنّه لا يملك المال الكافي للرحلة. لقد واجهته هذه المعضلة القديمة مرّة أخرى: إذا أردت أن تحصل على المال، فعليك أن تملك المال أوّلاً.

وبحسب نصيحة بلال، ذهب آدم لزيارة رجل يُدعى محمود بابا. كان محمود بابا رجلاً ذا لحية صغيرة وعينين مائلتين سوداوين تشعّان من فوق وجنتين بارزتين، وفم مستقيم. وكان واحدًا من أولئك الناس تحسّ بقوّتهم من دون أن يبدو ذلك على أجسادهم. ولد نشأ في مدينة بخارى، وهرب من السوڤيات وأنفق سنوات وسنوات في مختلف البقاع الأوروبيّة إلى أن حلَّ بمدينة لندن في نهاية المطاف. وكان يتكلّم عديد اللغات وساعد الأوزبك والإيرانيين. والأتراك والعرب والصينيين والمكسيكيين والبرتغاليين... وإذا ما أُعجب بك، فسوف يساعدك. كانوا كلّهم يلجأون إلى محمود بابا: الشبّان الذين لا يستطيعون العثور على عمل والآباء الذين هربت بناتهم والأسر التي تسودها الشحناء والبغضاء وأصحاب الدكاكين الذين لا طاقة لهم بدفع إيجاراتهم.

كانت الحجرة تحتشد برجال من كلّ الأعمار، يجلسون فوق

Twitter: @ketab_n

أرضيّة مفروشة بالسجّاد، يتجاذبون أطراف الحديث في أصوات واطئة. وفي منتصف الحلقة، كان محمود بابا قد اتّخذ مجلسه موليًا ظهره الجدار وعلى كتفيه رداء خارجي بلا أكمام، أنيق الشكل، ومن جلد الظبي. وكان ابنه البالغ تسعة أعوام، نحيل البنية، أسود الحاجبين يجلس إلى جانبه، يحملق في لعبة إلكترونيّة أميركيّة يحملها بين يديه، ويعبث بها بإبهاميه من دون توقّف. وبين حين وآخر، كان الحماس يكسو وجه الصبي سواء ربح اللعبة أم خسرها، يكاد في أغلب الأحيان أن يهتف بصوت عالٍ، ولكنَّ شفتيه تظلّان مطبّقتين من حول شبح صرخة.

قال محمود بابا في بهجة:

ـ انظروا إليه! إنّه أفضل منّي باستخدام التكنولوجيا وهو في هذه السنّ. وعندما تصاب آلة بعطل في المنزل، فإنّ والدته تطلب منه، وليس منّي، أن يصلحها.

أصغى الرجال الجالسون وأومأموا برؤوسهم مبتسمين عند الضرورة.

ـ هذا هو المطلوب، إذْ ينبغي لكلّ جيل أن يواكب التكنولوجيا المعاصرة، ولا يتعيّن علينا أن نتخلّف عن الزمان.

سمع آدم نفسه وهو يتمتم بكلمة «ولكن» بيد أنّه سرعان ما لزم الصمت، فقد خرجت الكلمة من فمه من دون تفكير، مثل زفرة.

ورأى رجلاً نحيف البنية، ملتحيًا، يعبس في وجهه، منزعجًا لأنّه لفظ كلمة أثناء كلام المعلّم. ارتبك آدم من تحت أنظار الرجل وخفض من رأسه من دون أن يعلم أنّه سدّد بصره على الخطيب، أحد أصدقاء ابنه وأحد الأشخاص البارزين في هذه الحلقة.

Twitter: @ketab_n

وفي هذا الوقت، كان محمود بابا يختلس النظر يمينًا ويسارًا، محاولاً أن يعرف من الذي تكلّم.

ـ ما هذا؟ لم أسمع جيّدًا.

تنحنح آدم بعدما أدرك أنّه مضطر إلى التقدّم إلى أمام.

ـ آسف. لم يكن في ذهني مقاطعتك على هذا النحو.

فقال محمود بابا في دماثة:

ـ لا بأس أيّها الرجل الطيّب. أخبرنا بماذا كنت تفكّر.

ـ حسنًا. كنت أشتغل في معمل البسكويت المتّحد. البسكويت يسير على امتداد حزام ناقل إلى ما لا نهاية.

قال ذلك آدم وهو ينظر، رغمًا عنه، إلى الخطيب، باحثًا عن إشارة مشجّعة، من دون جدوى، وأضاف:

ـ أنت تفعل الشيء نفسه مرارًا وتكرارًا، آلاف المرّات، حتى يُصاب دماغك بالخَدَر. كنت أفكّر في هذه الألعاب التي يلعبها أولادنا، وهل يفيدهم كلّ ذلك التكرار المتواصل في اللعب؟

بانت ملامح جديدة على وجه محمود بابا وهو يلقي نظرة ثاقبة إلى آدم، ملامح هي مزيج من الصبر والتسامح، وبعدها راح يلقي خطبة طويلة عن العلم والتكنولوجيا، لكن آدم رأى فيها تجريدًا مبالغًا فيه، فلم يستطع متابعتها. وبعد مرور ساعة، وبينما كان يتهيّأ للمضي في سبيله أسوةً ببقيّة الجالسين، طلب محمود بابا منه ومن عدد قليل جدًّا من الحاضرين وبضمنهم الخطيب، البقاء لتناول طعام العشاء.

جلس خمستهم على السجّادة وتحلّقوا حول طاولة مستديرة

Twitter: @ketab_n

وواطئة وانتظروا قدوم الطعام. وفي هذا الوقت استطاع آدم إثارة الموضوع من جديد.

وقال:

ـ إنّني في حاجة ماسّة إلى قرض كي أسافر إلى أبو ظبي. وعندما أجمع مبلغًا كافيًا من المال، سوف أعود وأسدّد الدين.

فسأل محمود بابا وهو يأخذ قطعة من الخبز:

ـ وماذا ستفعل بأسرتك؟

ـ سوف يهتمّ ابني اسكندر بشؤون البيت، فهو ولد كبير.

وما إن ذكر آدم اسم اسكندر حتى نظر إليه الخطيب نظرة تنمّ عن اهتمام، وفكّر: هذا هو الأب الغائب إذًا الذي تحدّث عنه الفتى. وفي تلك اللحظة، فُتح الباب، ودخلت امرأة حاملة صينيّة كبيرة تحتشد بالأطباق، وكانت تغطّي جسدها كلّيًا ببرقع بلون القرفة، ولم يكن يظهر منه غير الذراعين والعينين السوداوين من وراء الفتحتين في الخمار، وقدّمت شوربة الحمّص في طاسات زجاجيّة، ووضعت الرزّ ولحم الحَمَل في الوسط، ووزّعت أرغفة الخبز، وملأت الأقداح بالماء، وتوارت عن الأنظار.

وسأل محمود بابا:

ـ هل تلبس زوجتك الحجاب؟

شعر آدم بالتوتّر، وتقلّبت معدته، إذْ منذ أن أخبره ولده اسكندر أنّ بمبي تعاشر رجلاً آخر، لم يرغب في سماع كلمة واحدة عن زوجته، وكان يرتاب في أيّ شخص يشير إليها إشارة عابرة.

Twitter: @ketab_n

وقال:

ـ حسنًا، لقد شاهدت نساءً محجّبات في هذه المنطقة أكثر ممّا شاهدت في اسطنبول. أمّا في أسرتنا، فلا أحد يتّبع هذه العادة.

اعتدل محمود بابا في جلسته وقال:

ـ ولكن إذا ما منحك الله يومًا ما زوجة أخرى، ففكّر في الحجاب. عيونهنّ لا ترى سوى بيوتهنّ.

تنفّس آدم تنفّسًا عميقًا وشعر بالمرارة. حاول أن يبتلع ريقه، ولكنّه فشل. هل هذه تلميحات رهيبة على حديث بلا معنى فحسب؟ هل يمكن للناس أن يكونوا قد بدأوا بالطعن في شرف بمبي؟ واستقرّ صمت عميق وخيّم على المكان كلّه.

قال آدم وهو ينهض واقفًا على قدميه:

ـ ينبغي لي الذهاب. شكرًا لكم على الشوربة.

وقبل أن تسنح الفرصة لأيّ واحد منهم بإيقافه، ومن دون أن يودّعهم آدم وداعًا لائقًا، خرج من الحجرة ومضى في سبيله. وأثناء خروجه، مرَّ بالمطبخ حيث كانت زوجة محمود بابا وولده يتناولان طعام العشاء من حول طاولة صغيرة، الولد سعيد بطعامه وهو يمسك باللعبة اليدويّة محطّمًا رقمه القياسي بنفسه.

* * *

بعد أن وصل آدم مدينة أبو ظبي في تشرين الثاني ١٩٧٨ بدأ يشتغل في البناء. وبمرور الزمان سوف يشهد ظهور مبانٍ شاهقة أعلى من أيّ مبنى آخر سبق له أن رآه، وسوف يعجب بها أيضًا،

Twitter: @ketab_n

ولكنّه سوف يصاب سرًّا بالهلع منها. ففي مدينة تدفعها رغبة جامحة من أجل التحوّلات وتغيير المظاهر الخارجيّة، يجد آدم نفسه أمام أناس يعيشون في ماضيه ولا أمل له في إحداث أيّ تغيير.

كانت الأسابيع الأولى هي الأكثر مشقّة، ولا يرجع السبب إلى أنّ العمل كان شاقًّا فحسب، بل لأنّه كان مضطرًّا إلى التخلّي عن معظم توقّعاته وآماله إن لم يكن كلّها. فمن بين كلّ الخيالات التي داعبت خياله وخيال بلال، كان الشيء الحقيقي الوحيد هو الشمس الحارّة والقاسية على بشرته. وكان يعود مساءً مرهقًا تعلوه الأتربة إلى محلّ إقامته الذي يشاركه فيه سبعة من زملائه العمّال: رجال من أصول متباينة ولكنّهم يفتقرون إلى المزايا نفسها. وفي المناسبات الغريبة التي كان يتمتّع بساعة فراغ، كان يبحث عن روكسانا في كلّ مكان محتمل يمكنه أن يفكّر فيه ـ فيذرع المراكز التجاريّة جيئة وذهابًا، ويطوف في المطاعم والدكاكين.

وفي ليلة ما، راودته بمبي في حلم، وكان شعرها منسدلاً ومتموّجًا. ودخلا ممرًّا ضيّقًا وهما يسيران يدًا بيد. ولمّا وصلا نهاية الممرّ، أدرك آدم في رعب شديد أنّ بمبي كانت ترتدي ثوب روكسانا وتكاد أن تذهب إلى المسرح لترقص في أحد نوادي التعرّي. فصرخ بكلّ ما يملك من قوّة ليمنعها، ولمّا لم يفلح في مسعاه، جذبها إلى أسفل المسرح، لكنّ المرأة التي أمسك بذراعها لم تكن زوجته بل روكسانا ـ وكسا وجهها غضب جامح. واستيقظ مدركًا أنّ صرخته قد أيقظت بقيّة الرجال.

وبعد مرور بضعة أسابيع على حياته الجديدة ومن دون العثور على أيّ أثر يدلّ على روكسانا، اكتشف مكانًا رأى أنّه أشبه

Twitter: @ketab_n

بالواحة التي يعثر عليها تائه في الصحراء: وكر متنقّل للمقامرة أقامه عدد من العمّال سعيًا وراء ربح سريع وقتلاً للرتابة. ففي شقّة نتنة تفتقر إلى الهواء الصحّي، اجتمع ما بين أربعين إلى خمسين رجلاً، يشتمون ويصرخون ويدخّنون ويدعون بلغات مختلفة لمشاهدة صراع الديكة. وكان هؤلاء الرجال ينظّمون بين وقت وآخر صراع عناكب، وهما صراعان لم يسبق لآدم أن شهد أيّ واحد منهما. لكن وراء الحواجز الخشبيّة كانت الرهانات الحقيقيّة تجري، وهي التي كانت ينطلق إليها آدم.

كلّ ما كان يملكه هو ما تبقّى له من مال أرسله له محمود بابا بواسطة رسول بعد مرور يومين على خروجه من بيته. وكان في وسعه أن يعيد النقود، ولكنّه لم يعدها، إذْ لم يعد يملك قدرًا كافيًا من الكبرياء، وكانت الحاجة إلى مغادرة لندن أشدّ من أيّ حاجة أخرى. والآن، وضع جانبًا مصروفات أولاده وقذف الزهر بمال محمود بابا. ولعب في كلّ ليلة. وفي حين كان الآخرون يلعبون في بطء وينظرون إلى اللعب بنظرة بسيطة، فإنّ آدم اندفع في اللعب. وكان معظمهم من الهواة في اللعب، وهو ما لاحظه. لهذا كان الجوّ مؤاتيًا مع القلق والخوف من اعتقال السلطات ـ وبالتالي الترحيل من البلد. وشعر عدد كبير من العمّال بهذا التوتّر، ولكن ممّا يبعث على الغرابة أنّ آدم لم يشعر به. فكان يراهن ويراهن، في جسارة لا تحدّها جسارة، ومدفوعًا بدافع رهيب. ولمّا نفدت نقود محمود بابا في نهاية المطاف، لجأ إلى أجره ـ وقبل أن يمضي وقت طويل، كان يراهن بأجر أسبوع بكامله في ليلة واحدة.

اشترى لنفسه ساعة روليكس مزيّفة وكان يضعها في معصمه

Twitter: @ketab_n

طوال الوقت. وتحوّلت خطواته إلى خطوات بلا هدف، مترهّلة. وبدأ يتناول المسكّنات في كلّ يوم لتخفيف الخفقان الذي كان يحسّ به في صدره، والذي كان على الدوام يزداد سوءًا في أوقات المساء. لعلّه كان، مثل الديكة والعناكب، في حالة صراع دمويّ وإن كان صراعًا مع نفسه.

خلبت لبّه المناظر الطبيعيّة، وذهل عندما اكتشف أنّ الصحراء ليست منطقة قاحلة وإنّما تنطوي على جمال خفيّ. ففي بعض الأحيان، كان يسير ويتنزّه فوق الرمال ويبتهج بالحرارة التي تسري في قدميه بفعل الرمل المائع، ويحمل الحجارة الرمليّة في جيوبه. وفكّر كيف تتحوّل هذه الحجارة إلى رمال وكأنّها تفتقر إلى لبّ. ورويدًا رويدًا بدأ يشبّه نفسه بحجارة رمليّة.

أخبره أحد الأشخاص أنّ هذه الصحارى كلّها كانت يومًا ما بحارًا. وإذا كان في الإمكان تحويل الماء إلى تربة صلدة، ولا يعود هناك شيء اسمه مدّ وجزر، فما الذي يمنع الإنسان نفسه من التحوّل؟ لأنّ آدم، وعلى الرّغم من كلّ ما قيل في الأشرطة السينمائيّة والكتب والمجلّات، توصّل إلى استنتاج مفاده أنّك حيثما وجّهت وجهتك في هذا العالم، فإنّ قاعدة أساسيّة واحدة لا تتغيّر: الرابحون يربحون دومًا والخاسرون يخسرون دائمًا.

* * *

Twitter: @ketab_n

أســـماء

لندن، تشرين الثاني ١٩٧٨

في مساء رائق، قبل الجريمة بأسابيع، أعدَّت أمّي المائدة: ثلاثة أطباق وثلاث شوكات وثلاثة أقداح. تضاءل مؤخّرًا عدد متناولي طعام العشاء وازدادوا هدوءًا. وعلى الرّغم من أنّها اعتادت غياب زوجها، إلّا أنّ غياب اسكندر المتواصل صعب عليها. كانت مرهقة أكثر ممّا هي متوتّرة. وسمعتها أوّل مرّة تشكو من صعوبة تدبير أمور المعيشة، وربّتنا بمفردها، ولكنّ الشكّ راودني لاحقًا في أنّها كانت تتمنّى أن يكون ثمّة شخص يستطيع أن يهتمّ بها.

وسألتني وهي تحمل سلّة خبز من المطبخ:

ـ أين شقيقك؟

قلت متذمّرة:

ـ أيّ أخ؟ إن كان الأخ الأكبر، فالله وحده يعلم أين هو، أمّا يونس، فأظنّه ينزل في غرفتي.

ـ وهي غرفته أيضًا.

Twitter: @ketab_n

ـ كلّ صديقاتي لديهنّ غرف خاصّة بهنّ، وأسرهنّ تحترم حاجتهنّ إلى الخصوصيّة.

عقدت حاجبيها.

ـ أنت لست فتاة إنكليزيّة!

ـ آه، بربّك! بنات جيراننا لديهنّ غرفهنّ الخاصّة بهنّ.

ـ نحن لسنا جيراننا!

ـ هذا ليس بإنصاف يا أمّي. اسكندر له غرفته وهو لا يكبرني إلّا بسنة واحدة. فما السبب الذي يدفعك إلى منحه مثل هذه الامتيازات.. لسبب واحد وهو أنّه ولد؟ أنت تفعلين هذا الشيء على الدوام.

اتّجهتْ إلى حجرتي عمدًا تحت أنظاري الموجعة، وكانت ثمّة أصوات تنبعث منها. سرتُ من ورائها على امتداد الممرّ وأنا أشعر أنّني مثل بطّة صغيرة من خلف أمّها.

عندما فتحت أمّي الباب، وجدت طفلها الأصغر يصغي لأشدّ الأصوات الموسيقيّة دويًّا. وسألت أمّي:

ـ ماذا تفعل؟

لم يرفع يونس بصره إليها، أو إليَّ، بل ظلّ يحدّج السجّادة بنظره كأنّه يخشى أن يكشف وجهه عن شيء ما.

حملت أمّي الألبوم من فوق الأرض بدافع حبّ الاستطلاع وتفحّصته. ثمّة رجل على جواد، غريب الشكل، ورجل آخر مستلقٍ على الأرض، تنهش فيه النسور. ثمّة إطار من فوقه وعليه عبارة مكتوبة بحروف كبيرة: الصدام. ومن تحتها عبارة أخرى: مُدَّ لهم الحبل.

Twitter: @ketab_n

ـ ما هذا؟

قال يونس:

ـ إنّه فرقة يا أمّي. فرقة موسيقيّة.

قالت أمّي:

ـ أعرف ما الموسيقى، وهي ليست هذه الأصوات المدوّية.

نظر يونس إليَّ نظرة خاطفة، فبادلته إيّاها بنظرة تضامن أخت لأخيها. وأشارت أمّي الآن إلى عنوان الألبوم:

ـ ما معنى هذا؟

ـ يعني إن كان الناس مهمومين أكثر ممّا ينبغي وليس ثمّة أمل، ومنحتهم أنتِ حبلاً ما، فسوف يشنقون أنفسهم.

امتقع وجه أمّي.

ـ أهكذا تنفق وقتك؟ إنّك تدمّر عقلك بهذه السموم!

تأوّه يونس وقال:

ـ إنّه ليس سوى...

ـ لا، هذا فظيع. ما من أحد يتعيّن عليه أن يعطي أيّ شخص حبلاً! كيف يعلّمونكم هذه الأشياء؟

ـ من فضلك يا أمّاه! لقد أسأتِ الفهم. إنّهم لا يعلّمون...

فأوضحت:

ـ لا أريد أن يستمع أطفالي إلى مثل هذه الأشياء الفظيعة.

لم نشاهدها بهذه الصورة من قبل: غاية في الهيجان وغاية في الشقاء.

Twitter: @ketab_n

ـ إنّها فرقة موسيقيّة أعضاؤها من شبّان البانك يا أمّاه. هذا هو أسلوبهم. لا يوجد شيء سيّئ، صدّقيني.

سارت من تحت عيوننا المتوسّلة إليها إلى الجدار وجذبت السلك الكهربائي الموصل إلى جهاز التسجيل، فتوقّف الجهاز عن العمل.

فتأوّه يونس.

أمسكت بحنكه وأرغمته على أن يرفع بصره إليها.

ـ لا تصغي إلى الأشياء المظلمة. لماذا تهرب منّي؟ وأنت أيضًا، لا تتغيّر، أرجوك.

لوى يونس قسمات وجهه.

ـ إنّني لا أتغيّر.

عانقت أمّي يونس بعد أن انفرجت أساريرها، ووقفا متعانقين عناقًا حارًّا وقويًّا. وقبّلت قمّة رأسه وتنشّقت رائحة خدّي الطفل. ثم مالت عيناها إلى أسفل، إلى الفجوة بين رقبة شقيقي وقميصه وصولاً إلى ما دون أذنيه.

ـ ما هذه البقعة؟

فما كان من يونس إلّا أنْ اعتدل من فوره، وكست وجهه آثار رعب وهلع وهو يحاول أن يفكّر بما ينبغي له أن يقول: فات الأوان. يضاف إلى ذلك، لا يمكن ليونس أن يكذب أبدًا.

ـ إنّه وشم يا أمّي.

ـ ماذا؟

مضى على معرفتي بأمر وشم أخي مدّة وجيزة، فتدخّلت لنجدته:

Twitter: @ketab_n

ـ لا تقلقي يا أمّاه. إنّه...

لكن أمّي تجاهلتني تجاهلاً كلّيًّا، وجذبته إلى الحمّام، على الرّغم من احتجاجه. ثم خلعت له سترته الصوفيّة وقميصه وبنطاله وتركته بملابسه الداخليّة ودفعت رأسه تحت الماء، وغسلت مؤخّر عنقه بيديها وبإسفنجة أيضًا، وفركته.

ولول يونس:

ـ توقّفي يا أمّي، هذا يؤلمني.

ـ كان ينبغي لك أن تفكّر في الأمر من قبل.

حاولت من ورائها أن أتدخّل:

ـ إنّه وشم يا أمّي، ولا يزول بالغسل.

فدفعت يدي بعيدًا عنها وقد تلبّسها حافز جنوني وظلّت تواصل الغسل والفرك. وسألتْه:

ـ كم مضى على هذا الوشم؟

فأجبت عوضًا عنه في مرارة لم أكن أتصوّر أنّني أملكها:

ـ شهورًا. كان في إمكانكِ أن تشاهديها لو أنّك اهتممت بنا اهتمامًا أكبر.

ـ ما هذا الذي تقول؟

فهتفت:

ـ أنتِ مشتّتة الفكر على الدوام، وذهنك مشغول بأشياء كثيرة ولا مكان فيه لنا. فأنا لا أستطيع أن أكلّمك كلامًا مناسبًا بعد الآن. وأنتِ دائمًا تقولين لي: لا تفعلي هذا! لا تفعلي هذا! ولا شيء غير ذلك.

Twitter: @ketab_n

فقالت في عناد:

ـ هذا غير صحيح يا أسماء.

ثم عادت إلى فرك ظهر شقيقي. وبعد مرور بضع دقائق، تقبّلت الهزيمة، فرمت الإسفنجة على الأرض، متّقدة العينين، وهي تصرخ في وجه الصبيّ:

ـ لكن لماذا؟ لماذا ذهبت ولوّثت نفسك؟

فصاح يونس باكيًا، والدموع تنهمر من عينيه والماء يقطر منه وكأنّه فأر صغير مبلّل:

ـ لم ألوّث نفسي. أنتِ لوّثتني! لقد شاهدتكِ رفقة رجل في الشارع. أنت الملوّثة!

ما إن تفوّه يونس بهذه الكلمات حتى غطّى فمه بيده. رنوت إلى أخي مذعورة، ولم أدرك إلّا الآن أنّ هذا هو السرّ الذي كان يحمله. فبادلني النظرات، وبدا ندمه واضحًا. التفتُّ إلى أمّي في خجل، فوجدت على محيَّاها ما لم أره في حياتي قطّ. عيناها كامدتان، كالرخام، وكانت تبكي.

ران الصمت علينا نحن الثلاثة. وفي خضمّ ذلك الهدوء الثقيل والمرتبك، لم يتجرّأ سوى الماء على الحركة، يقطر في لطف.

بعد أن أخبرني يونس بالقصّة كاملة في تلك الليلة في حجرتنا، تقلّبت في فراشي، والطنين يهزّ رأسي. كانت الظلمة سائدة ما خلا بصيص فضّي من نور القمر يتسلّل من النافذة. وتناهى إلى سمعي همس:

ـ أختاه! هل أنت نائمة؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا.

ـ لقد هجرنا أبي، فهل تعتقدين أنّ أمّي ستهجرنا أيضًا؟

ـ لا، أيّها الساذج. إنّها لن تهجرنا، فلا تقلق.

وممّا هو غريب أنّني لم أغضب بسبب أمّي، بل كنت قلقة لأسباب أخرى، كبيرة وصغيرة، وكلّفني بعد أن أدركت الآن أنّ لديها عالمها الآخر الخاصّ بها، أو أنّها تحاول بناءه، أحسست على الرّغم من كلّ شيء، أنّني أرغب في حمايتها، فعلى حين بغتة، أضحت في نظري، وقلت:

ـ علينا أن نتأكّد أنّ اسكندر لا يعرف شيئًا عن هذا الموضوع.

* * *

Twitter: @ketab_n

حبر على حرير

لندن، تشرين الثاني ١٩٧٨

الوقت هو السابعة والنصف مساءً، نهاية يوم طويل. شعرها مشدود بإحكام في عقدة من غير اهتمام، ظهرها يؤلمها قليلاً. كانت بمبي واقفة على قدميها منذ بواكير الصباح. ولكنّها لم تحسّ بالتعب. وكانت قد أخبرت ريتا أنّها سوف تتأخّر في صالون الحلاقة لإنجاز أعمال التنظيف، وإن لم يكن التنظيف هو عملها الحقيقي.

وقالت ريتا وهي تقبّلها على وجنتيها:

ـ أنتِ ملاك. ماذا سأفعل لولاكِ.

لم تخبرها بعد. ولم تستطع حَمْلَ نفسها على إخبار ربّة عملها أنّها سوف تترك العمل، وأنّها لن تأتي إلى صالون المقصّ البلّوري يوم غد: ولا حتى بعد غد. سوف تكتب ملاحظة على قصاصة ورق لريتا، فهذه هي أسهل وسيلة. وسوف تتذرّع بأنّها ليست على ما يرام وأنّها محتاجة إلى بضعة أيّام بعيدًا عن العمل. إلّا أنّها

Twitter: @ketab_n

فكّرت من جديد وقرّرت أن تخبرها بالحقيقة ـ أو في الأقلّ أكبر قدرٍ ممكن منها. فهي مُدينة لصديقتها بالشيء الكثير. وسوف تخبر ريتا أنّ ابنها الأكبر لا يريدها أن تعمل في أيّ عمل بعد اليوم.

كان اسكندر ولدها المحبوب، يغضب قليلاً أحيانًا، ويبالغ في إظهار عواطفه أحيانًا أخرى، ولكنّه كان فتًى طيّبًا، ولديه أسبابه الخاصّة بذلك. فعلى حين بغتة سرت شائعات كثيرة في المنطقة، من وراء ظهرها ومن وراء أبواب موصدة وفي زوايا المتاجر وفي المقاهي ومطاعم الكباب ومحلّات غسيل الثياب وبيع الأسماك. ونما إلى الأهالي أنّ الأمور ليست على ما يرام في أسرة طبرق. وانتشرت الإشاعات بأسرع من انتشار الحبر على قطعة الحرير. لقد أنفقت بمبي طوال حياتها وهي تزيل البقع من على الثياب والسجّاد، ولكنّها لم تكن تعرف كيف تعالج هذا النوع من البقع! وفكّرت: سوف أكتب إلى ريتا رسالة وسوف تفهم، ولا تفهم.

الشعور بالخطيئة إحساس رهيب. فهو يبدأ من بوادر شكّ بسيطة، وتستقرّ في رأسك وتمتصّ دمك وتضع بيضها في كلّ مكان. شعرتْ بالإثم طوال الوقت في هذه الأيّام. في العمل وفي البيت وأثناء الطبخ والتسوّق أو الصلاة، بل حتى أثناء نومها، كانت الخطيئة تغزو روحها.

كانت أثناء طفولتها قد أصيبت أكثر من بضع مرّات بالقمل، ولكنّ الإصابة الأسوأ كانت في المرّة الأولى. وظنّت على الدوام أنّ العدوى انتقلت إليها من أختها التوأم، وإن كانت جميلة قد زعمت خلاف ذلك. وعمدت الأمّ إلى وضعهما في حوض ماء حارّ مدّة ساعات، تفرك رأسيهما بمحلول سائل ذي رائحة كريهة

Twitter: @ketab_n

اشترته من أحد المعالجين. وتمكّنت في نهاية المطاف من التخلّص من كلّ بيوض القمل، لكنّها كادت أن تودي بحياة البنتين أثناء ذلك.

مضت أكثر من نصف ساعة على مغادرة الموجودين في صالون الحلاقة ـ الزبونات وعاملة الاستقبال والتي تهتمّ بالأظافر التي تأتي مرّتين في الأسبوع. وكانت ريتا قد قرّرت إحضار مصفّف شعر ـ وهذه عبارة راقية. الناس في إنكلترا يحبّون العبارات الفخمة والراقية حبًّا جمًّا. وكانت الأسماء التي يطلقونها على طعامهم قد صعقت بمبي: دجاج ذو نكهة مميّزة بالكوسكوس الحادّ. وكانت قد شاهدت هذا النوع من الطعام على قائمة الأطعمة في مطعم أنيق اصطحبها إلياس إليه. وكانت تلك المرّة الأولى والوحيدة التي خرجا معًا، ولم تشعر في حياتها أنّها غير مرتاحة كما شعرت في تلك المرّة. كانت تعلم أنّه يحاول أن يعثر على مكان يستطيعان أن يتجاذبا أطراف الحديث فيه من دون أن يراهما أحد، لكنّ ذلك مستحيل. صحيح؟ ليس لأنّ الناس منتشرون في كلّ مكان فحسب، بل بسبب القانون القديم الخاصّ بالكون وهو: أيًّا بذلت من جهود كي تتجنّب شيئًا ما أيًّا كان الثمن، فإنّك سوف تصادفه لا محالة.

ذكرت لإلياس من حول مائدة الغداء أنّ الناس في مسقط رأسها كانوا يضحكون إذا ما قدّمت لضيف مميّز طبقًا من الكوسكوس لأنّه طعام الفلّاحين. صحيح أنّ أسرتها لم تكن ثريّة ولكنَّ أفرادها كانوا يعرفون الفرق بين الطبق الفقير والطبق المترف.

أمّا في إنكلترا، فإنّ الأمور معكوسة تمامًا. فكلمة كوسكوس كانت تحظى بالاحترام وإن كانت كلمة اعتياديّة. أمّا كلمة عار فكانت لا تؤخذ على محمل الجدّ وإن كانت كلمة بالغة الأهمّيّة.

Twitter: @ketab_n

وإذا ما خاب ظنّ الإنكليز من شيء ما، فإنّهم يهتفون قائلين: آه، يا له من عار، حتى وإن كان الأمر تافهًا ويفتقر إلى الصلة بالعبارة المذكورة.

أخبرتْ بمبي إلياس بكلّ هذه الأشياء كي تجعله يضحك، ولكنّه حملق فيها مكتئبًا إلى حدٍّ ما، كدأبه من حين إلى حين، وكأنّها تذكّره بأشياء أخرى أشدّ عمقًا وأكثر حزنًا.

وسأل إلياس في خبث:

ـ إذًا لو طلبتِ منّي تناول وجبة عشاء، فإنّك لن تقدّمي لي طبق الكوسكوس؟

ـ لا، بطبيعة الحال.

وشرحت له أصناف الطعام التي تودّ أن تقدّمها له. أوّلاً، الشوربة لأنّ كلّ الأطعمة تصبح ذات مذاق لذيذ عندما تكون المعدة حارّة. اللبن بالطرخون والنعنع والبرغل والسلطة بدبس الرمّان والحمّص المحمّص والمتبّل بالفلفل الأحمر وفطيرة العدس وطبق اللحم بمرق الباذنجان، وأخيرًا البقلاوة المصنوعة في البيوت.

وقال:

ـ أودّ أن أطهو الطعام وإيّاكِ في المطبخ نفسه، في مطبخنا.

كانت تلك واحدة من اللحظات القليلة النادرة التي تكلّما فيها عن مستقبلهما المشترك، واهمين بالاعتقاد أنّ مستقبلهما واحد.

* * *

صالون الحلاقة هو المكان الذي يقصّ فيه المرء شعر رأسه أو يصفّفه، ولكنّ الأكثر من هذا كلّه هو مكان تبادل الكلام. إنّ

Twitter: @ketab_n

السبب الذي يدفع بعض النساء إلى الذهاب إلى هذا المكان في غالب الأحيان ليس لأنّهنّ يرغبن في تغيير تسريحة الشعر بين أسبوع وآخر، بل لأنّ الكثيرات من النساء يرغبن في تجاذب أطراف الحديث رغبة قويّة ـ أن يتكلّمن بكلمات تشبه جدول ماء متعرّج، راضٍ بسريانه فحسب. وكانت الزبونات في حاجة أحيانًا إلى من تصغي لهنّ وتدلّلهنّ ـ بل تعاملهنّ معاملة الأميرات اللواتي قرأن عنهنّ يومًا ما في القصص والروايات.

لم تكن بمبي متحدّثة بارعة، بل كانت مستمعة مدهشة. فقد تعلّمت بسبب نشأتها في أسرة كبيرة أن تضع في الاعتبار غيرها من الناس أوّلاً، ولهذا وجدت في الإصغاء أمرًا سهلاً.

وكانت زبوناتها يهذرن في أمور تخصّ آمالهنّ وخيباتهنّ، وكانت تعرف أسماء أزواجهنّ وأطفالهنّ وكلابهنّ وحتى جيرانهنّ المزعجين. وعندما كنّ يحكين النكات، كانت تضحك في الوقت المناسب. وعندما كنَّ يهاجمن السياسيين، كانت تبادلهنّ الضحكات. وإذا ما تحدّثن عن تجارب تقطّع نياط القلوب، كانت عيناها تترقرقان بالدموع. كانت تفعل هذا كلّه بمفردات محدودة. كانت بعض الكلمات تفوتها أحيانًا، ولكن جوهر الموضوع لا يفوتها أبدًا.

كانت شمس الأصيل قد غابت منذ زمن بعيد، والشارع بدأ يتغيّر. فالمتاجر أقفلت أبوابها من على جانبي الطريق، وأصوات أبوابها المعدنيّة تصمّ الآذان: المتاجر التي تبيع الساري الهندي والمقهى اللبناني ودكّان الجزّار الذي يبيع اللحم الحلال ومركز التسوّق المحلّي الذي بدأ مؤخّرًا يبيع الدجاج المشوي.. الناس

Twitter: @ketab_n

الذين كانوا يشتغلون أو يتسوّقون في هذه المحلّات باتوا الآن في طريقهم إلى بيوتهم.

فرغت بمبي في الساعة الثامنة والنصف من كنس الأرض وغسل الفرش والقناني البلاستيكيّة التي كانت تمزج فيها أصباغ الشعر. كانت يداها قد اعتادتا الفرك والحكّ والمسح والتلميع على نحو جعلها تعتقد أنّهما تطيعانها إنْ أمرتهما ألّا تشتغلا. ولمّا لم يعد لديها ما تعمله، جذبت معطفها وحقيبة يدها، ورنت إلى محلّ آخر مرّة. وتمتمت:

ـ الوداع يا مجفّفات الشعر. الوداع أيّها المقصّ، أيّها القاصر، أيّتها اللفائف..

كانت قد قطعت عهدًا على نفسها ألّا تبكي. عضّت لسانها وهي تفتح الباب وتخطو إلى الشارع، فشاهدت رجلاً وامرأة كبيران في السنّ وهما يتبادلان قبلة ويتمايلان ويترنّحان. حاولت ألّا تنظر إليهما، ولكنّها لم تستطع. لقد مرّت ثمانية أعوام منذ أن وطأت أرض هذا البلد، ولكنّها على الرّغم من ذلك لم تألف رؤية الناس يتبادلون القبلات أمام الملأ. تنبّهت لها المرأة، فتراجعت عن حبيبها وهي تضحك ضحكة قصيرة وكأنّها فرحت بخجل بمبي.

أوصدت بمبي الباب، ووضعت المفتاح في صندوق رسائل ريتا في عجالة، ولكنّها أدركت أنّها نسيت أن تكتب رسالتها القصيرة وفكّرت أنّ الأفضل ترك الأمور على هذه الحال. لا ضرورة لشرح أيّ شيء، وحتى لو حاولت أن تشرح، فإنّها لم تعتقد أنّها سوف تنجح. الآن ينبغي لها العثور على إلياس وإخباره أنّ لقاءها به سيغدو صعبًا لها في الأيّام المقبلة.

* * *

Twitter: @ketab_n

لقاء غير متوقّع

لندن، ١٤ تشرين الثاني ١٩٧٨

بدا اسكندر، كعادته، في أحسن حالة عقليّة أثناء استراحة الغداء في المدرسة في يوم الثلاثاء: يناكد ويشاكس ويمازح. أكل فطيرته مصغيًا إلى اللغو والهذر الدائر من حوله. كان الصبيان يتكلّمون على لعبة اليوم المقبل: تشيلسي وموسكو دينامو.

وعلى حين بغتة، التفت أرشد إلى اسكندر وقال:

ـ هه! هلَّا أعطيتني هذه الفطيرة؟

هزَّ اسكندر رأسه نافيًا.

ـ لا... ليس لك... از... س... هـ... ذا.

أمسك المتحدّثون عن الكلام وحدّجوه بنظراتهم، إذْ لم يسبق لهم أن سمعوه يتلعثم على هذا النحو، أو يخجل. جاءت اللحظة ومرّت، فاستأنفوا لغوهم، ولكن قلق اسكندر بقي كما هو.

أبقى عينيه في الصفّ على ياقة التلميذ الجالس أمامه من دون

Twitter: @ketab_n

أن يتحرّك. ولبث على هذه الحال إلى أن حطّت ورقة مجعّدة على طاولته، فأمسك بها وفضّها، فوجدها مرسلة من كاتي:

ماغي وكريستي وهيلاري. إن كان ولدًا، فتوم.

ثم حطّت ورقة أخرى تستفسر إن كان على ما يرام. فكتب بخطّ رديء رسالة قصيرة لإشباع حبّ فضولها، وقذف بها إلى الوراء. ولكنّه على الرّغم من ذلك، أخذ حقيبته وخرج في اللحظة التي انتهى فيها الدرس حتى وإن كان يعلم جيّدًا أنّه سيكون في ورطة كبيرة بسبب خروجه من دون إذن. وبعد أن هام على وجهه من دون هدف فترة وجيزة، هرع إلى موقف الحافلات وهو يشعر أنّه صغير السنّ ورائع في زيّه أثناء ساعات الدراسة.

ولمّا وصلت الحافلة، سار في الممرّ من دون أن يلتفت كثيرًا إلى ما يحيط به. واخترقه الهواء الثقيل الكريه الرائحة إلى حدٍّ ما وكأنّه شظيّة حزن. كان الناس يقفون جماعات وإن كان ثمّة مقاعد كثيرة شاغرة في الوسط. وسرعان ما أدرك السبب، إذْ شاهد متشرّدًا مخبولاً يجلس وحيدًا ويكلّم نفسه، قذر الوجه، طويل اللحية، محتقن العينين. وكان قد خلع حذاءه الطويل الرقبة وبدأ يدلّك أخمص قدميه القذرتين المتقرّحتين وكأنّهما أثمن شيء في العالم. وكانت تنبعث منهما رائحة نتنة تشبه رائحة النفايات الدافئة، فتملأ الجوّ بها.

سار اسكندر متمايلاً نحو الرجل، بدافع من نزوة، وجلس بجانبه. حدّق المتشرّد إليه في بلاهة ومتعة وكأنّه يفكّر في ما دهاه. لاحظ اسكندر أنّ الناس كانوا يحدّجونه بنظراتهم أيضًا، ولكنّه لم يأبه بهم. فبعد أن بدأ يتلعثم في الكلام، انتابه إحساس أنّه مخبول إلى حدٍّ ما.

Twitter: @ketab_n

وعندما انعطفت الحافلة في تثاقل، لمح اسكندر انعكاسًا لصورته على النافذة المقابلة، ممتقع الوجه، غائر الخدّين. وعلى الرّغم من أنّه بلغ السادسة عشرة مؤخّرًا، إلّا أنّه بدا أكبر سنًّا.

وتذكّر كتابًا من الكتب الهزليّة سبق له أن طالعه، وكان شرطي التحرّي يصادف على الدوام نفسه المستقبليّة. لعلّ هذا ما يراه الآن ـ اسكندر الذي ما زال في طور الصيرورة.

عاد بأفكاره إلى تلعثمه، وفكّر إن كان قد أُصيب بجرثومة من الجراثيم، وفي هذه الحالة فإنّ أمّه تعرف ماذا ينبغي لها أن تفعل. سوف تحضر شاي الأعشاب لتهدئة حلقه وتفكّ عقدة لسانه. وإذا عصى عليها أمره، فسوف تكتب رسالة إلى خالته جميلة. ألم تعبّر دومًا عن فخرها واعتزازها بأنّ التوأمين تعرفان لغة الأعشاب السرّيّة! اتّكأ اسكندر في جلسته، والثقة تملأ نفسه من أنّه سوف يتماثل للشفاء. كان حبّه لأمّه يتّقد في فؤاده. لا يملك العمّ طارق سوى التفاهات. كم تمنّى لو كان في وسعه أن يعثر على آلة زمان ويسافر بها إلى الماضي، إلى أيّام صباه. قبل يونس. قبل أسماء. إلى الأيّام التي لم يكن فيها أحد سواه وسوى أمّه يحيط بهما حبّ طاهر غير مدنّس.

هكذا كانت حالته عندما وصلت الحافلة إلى لندن فيلدز.

وقال المخبول بنبرة رقيقة مخاطبًا كلّ من في الحافلة وكأنّهم أصدقاؤه:

ـ يبدو أنّ كلّ فرد في عجالة من أمره.

شعر اسكندر أنّه مضطر إلى أن يقول شيئًا ما، ولمّا لم يكن قادرًا على الكلام، أومأ في اتّجاه الرجل.

Twitter: @ketab_n

ـ تووووت. . . لا تدع الأمّ في الانتظار.

سرت في جسد اسكندر قشعريرة لمّا سمع هذا الكلام. ولمّا خطا إلى الخارج نحو ضوء النهار، ظلّت ضحكة الرجل تتردّد في ذهنه. كانت الساعة الثالثة والنصف عندما وصل البيت في شارع لافندر غروف وقرع الجرس.

* * *

كان إلياس جالسًا بمفرده في حجرة المعيشة، متواريًا إلى حدٍّ ما عن الأنظار بسبب الستائر المغلقة عندما سمع صوت وقع خطوات من وراء الباب.

وكان قد قال قبل أسبوع وهو يدرك أنّه يجتاز خطًّا غير مرئي:

ـ أريد أن أعرف أين تسكنين؟

ـ لماذا؟

ـ يا عزيزتي، أنت تعرفين أين أقطن، وتعرفين منزلي وعملي ولكنّك سرّ في نظري. فعندما تكونين في المنزل، بعيدة عنّي، أريد أن أقدر على تخيّل ما تفعلين. أحتاج إلى صورة في خيالي. هذا كلّ شيء.

فسألت بنبرة يشوبها الحزن:

ـ صورة؟

ـ نعم، حسنًا. صورة ليست شخصيّة، بل أعني لو في وسعي أن أحضر وأراك ـ بضع دقائق تكفي. لا شيء أكثر من هذا. سوف أحضر مثل هرّة وأنصرف مثل هرّة أيضًا، ولن يعرف أحد. مرّة واحدة لا أكثر. هل هذا ممكن؟

Twitter: @ketab_n

عضّت لسانها وهمهمت:

ـ خمس دقائق لا غير، وبعدها تمضي في سبيلك.

في عصر ذلك اليوم، كان الأطفال في المدرسة عندما دخل إلياس البيت في شارع لافندر غروف. وما إن اجتاز عتبة الدار حتى ندم على الفكرة من أساسها. فقد كان يدرك أنّ بمبي لم ترغب في قيامه بهذه الزيارة. والسبب الوحيد الذي أدّى بها إلى الخضوع لخطّته هو إرضاؤه. كانت متوتّرة توتّرًا شديدًا حتى إنّ أقلّ صوت كان يبعث القشعريرة في جسدها. وشعر بقلق شديد لا لأنّه جاء إلى منزلها فحسب، بل لأنّه دخل حياتها أيضًا وسبّب كلّ هذا الشقاء والألم. وكان يريد من حبّه أن يخلق الأعاجيب، ولكنّه يبدو أنّه لم يخلق سوى المتاعب. ولكي لا يتركها تشعر بأكثر ممّا شعرت به من حرج واضطراب، فقد لبث إلياس مرتديًا معطفه، وعلى استعداد للانصراف عند أوّل إشارة تبدر منها.

لكن على الرّغم من ذلك، كان المنزل نفسه يمثّل رؤية نافذة إلى عالم حبيبته الذي كان يتوق إليه توقًا شديدًا، لأنّ هذا البيت الصغير المعتم الذي أنفقت فيه بمبي وقتًا طويلاً بمفردها، كان هو السبب الذي يجعلها صنو راقصة الباليه الأولى والوحيدة في صندوق الموسيقى. فرأى المفارش الصغيرة المطرّزة والمخرّمة على طاولات القهوة والرفوف والكراسي، وشاهد النماذج التطريزيّة التي ابتكرتها وخضار الفلفل والباذنجان المجفّفة والمعلّقة بخيط قرب النافذة كي تعدّ الدولمة، وخفّها القرمزي بكراته المزركشة. استوعب التفاصيل والألوان. كان المكان معبقًا بروائح تتنافس بينها: مثل المعجّنات منزليّة الصنع والثياب المغسولة قبل قليل

Twitter: @ketab_n

ونكهة القرفة وماء الورد. كلّ شيء جديد في رأي إلياس، ولكنّه يشبه إلى حدٍّ كبير حياة أسرته التي تركها من ورائه في لبنان، ممّا أدّى إلى أن تترقرق الدموع في مآقيه.

عندما كان إلياس صبيًّا، أنفق فصل الصيف في بيروت رفقة جدّيه، يمشي الهوينى على ساحل البحر المتموّج تموّجًا هادئًا، ومن فوق الرمال الدافئة والوفيرة. وفي إحدى المرّات، وبعد هدوء العاصفة، صادف عددًا من المخلوقات التي تعيش في أعماق البحر وقد جرفها المدّ إلى الساحل وصُعق لمّا شاهد هذه العضويّات الغريبة وهي خارج موطنها. ومع مرور السنين، وبعد أن عمل في مدن غريبة لا حصر لها، واطّلع على حياة الجيل الأوّل من المهاجرين، فإنّه يستذكر هذا المشهد. فقد كانت هذه العضويّات قد انقطعت عن بيئتها الطبيعيّة، وأصبحت تتنفّس في هذا المكان الجديد في صعوبة ومشقّة، تنتظر في ضعفٍ المحيطَ كي يعيدها إليه، أو الساحل كي يبلع ما تشعر به من قلق واضطراب وأن يساعدها. فهم إلياس هذا الإحساس لأنّه كان على الدوام ينظر إلى نفسه بوصفه رجلاً عاش على سواحل ثقافات أخرى، ولكنّه يختلف عنها في قضيّة واحدة جوهريّة وهي أنّ في إمكانه أن يعيش في أيّ مكان، ولا تربطه رابطة بأيّ قطعة أرض مهما كانت.

سار إلياس نحو الباب وشكر بمبي إذْ سمحت له بالدخول، واعتذر لما سبّبه لها من ألم، فبدت مرتاحة وحزينة في آن واحد لرحيله. فقالت له في صوت هادئ:

ـ اشرب شايًا ثم ارحل.

ـ أأنتِ متأكّدة؟

Twitter: @ketab_n

ثمّة سماور برونزي على الطاولة يتصاعد منه بخار الماء. ارتعشت يداها ارتعاشًا شديدًا وهي تصبّ له الشاي في قدح، فأدّى ذلك إلى انسكاب قدر قليل من الشاي الساخن على قميصها القرمزي.

هتف إلياس:

ـ آه، لا! هل أحرقتِ نفسك؟

هزَّت رأسها وهي تحاول أن تبعد قميصها عن يدها، وقالت:

ـ لا بأس. اشرب الشاي هنا وسأذهب لأغيّر القميص.

امتثل لأمرها ولبث في الانتظار. ولم يكد يفرغ من شرب شايه حتى قرع أحدٌ ما الجرس، وكان قرعًا قصيرًا، تبعه قرع آخر، أطول هذه المرّة وأكثر إلحاحًا. وشعر إلياس بالأعصاب تتصلّب في رقبته، وأصابعه تحكم الإمساك بالقدح.

اندفعت بمبي من حجرة نومها، وقميصها الأبيض مزرّر على نحو مرتبك، ونظرت إليه مرتعدة. فأولادها لم يحن موعد عودتهم إلّا بعد ساعتين ونصف الساعة، وجاراتها في أعمالهنّ فضلاً عن أنّهنّ لا يأتين إليها من دون سابق إنذار. فأشار إليها إلياس أن يختبئ وإن لم يكن لديه أيّة فكرة أين يختبئ وكيف. تبادلا همسات تنمّ عن شدّة توتّرهما، فزحف إلى تحت طاولة الطعام، وكأنّه في حلم مرعب لا يصدّق ما يحدث له.

وبعد ثانية واحدة، دُفع مفتاح في ثقب الباب، فامتقع وجه بمبي أيّما امتقاع، وعرفتْ من الباب، إذْ لا يوجد سوى شخص واحد لديه المفتاح.

* * *

Twitter: @ketab_n

ثوب السكون

لندن، ١ كانون الأوّل ١٩٧٨

كان إلياس يسقي نبتته الهوائيّة ماءها الشهري عندما تناهى إلى سمعه نبأ جريمة القتل أوّل مرّة. النباتات الهوائيّة كائنات غريبة، لغز عالم النبات. فهي تتشبّع بالرطوبة من خلال المسامات في أوراقها كي تعيش من دون أن تكون لها أيّة جذور في التربة، بخلاف بقيّة النباتات، وتتعلّق بمختلف الأجسام وتنمو غالبًا تحت الهواء. إنّها نباتات هائمة على وجهها. احتفظ إلياس بنبتة التيلاندزيا في محارة كبيرة وضعها في المطبخ. وعندما يصبح الجوّ داخل المنزل شديد الجفاف في فصل الصيف، فإنّه يغمر النبات بالماء كلّ عشرة أيّام ـ الحمام. أمّا الآن، فقد كان الوقت شتاءً، لهذا اكتفى برشّ مقدار قليل من الماء كلّ أربعة أسابيع ـ رذاذ الماء.

كان إلياس منشغلاً الانشغال كلّه في عمله، فلم يسمع الطرقة الأولى، فقد كان جرس الباب لا يعمل على نحو صحيح منذ

Twitter: @ketab_n

انقطاع التيّار الكهربائي آخر مرّة، ولم يتسنَّ له الوقت كي يصلحه. وفي غضون ثوانٍ معدودة، جاءت الطرقة الثانية أعلى صوتًا. استبدّ به حبّ الفضول لمعرفة من الطارق في هذه الساعة المبكرة، فوضع النبتة في مكانها وجفّف يديه بمنشفة.

كانت بمبي قد جاءت إلى شقّته أربع مرّات، خائفة ومسرعة كأنّها عصفور يتربّع فوق غصن شجرة قبل أن يجد في نفسه الشجاعة للطيران بعيدًا. وكانت قد جلست هادئة، يقظة وسريعة الانتباه، على الأريكة الجلديّة، والهرّة مكوّرة في حضنها. وكانت قد راقبته وهو يعمل في المطبخ المفتوح، مصغية له وهو يتكلّم. ابتسامتها حقيقيّة مثل القلق الواضح في عينيها.

كانت قد أثارت اهتمامه منذ البداية بما تتّصف به من تناقضات شديدة. وكان في وسعه أن يلاحظ مدى تذبذبها، وهشاشتها، ولكن من تحت ذلك كلّه، ثمّة طبقة من الإصرار ـ خيط من الشجاعة، عناد يصل حدّ الوقاحة، يعلو ويهبط. كلّ شيء متشابك. وفي تحديقتها، رأى ضوءًا سبق له أن شاهده في عيني أمّه عندما كان طفلاً، ولم يره في عين أيّ شخص آخر مرّة أخرى. ولكن على الرّغم من ذلك، لاحظ حزنًا دائميًّا يلقي بظلاله عليها، كان إلى حدٍّ ما هو الحزن المتعذّر على التفسير الذي جذبه إليها.

منذ اليوم الذي شبكا فيه يديهما في السينما أثناء مشاهدتهما شريط «اللقيط» معًا أوّل مرّة، اشتاق شوقًا كبيرًا إلى التعبير عن مشاعر حبّه لها، أن يكون ودودًا لها، بعيدًا عن أعين الناس أجمعين، وأن يخلّصها من العجالة التي هي فيها والإحساس بالذنب والخوف اللذين كانت تحملهما داخلها في كلّ مكان،

Twitter: @ketab_n

ولكن في كلّ مرّة كانت تزور شقّته، كان ثمّة إحساس غريب بالكبت يخيّم عليهما، بالانضباط الذاتي الذي لم يعلم أنّه قادر على إظهاره.

كان إلياس يريد حلّ اللغز الذي تمثّله، ولكنّه تمنّى شيئًا أكبر من ذلك وهو أن يجعلها سعيدة. هذه فكرة بدت له إيثاريّة ونبيلة إلى حدٍّ كبير، ولكنّه كان يدرك أنّها في جوهرها فكرة أنانيّة. كان يريد من حبّه أن يكون له مفعول العصا السحريّة التي تحوّل كلّ شيء تلمسه. وإذا ما أحبّها حبًّا طاهرًا وعميقًا بما يكفي، فيمكنه تحويل السندريلا إلى أميرة، جميلة وسعيدة جدًّا ومتوهّجة. وكانت هذه الرغبة في إعادة تكوينها في قالب أخفّ وأكثر حرِّيّة هي التي أغوته وأثارته.

كانت تتصرّف إلى حدٍّ ما تصرّف خادمة شابّة، فتسمح له أن يمسك يديها وأن يسرق منها قبلة ويضع رأسها على صدره ويستمتع بدفء جسده الملتصق بجسدها، ولكنّها لم تتجرّأ على فعل ما هو أكثر من ذلك. وسرعان ما شعر أنّ أيّة محاولة للتوغّل إلى ما هو أبعد من هذا الخطّ الفاصل بينهما سيثير قلقها تمامًا ويسبّب لها قدرًا كبيرًا من الشعور بالذنب. كانت مشاعر قد انتابتها قبل الآن أنّها امرأة ميتة: امرأة متزوّجة لها ثلاثة أطفال وتلتقي سرًّا رجلاً أكبر منها سنًّا. واعترفت له مرارًا أنّها تفضّل أن تحصل على الطلاق وكذلك فضّل زوجها، ولكنّها لم تشأ أن تسيء إلى أطفالها وبخاصّة الطفل الأصغر سنًّا. وكان ابتعادها جسديًّا عنه سببًا كي يجذبه إليها أكثر فأكثر بدلاً من أن يبعده عنها. وهكذا، فقد قبل بها وهي على هذه الحال ممّا كان يثير من دهشته.

Twitter: @ketab_n

وعلى حين بغتة، أضحى الجنس شبيهًا بالحلوى التي تقدّم بعد انتهاء وجبة طعام استغرقت وقتًا طويلاً. صحيح أنّ الحلوى سارّة ورائعة بخلاف الطبق الرئيس، كما أنّه ليس مستحيلاً تجاوزه عندما يحين وقته. الآن هما في مرحلة المقبّلات فحسب. ولم يعرف إلياس إلى أيّ مدًى يمكنهما الاستمرار على هذا النحو، كما أنّه لم يكن في عجالة من أمره كي يكتشف ذلك. ثمّة ما هو غريب في الامتناع عن الجنس، وهنا ضحك من نفسه لمّا وصل إلى هذا الاكتشاف وهو في هذه السنّ، وخاصّة بعد أن فكّر أنّه بلغ من الكبر ما يجعله لا يقدر على اكتشاف أيّ شيء جديد.

وقالت له يومًا ما:

ـ إنّ الله يختبرنا. أتظنّ أنّنا سوف ننجح؟

ـ لست مهتمًّا باختبارات الله، بل أريد مواجهة تحدّياتي.

لم يرقها سماعه وهو يتكلّم مثل هذا الكلام، لأنّها كانت تريد أن يكون كلاهما مفعمًا بالأمل ومخلصًا ـ وهما صفتان فقدهما منذ زمن طويل، هذا إن كان يتمتّع بهما أصلاً. فمنذ أن كان شابًّا يافعًا تمكّن من تدبير أموره من دون أن يتوسّل الحصول على أيّ شيء من قوّة أعظم، آثمًا باستمرار، إنْ كان ذلك إثمًا. ومع هذا، فهو لم يشأ أن يحطّم قلب بمبي ـ أو إلٰهها.

ولكن بالرّغم من ذلك، كان إلياس في صميم فؤاده على يقين من أنّ أناملهما سوف تلتقي يومًا ما، في القريب العاجل، من تلقائها وسيكون ذلك بداية مرحلة جديدة في حياتهما. وعندئذٍ يصبح في استطاعتهما النظر إلى عينيْ بعضهما بعضًا، نظرة جادّة وحيَّة وهما مطمئنان في عريهما. ولن تكون لديهما أيّة مخاوف أو

Twitter: @ketab_n

أيّ خجل. وسوف يكون الحبّ كافيًا، وستعقبه كلّ الأشياء الأخرى. وسوف تأتي إليه حرّة وخفيفة، ويساعدها في تنشئة أطفالها، ويكون حاضرًا كلّما احتاجت إليه. وسوف يغدق من حبّه ويحظى بالحبّ بدوره، وسيرتق ذلك الفتق الكامن في روحه.

وبينما كان إلياس يتقدّم إلى أمام على امتداد الممرّ ليردّ على الطارق، فإنّه لم يتمكّن من الحيلولة دون التفكير إن كانت بمبي هي التي جاءت لتزوره. ولكن ليس من دأبها أن تأتي على حين بغتة، وأنّ ثمّة احتمالاً في أنّها قرّرت مفاجأته. بيد أنّه أُصيب بخيبة أمل لمّا فتح الباب إذْ شاهد فتاة مراهقة غريبة ترتدي بنطالاً من الجينز وقميصًا خمريَّ اللون بأكمام فضفاضة، ولفاعًا حريريًّا أبيض اللون يلفّ رقبتها. وكان شعرها مفروقًا من الوسط، منسابًا إلى جانبي رأسها في تلافيف مسترسلة، كما كانت واسعة الجبين وبارزة الذقن.

قالت الفتاة:

ـ إنّني أبحث عن إلياس.

فقال مبتسمًا في حذر:

ـ نعم. كيف يمكنني مساعدتك؟

ـ إذًا، أنت هو؟

كان السؤال غير متوقّع، ينذر بالوعيد حتى عجز عن إخفاء مدى ارتباكه واضطرابه. وقالت:

ـ أمّي...

ـ عفوًا؟

رفعت الفتاة من بصرها من دون أن تنظر إلى عينيه، حذرة من نظراته الثاقبة.

Twitter: @ketab_n

ـ توفيت أمّي.

ثم استدارت، توشك أن تمضي في سبيلها، فما كان منه إلّا أن أمسك بها من مرفقها، في خشونة، والرعب يستبدّ به.

وسألها في صوت يتدفّق مرتعشًا:

ـ ماذا تقولين؟ من أنتِ؟

ثم أضاف بالنبرة نفسها:

ـ ومن هي أمّك؟

وهنا تنبّه إلى أنّها كانت تجهش بالبكاء. فقالت مؤنّبة إيّاه:

ـ ألا تعرف عمَّن أتكلّم؟

بدأ يفهم ما تقول، لكنّه تلعثم.

ـ إنّني... إنّني لا أفهم. لكن متى... وكيف؟

ـ طعنها أخي بسبب علاقتك الغراميّة بها.

اتّسعت عيناه وامتقع وجهه، وتوقّف قلبه لحظة قبل أن يتمكّن من تلقّي ما يرسله إليه دماغه. ترك ذراعها وهو مضطرّ إلى الاستناد إلى الجدار.

وقالت:

ـ أنت لم تجلب علينا سوى العار، وأرجو أن تكون الآن مطمئنًّا.

بدأ إلياس يفكّر في مدى حبّ هذه البنت لأمّها، ولكنّه على الرّغم من ذلك شعر نحوها بالحسد والضيق في آن واحد، ولم يكن يملك من الكلمات ما يجعله قادرًا على تعزيتها أو تعزية نفسه. ففتح فمه وأغلقه مثل سمكة ذهبيّة في وعاء.

Twitter: @ketab_n

ـ إنّنا لا نريد رؤيتك قريبًا منّا، ولا تحضر إلى مراسيم تشييعها، ولا تحاول أن تورّط نفسك أكثر من هذا. حسبك أن تتركنا وشأننا. هل فهمت؟

كان السؤال غاية في الإيلام، لا يمكن تركه من دون إجابة، ولهذا هزَّ إلياس رأسه، وقال:

ـ نعم.

ثم كرّرها ثانية:

ـ نعم.

ثم شاهدها وهي تعدو مضطربة وتهبط السلالم من دون أن تنظر إلى الوراء. ظلّ جزء منه غير قادر على تصديقها. وفكّر أنّ البنت قد اخترعت هذه الكذبة الفظيعة مؤملة إنقاذ زواج والديها، فالصغار يلجأون إلى مثل هذا الكلام في كلّ وقت. وطمأن نفسه بألّا يجزع وأنّ كلّ شيء سيكون واضحًا في غضون ساعات.

وجد إلياس عذرًا كي لا يذهب إلى عمله، ومكث في شقّته من بعد ظهر ذلك اليوم، منتظرًا قدوم بمبي واطمئنانه إيّاه عليها. احتسى قليلاً من الشراب، ونام نومًا مضطربًا، واستيقظ من بعد ذلك وهو يشعر بطعم يشبه مذاق الصدأ في فمه. وكان أوّل شيء يفعله في صباح اليوم التالي هو شراء الصحف. فوجد الخبر. على الصفحة الأولى: «صبيّ يقتل أمّه غسلاً للعار». فطرفت عيناه لرؤية الكلمات التي قرأ كلّ واحدة منها وفهمها فهمًا تامًّا، ولكنّه رفض أن يفهم معناها برمّتها.

* * *

Twitter: @ketab_n

تنبّه إلياس أوّل مرّة إلى أنّ فتًى مراهقًا كان يتعقّبه عندما كان يشتري من الدكّان الهندي القريب عنبة لذيذة ومتبّلة بالبهارات لتناسب مختلف الأطباق. وكان قد هيَّأ نفسه كي يقدّمها مع أرنب منقوع بالخلّ. ولكنّه ما إن أمسك بزجاجة حتى شعر بضيق غريب مدركًا أنّ شخصًا ما يراقبه. فما كان منه إلّا أن التفت غريزيًّا فرأى الفتى واقفًا خارج الدكّان يحدّجه بنظراته من خلف كومة من العلب والصناديق. وكان وجهه ينمّ عن حقد وبغضاء وإنْ شابه شيء من حبّ الاستطلاع. ولمع في عينيه وميض الاهتمام مثل شرارة تنبعث من فم محترق.

غادر إلياس الدكّان، ملتفتًا يمينًا ويسارًا ومصمّمًا على أن يكلّم الفتى إن رآه واقفًا خارج الدكّان. ولكنّه لم يجده لمّا خطا إلى الأمام فوق الرصيف. وافترض إلياس أنّ الفتى ربّما كان يبحث عن شخص آخر. لا ضرورة للهوس، واختار إلياس أن يصدّق هذا حتى وإن عرف الصبي: فقد اقترب من إلياس وطلب منه أن يشعل سيكارة في دار السينما، وكان يشبه بمبي شبهًا عظيمًا. وبعد يومين اثنين، رآه من جديد يدخّن سيكارة أمام مطعم كليو. ولمّا خرج من المطعم في تلك الليلة، مستعدًّا لما هو أسوأ، كان الفتى قد توارى عن الأنظار وتبخّر في الهواء.

وهكذا سارت الأمور. وفي الأسابيع القليلة اللاحقة، كان الفتى يتعقّب إلياس في مختلف ساعات النهار، يظهر للعيان ويتوارى مثل شبح تائه. ولم يحاول مرّة واحدة أن يتوارى عن أنظاره، وإن كان يترك مسافة كافية كي يطلق ساقيه للريح إنْ اقتضت الضرورة. ولم يذكر إلياس هذه المواجهات لبمبي، فكان

Twitter: @ketab_n

بهذا التصرّف قد ارتكب غلطة كبيرة، وهذا ما أدركه الآن.

* * *

رغب إلياس في أوقات كثيرة أن يذهب إلى المستشفى القريبة من منزل بمبي أو إلى المشرحة، بيد أنّ قلقه من المشهد الذي قد يتفجّر إذا ما صادف هناك أقرباءها أو جيرانها حال بينه وبين تنفيذ تلك الرغبة. وتمنّى أن يكلّم ابنتها على انفراد ثانية، ولكن حتى إذا ما تمكّن من العثور على الكلمات الملائمة، فإنّه توقّع ألّا يحظى بالترحيب، لأنّ الفتاة أوضحت ذلك له بكلّ جلاء. وفكّر في الذهاب إلى قسم الشرطة ولكنّه ظنّ أنّه لا يملك ما يقوله لهم.

أمضى إلياس الأيّام القليلة المقبلة في المطبخ عمومًا، مرتديًا الملابس نفسها، وسخ الشعر، خاملاً. وحضّر لنفسه أنواع الصلصة والشوربة: الحمراء والبرتقاليّة والبيضاء، التي ما من شأنه أن يقدّمها لأيّ شخص. في داخله ثورة، ونقد ذاتي وحزن وأسى، كلّ يعمل على هواه. كانت الغلطة غلطته إذْ ترك الأمور تصل إلى هذه النقطة، كلّ شيء من صنع يديه. كيف أخفق في ملاحظة ذلك؟ كيف يمكنه أن يكون ساذجًا إلى ذلك الحدّ؟

قالت الصحف إنّ اسكندر طبرق، وهو المتّهم الرئيس، طليق وهارب من القانون، فانتظره إلياس كي يظهر أمام الباب، وهو على استعداد لمواجهته. ولكن بدلاً من اسكندر، ظهر رجال شرطة سكوتلانديارد أمامه، وطرحوا عليه أسئلة أكثر ممّا ينبغي، والتقطوا صورًا لمنزله، وجمعوا معلومات مفصّلة عن عمله، وسألوه أسئلة لا نهاية لها عن علاقته بالمتوفّاة.

ولمّا انصرفوا في نهاية المطاف، أسدل إلياس الستائر وأشعل

Twitter: @ketab_n

شمعة، وظلّ يراقبها إلى أن أصبحت متناهية في الصغر. كما وضع أسطوانة لأغاني فيروز التي تغلغل صوتها العميق في كلّ شقّ من شقوق الشقّة، مغيّرًا بذلك جوّها مثل هبّة ريح قويّة. ولمّا انطلق صوتها يشدو أغنية «سكن الليل»، انهار وانفجر باكيًا:

سكن الليل/ وفي ثوب السكون/ تختبئ الأحلام

خدع إلياس نفسه طوال تلك السنين حتى اعتقد أنّه لا يستطيع قضاء يوم واحد بعيدًا عن مطعم كليو. وكان ردّه على الإرهاق الذي يصيبه من العمل الشاقّ يتمثّل على الدوام بالعمل أكثر وأكثر. ولكنّه في الأسابيع الثلاثة التالية ظلّ أسير شقّته، لا يغادرها إلّا نادرًا. وظلّ زملاؤه يتّصلون به، ويستفسرون عن موعد رجوعه إلى العمل. ولمّا شعروا بفداحة الألم الذي أُصيب به، ألحّوا عليه أن يتمتّع بإجازة بعض الوقت. وبعد مرور شهر، عيَّن إلياس الطاهي الثاني مسؤولاً عن المطعم. وبعد أن تحرّر من مسؤوليّاته، دخل حالة تشبه الحلم، وقد دُهش فيها إذْ اكتشف أنّ الأعمال العاجلة جدًّا لم تعد عاجلة بعد اليوم.

في بواكير العام ١٩٧٩، وبعد أن أدّى إلياس الشهادة في المحكمة ولم يعد لديه ما يفعله، أو يثبته أو يعترف به، أقدم على عمل لم يخطر بباله يومًا أن يُقدم عليه، إذْ وضَّب حقيبتيْ ملابس ووزّع بقيّة مقتنياته على المستخدمين. الهرّة الفارسيّة العجوز لأبابيل التي فرحت كثيرًا باستعادتها. ثم اشترى تذكرة سفر، ذهابًا من دون إياب، وعاد إلى مونتريال.

* * *

Twitter: @ketab_n

الساعة

أبو ظبي، آذار ١٩٨٢

ذهب آدم بُعيد فجر يوم ما إلى موقع البناء الذي يشتغل فيه، فاستبدّت الدهشة بالحارس الليلي ـ الباكستاني الضخم ذي العينين السوداوين الواسعتين ـ إذْ رآه، ولكنّه فرح لأنّه سيكون في رفقته.

قال الحارس:

ـ أنت مبكر اليوم!

ـ جفاني النوم.

ابتسم الرجل عن دراية، وقال:

ـ لا بدَّ أنّك اشتقت إلى زوجتك. أرسل لها مبلغًا من المال. وعندما تكون الزوجة سعيدة، فستكون أنت سعيدًا أيضًا.

بحث آدم عن جواب ينسجم والملاحظة التي أبداها الحارس شريطة ألّا تؤرق روح بمبي، ولكن كلّ ما صدر عنه هو إيماءة صغيرة من رأسه. رنا إلى عينيْ الحارس تلمعان مثل مجوهرات

Twitter: @ketab_n

سود ومتسائلاً إن كان صحيحًا جعل العينين أشدّ بريقًا ولمعانًا بوضع بضع قطرات من الليمون فيها.

وضع آدم سيكارة بين شفتيه وقدَّم واحدة للحارس، وظلَّا يدخّنان برهة وجيزة في صمت، كلّ واحد منهما غارق في أفكاره. واقتطع آدم جزءًا من الوقت متذكّرًا أيّام شبابه في اسطنبول عندما كان يجمع أعقاب السكائر من الشوارع ليجذب منها نفسًا واحدًا وأخيرًا. وفي أحد الأيّام عثر على سيكارة فوق الرصيف وعليها بقايا صبغة أحمر الشفاه. وانتابه العجب مرّتين، مرّة لأنّ شخصًا ما رمى بسيكارة لم يدخّن منها إلّا قليلاً، ومرّة أخرى لأنّ امرأة كانت تدخّنها في الشارع.

وعندما وصل لندن، أصبح من المألوف لديه رؤية امرأة تدخّن أمام الملأ، كما أنّ مشاركة روكسانا في تدخين سيكارة زادت من نشوتها تلك اللحظة من الألفة والمودّة.

وقال وهو يقدّم علبة السكائر المملوءة تقريبًا:

ـ تفضّل، خذها!

فسأله الرجل:

ـ أتعطيني إيّاها؟

ـ نعم، هديّة لأخي.

أشرق وجه الحارس متبسّمًا، كاشفًا بذلك عن صفّ من أسنان بيضاء كالحليب. وفكّر آدم: هل هي بيضاء بسبب عصير الليمون أيضًا؟ وندم لأنّه لم يجرّب ذلك. للإنكليز أسنان بائسة، وكان ينبغي له أن يخبرهم بأمر عصير الليمون.

Twitter: @ketab_n

وعلى حين بغتة، صكّت أسماعهما ضجّة مئات الأجنحة لطيور مهاجرة تحلّق من فوق رأسيهما، وكأنّها جسد واحد. لعلّ هذه الطيور كانت تحلّق قادمة من اسطنبول، أو ربّما جاءت من لندن وشاهدها أحد أولاده ـ أسماء وهي تخرج من مكتبة بعد أن اشترت مجموعة من كتب جديدة، أو يونس وهو يكتب على الجدران رفقة بعض أصدقائه، أو اسكندر، وهو في السجن، يتطلّع من وراء نافذة ويراقب المطر الخفيف وهو يضرب الفناء. لكن، لا. ما زال يجد التفكير في الابن الأكبر والمكان الذي انتهى إليه مؤلمًا جدًّا. لام آدم نفسه، وعدّ نفسه مسؤولاً عن الأعمال التي لم يستطع القيام بها أكثر من مسؤوليّته عن الأعمال التي قام بها. وفكّر في أنّه أدّى على الدوام دور المتهرّب من أداء المهامّ في الحياة، الغائب والخائف دومًا من أن تبتلعه الأرض.

ابتسم آدم ابتسامة حزينة عندما شاهد الباكستاني ينظر إليه. ثمّة براءة نادرة المثال في وجه الحارس الليلي ـ وتلك صفة لم يصادفها منذ زمن طويل ـ وشعر أنّه قريب من هذا الرجل، وكأنّ أحدهما يشاطر الآخر في خسارة واحدة. لو أنّهما التقيا في وقت آخر لسأله عن قضيّته، لأنّه كان يجب أن يطّلع على صور زوجة الرجل وأولاده، لأنّ هذا الرجل أعطى لآدم الانطباع بأنّه من النمط الذي يحمل صور أفراد أسرته معه أينما ذهب، حتى لو كان في الكوخ الموقّت الذي كان يرقب منه الليل بمفرده.

وربّما كان من شأن آدم أن يطلع الحارس الليلي على صور أولاده ـ اسكندر وأسماء وهي تحمل الطفل الصغير يونس بين ذراعيها، مزهوّة ومحتارة في الوقت نفسه ولم يكن قد مضى على

Twitter: @ketab_n

وجودهم في إنكلترا إلّا زمن قصير، وكانوا يلبسون ثيابًا رثّة إلى حدٍّ ما، ولكن ملامحهم كانت قد تأقلمت مع البلد الجديد. وكانت لدى آدم أيضًا صورة بمبي التقطها في اليوم الذي غادروا فيه اسطنبول، ولكنّه لم يشأ إطلاع أيّ شخص عليها، ولا حتى على نفسه هو.

نهض على قدميه وأشار إلى الموقع، وقال:

ـ إن كنت لا تمانع، فإنّ لديّ بعض الأمور أريد التفكير بها هناك.

فهزّ الحارس الليلي كتفيه، وقال:

ـ حسنًا، ولكن لا تفكّر كثيرًا.

ثم نقر على جبهته قائلاً:

ـ لأنّ في ذلك ضررًا على الدماغ.

مشى آدم متثاقلاً فوق الطريق المفروش بالحصاء. وفي الوقت الذي كاد أن يدخل المبنى الذي بدا مثل طيف في زرقة ذلك الصباح، هرول الحارس من ورائه ملوّحًا بجسم أصفر في يده.

ـ هه! انتظر! لقد نسيت أن تضع الخوذة على رأسك.

ـ آه، نعم، الخوذة. شكرًا لك أيّها الأخ.

وضع آدم الخوذة على رأسه وأدّى تحيّة جنديّ له ودخل.

* * *

عندما كان آدم في سنّ الثامنة ـ أو ربّما في سنّ التاسعة، هو غير متأكّد ـ أخذته أمّه في نزهة؛ وشعر بالزهو لأنّ أمّه اختارته هو من دون أخوته لمرافقتها.

Twitter: @ketab_n

سارا يدًا بيد، وكان الوقت نهار يوم خريفي دافئ، ولكنّه أشبه بفصل الربيع. وانعطفا إلى محطّة القطار، فاستبدّت الدهشة بالطفل الصغير لدى رؤيته القطارات ـ روائحها وأصواتها وروعتها. وكان ثمّة رجل ينتظرهما، يدخّن سيكارة من وراء عمود، متواريًا إلى حدٍّ ما عن الأنظار، شعر رأسه الأسود الفاحم مصفّف إلى الوراء فبرزت جبهته وحاجباه الكثيفان إلى أمام. كم من الوقت مضى عليه وهو واقف في هذا المكان؟ ما اسمه؟ كيف عرف أمّه؟ أسئلة لن يعرف لها جوابًا أبدًا.

وعندما شاهد الرجل المرأة تقترب، افترّ ثغره عن ابتسامة صغيرة واثقة ـ إلى أن رأى الصبيّ.

وقال:

ـ الطفل...

فقالت:

ـ أرجوك، لم أستطع ترك الطفل وحيدًا من ورائي.

ـ لقد تحدّثنا عن هذا الموضوع قبل الآن يا عائشة.

بدا الاستياء على الرجل، مثلما بدا في عجالة من أمره. وتحوّلت عيناه سريعًا من وجه المرأة إلى القطار، ومن القطار إلى الساعة الكبيرة المدوّرة.

وقالت بنبرة جامدة:

ـ إنّه أصغر أطفالي، وهو في حاجة إلى أمّ.

قذف الرجل سيكارته على الأرض وداس من فوقها، وكأنّه يسحق صرصورًا. ثم رفع رأسه وحملق في عينيْ المرأة.

Twitter: @ketab_n

ـ قلت لكِ إنّني لن أربّي طفل رجل آخر. اتركيه لدى أبيه، وهذا أفضل لكلّ واحد.

وضعت يدها على كتف ابنها في رفق، وقالت:

ـ اذهب يا ولدي واسأل أحد الناس عن الوقت.

ـ ماذا؟ ولكن...

فكرّرت عائشة:

ـ قلت لك اذهب واسأل.

وعندما رجع الصبيّ وعلم أنّ الساعة هي الحادية عشرة والدقيقة العشرون، وجد الرجل يشجب ويستنكر بينما وقفت أمّه تحدّق إلى قدميها من دون أن تنبس بكلمة.

وقال الرجل:

ـ لن نتمكّن من السفر بالقطار المقبل. وثمّة قطار آخر في الساعة الثالثة. ارجعي في ذلك الوقت. بمفردك.

وفي طريق الخروج أمسك كلّ واحد منهما بيد الآخر، الأمّ وولدها. وخرجا من المحطّة إلى حيث كانت السماء تمطر مطرًا خفيفًا لم يضطرهما إلى اللجوء إلى أيّ ملاذ. واشتريا قطعتين من السميط من بائع جوّال قريب وجلسا على السلالم. أطعم الصبيّ طيور الحمام بنصف قطعته من السميط، في حين راقبته أمّه بعينين غائمتين لا تبصران شيئًا.

ـ من ذلك الرجل؟

ـ صديق فحسب.

قال الولد وشفته ترتعش، ولم يقرّر بعد إن كان عليه أن يبدأ بالبكاء:

Twitter: @ketab_n

ـ لم يعجبني.

جذبته عائشة إليها ونفشت شعره، وقالت:

ـ وأنا أيضًا لا يعجبني.

على الرّغم من الإحساس بالارتياح الذي راود الصبيّ لدى سماعه هذا الكلام، إلّا أنّه عرف أنّ ثمّة خطأً ما، خطأً شنيعًا حتى إنّ أمّه لم تنهره عندما ركض ركضًا دائريًّا لإفزاع الحمائم وإبعادها، والعرق يتصبّب منه داخل سترته السميكة. وحتى عندما داس على البرك الموحلة وأصدر حذاءه صوتًا غريبًا نتيجة تسرّب الماء داخله، وتجمّدت أصابع قدميه، فإنّ أمّه لبثت صامتة.

ـ أريد أن أرافقكِ.

فسألته:

ـ آه، حقًّا؟

ـ نعم يا ماما. أريد منك أن تأخذيني معك. وعد.

وعلى حين بغتة تحوّلت عائشة إلى الجدّ، وقالت:

ـ نعم يا حبيبي الصغير.

فصحّح لها الصبيّ كلامها:

ـ لا، عليك أن تقولي يا حبيبي الكبير.

* * *

دخل آدم مصعد الشحن وضغط على الزرّ الأعلى: اثنان وعشرون. وبعد ذلك ينبغي له أن يرتقي السلالم كي يصل الطبقة السابعة والعشرين.

Twitter: @ketab_n

من هنا لا يمكنك أن تذهب إلى أيّ مكان آخر لأنّه لا يوجد أيّ هيكل بناء، وإنّما قضبان حديديّة لا أكثر. وعندما يكتمل البناء، فإنّه سيكون أطول مبنى في أبو ظبي.

وعندما وصل القمّة، جذب كيسًا من إسمنت على مقربة من الحافّة وجلس من فوقه، جافّ الفم، مرتجف اليدين على النحو الذي باتت ترتجف فيه في هذه الأيّام. غير أنّ المشهد كان هائلاً غارقًا في الضوء، أفضل بكثير من المشهد الذي يحظى به الأغنياء من شققهم ومكاتبهم الأنيقة. وفي الطرف المقابل له ثمّة فندق مشهور بشرفات مزخرفة وواجهة معقّدة في شكلها. وتخيّل في لحظة من لحظات الزمان أنّ ثمّة من يراقبه ـ وهو إحساس زال بالسرعة نفسها التي راوده فيها.

وبينما هو جالس في مكانه يرقب السحب وهي تجري من فوقه، وقد تدلّى ساقاه من فوق الهيكل، حاول أن يتخيّل متى طرق سمع الوالد أوّل مرّة بما يدور من أقاويل عن والدته. وعلى الرّغم من مضي زمن بعيد على ذلك الحدث، فإنّه لم يستطع أن يتذكّر أيّ مشهد من مشاهد طفولته يتّضح فيه أنّ أباه كان على معرفة بالأمر. ولم يستطع أن يتذكّر أيّ شخص يمكن أن يكون قد لطّخ سمعة عائشة، وإن فطن إلى أنّ عددًا لا بأس به من الناس قد تورّطوا في ذلك. أهو أحد الجيران؟ أهو الجزّار الذي يبيع اللحم الحلال من حول الناصية ـ الذي زلّ لسانه أثناء تقطيعه لحم الضأن؟ أم هو شخص غريب تمامًا جالس بجانبه في المقهى متظاهرًا أنّه صديق ولكن فمه لا يطلق سوى الافتراءات والأحقاد؟

إنّ التلميح يسير بسرعة أكبر من سرعة الضوء. وكان الناس

Twitter: @ketab_n

يقولون: ماذا يمكننا أن نفعل لرجل طيّب مثلك؟ ويقدّمون عزاءً كاذبًا، ويعتاشون على شقاء غيرهم.

كُرّرتْ هذه القصّة نفسها على مدى السنين، جيلاً إثر جيل. وقبل وقت قصير، كان قد وصل عامل تركي يعرف بالجريمة التي اقترفها اسكندر والسبب الكامن من ورائها. لو كان للرجل لسان طويل، وهو شيء واثق منه آدم ثقة تامّة، فإنّ الشائعة سوف تنتشر في هذا المكان أيضًا، وسوف يرى في عيون زملائه العمّال الوميض البشع الذي أصبح مألوفًا لديه ـ شفقة وازدراء وحبّ استطلاع. لكن لا يهمّ. فقد قرّر آدم منذ فترة أنّ أيّ شيء لن يهمّه بعد اليوم. إنّه ظلُّ رجلٍ كان حاضرًا يومًا ما، وليس في وسع أحد أن يؤذي ظلًّا من الظلال.

كان الأفق البعيد مكسوًّا بخيط من شعاع برتقالي ـ قرمزي، زاهٍ ومثير. وبدا العالم من تحت هذا الألق هادئًا وحكيمًا على نحو غريب. جلس آدم في موقعه دهشًا بانبلاج الصبح، والمباني البعيدة متوهّجة في إطار هذا المنظر الهادئ. بدت السماء وكأنّها انشقّت لتكشف عن كون آخر، كلّ ما فيه من مخلوقات من صنع الله.

* * *

لم ترجع أمّ آدم إلى محطّة القطار في الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم، وعوضًا عن ذلك، أمسكت بيد ولدها وخرجت وإيّاه إلى ضواحي المدينة. صعدا إلى إحدى التلال، يصارعان الريح ويتجاهلان علامات الدلالة على امتداد الطريق والتي كتب عليها: ممنوع التجاوز. كان ممنوعًا الاقتراب على هذا النحو من السدّ، ولكنّهما مع ذلك اقتربا. لم يشاهدهما أحد ولم يوقفهما

Twitter: @ketab_n

أحد! جلسا على السدّة والمياه تتألّق بشكل غامض من تحتهما.

قالت عائشة:

ـ هل رأيت؟ إنّني لن أتركك. هل أنت سعيد؟

أجاب الصبي بالإيجاب، أسنانه تصطكّ، وشفتاه تزرقّان بزرقة شاحبة وإن لم يكن الطقس باردًا إلى تلك الدرجة. ثمّة منديل في يده، ظلّ يلويه مرّة إثر أخرى حتى تحوّل إلى عقدة صعب عليه حلّها.

وسمع نفسه يتوسّل إلى أمّه، وأزيز أنفاسه يتواصل:

ـ لنعد إلى البيت.. أريد الذهاب!

فقالت في نبرة حادّة:

ـ ماذا في البيت؟

كان صوتها خشنًا خشونة الهواء الرطب، بل صوت شخص غريب. ولكنّها، على ما يبدو، شعرت بالخجل من ردّ فعلها تجاه ابنها، فوضعت إصبعها على شفتيه، وأردفت في رقّة:

ـ إهدأ!

وسرعان ما ران الصمت على كلّ شيء كأنّ طاعتها واجبة: زيز الحصاد وصرّار الليل في الحقل، والشاحنات البعيدة على الطريق، بل حتى اسطنبول بما فيها من نشاط وحركة.. لقد توقّف العالم عن الحركة. كلّ شخص وكلّ شيء رهن إشارتها. وهي لعبة يمارسانها. شعر آدم بأنّه متميّز، وناضج، أمّا والدته فكانت تطلعه هو وليس أخواته على سرّها.

ـ أمّاه....

Twitter: @ketab_n

ـ نعم؟

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

ـ تحدّثنا في هذا الموضوع من قبل يا حبيبي.

ـ نسيت.

ـ سوف نذهب إلى منطقة جميلة فيها الكثير من التفّاح المغطّى بطبقة من الطوفي.

ـ ولكن إذا أكلتُ كمّيّة كبيرة تسوّست أسناني.

ـ لا تقلق.. يمكنك أن تأكل قدر ما تشاء.

حاول آدم أن يظهر قدرًا من البهجة، ولكن عينيه بقيتا مرتبكتين ومضطربتين، إذْ لم يعجبه تغيّر نبرة الصوت. على الأمّهات أن ينهرن ويقلقن إذا ما تسوّست الأسنان بسبب الحلوى أو إذا ما اضطربت المعدة!! وأدرك في وقت متأخّر أنّ ما من أحد كان يؤدّي واجبه على الوجه الأمثل.

تنهّدت عائشة وشعرت بقلق ولدها شعور البومة عندما تتنبّه لأقلّ حركة في الظلمة. وقالت وهي تنظر إلى الأرض:

ـ سوف نذهب إلى مكان لا يصاب فيه أحد بالمرض. وسوف تكون أسنانك في حالة جيّدة، ولن يوجعني رأسي من بعد ذلك. أليس هذا بالشيء الرائع؟

أراد أن يسألها: لماذا تبكين إذًا! ولكنّه عجز. كانت إضمامتها إيّاه رقيقة ومؤلمة. ولمّا ضمّها إليه كان في وسعه أن يحسّ بحرارة الشمس على جسدها. ففي أنفاسها ـ ومن تحت رائحتها الدافئة والعذبة المألوفة ـ رائحة غريبة تدلّ على شيء متعفّن. لمس كدمة

Twitter: @ketab_n

على خدّها الأيمن، تحت عينها مباشرة، لم يتبيّنها عندما خرجا من البيت. غير أنّ مساحيق التجميل زالت لتجعل العلامة واضحة بما فيها من قباحة زرقاء مخضرّة، يزداد لونها عمقًا في الوسط.

استبدّ بآدم خوف لا يشبه أيّ خوف سبق له أنْ مرَّ به، فتشبّث بيد أمّه، أنامله باردة وشاحبة وهي تلمس يدها. اقترب الإثنان من الحافّة، يجرّان ظلالهما من خلفهما. شفتاها لا تتوقّفان عن التمتمة، فعرف أنّها كانت تتوجّه بالأدعية. وفي اللحظة التي كادت أن تدفع بنفسها إلى الأمام وهي ممسكة به، لفّه رعب هائل، واندفع بعيدًا، محرّرًا يده من يدها بالسرعة نفسها التي يُمتشق فيها الخنجر من غمده. هذه الحركة المفاجئة شوّشت كلّ شيء، وأفقدتها توازنها في لحظة من الزمان، إن لم تكن قد فقدت إصرارها وعزيمتها. وسقطت عائشة، ولكن بدلاً من أن تسقط في المياه المنحدرة من تحت، فقد تعثّرت إلى هذا الجانب وذاك، وتدحرجت أسفل التلّ، وهوت على بعد بضع ياردات، فجرحت الحجارة والنباتات وجهها، وشقّت شفتها السفلى.

فصرخ بها من عل:

ـ هل أنتِ على ما يرام يا أمّاه؟

كانت بخير، وليست بخير تمامًا. فعادا أدراجهما إلى البيت ولم يتفوّها بكلمة عمَّا حدث لأيّ بشر.

وبعد مرور عامين، لم تعد عائشة تطيق التحمّل، فهجرتهم. ففي أحد الصباحات خرجت من البيت، ولم يعد معطفها على المشجب، فضلاً عن اختفاء حقيبة ثياب رثّة من تحت سريرها. ورفض آدم أن يصدّق أنّها مضت في سبيلها من دون أن تصحبه

Twitter: @ketab_n

وإيّاها، ولكي يطمئن نفسه أنّ هذه الحالة ليست كذلك، فقد فتح درج منضدة زِينتها مرّات ومرّات في اليوم الواحد، باحثًا عن مرآة. بمقبض فضّي وفرشاة شعر. فما دامت هاتان القطعتان موجودتين فإنّها ستعود إلى البيت. وعندما تناولتها الألسن بالقيل والقال، داخل المنزل وخارجه، أصغى آدم إلى ما يتفوّهون به من كلام بذيء، ولكنّه لم يذكر لأحد، خاصّة البابا (البابا السكّير) أنّها حاولت الانتحار وهو معها. ولم يفض بشيء عن الرجل الذي رآه في محطّة القطار ـ الرجل الذي أدرك الآن أنّ أمّه هربت وإيّاه.

* * *

في الليلة السابقة، كان آدم قد راهن وقامر وخسر في الشقّة الكئيبة على طرف الصحراء، خسر مبلغًا كبيرًا من المال لم يعد في مستطاعه أن يعيده أبدًا مهما عمل طويلاً ساعات إضافيّة. وبعد أن مسح عينيه الآن، تنشّق دهشًا قطرات الدمع على يده. لم يعرف أنّه كان يبكي، وإنْ لم يكن شعوره منطويًا على حزنٍ أو أسًى. غمره إحساس عميق باللامبالاة وعدم الاكتراث، والقبول بالأشياء التي لا طاقة له على تغييرها ـ ومنها نفسه.

نزع ساعته ووضعها جانبًا، حذرًا كي لا تنكسر. إنْ كانت الساعة من نوع روليكس الأصليّة فإنّه كان يفضّل أن يخلّفها لأحد أولاده، ربّما ليونس. ولكنّه لم يرغب في أن يترك لأيّ ولد من أولاده، هديّة مزيّفة. كلّ ما تمنّاه هو أن يكون الحارس الليلي هو الشخص الذي سوف يعثر عليها.

* * *

Twitter: @ketab_n

سجن شروزبيري ١٩٩١

يوقظني زيشان في فجر اليوم التالي للتأمّل. وعلى العكس من بقيّة الأيّام، فإنّني لا أتذمّر. نجلس القرفصاء على الأرض، يواجه أحدنا الآخر. يبتسم. وأتعجّب من أين له هذه الحيويّة وهذا النشاط!

يقول كعهده دائمًا:

ـ أفرغ دماغك. تلوّث الهواء يضرّ المدن. تلوّث الدماغ يضرّ بالإنسان.

نجلس صامتين على مدى عشر دقائق. هذا هو تمرين علَّمني إيّاه في الشهر الماضي. يفترض بي ألّا أفكّر في أيّ شيء، وهو ما لا طاقة لي به. ويبدأ عقلي باللفّ والدوران وسرعان ما يغدو كهف ساحرات. يستبدّ بي قلق بخصوص الزائر الغامض. لا أستطيع التوقّف عن متابعة المرشّحين المحتملين. العمّ طارق، الخطيب، صديقي القديم أرشد... لا أريد رؤية أيّ واحد منهم. ألومهم لأنّهم هم الذي جعلوني أصل إلى هذه الحال. ولكنّهم على الرّغم من ذلك طلقاء، يتمتّعون بحياتهم. أمّا أنا، فأحترق في هذا المكان.

إذًا، التأمّل لا يفيد. لا يفيد أبدًا. غير أنّ زيشان لا يبدو مقتنعًا. لا، أبدًا.

ـ عندما تفكّر بالآخرين يا اسكندر، فإنّ كلّ طاقتك الداخليّة تنصرف إليهم، فلا يبقى لديك أيّ شيء.

في عالم زيشان، ثمّة شبكات غير مرئيّة في فضاء تربط بين

Twitter: @ketab_n

الناس والحوادث والأماكن. ونحن نرسل بوساطة هذه القنوات الموادّ من شخص إلى آخر. تمامًا، مثل شريط من أشرطة الخيال العلمي السينمائيّة.

ـ قلب الإنسان يشبه الطبّاخ، فنحن نصدر حرارة ونصنع الطاقة كلّ يوم، ولكنّنا عندما نوجّه أصابع الاتّهام إلى الآخرين، بعبارات فظيعة، فإنّ الطاقة الداخليّة تتّجه وجهة أخرى. ويصبح قلبنا باردًا.

يقول زيشان:

ـ يُفضَّل النظر إلى الداخل على الدوام. اترك الآخرين وشأنهم. كلّ مرارة حقيبة ثقيلة. فلم تحملها؟ أنت منطاد مملوء بهواء حارّ. قل لي: أتريد الصعود إلى أعلى أم الهبوط إلى أسفل؟ اترك الغضب والأذى. وابعد عنك حملك. ثمّة قوسان في الكون. الأوّل صاعد والثاني هابط. كلّ بشر في حالة حركة مستمرّة. البعض يهبط إلى أسفل، والبعض يصعد إلى أعلى. فإذا أردت أن تصعد، فما عليك إلّا البدء بتوجيه النقد إلى نفسك. فالإنسان الذي لا يستطيع أن يرى أخطاءه لا يمكن شفاؤه!

حاولت مرّات ومرّات أن أسدّد لكمة قويّة إلى وجه زيشان منذ اليوم الذي جاء فيه إلى زنزانتي، أو أن أطلب منه أن يلتزم الصمت. لكنّ الغريب هو أنّني لم أتمكّن من تنفيذ ذلك. لا بدَّ أنّني أسامح هذا الرجل إلى أبعد الحدود. أصغي إلى هذيانه الذي لا حدود له، فأبتهج أحيانًا وأقتنع إلى حدٍ ما أحيانًا أخرى. لهذا، فإنّني عندما أسمع ما يردّد، تراني أصغي له.

ـ عندما يأتيك زائر من الماضي، فلا يُجنّ جنونك.

Twitter: @ketab_n

أضحك.

ـ يجنّ جنوني!

ـ نعم، نعم. لا تتشاجر مع أحد. فأنت منهمك في العمل بينك وبين نفسك. لا تنسَ ذلك! أنت جوهرة، ولكن بحافّات مدبّبة، جدًّا. عليك أن تعتمد على قلبك مثل العامل.

هذا الرجل يربكني بكلامه. ولكنّه يتمكّن بالقدر نفسه من أن يسمّيني الطبّاخ، والمنطاد الحارّ الهواء وعامل البناء. ثم أسمع نفسي أردّد: لست جوهرة يا زيشان. أنا لست مثلك، فقد ارتكبت جريمة، جريمة كبرى.

يغمض زيشان عينيه وينفث الهواء، ويتنهّد تنهيدة طويلة وعميقة تذكّرني بنوبات الربو التي كانت تداهم أبي.

ـ كثيرون هم الذين يهبطون في هذا العالم، ولكنّ القليل منهم هو الذي يسقط من أعلى إلى أسفل. ولكن هل تعرف ماذا هناك عند طرف القوس؟

ـ لا.

فيقول:

ـ تبًّا. لقد كنت هناك. آه، إنّ روحك تحترق، ولكن ينبغي لها أن تحترق لأنّك ارتكبت إثمًا عظيمًا. عليك أن تحترق، وبعد ذلك تبدأ بشقّ طريقك إلى أعلى. قوس الصعود. هل تعرف ماذا هناك في طرفه؟

فأقول له متسائلاً:

ـ الجنّة؟

Twitter: @ketab_n

ـ نعم، عندما نحبّ وعندما نكون محبوبين، وعندما نكون متحرّرين من طاقة الأذى، فإنّنا نقترب من الجنّة. خطوة صغيرة في كلّ يوم. أنا لا أعدك أنّك سوف تقدر على ذلك، ولكنّنا نحاول يا أليكس. نحاول.

في ذلك الأسبوع نفسه، أذهب إلى غرفة الزوّار من دون أن أعرف ماذا أتوقّع. الضابط ماك لوخلين حاضر. لا يرنو إليَّ، ولكنّ الأمر لا يحتاج إلى قفزة كبيرة من الخيال لأن أدرك أنّه يريد أن يراقب المشهد، إنْ كان ثمّة مشهد.

ثم أراه. إنّه يونس. أخي الصغير الذي لم أره منذ سنين طويلة. منذ اليوم الذي اعتقلت فيه، جاء لزيارتي مرّتين لا أكثر. المرّة الأولى بعد الملاكمة مباشرة. ولم نتكلّم أثناءها بكلمة واحدة. حسبه أنّه جلس. ينظر إلى يديه. ثم جاء بعد مرور عام واحد. ولم يتكلّم أيضًا. ثم توقّف عن المجيء.

إنّه رجل بالغ. متوسّط الطول، رشيق القامة، بهيّ الطلعة، وبقدر ما تغيّر فإنّ عينيه لم تتغيّرا. عينان رائعتان، عطوفتان، كثيفتا الرموش. عينا صبيّ مغرم بفتاة من البانك.

ـ مرحبًا أيّها الرفيق.

فيقول:

ـ مرحبًا أيّها الأخ.

يحدّق أحدنا إلى الآخر. أُشيح بنظري أوّلاً. الأسهل عليَّ مواجهة أسماء. تكرهني. واضح الوضوح كلّه. تأتي إلى هنا من وقت إلى آخر لكي تصبّ جامّ غضبها. تقول كلّ شيء أمامي وممّا لا ريب فيه، من ورائي أيضًا. ولكنّها على الرّغم من ذلك، لم

Twitter: @ketab_n

تجعلني أشعر بنصف الذنب الذي أشعر به الآن. ثمّة شيء ما في عيني يونس لا أفهمه: ضرورة الفهم. ما يزال يبحث عن تفسير. ما يزال يعتقد أنّ البشر طيّبون وأنّ شيئًا ما، شرّيرًا، تغلّب عليَّ كي يحدث مثل هذا الأمر الفظيع.

ـ كيف حالك والموسيقى؟

يقول في حدّة:

ـ رائع. صدر ألبومي الأوّل قبل وقت قصير. أحضرت لك نسخة ولكنّهم صادروها منّي، وقالوا لي إنّهم سوف يسلّمونك إيّاها.

فأقول وأنا أعلم أنّني لن أحصل على ذلك الألبوم:

ـ نعم، لا تقلق بشأن ذلك. لماذا أتيت إلى هنا يا يونس؟ لا تسيء فهمي. إنّني سعيد لرؤيتك، ولكنّني... في دهشة.

يتردّد في الكلام. ويمرّ ظلّ من على وجهه، فيقول:

ـ سوف تخرج من السجن عمّا قريب، وأحبّ أنّ أعرف ما هي مشاريعك؟

مشاريعي؟ يبدو هذا واهيًا. يشبه كلام صبيان الكشّافة، لكن هذا هو أخي الأصغر، ولن أفطر فؤاده. كما أنّني وعدت زيشان أن أبدأ بالصعود، بغض النظر عن معنى ذلك.

ـ مشاريعي هي أن أعثر على وظيفة محترمة وأتجنّب الدَّين وأعيش حياة هادئة. وإذا ما كانت كاتي مستعدّة لأن تكون عاقلة، فإنّني سوف ألحق بولدي.

أنتظر دقّة من دقّات قلبي.

Twitter: @ketab_n

ـ وأن أقضي وقتًا أطول رفقتك ورفقة أسماء. إن أردتما منّي العودة.

اعتدل يونس في جلسته ورمقني بنظرة مباشرة.

ـ كنت أسأل نفسي طوال هذه السنين. وكذلك أسماء. لقد اتّفقتا. أمّا الآن فإنّني لا أجازف.

أضحك ضحكة مكبوتة من دون ابتسامة.

ـ هه! كفّ عن الحديث بالألغاز. أنا لا أعرف ماذا تعني.

تنفّس تنفّسًا عميقًا.

ـ كنتُ طفلاً صغيرًا عندما قتلْتَ أمّي. ولم أتمكّن من منعك. أمّا إذا ألحقت الأذى بها من جديد، فهذا أمر مختلف. فأنا لم أعد طفلاً صغيرًا، وسوف أقاتلك.

مرّت لحظة فكّرت فيها أنّ أخي فقد عقله. فقد شاهدت هذا يحدث من قبل. رجال في جناح المجانين، طارت عقولهم من فرط الحزن.

ـ ماذا تقول يا يونس؟

ـ أقول إنّني أحبّ أمّي ولن أدعك تلحق الأذى بها.

ـ أخي، إنّ ماما . . .

فيقاطعني في صوت عالٍ:

ـ لا ، لم أفرغ من الكلام بعد.

ينظر الضابط ماك لوخلين إلى جهتنا والبريق في عينيه. فالمسرحيّة التي كان يأمل في مشاهدتها توشك أن تبدأ.

وهنا يخفض يونس من صوته حتى يغدو همسًا يجعلني غير

Twitter: @ketab_n

متأكّد إن كنت قد فهمت ما يقول:

ويقول:

ـ استمع إليَّ يا اسكندر. ماما على قيد الحياة.

اسكندر طبرق

* * *

Twitter: @ketab_n

صورة طبق الأصل

لندن، ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٨

رفع يونس رأسه من فوق طبق وجبة الفطور وابتسم للمرأتين الجالستين على الأريكة. لقد حدثت معجزة، فقد وصلت خالته جميلة مدينة لندن، وكانت قد مرَّت ثلاثة أعوام منذ أن رآها الصبي آخر مرّة. أمّا قبل ذلك، فقد زاروها بين حين وآخر، وكانت معظم الزيارات في فصل الصيف، وهي لقاءات قصيرة ومكثّفة جدًّا حتى إنّهم كانوا يصابون بوجع الرأس. لكنّ الأسرة توقّفت في السنوات الثلاث الأخيرة عن السفر بعد أن أصبحت الإجازات تكلّف مبالغ طائلة لا طاقة لهم على تحمّلها بعد الآن. واليوم، وبعد شوق متبادل، أصبحت الشقيقتان تحت سقف واحد: بخت بمبي وبس جميلة.

كان يونس قد جلس متّكئًا وبدأ يفتّش عن الفروق بين التوأمين المتشابهتين تشابهًا تامًّا وكأنّهما صورة طبق الأصل، وكان في تفتيشه عن الفروق وكأنّه يلعب لعبة الشخص المفرد الذي يبقى

Twitter: @ketab_n

وحيدًا بعد تقسيم الآخرين إلى جماعات. فقد كانت بمبي يسراويّة وجميلة يمينيّة. وكانت لبمبي غمّازة على خدّها الأيمن بينما كانت لجميلة غمّازة على خدّها الأيسر. وكانت شامة بمبي على الجانب الأيمن من جبينها، بينما كانت شامة جميلة على الجانب الأيسر. وكانت خصلتا شعر كلّ واحدة منهما المرفوعتان أعلى الجبين تنموان في اتّجاهين متعاكسين. وكانت جميلة أطول من بمبي بمقدار نصف بوصة، وأطرافها أطول قليلاً، وأصابع يديها ناتئة العظام.

وسأل يونس:

ـ ثم ماذا يا أمّي؟

ـ هناك اختلاف آخر، فقد نسيت أهمّ فرق.

فقال يونس:

ـ حقًّا؟ وما هو؟

فجاء الجواب من جميلة.

ـ قلبانا يدقّان في اتّجاهين معاكسين.

ـ ما معنى هذا؟

كانت لديهما حالة قلّما توجد بين التوائم. فقد كان قلب بمبي يدقّ في الجهة اليسرى من بدنها في حين كان قلب جميلة في الجهة اليمنى.

فهتف يونس مندهشًا:

ـ آه!

ضحكت بمبي لمّا رأت الدهشة والحماسة على الوجوه، وشعرت أنّها أكثر خفّة وكمالاً ممّا كانت عليه قبل زمن طويل.

Twitter: @ketab_n

ولم يتنبّه أحد إلى أنّ جميلة لم تستطع تحيّة اثنين من أفراد الأسرة، وهما آدم الذي كان قد رحل عن لندن وسافر إلى أبو ظبي، واسكندر الذي جاء إلى المنزل في الليلة الفائتة بعد أن كان الآخرون نيامًا، وخرج قبل أن تؤاتي الفرصة بمبي لكي تخبره أنّ خالته جاءت إليهم، فأعدّوا العدّة لمفاجأته في ذلك المساء.

توسّل يونس بأمّه كي تدعه يبقى في البيت، لأنّه لم يكن على ما يرام، وقال إنّ لوزتيه تؤلمانه وإنّه مريض. وكانت بمبي تعرف جيّدًا أنّه كان يبالغ كثيرًا حتى وإن كان في كلامه شيء من الصدق. ولكن فرحتها بوجودها رفقة أختها التوأم بلغت حدًّا جعلها تسمح لولدها أن يغيب عن المدرسة يومًا واحدًا.

وبينما هم يتناولون الشاي بجانب النافذة، بدأ الحديث باللغة الكرديّة وبهذا استُبعد يونس من الحديث بها. وأسرَّت بمبي لأختها جميلة أنّ الناس قد تناهى إلى سمعهم خبر علاقتها بإلياس على نحوٍ ما. ثمّة لغو وقيل وقال وانتقادات شديدة وصلت مسامع اسكندر، فلم يعد ينظر إليها منذئذٍ، وهمست قائلة إنّ اسكندر حال بينها وبين الذهاب إلى العمل، ولمّا لم يكن ذلك الإجراء كافيًا، منعها من الخروج من المنزل. شرحت كلّ هذه التفاصيل وهي تغتصب ابتسامة كي لا يفطن يونس إلى مدى قلقها.

وقالت جميلة:

ـ إن شاء الله سوف نحلّ هذه المشكلة. دعيني أكلّم ابن أختي.

ثم افترّ ثغرها عن ابتسامة وكأنّ الجملة التي تفوّهت بها باتت واقعًا محسوسًا.

Twitter: @ketab_n

ـ سأخبرك بشيء ما. لم لا أخرج وأنجز التسوّق اليوم؟

كانت تريد شراء خضراوات طازجة وخبز لذيذ وأفضل ما توافر من أعشاب. لم تكن تتكلّم كلمة واحدة بالإنكليزيّة، ولكن لو تمكّن يونس، الذي يبدو أنّه شفي فجأة من ألم اللوزتين، من مدّ يد العون لها، فلن تكون ثمّة مشكلة.

انتهز يونس الفرصة بعد أن تحمّس لقضاء الوقت رفقة خالته.

ـ نعم، نعم يا أمّاه. دعيني أذهب!

وكان كلّ ما قالته بمبي هو:

ـ ولكن لا تتأخّر.

كان يومًا ككلّ الأيّام. وما أن احتذى يونس وجميلة أحذيتهم. ولبسا معطفيهما حتى أوقفتهما بمبي.

ـ آه، انتظر لحظة!

فتّشت عن قلم شفاه في حقيبتها، وكان باللون البنفسجي الغامق، وطلت به شفتي شقيقتها اللتين كانتا جافّتين وشاحبتين بسبب تعرّضها للشمس والرياح والإهمال على مدى سنوات طويلة. ثم جذبت بحركة واحدة الوشاح من على رأس شقيقتها، فانساب شعر جميلة الكثيف على كتفيها، شلّالاً من لونين بنّي، وبنّي داكن.

ـ أنتِ أكثر جمالاً الآن.

تردّدت جميلة. وسنحت لها الفرصة كي تلقي نظرة خاطفة على شكلها في المرآة الرفيعة المثبّتة في الممرّ: يا لهذا الثوب الجديد، وهذا الشعر الجديد! هذا الشكل الجديد الذي ظهرت به أثار قلقها. وحثّها يونس الواقف إلى جانبها قائلاً باللغة التركيّة:

Twitter: @ketab_n

ـ هيّا يا خالتي. أنت رائعة.

فوافقته على رأيه.

ـ إن كان هذا ظنّك.

ابتسمت بمبي ومنحت أختها مبلغًا من المال وناولت يونس حفنة من نقود معدنيّة. ثم قبّلتهما، وقالت:

ـ لا تنسيا شراء حبّ الهال، فلدينا لحم على العشاء هذه الليلة، وأنا في حاجة ماسّة له كي أضيفه إلى القهوة.

وهكذا خرج الاثنان من البيت: جميلة ويونس، فرحين، مبتهجين في رفقة أحدهما الآخر. حاولت جميلة أن تتكلّم باللغة الكرديّة، ولكنّها شعرت بخيبة الأمل لمّا رأته غير قادر على فهمها. كلاهما ضعيف في اللغة التركيّة ولهذا لم يتحدّثا إلّا قليلاً، وأمسك كلّ واحد منهما بيد الآخر، مستمتعين وسعيدين. وبقدر ما كان يونس سعيدًا وإيّاها، فقد وجد بعد مرور ساعتين على التسوّق فرصة للعودة إلى المنزل، لأنّ لديه مشاغل أخرى، أكثر أهمّيّة، ينبغي له أن ينجزها بعد أن رأى مصادفةً توبيكو في الشارع.

كان شبّان البانك يخطّطون للاستيلاء من جديد على بيتهم القديم. وها قد حلّ اليوم الموعود أخيرًا. ففي منتصف الليل، سوف يشنّ الفريق هجومهم الذي طال انتظارهم له بعد أن حشدوا قوّاتهم. وسوف يلجأون إلى استعمال العتلات للوصول إلى الإعلانات الضخمة المحيطة بالبيت الڤكتوري، ويحتلّون المكان ثانية بما لديهم من حقائب نوم وذخيرة. وفي صباح اليوم التالي، سوف يستيقظ كلّ الجيران ليجدوهم في البيت، وإذا ما أرسل المجلس المحلّي «جنوده» فسوف يطردونهم مستخدمين الحجارة والزجاجات.

Twitter: @ketab_n

لمّا لاحظ يونس مدى استياء توبيكو، استأذن خالته كي يذهب إلى بعض أصدقائه وقضاء بعض الوقت وإيّاهم. وقال إنّهما قد أصبحا على بعد مسافة قصيرة من المنزل في كلّ الأحوال، وأنّهما اشتريا كلّ ما هو مدوَّن على القائمة.

وسألته جميلة:

ـ هل أنت متأكّد من أنّ والدتك لا تمانع؟

بدا كلامها أشبه بتأنيب بسيط وليس سؤالاً، فما كان من يونس إلّا أن طمأنها بقوله:

ـ أعدك أنّني سألحق بك بعد دقائق.

أومأت جميلة برأسها وحملت الأكياس وسارت في الاتّجاه الذي أشار إليها يونس أن تتبعه. توقّفت بضع مرّات أثناء سيرها، كي تستمع إلى أحد عازفي الشارع، أو تحدّق إلى لوحة على أحد الجدران أو إلقاء نظرة على واجهات المحلّات، وتفكّر مندهشة في شتّى أنواع السلع المعروضة للبيع. كانت مشتّتة الانتباه والأفكار، إحساسها بالرهبة والدهشة لوجودها في مثل هذه المدينة الغريبة جعلها لا تنتبه إلى أنّ شخصًا ما بدأ يتعقّب أثرها.

* * *

Twitter: @ketab_n

شجرة ليمون

لندن، ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٨

كانت بمبي في المطبخ تدندن بأغنية عاطفيّة كرديّة قديمة بعنوان «سوزان سوزي»، وكانت بالغة الحزن، مؤثّرة في نفس المغني كما هو شأن معظم الأغاني العاطفيّة الكرديّة القديمة، ولكنّها على الرّغم من ذلك لم تكن حزينة. صحيح أنّ عقلها كان في دوّامة وقلبها متشوّق إلى إلياس، إلّا أنّها لم تستطع منع نفسها من الإحساس بالجذل والحبور. فقد جدّد حضور أختها إيمانها بالحياة ومنحها أملاً جديدًا. قبل بضعة أشهر، كانت قد كتبت رسالة إلى آدم شرحت له فيها أنّهما مضطرّان إلى الانفصال انفصالاً نهائيًّا ومن دون رجعة. ولكنّه لم يردّ على رسالتها. والآن سوف تبحث لها عن محام، وسوف ينتاب الحزن آدم ولكنّه لن يصاب بالدهشة. ربّما سيكوّن مرتاحًا لأنّها هي، وليس هو، من بادر إلى اتّخاذ الخطوة الأولى في هذا الاتّجاه. ممّا لا ريب فيه أنّ إقناع اسكندر أكثر صعوبة، ولكن ربّما ستتمكّن من جعله يفهم. ولن

Twitter: @ketab_n

تخبره بأيّة أكاذيب، بل ستقول له الحقّ. لا شيء غير الحقّ. وسوف تغدو الأشياء مختلفة من الآن فصاعدًا. لم تعرف بمبي وسيلة إلى ذلك، ولكنّها كانت متأكّدة من أنّ الأمور ستجري على هذا النحو.

وبعد أن وضعت خطّة، انطلقت لإعداد فطيرة الليمون بالسكّر والبيض ـ وهي وصفة تعلّمتها من إلياس. وكان الأمل يراودها في إدهاش جميلة بهذه الفطيرة الحلوة المذاق. فقد كانتا تقضمان الليمون المملّح عن حبّ عندما كانتا بنتين صغيرتين وكانتا تردّدان: حامض + حامض = حلو. ولم تكن أخواتهما الأكبر سنًّا منهما بقادرات على أكل مثل هذا الليمون الحامض المملّح، وكانت وجوههنّ تتلوّى عند كلّ محاولة. ولكنّ الأختان التوأمان كانتا قادرتين على أكل خمس ليمونات دفعة واحدة، وكان المربّى المفضّل لديهما هو المربّى الحامض ـ الحلو على الدوام.

ولكن لا يبدو أنّ ثمّة بقيّة باقية من تلك الشهيّة التي كانت تتمتّع بها جميلة. فقد وصلت لندن قبل يوم واحد، ولم تأكل من يومها إلّا مقدارًا قليلاً من الطعام، ولم تتكلّم عن نفسها إلّا نادرًا. أمّا شقيقتها، فقد تغيّرت. عيناها تظلّلهما دوائر سود، ابتسامتها متردّدة، تنمّ عن اعتذار. لكن هذه التغييرات كانت طفيفة جدًّا، لم يلحظها أحد سوى بمبي.

واستبدّت الدهشة بالأطفال لمّا رأوا مدى التشابه الكبير بين والدتهم وخالتهم. وفي إحدى المرّات، خلعت جميلة ثيابها الصوفيّة الخشنة وارتدت أحد فساتين بمبي ومشّطت شعرها على طريقة أختها ـ بخصلة شعر تنسدل إلى الجهة الأماميّة من رأسها ـ

Twitter: @ketab_n

فكان يستحيل معرفة الفرق بينهما.

ولمّا فرغت بمبي من إعداد البيض وخفقه بالسكّر إلى أن أصبح رغوة كثيفة، أشعلت الفرن. وكان إلياس قد نصحها بإضافة كمّيّة كبيرة من الليمون المبروش، وكانت هي تحتفظ بكمّيّة كبيرة من الليمون والبرتقال والليموناضة في سلّة من الخيزران تضعها على الشرفة. حاولت في الماضي أن ترعى أشجار الليمون، ولكنّ الصقيع المفاجئ كان يقضي عليها في كلّ مرّة.

هرعت بمبي إلى الشرفة وهي ما تزال تدندن بالأغنية نفسها. فخفضت من بصرها عن غير عمد إلى ما تحت الحاجز الحديدي، في اتّجاه الشارع. شيء ما جذب انتباهها. وبعد ثانية واحدة، شاهدت أختها التوأم تدخل شارع لافندر غروف حاملة عددًا من الأكياس. فاشرأبّت من فوق الحاجز ولوّحت، لكن شقيقتها لم تتنبّه لها في بداية الأمر.

ـ جميلة... انظري إلى أعلى! هنا!

رفعت جميلة من بصرها في اتّجاه الشرفة، واكتسى وجهها بملامح السكينة والهدوء. وهنا أشرق وجهه بمبي عن ابتسامة. ورأت من تحت ملامح شقيقتها الرزينة والهادئة شيئًا من سذاجتها الطفوليّة، رقيقة رقّة الضباب. ولم تستطع منع نفسها من حسد شقيقتها على جاذبيّتها. صحيح أنّهما توأمان، ولكنّهما ليستا متشابهتين. فالجاذبيّة صفة طبيعيّة عند جميلة، تمامًا مثل نحلة تحطّ رحالها على زهرة، تفيض حيويّة ونشاطًا وإشراقًا، ملؤها العزم والثبات ورباطة الجأش؛ وهي، كما ظنّت بمبي، على العكس منها.

Twitter: @ketab_n

ـ إنّني أعدّ طبقًا من الحلوى لك.

فسألت جميلة، وقد شتّت سيّارة عابرة انتباهها:

ـ ماذا؟

ـ إنّني...

ولكن بمبي توقّفت عن الكلام بعد أن رأت اسكندر قادمًا من بداية الطريق.

راقبت بمبي ابنها ثانية أو ثانيتين وهو يسير من وراء أختها. ضاقت عينا اسكندر حتى أصبحتا مثل شقّين. مطبق الفكّين، شفتاه تتحرّكان من دون توقّف وكأنّه يحارب نفسه.

لم تستطع معرفة ماذا يجري. وحتى عندما شاهدته يندفع في اتّجاه جميلة، وحتى عندما شاهدت السكّين في يده، وحتى عندما اعترض طريق أختها وتفوّه بكلمات ترقى إلى شحذ نفسه بالعزم والتصميم إزاء أيّة شكوك، فإنّ ما رأته يحدث أمام أنظارها تواصل من دون معنى، ولكنّ الستارة التي كانت تغشى عينيها ارتفعت على حين بغتة، ورأت الحقيقة كلّها، الخطر كلّه. شعرت أنّها فقدت القدرة على التنفّس. وهرعت، والليمون في يدها، من الشرفة إلى حجرة المعيشة، فالممرّ، ثم خرجت من الباب إلى الشارع.

ركضت بمبي. وكانت على بعد ثمانية أقدام عندما رأت ابنها يطعن أختها. هزَّ اسكندر السكّين في عجالة وصبيانيّة، كأنّما يريد أن ينتهي منها على الفور ويمضي في سبيله. ورسم النصل نصف دائرة في الهواء، وتغلغل في جسد جميلة، وفي الجانب الأيمن من صدرها تحديدًا. وأدركت من فورها أنّ السكّين أُغمد في قلب أختها.

Twitter: @ketab_n

تراجع اسكندر خطوة إلى الوراء، وتوقّف هنيهة، مقطّبًا ينظر إلى السكّين في يده. وبدا مشوّشًا، برهة وجيزة، وكأنّه لا يدري ماذا فعل، كأنّه دمية ترقص عند جذب خيوطها، وأنّه لم يدرك ما حدث إلّا في هذه اللحظة. فرمى السكّين وهرع في الاتّجاه المعاكس.

كان في وسع بمبي أن تسمع شخصًا ما يصرخ. صراخ يصمّ الآذان في عاصفة. ومضت دقيقة أخرى قبل أن تدرك أنّ الصوت صوتها. لم تستطع الحراك. فقد باتت بلا جسد. بلا جوهر. ليس لها سوى الصوت. كيانها كلّه تضاءل ـ أو تضخّم ـ ليغدو صرخة فسحت المجال أمام صرخات أخرى دوّت متصاعدة، خارج إرادتها، تدور وتدور، وتذوب في صدًى لا نهاية له.

تعثّرت بمبي في اتّجاه أختها، متقلّبة المعدة، واسعة العينين. محتويات الأكياس تبعثرت على الطريق. خبز وجبنة وتفّاح أخضر وريحان وعلبة هال.

حضنت بمبي أختها وكأنّها تسير نائمة، وقبّلت وجه جميلة ـ جبينها وعظام وجنتيها والتجويف الناعم في مقدّمة رقبتها. فحصت نبضها. ساكن. جسدها يترنّح، فقد حرارته. وامتقع وجهها وضاع منه ألقه، باستثناء الشفتين اللتين باتتا بلون جرحها. وبدأت بمبي ترتعش، كأنّ الحياة تنزف من جسدها. وبانت على الأرض بركة من دم غامق اللون يقترب من السواد، اتّسعت وازدادت سمكًا. وسمعت صوت وقع أقدام مسرعة، ونبرات أصوات مكتومة. صافرة سيّارة إسعاف تدور من حول الناصية. أبواب سيّارة تغلق بقوّة، أجهزة اتّصال تابعة للشرطة. ترنّحت بعيدًا عن جسد أختها

Twitter: @ketab_n

التوأم. الطريق المسفلتة صلبة وهي تطأها بخفّها.

بعد مرور نصف دقيقة، اقتربت امرأة متقدّمة في العمر، وهي جارة ألبانيّة طيّبة القلب، من المكان، قادمة من الجهة الأخرى للشارع بعد أن جذبت الجلبة والضجّة أنظارها. ثم تقدّمت من الجثّة الممدّة على الأرض، خائفة محتارة، وجثت على ركبتيها، تصرخ وتولول:

ـ آه، أيّتها المسكينة! ماذا حدث لك يا عزيزتي بمبي؟

وعلى مقربة من المكان، سرت القشعريرة في أرجاء جسد بمبي. فقد صكّ سمعها صوت العويل والصياح من أجلها، فبدا غريبًا مؤثّرًا، ولكنّه من جهة أخرى ساعدها على فصل نفسها عن محيطها. فلم تتوقّف، ولم تلتفت إلى الوراء، بل أحاطت صدرها بذراعيها، مطأطئة رأسها وكأنّها تسير في مواجهة ريح عاتية، وطافت بين الجموع المحتشدة مثل شبح آلت هي إليه الآن.

* * *

ظلّت بمبي تطوف في الشوارع على امتداد ما تبقّى من نهار ذلك اليوم، وشاهدت من مناطق إيست لندن ما لم تشاهده من قبل. كانت تعرف أنّها لا تستطيع الذهاب إلى إلياس بينما كان اسكندر حرًّا وطليقًا في مكان ما. ولم ينقضِ وقت طويل حتى أدرك ابنها غلطته، فعاد يبحث عنها. وكان خوفها قد بلغ بها مبلغًا كبيرًا لم تعد تستطيع معه أن تحزن من أجل أختها، وباتت كثيرة الهواجس والمخاوف وكأنّ القلق مادّة، سائل استحوذ عليها شيئًا فشيئًا.

اضطرت أكثر من مرّة إلى التوقّف كي تأخذ نفسًا عميقًا يمكّنها

Twitter: @ketab_n

من الاحتفاظ بتوازنها. ودارت من حول صالون المقصّ البلّوري إلى أن وصلت قبالة المدخل. كانت قد تخلّت عن عملها من دون تفسير. وكانت قد وضعت المفاتيح في صندوق الرسائل وأنهت علاقتها بالعمل. توارت من خلف سيّارة البريد الملكي وراقبت ريتا المفعمة بالحيويّة والنشاط من خلال الواجهة الزجاجيّة. ورأت زبونتين داخل الصالون وامرأة أخرى لا بدَّ أن تكون هي المتدرّبة الجديدة ـ امرأة آسيويّة شابّة، شعرها بلون الباذنجان.

تسلّلت بمبي إلى المنطقة الواقعة خلف الصالون حيث تجفّف المناشف والصدريّات. لو كانت محظوظة، لوجدت شيئًا تلبسه، فقد كان قميصها ملوّثًا بدم كانت تخفيه بوضع ذراعيها متشابكتين من فوقه، وظهرها محدودبًا. المضحك أنّ عابري السبيل المارّين بها لم ينتبهوا لها، أو ربّما آثروا ألّا ينظروا. فتحت الباب الخلفي، وتقدّمت ثم توقّفت.

تقدّمت المرأة المتدرّبة لجمع المناشف من حبل الغسيل متمايلة إلى هذه الجهة وتلك الجهة على أنغام الموسيقى المنبعثة من داخل الصالون، وفي فمها علكة. فات الأوان كي تتراجع بمبي، مثلما لم تجد مكانًا تلجأ إليه بعيدًا عن الأنظار. ووجدت بمبي نفسها تنظر إلى هذه المراهقة فاغرة فمها والتي نظرت إليها في دهشة أيضًا.

قالت بمبي، وقد تورّدت وجنتاها:

ـ آسفة.

ثم مشت إلى أمام وأمسكت بصدريّة وابتعدت.

فهتفت بها الفتاة:

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا تفعلين؟ لصّة، لصّة!

لكن بمبي كانت قد توارت عن الأنظار.

ظلّت على مدى الساعات القليلة التالية تتجوّل. الشمس الغاربة تلقي ظلًّا على مؤخّر عنقها. ليس لديها مكان تذهب إليه. فإذا ما ذهبت إلى قسم الشرطة، فسوف يحقّقون معها. ولمّا كانت عاجزة عن التفاهم باللغة، فإنّها سوف تخفق في الإجابة عن أسئلتهم، وربّما ينتهي بها المطاف إلى أن تكون هي المسؤولة عمّا حدث.

ولم يكن في وسعها اللجوء إلى بيت الجيران. فمن ذا الذي يرغب في تحمّل المخاطرة؟ يضاف إلى ذلك، لا تعرف إن كان اسكندر تصرّف من تلقاء نفسه أو أنّه كان مدفوعًا من آخرين. وإذا كان الأمر كذلك، فمن هم المتورّطون الآخرون؟ هل لطارق دخل في القضيّة؟ وزوجها؟ هل أقنع الأخوان اسكندر، سلطانها وقرّة عينها، على قتل أمّه؟ كان رأسها في دوّامة، لا تقوى على إيلاء ثقتها إلى أيّ بشر، باستثناء إلياس. وكان التفكير فيه كافيًا لأن يجعل قشعريرة تسري في بدنها. هكذا إذًا. لن تلتقيه ثانية. وحمدت الله أنّ اسكندر لا يعرف محلّ سكن إلياس أو عمله. وإذا ما بقيت بعيدة عن إلياس، فإنّ إلياس سيكون في خير. الأفضل أن يعتقد أنّها قضت نحبها.

الإثم هو تلك الأفعى المخادعة التي تتغذّى داخل صدرها على مدى شهور حتى اكتنز جسمها بمرور الأيّام، وظهرت الآن للعيان بكلّ قوّتها القبيحة لتنهش روحها. لامت نفسها، نفسها وحدها ولا أحد غيرها. لقد تسبّبت علاقتها الغراميّة بإلياس

Twitter: @ketab_n

بالمصيبة التي حلّت بها. كيف يمكنها أن تراه من جديد؟ الحقيقة هي أنّ بمبي ظلّت حتى تلك اللحظة وفي ذلك المكان تجد العذر لاسكندر. وتاقت روحها لرؤية ولديها الآخرين. وفكّرت في ما قد يفعلانه عندما يكتشفان أنّ خالتهما توفّيت وأنّ أمّهما ضاعت؟ ما الذي سيقوله رجال الشرطة لهم، وما الذي سيقولانه بدورهما للشرطة؟

عندما أرخى الظلام سدوله، عادت بمبي إلى حيّها السكني، تسير سيرًا متلكّئًا من فرط تعبها، وإن كانت تعلم خطورة ذلك. توارت عن الأنظار قدر الإمكان ووصلت إلى شارع لافندر غروف. وشاهدت فوق البقعة التي توفّيت فيها جميلة قبل بضع ساعات تخطيطًا مرسومًا لها بالطبشور الأبيض، وكانت المنطقة قد طُوّقت ومُنع الأهالي من الاقتراب منها، وإن كان عدد قليل منهم وقفوا على مقربة يدخّنون ويتبادلون الحديث. ولمّا وجدت صعوبة في الاقتراب أكثر، قرّرت أن تغيب عن الأنظار.

وفي تلك الليلة، عثرت بمبي على ركن وُضعت فيه نفايات أمام مصرف باركليز، فتكوّرت فيه، تجفل وتنكمش كلّما مرقت سيّارة من أمامها. لجأت إلى مرافق صحّيّة عموميّة وتوسّلت من صاحب مطعم أن يمنحها ماءً وطعامًا، وبكت حتى نامت.

وجاء متشرّد ووقف بجانبها وصاح:

ـ استيقظي! انهضي أيّتها النفايات!

كان الرجل طويل القامة، منتفخ البطن بالجعة، متورّم الوجه، كثّ الحاجبين، وبلا أسنان. وأضاف:

ـ تبًّا لك! ماذا تظنّين نفسك فاعلة في مكاني.

Twitter: @ketab_n

قالت بمبي مذعورة، مرتعشة الشفتين:

ـ أنا... أنا آسفة.

واشتمّت رائحته التي كانت مزيجًا من الخمرة والتبغ والعثّ والبول. تقدّم الرجل منها، مصمّمًا على أمر ما، ولكن بمبي راوغته وأطلقت ساقيها للريح.

ـ تعالي، تعالي أيّتها العصفورة الصغيرة. لماذا تخافين؟

راقبها المتشرّد تندفع مسرعة وتهبط الشارع إلى أن غابت عن أنظاره من وراء منعطف الطريق. وضحك ضحكة نصف مكبوتة وكأنّه سمع نكتة، وجلس في الركن الذي ما زال دافئًا وتنهّد وهو ينزع حذاءه الثقيل، وبدأ يفرك قدميه شارد الذهن.

* * *

Twitter: @ketab_n

أسماء

لندن، ١ كانون الأوّل ١٩٧٨

ثمّة كمِّيّات كبيرة من الطعام في المطبخ ـ في قدور كبيرة وصغيرة مملوءة بما لذَّ وطاب، تفوح منها روائح لاذعة وقويّة: طعام مقدّم في كسرولة ومعجّنات وحلويات وضعت كلّها فوق الطاولة والمنضدة والكراسي والأرض. لا أعرف من الذي سيأكل كلّ هذا الطعام في حين لا يوجد في المنزل إلّا أنا ويونس. لكنّ المعزّين استمرّوا في التدفّق وكانوا يأتون حاملين طعامهم، مصمّمين على تقديمه لنا. وفي حجرة الجلوس، جلست نساء من مختلف الأعمار، الواحدة بجانب الأخرى. بعضهنّ جارات قديمات، والبعض الآخر نساء لا أعرفهنّ إلّا معرفة قليلة. وثمّة نساء أخريات أراهنّ لأوّل مرّة. ومع وفود كلّ مجموعة من الزائرات، كانت العمّة ميرال، المضيفة، تنهض واقفة على قدميها وترحّب بهنّ وتولول وإيّاهنّ. كنت أنا ويونس جالسين في ركن، حاضرين وغائبين في الوقت عينه ـ مثل سمكتين ناعستين في

Twitter: @ketab_n

حوض زجاجي فارغ. كانت كلّ واحدة تأتي إلينا وتحدّق وتُنعم النظر فينا وتنقر على الجدار الزجاجي الذي يفصلنا عنهنّ، ثم ينتظرن ماذا سنفعل. كنّا نسمعهنّ ونراهنّ ولكنّنا لم نكن نشعر بأيّ شيء، لا نحسّ بكلمات التعزية التي يتفوّهن بها. ذهننا منشغل في حلّ أحجية لا يعلمها إلّا أنا وهو.

قال يونس في صوت حادّ:

ـ الغلطة غلطتي يا أسماء.

ـ ماذا تعني؟

ـ لقد تركت خالتي بمفردها.

أمسكت يده، وعانقته.

ـ اسكندر هو الذي أقدم على ذلك العمل وليس أنت.

ـ لكن إذا كانت الخالة جميلة في سيّارة الإسعاف، فأين ماما؟

ـ هذا ما أفكّر فيه.

سوف نعرف الجواب في أقلّ من ساعة. ففي منتصف النهار، فُتح الباب ودخلت ضيفة جديدة، متّشحة باللون الأخضر من قمّة رأسها حتى أخمص قدميها، وعلى رأسها قبّعة ريش. حدَّقت إلى المعزّيات بما تنزيّن به من أشياء لامعة، وأظافر مطليّة، وتصرّفات غريبة، من دون أن تنبس بكلمة.

لكنّني أنا شخصيًّا سررت بمجيئها، وقلت لها:

ـ آه، ريتا...

ثم هرعت إليها دامعة العينين.

جلسنا معًا إلى طاولة المطبخ بعيدًا عن العيون الفضوليّة.

همست:

Twitter: @ketab_n

ـ لم تمت أمّي.

فأومأت برأسها.

ـ وهل هي معك؟

إيماءة أخرى.

أخبرتني ريتا أنّها ذهبت مبكرة في صباح ذلك اليوم لفتح محلّها فوجدت زميلتها القديمة في المحلّ نائمة على عتبة الباب. ولمّا سألتها عمّا حدث، لم تحصل إلّا على إجابة مقتضبة، فأخذتها إلى الغرفة في مؤخّرة المحلّ وقدّمت لها شايًا وبعض قطع البسكويت، وأغلقت النوافذ ومنحت المتدرّبة إجازة يوم واحد وأعلنت عن غلق الصالون. ثم ساعدت أمّي على غسل وجهها وتنظيف ثيابها.

فسألت:

ـ هل يمكنك أن تحافظي عليها في مأمن بضعة أيّام إلى أن نفهم ما حدث؟

هزَّت ريتا رأسها نافية، لأنّ صديقها لم يسمح لها أن تأتي بأمّي إلى البيت، وإذا ما سمح لها بذلك، فإنّها غير متأكّدة أنّ من الممكن أن تودعه مثل هذا السرّ.

قالت ريتا:

ـ ثمّة شيء واحد آخر.

ثم ناولتني قصاصة ورق وقد كتب عليها اسم إلياس وعنوانه.

ـ يجب عليك أن تخبريه أنّ والدتك توفّيت، لأنّ بمبي تعتقد أنّ هذا هو أفضل سبيل لسلوكه.

Twitter: @ketab_n

لم يدم الحديث أكثر من ذلك. ودّعتها إلى الباب، وعانقتني ريتا عناقًا مؤثّرًا، مؤدّية بذلك دورها بكلّ ما فيه من تفاصيل وقالت:

ـ آسفة يا حبيبتي. كانت أمّك عزيزة عليَّ جدًّا.

* * *

وبعد غروب الشمس، دخلت أنا ويونس صالون المقصّ البلّوري من الباب الخلفي، متماسكي الأيدي، ولن أنسى ما حييت تلك اللحظة التي ركضنا فيها إليها ونحن نجهش بالبكاء ونضحك في الوقت نفسه. كانت تبدو مرتبكة جدًّا، واجمة، تحيط الدوائر السود بعينيها.

استراح رأس يونس على صدر أمّي وهو يئنّ ويتأوّه.

ـ الغلطة غلطتي، فقد تركت خالة جميلة بمفردها. كنت أتحدّث إلى أصدقائي وتركتها تعود وحدها إلى البيت سيرًا على الأقدام.

قبّلته أمّي. ثم قبّلتني هامسة:

ـ هل كلَّمتِهِ؟

حدّثتها باختصار عن زيارتي إلى إلياس. فأصغت إليَّ، واجمة، ممتقعة، وكأنّها نصف حالمة.

وقاطعنا يونس:

ـ إنّهم يتقوّلون عليك بأقوال مشينة، ولن نكلّمهم بعد الآن.

هكذا عرفت أمّي أنّ الحيّ بأكمله كان أسير الشائعات والقيل والقال. فبعض الناس اتّهمها بجلب العار على الأسرة، مستفزّة

Twitter: @ketab_n

ولدها بذلك على اللجوء إلى طريق الرذيلة.

حدّقت إلى أمّي.

ـ سوف تكون الجنازة جاهزة بعد يوم واحد، وقد رتّبت العمّة ميرال كلّ شيء.

وهنا تشبّث يونس بذراع أمّي وربت عليه في لهجة آمرة:

ـ لا تقلقي. أعرف إلى أين آخذك. ثمّة مكان واحد في لندن تكونين فيه بمأمن تامّ، ولن يسلّمك أحد إلى الشرطة.

وهكذا بدأت أمّي بمبي قدر طبرق البالغة ثلاثة وثلاثين عامًا، والتي انتقلت إلى رحمة الله بحسب التقارير الرسميّة، تعيش في بيت محتلّ منهار في حيّ هاكني، احتلّته مجموعة من الصبيان المختلّين عقليًّا.

* * *

Twitter: @ketab_n

التنظيـف

لندن، ٥ كانون الأوّل ١٩٧٨

جلست بمبي معتدلة الظهر فوق السرير وعلى محيَّاها أمارات التعب والإنهاك، وأحاطت ركبتيها المطويّتين بذراعيها، وشبكت أصابعها. ثمّة ضيق في صدرها، ألم متزايد وكأنّ شيئًا ما يضغط في قوّة على أضلاعها. تنفّسها مشقّة، وبلع ريقها مؤلم.

أصاخت السمع للأصوات المتردّدة في البيت القكتوري القديم الذي بات غارقًا في الظلام الآن، وشمّت الرائحة اللاذعة والنفّاذة المنتشرة في الجوّ: غبار وعرق وأثاث عفن وغسيل رطب وملاءات قذرة وقناني فارغة ومنفضات مملوءة بأعقاب السكائر. ولمّا كانت تقبع في حجرة ينام فيها عدد من الناس على الأرض جنبًا إلى جنب، فقد تذكّرت أيّام طفولتها، تذكّرت كيف كانت هي وأخواتها السبع يقضين الليل نائمات أو يتدافعن الواحدة بعد الأخرى أو ينشدن الدفء إحداهنّ في حضن الأخرى. وبغض النظر عن عدد البطّانيّات المتوافرة، كانت تستيقظ في منتصف الليل لتجد نفسها

Twitter: @ketab_n

باردة من دون دثار، فتسحب أقرب بطّانيّة من فوق رأسها وتلتفّ على أحسن ما يكون، تاركة بذلك أختًا من أخواتها معرّضة للبرد من دون غطاء.

رنت بمبي الآن إلى ما وراء أجساد الشبّان النائمين وحدّقت إلى العدم الكئيب الممتدّ وراء النافذة، وشعرت بنوع من الكسل لم يسبق لها أن شعرت بمثله في حياتها. مرّت ساعة كاملة. ربّما أكثر من ساعة. ليست لديها وسيلة كي تعرف بها. وبعد برهة وجيزة، لمحت عيناها تباشير أوّل ضياء في الأفق، أعمدة من لون قرمزي حادّ تشبه السهام. الصبح ينبلج من فوق أفق لندن. وانتابها ذعر حادّ، فسرعان ما سوف يستيقظون جميعًا ويأكلون ويمزحون ويدخّنون. وعلى الرّغم من أنّهم وافقوا على إيوائها، وبذلوا قصارى جهدهم كي لا يُقلقوا راحتها، فإنّ هؤلاء الصبيان لم يستطيعوا منع أنفسهم من توجيه الأسئلة، غير قادرين على فهم ما يحدث.

كان معظم صبيان المنزل يروقهم النوم في ساعة متأخّرة، ولكن في ضوء الوضع غير المؤكّد مع المجلس المحلّي، فقد بالغوا في البقاء يقظين، مدركين الإدراك كلّه أنّ أيّام الصفاء التي كانوا ينامون فيها أضحت الآن شيئًا من الماضي. وهكذا استيقظ كلّ واحدٍ منهم في الساعة الثامنة صباحًا، يبحث عن ثياب الأمس ويشعل أوّل سيكارة في ذلك النهار، ويدفع كلّ واحد منهم الآخر من حول المغسلة. وكان إيغي بوب الذي نام وفي أذنيه سدادة أذن قد استيقظ بدوره ونهض.

وكانت توبيكو في المطبخ تراقب بمبي تعدّ الكعك المحلّى

Twitter: @ketab_n

للجيش، وكافحت من أجل أن تنطق بكلمة، ولكنّها لم تستطع إلّا أن تقول:

ـ عظيم، رائحة طيّبة جدًّا.

ابتسمت بمبي لها ابتسامة باهتة، وظلّت يداها تعملان، في سرعة وتركيز، ذهنها على بعد أميال. وبعد بضع دقائق، ناولت توبيكو طبقًا كبيرًا مملوءًا بقطع الكعك، وقالت:

ـ هيَّا... كلي.

تردّدت توبيكو.

ـ وأنتِ؟

ـ سوف آكل لاحقًا.

وقالت توبيكو على حين بغتة:

ـ أنت تعرفين أنّنا نحبّ ولدك. إنّه أشبه بجالب الحظّ السعيد لنا. و... آه. لا أعرف تمامًا ما المشكلة، بيد أنّ يونس قال إنّ الموضوع خاصّ وإنّكِ مضطرّة إلى الاختباء مدّة من الزمان. على أيّة حال، أنت على الرحب والسعة مهما أردت أن يطول بقاؤك هنا.

تعاطفت بمبي مع توبيكو تعاطفًا عميقًا أدّى إلى ترقرق عينيها بالدمع، فعانقت المرأة الشابّة التي لم تتوقّع هذا الشيء، ولكنّها على الرّغم من ذلك بادلتها العناق من فورها. وفي تلك اللحظة دخل إيغي بوب يصرخ بأعلى صوته وكأنّه في ساحة عامّة.

ـ آخ. إنّنا نتضوّر جوعًا هنا. الشعب يريد الطعام!

ابتسمت توبيكو وحملت الطبق واندفعت إلى الداخل.

Twitter: @ketab_n

ظلّت بمبي وحدها في المطبخ، فأمسكت بالمكنسة الرثّة وراحت تكنس الأرضيّة. لو لم تفعل ما كانت تفعله على الدوام لظنّت أنّها ستفقد رشدها. وهكذا أنفقت الساعة المقبلة تنظّف وتكنس وتمسح الأتربة وتلمّع البيت كلّه من تحت عيون نزلائه المحتارة. وبلغ بها التوتّر طوال النهار حدًّا لم يتمكّن معه أيّ شخص من السخرية أو يطلب التوقّف منها. ولا بدّ أنّ ذلك كان سببًا للعدوى، إذْ عرض عدد من الناس المساعدة عليها مستخدمين الماسحات أو المكانس الموقّتة لينضمّوا إلى جنونها، ولكنّهم سرعان ما تخلّوا عن المهمّة، مرهقين وضجرين.

حلَّ المساء وما زالت تعمل، وما زال الصبيان يمشون على رؤوس أصابعهم من حولها، مراقبين هذه المرأة المنتمية إلى ثقافة مغايرة ولغة أخرى وحكاية أخرى، وهي تبكي وتنظّف، تنظّف وتبكي على الدوام.

* * *

سجن شروزبيري ١٩٩٢

قبل ثلاثة أشهر على إطلاق سراحي، تفتح امرأة عجوز عينيها وهي في غرفة العناية المشدّدة. تشكو من الظمأ ومن ألم في ظهرها. وفيما خلا ذلك، كانت تبدو في أحسن حال. وعندما تُضحي على استعداد للكلام، يسألونها عن الرجل الذي سرق حقيبة يدها وهاجمها بزجاجة مكسورة في يوم بارد. تصفه. ذاكرتها في حالة جيّدة. وصفها لا يشبه وصف زيشان بأيّ حال من الأحوال. ما يزالون غير مقتنعين. يطلعونها على صورة لرفيقي في الزنزانة، فتقول إنّه ليس هو. يأخذون زيشان ويتركونها تنظر إليه بواسطة مرآة

Twitter: @ketab_n

مزدوجة، فتقول إنّه ليس هو. فتقرّر المحكمة إعادة فتح ملفّ القضيّة من جديد.

وأقول:

ـ لا بدَّ أنّك فوق العمر. سوف تكون رجلاً طليقًا عمّا قريب.

يقول:

ـ زيشان طليق قبل الآن. لا ضرورة للذهاب إلى القمر.

ـ سأشتاق إليك كثيرًا أيّها الرجل.

يبدو مكتئبًا، يزدرد ريقه في صعوبة، ويقول:

ـ سأخرج وأفكّر فيك. كنت تلميذي المفضّل.

ـ وأنت، كذّاب سيّئ.

يضحك ضحكة مكبوتة، ويهتزّ كتفاه.

ـ لا تنسَ إنجاز فروضك المدرسيّة.

ـ أيّة فروض؟

ثم يخبرني ما هي.

في صباح اليوم الذي تقرّر فيه إطلاق سراح زيشان، أجلس أنا وهو نتأمّل معًا آخر مرّة. وعلى العكس من بقيّة الأيّام، لا أحتجّ، بل أجلس متصالب الساقين على الأرضيّة الصلبة محدّقًا إليه، وللمرّة الأولى، أفلح في تهدئة فكري، وإن لمدّة قصيرة.

وفي مساء ذلك اليوم نفسه، وكان زيشان قد ذهب، أستلقي على سريري وأفكّر. غيابه ثقيل عليَّ. آخر مرّة ساورني هذا الإحساس هو عند وفاة تريبي، ولكنّني أحاول أن أنهي ما طلب

Twitter: @ketab_n

منّي أن أفعله. فروضي. أصعب شيء أفعله. واجبي هو أن أكتب رسالة إلى أمّي وأسلمّها لها عندما يطلق سراحي وأصبح حرًّا.

قلم حبر في يدي. أكتب عددًا من الرسائل في أيّام مختلفة. بعضها يبدو لا بأس به، ولكن فيها أشياء كثيرة ناقصة، ومعظمها تافه. أمزّقها إربًا إربًا، وأبدأ من جديد، من دون أن أصل إلى نتيجة. في كلّ يوم أكتب شيئًا ما، تمامًا مثلما وعدت زيشان. وأتأمّل قليلاً أيضًا. الضابط ماك لوخلين يأتي ويذهب. ليسا على وفاق. ولكنّنا لسنا في عداء أيضًا. لم نعد كذلك.

ثم أكتب شيئًا يبدو إلى حدٍّ ما أقلّ فظاعة، وأقرّر أن أحتفظ به في هذه المرّة. طلب منّي زيشان أن أكتب الرسالة على ورقة بيضاء في كلّ يوم إلى أن أحفظها عن ظهر قلب. وهذا ما أفعله لا حقًا.

أمّي العزيزة.

لن أرسل لك هذه الرسالة، بل سوف أجلبها بنفسي إن شاء الله وأسلّمك إيّاها لأنّ كتابة المحتويات أسهل من التفوّه بها. في هذه السنة فتحت عينيَّ. كان يرافقني هذا المجنون في الزنزانة. مجنون ولكن جنونه لذيذ، من شأنك أن تعجبي به. اسمه زيشان. إنسان طيّب القلب، مدَّ لي يد العون إلى أبعد الحدود. إنّني أفهم الآن فهمًا أفضل بعد أن أطلق سراحه. أمر سيّئ. إنّنا على الدوام نقدّر قيمة الأشياء بعد أن تضيع منّا.

لو أصبح عمري الآن ستّة عشر عامًا من جديد، لمّا فعلت ذلك الشيء الذي أقدمت عليه وسبّبت ألمًا رهيبًا، لك ولأختي ولأخي ولخالتي المسكينة. لا يمكنني أن أغيّر الماضي، ولا حتى لحظة واحدة منه، يقول زيشان إنّ في إمكاني أن أُحسّن من حالي.

Twitter: @ketab_n

لكنّني لست واثقًا حتى من هذا الأمر، ولكن لو قبلت بي ثانية، وإن وجدتِ أنّك قادرة من صميم فؤادك على مغفرتي، فتلك نعمة كبيرة كي أعود ابنًا لك ثانية.

اسكندر طبرق

* * *

Twitter: @ketab_n

أسـماء

لندن، ١٢ أيلول ١٩٩٢

صباح يوم السبت أعدُّ وجبة الفطور في مطبخنا الذي أثّثناه حديثًا. وكلّفنا مبلغًا كبيرًا، أكثر ممّا نقدر عليه، ولكن زوجي أَصرَّ على أن نحصل على أحدث المستجدّات، وكان هديّة لي في الذكرى الثامنة لزواجنا. لونه بلون قهوة الإسبريسو، وخشب الأرضيّة من خشب الأسفندان، فضلاً على ثلّاجة أميركيّة راقية وعصّارة فواكه عمليّة لا تستدعي تقطيع الموادّ. ناعمة وهادئة وعمليّة. هذا ما يشير إليه الدليل المرفق بها.

أهيّئ البيض وأراقب الأجزاء السفلى منها وهي تُطهى طهوًا جيّدًا وتصعد إلى أعلى وكأنّها أجزاء من الماضي تطفو على سطح الحاضر. ليس سهلاً إعداد البيض المخفوق عندما يكون الذهن مشغولاً بشيء آخر.

إذْ ينبغي أن يكون كلّ شيء بحسب توقيت صحيح حتى تكون النتيجة جيّدة، وإنْ كنت أعتقد أنّ أيّ توقيت لا يمكن أن يكون

Twitter: @ketab_n

صحيحًا. ربّما لديّ مشكلة في مفهوم التوقيت عمومًا، فأنا لا أستطيع التخلّص من الأمس ولا أركّز في الغد. ولم يبق شيء اليوم من الفتاة ذات الأفكار العظيمة والكلمات المتألّقة. وعندما أنظر إلى نفسي ذات العينين الخضراوين، وهو ما أفعله في أغلب الأحيان، فإنّني لا أستطيع أن أحول بيني وبين الإحساس بأنّني مخدوعة، وإن لم يخدعني أحد سوى نفسي.

ابنتاي تجلسان حول الطاولة تتجاذبان أطراف الحديث عن برنامجهنّ المفضّل بلوبيتر. وكما هي العادة، أفكارهنّ متضاربة. أصغي إليهما، ولكنَّ فكري في مكان آخر، يحلّق في كلّ اتّجاه تهبّ فيه الريح.

وتقول ليلى:

ـ هلَّا طلبتِ يا أمّاه من ابنتك الأخرى أن تصمت.

فأقول لها وأنا أرفع المقلاة من فوق النار.

ـ نعم.

البيض لم يكتمل إعداده بعد، ولكنّني لا أريد أن يبقى على النار مدّة أطول، كما في السابق.

وتقول جميلة:

ـ ماما!

فأسألها، وإن كان الأوان قد فات.

ـ عفوًا يا عزيزتي، ماذا قلت؟

عندما ألتفت أشاهد إحداهما مبتسمة، منتصرة، والأخرى مستاءة. غير أنّ زوجي يهرع إلى نجدتي.

Twitter: @ketab_n

ـ اتركي والدتك وشأنها، ففكرها مشغول بأشياء كثيرة.

وتسأل ليلى:

ـ لماذا؟

يقول نادر في ودّ:

ـ لقد تحدّثنا في هذا الموضوع من قبل، فخالك قادم لزيارتنا، ووالدتك لم تره منذ زمن طويل.

تقول ليلى وإن كان وجهها يخلو من أيّ أمارة تدلّ على التعجّب:

ـ آه!

أراقب جميلة تحدّق إلى أبيها عن قصد، وميض التحدّي يبرق في عينيها، السوداوين واللوزيتي الشكل والمختلفتين عن عيني المرأة التي سُمّيتْ باسمها. وتقول بغتة:

ـ هل تكذبان عليَّ.

تتوقّف يدي التي رفعت من فوق البيض في منتصف المسافة وأصغي إلى الصمت المطبق غير قادرة على كسره.

نادر هادئ، رابط الجأش كدأبه دائمًا.

ـ هذه ليست كلمة حلوة تقولينها عندما تتحدّثين إلى والديك يا حبيبتي، ولا إلى أيّ شخص آخر.

تقول جميلة في صوت رتيب:

ـ آآآسفة.

ـ لا بأس. والآن قولي ما معنى كلامك؟

Twitter: @ketab_n

تزمّ جميلة شفتيها بعد أن فرحت بالانتباه الذي انصبّ عليها.

ـ حسنًا... لا أعتقد أنّ الخال اسكندر يعمل في آلاسكا. أظنّ... وهنا ترنو إلى الطاولة وكأنّها تبحث عن كلمة.

ـ إنّه جاسوس روسي.

تتدخّل ليلى في الحديث:

ـ هذا في أحلامك.

ـ صحيح. إنّه يلقي القنابل على الجبال الجليديّة.

ـ لا.

ـ بل نعم.

أضع بضع شرائح من الطماطم وقطعة من الريحان في كلّ طبق وأحملها إلى الطاولة متسائلة إن كانت الأمور أفضل لو كان أخي الأكبر جاسوسًا يعمل في مصلحة الروس، يختبر القنابل في القطب الشمالي.

وفي وقت لاحق، عندما ذهبت الفتاتان للاستعداد لحفل عيد الميلاد، طوّقني نادر بذراعه، رأسه يميل إلى الجانب. أنظر إليه، وأفهمه. الأسلوب الذي يضغط فيه على عينيه، البسمة مرتسمة على وجنتيه، والتجاعيد الواضحة على جبينه. شعره كثيف وكثّ ينمو إلى أعلى متحدّيًا الجاذبيّة، رافضًا أن يغطّي أذنيه. ثمّة خصلات قليلة رماديّة اللون عند الصدغين تولّد الانطباع عن عمره. أكبر منّي بستّة عشر عامًا. الفارق نفسه في العمر بين إلياس وأمّي. مصادفة بطبيعة الحال. هكذا أردّد دومًا في نفسي.

أحبّه، ولكن كلّ شيء لم يبدأ على أنّه حبّ. كلانا علم في

Twitter: @ketab_n

البدء أنّني لم أهبه نفسي على النحو الذي وهب هو نفسه لي. ففي صميم فؤادي خالجتني مشاعر ممتزجة عنه: احترام وولع وإعجاب، وعلى وجه الخصوص العرفان التامّ لانتشالي من تلك الوحدة التي كنت أتخبّط فيها. أحيانًا تسمع أناسًا يقولون إنّهم أضحوا أفضل حالاً نظرًا لوجودهم رفقة والديهم. أنت تسمع هذا الكلام، ولكنّك لا تصدّقه إلّا إذا حدث لك.

بعد آخر يوم من أيّام شهر تشرين الثاني ١٩٧٨، ذابت أسرتنا ذوبان الرجل الثلجي من تحت أشعّة شمس حارقة. وفجأة أصبح كلّ ما تبقّى لنا من حياتنا الماضية هو كومة رماديّة من أشياء مائعة. وتحوّل ما كان يبدو قويًّا وصلدًا إلى شيء مراوغ، لا يمكن الاعتماد عليه. عشت أنا والعمّ طارق والعمّة ميرال برهة من الزمان، وكرهت كلّ لحظة من تلك الأيّام وإنْ لم يكونا بخيلين أو قاسيين تجاهنا. ولن أسامحهما على ما نشراه من قذارة عن أمّي في الأسابيع التي سبقت الجريمة؛ وحتى عندما لبثتُ تحت سقفهما وأكلتُ من طعامهما ولبست الثياب التي اشترياها لي، فإنّهما كانا على رأس قائمة الناس الذين كنت أمتعض منهم. في البدء، أرسل والدي لنا بطاقات بريديّة وهدايا ونقودًا من أبو ظبي، وإن ظلّ هذا الإرسال متقطّعًا على مدى السنين إلى أن توقّفت المراسلات نهائيًّا. وظلّ عمّي وعمّتي يخبّئان عنّا نبأ انتحاره عنّا أطول مدّة ممكنة، يغطّيان على الحقيقة، يمنعانها ويشوّهانها. كان ينبغي لي أن أعرف، لأنّني أنا بدوري أمارس هنا الأشياء نفسها مع أولادي. إنّه موروث أسري، يلقي ظلاله على الحقيقة، ويدفنها عميقًا بين طيّات الحياة اليوميّة الراكدة كي لا يمكن الوصول إليها بعد حين

Twitter: @ketab_n

حتى إن كان ذلك في الخيال.

ذكرياتي عن تلك السنين مثل رمال متحرّكة ملؤها الأذى والخيبة. ولمّا تعثّرت بها، لم أجد سوى الغضب يجذبني بعيدًا، وقد استمرّ ذلك مدّة من الزمان. في السنوات الأولى من حكم السيّدة تاتشر بدأت تحوّلات عميقة. وبدأت إنكلترا تسير في سرعة رهيبة مبتعدة عن كلّ ما كانت تتّصف به، فرس نهر يستيقظ من حلم شتائي يبعث على الكسل. علاماتي في الامتحانات كانت عالية على الدوام. وأظهرت مديريّة التربية اهتمامًا خاصًّا بقضيّتنا، ونقلتنا أنا ويونس إلى مدرسة داخليّة في ساسكس. وقد ساعدنا ذلك إلى حدٍّ ما، أعني البعد. لكنّني تشبّثت بهيجاني من دون أن أدرك أنّه لا يوصلني إلى أيّة نتيجة. كنت أغرق في حالات الامتعاض والاستياء التي تستبدّ بي. وبعد المدرسة الداخليّة، انتقلت إلى كوين ماري كوليج حيث درست اللغة الإنكليزيّة. ثم التقيت نادر.

رجل صامت. مثقّف يؤمن بقناعات شموليّة وحقائق موضوعيّة. ولد في مدينة غزّة ونشأ وترعرع في أحد مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين، ورحل عن وطنه متوجّهًا إلى إنكلترا وهو في سنّ التاسعة عشرة بفضل قريب من أقربائه ساعده على إكمال تعليمه. وبعد وقت قصير من إطلاق فريق الغناء البيتلز ألبومهم الغنائي «غوّاصة صفراء» نُصّب نيكسون رئيسًا للولايات المتّحدة وأصبح عرفات رئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة، ووصل نادر إلى مدينة مانشستر رابط الجأش، هادئًا، ولكنّه وفيّ ومخلص. ثم نهج في حياته نهجًا بعيدًا عن السياسة إلى أبعد حدٍّ ممكن: علم الأحياء الجزيئيّة. وفي حين كان العالم يدور في دوّامة عنيفة من

Twitter: @ketab_n

الصراعات، كان نادر يلجأ إلى مختبره، أنيقًا ومنهجيًّا ومسيطرًا لدراسة علم مورفولوجيا الخلايا.

ما يزال أقرباؤه في غزّة. وقد التقيتهم بضع مرّات. أسرة كبيرة. دافئة ومحبّة للاستطلاع وفخورة وثرثارة. راقبت زوجي بين أهله، أبحث عن متغيّرات في سلوكه، لمحة تظهر الجوهر من تحت هذا القناع. لكن نادر ظلّ كما هو، روحًا رقيقة في كلّ مكان ورفقة كلّ شخص. لم يتصرّف تصرّفًا ناجمًا عن نزوة، بل كان يهوى أن يتقدّم على مهل، أن يفكّر وهذه كلمة من كلماته المفضّلة. لم يكن يومًا ما في عجالة من أمره. شعاره في الحياة: العِرْق دسّاس. لا عجب أنّه انسجم ويونس انسجامًا كبيرًا.

ويسألني:

ـ أأنتِ على ما يرام؟

أومئ برأسي، أن أكون وحيدة هو كلّ ما كنت أريده الآن، أن أخلع معطفي وأخرج من الباب تاركة كلّ شيء على حاله، من دون أن تلمسه يد، بقايا الطعام في الصحون والفتات على السفرة، والبقع على الأقداح. إنّها أجزاء من ماضيَّ.

ـ كلّ ما هناك أنّ اليوم سيكون طويلاً.

يقول:

ـ لا تقلقي بشأننا. سوف أذهب لإحضار المسوخ من الحفلة، وعليك قضاء الوقت وإيّاه وحيدين.

أصغي للهجة زوجي. الأصوات الحلقيّة، أثر من آثار اللغة العربيّة.

Twitter: @ketab_n

ـ هذا ما أخشاه، أن أقضي وقتًا رفقة اسكندر.

يضع نادر راحتيْ كفّيه على وجنتيَّ ويطبع قبلة على شفتي.

ـ سوف تكون الأمور على ما يرام يا حبيبتي.

أتمنّى في لحظة عابرة ألّا يكون بهذا الاحترام وهذا الاهتمام. نادر نموذج للرجل الذي يتفادى المواجهات بكلّ ثمن إذا ما حدث أيّ اعتداء، جسدي أو لفظي. وإذا ما أخطأ أحد في حقّه، مثلما أخطأ زميله في العمل في الجامعة ذات مرّة، فإنّه سوف يتقبّل الوضع، والأهمّ من هذا، يعدُّ نفسه مسؤولاً عنه مسؤوليّة شخصيّة.

وأفطن بغتة، عن معرفة أو جهل، أنّني تزوّجت الشخص المناقض تمامًا لأخي الأكبر.

ويقول:

ـ لا أدري. ربّما لا ينبغي لي الذهاب. قد يأتي عمّي، أو أحد أصدقائه القدامى.

يعبس نادر ويعقد حاجبيه. في وسعه أن يرى مرارتي وقد عادت إليَّ. يبدو أنّه يختار ألفاظه في عناية.

ـ عليكِ أن تذهبي للقائه، إذا لم يكن قد تغيّر ولو بمقدار ذرّة، وإذا كان هو الرجل نفسه الذي كان عليه في السابق، فإنّك لستِ بحاجة إليه في حياتك، لكن ينبغي لك الذهاب والتأكّد بنفسك.

ثم تفوّه بعد ذلك بكلمات ستظلّ ترنّ في أذنيَّ على امتداد النهار: إنّه أخوكَ.

ـ ما الذي سأقوله للبنات عندما يأتي إلى هذا المكان؟ مرحبًا أيّتها البنات، هذا خالكم الذي لم تروْه من قبل. لماذا؟ حسنًا،

Twitter: @ketab_n

لأنّه كان في الحبس. لماذا؟ لأنّه، كما ترون، قتل...

ـ لست مضطرّة إلى توضيح كلّ شيء. ليس الآن.

تترقرق عيناي بالدمع، وعندما أتكلّم، يأتي صوتي متوتّرًا.

ـ أنتِ ويونس تريدان أن تكون الأمور سهلة وبسيطة على الدوام.

ولكنّ العالم بالغ التعقيد، وكلّ شيء معقّد.

تغضّن وجه نادر وهو يقلّد نبرتي:

ـ انسي العالم. استفيدي من كلّ ما سننفقه، قبل أن نتحوّل إلى تراب.

أضحك على الرّغم من نفسي.

ـ هل هذا من شعر الخيّام؟

ـ نعم، عمر الخيّام.

رجل ذو كلمات لطيفة وقصائد فخمة. هذا الرجل نزيه، يُعتمد عليه ومؤمن، وفي بعض الأحيان إلى حدّ السذاجة التي تدفعني إلى الجنون. هذا الرجل الذي يؤمن أنّ الشرف له صلة بقلوب الناس وليس بحُجرات نومهم. أحاول أن أتخيّل ماذا يرى فيَّ، وكيف أنّه ما زال يحبّني، غير قادر على الردّ بجواب. وأهمهم:

ـ يستحسن بي الذهاب والاستعداد.

ـ حسنًا يا حبيبتي.

في إحدى المرّات فكّرت أنّني خُلقت للأعمال المهمّة، والسعي الجدير بالمحاولة والمُثُل الكبيرة. أردت أن أصبح أديبة وناشطة في ميدان حقوق الإنسان، وأن أسافر إلى مختلف أرجاء

Twitter: @ketab_n

العالم لمناصرة المضطهدين والمظلومين. جَيْ. بي. أونو ـ مؤلّف الروايات التي لا ينخدع فيها أحد بالحبّ. وتمنّيت أن أكون مركز العالم، ولكنّني بمرور الزمان اقتنعت أنّني لست سوى واحدة من عديد الشخصيّات في إحدى القصص، ولست حتى شخصيّة رئيسة.

مارست الكتابة مدّة قصيرة عندما أنهيت دراستي الثانويّة وإن صعب عليَّ تذكّر ذلك الآن. كانت علاماتي في الجامعة جيّدة، ومقالاتي مبتكرة، وكان ثمّة أناس يؤمنون بقدراتي، ولكن شيئًا ما تغيّر تغيّرًا نهائيًّا، إذْ فقدت الثقة في نفسي. وكما هو شأن نبتة تبدو حيويّة في المتجر ولكنّها تذبل بعد شرائها وإحضارها إلى المنزل، فترت همّتي في أن أكون روائيّة حالما خرجت من محيطي المألوف لي.

ولم أكتب شيئًا من بعد ذلك، باستثناء الرسائل، الرسائل التي لا تعدّ ولا تحصى. كتبت إلى شروزبيري في انتظام وإلى يونس كلّما افترقنا. كما راسلت إلياس أيضًا (الذي واصلت الاتّصال به) وروكسانا (التي واصلت الاتّصال بي) وساعدني هذان الشخصان، كلّ بطريقته الخاصّة به للعثور على الأجزاء المفقودة في الأحجية. وكتبت أيضًا إلى والدتي، مرّتين في الأسبوع على مدى السنوات الاثنتي عشرة التالية.

وفي فصل الصيف الماضي، وبعد أن وافت المنية والدتي، بدأت أدوّن قصّة حياتها، فعملت ليل نهار، وكأنّني أخاف أن أفقد الحماس، أو أنّ الحماس سيفقدني وينهار كلّ شيء، إن توقّفت حتى ولو لحظة واحدة.

كانت الأشياء التي كتبتها شخصيّة جدًّا، حتى إنّ بعض فقراتها

Twitter: @ketab_n

مؤذية، في حين كانت أجزاء أخرى تخصّني. ومع هذا، وبعد أن فرغت من المخطوطة بوقت قصير استبدّ بي إحساس بالاغتراب: هذه القصّة ليست قصّتي.

الماضي صندوق قديم في العلّيّة، مملوء بأشياء رثّة وأخرى ثمينة. وعلى الرّغم من أنّني كنت أفضّل أن يبقى الصندوق مقفلاً، فإنّ أقلّ نسمة هواء كانت تفتحه. وقبل أن أدرك ذلك، أجد محتوياته تتطاير في كلّ حدب وصوب. أُعيدها إلى مكانها في الصندوق. واحدة تلو الأخرى. الذكريات: المزعجة والطيّبة. ولكنّ الصندوق كان ينفتح على الدوام في أوقات لا أتوقّعها إلّا نادرًا.

كان الحمل حدثًا عارضًا أكثر ممّا هو حدث خطّطنا له. وعندما اكتشفت أمره، صُدمت، وانتابني الذعر والهلع والجذل أيضًا. ولمّا عرفت أنّني حامل ببنتين توأمين، بكيت ساعة، وشعرت أنّ حياتي، بصرف النظر عمّا سأفعله بها، كانت حلقة في سلسلة من القصص. وفي أثناء الشهور الثمانية، اتّخذ بدني شكلاً جديدًا، وكأنّه مصنوع من صلصال. وهكذا الأمر بخصوص روحي. ابنتاي تبلغان الآن سبع سنوات، ليلى ذات الشعر الأسود الشبيه بالساتان، وجميلة التي سُمّيت على اسم خالة أمّها وإن لم تكن تعرف السبب.

أسمع وأنا جالسة في غرفتي في الدور العلوي صوت الهاتف يرنّ، فيردّ عليه زوجي. أحسست أنّ المكالمة من يونس ـ الولد الذي سُمّي على اسم النبي المتذبذب. كان أخي الأصغر وزوجي يتّصلان أحدهما بالآخر يوميًّا. ألفة ومودّة رجوليّة. أعلم أنّهما

Twitter: @ketab_n

يتآمران عليّ ويعرضان لحالاتي المزاجيّة البائسة. وكانا يحاولان برباطة جأش وعقلانيّة كيف السبيل إلى إغاظتي. أنظر إلى نفسي على أنّني رزمة تبعث على الشبهات مرميّة على الطريق، وأنّ نادر ويونس خبيران في تفجير القنابل، يرتديان ملابس واقية من الحريق وخوذتين ويقتربان منّي في حيطة وحذر.

ـ يودّ يونس أن يكلّمك يا حبيبتي.

ألتقط الهاتف، وأنتظر أن يتوقّف زوجي عن الكلام وأقول مبتهجة:

ـ نعم يا عزيزي.

ـ حبيبتي أسماء. كيف حالك اليوم؟

لماذا يسألني كلّ واحد عن حالي؟ فأقول:

ـ في خير. وأنت كيف حالك؟ كيف حال الطقس عندكم؟

يتجاهل سؤالي العامّ ويدخل صلب الموضوع.

ـ حسن. متى ستأتين وتأخذينه؟

يمكنني أن أسمع في مؤخّرة المكان صوت فرقة موسيقيّة منهمكة في التدريبات. البيانو والغيتار والناي. سيقيم أخي حفلاً موسيقيًّا هذه الليلة في أمستردام وستكون حدثًا ثقافيًّا، ويتوقّع حضور الأمير كلاوس.

ـ سوف أغادر بعد ساعة.

ـ انظري... أعرف أنّ الأمر ليس سهلاً، فأنا مستاء جدًّا لأنّني خذلتك. أتمنّى لو كنت هناك.

أشعر بنبرة لاذعة في صوتي. لو أنّ يونس شعر به، فلن يسترسل.

Twitter: @ketab_n

ـ أنت تعرف بماذا كنت أفكّر في صباح هذا اليوم: ذلك النهار الذي ذهبت لزيارته. وغمرته السعادة والفرح لمّا عرف أنّها على قيد الحياة... تأثّر تأثّرًا بالغًا. المؤسف جدًّا أنّه لم يستطع رؤيتها ويطلب منها المغفرة.

أقلِّب عينيَّ.

ـ آه، مغفرتها.

فيؤكّد في إلحاح:

ـ كان يمكن أن يحدث ذلك. شيء لطيف لو أنّه قبّل يدها وطلب منها أن تمنحه بركاتها.

ـ آه، أرجوك امنحني فرصة.

ران صمت ثقيل، فبدأت أرتاب في أنّ الاتّصال انقطع عندما سمعت يونس يقول:

ـ أظنّه عانى ما فيه الكفاية.

أغمض عينيَّ، وأشعر بالدم يفور في أوردتي.

ـ كيف يمكنك أن تتفوّه بمثل هذا الكلام. إنّه لم يتعذّب بما يكفي. إنّه رجل أناني قتل خالتنا وسوف يموت إنسانًا أنانيًّا أيضًا.

ـ كان فتًى.

ـ لم يكن فتًى! ليس للأمر صلة بعمره. والآن أنت فتًى. ولم تفعل ما فعله. الأمر يخصّ شخصيّته.

فيقول يونس:

ـ ولكنّه كان الفتى الأكبر سنًّا. أنتِ دائمة الكلام عن أنّك عوملتِ معاملة مختلفة لأنّك بنت، وقد وجدت صعوبة في أن أكون

Twitter: @ketab_n

الطفل الأصغر سنًّا. ولكن هل فكّرت يومًا ما أنّ الأمر قد يكون أشدّ صعوبة على اسكندر؟

ـ نعم، لم يكن سهلاً وهو السلطان.

يتنهّد.

ـ استمعي إليَّ يا أختاه. إنّني مضطرّ لإنهاء المكالمة. سوف أكون هناك لو وجدت سبيلاً إلى ذلك. سوف أتحدّث إليك ثانية بعد رجوعي. سنفكّر في الأمر. معًا. تمامًا مثلما كنّا نفعل ذلك دائمًا. حسنًا؟

لم أصدّق صوتي، فدفعت رأسي وكأنّ يونس يستطيع أنْ يراني. وبعد إنهاء المكالمة، أذهب إلى الحمّام كي أغسل وجهي وأضع عليه بعض مساحيق التجميل. أكره يونس لأنّه يستطيع أن يعفو وينسى وأكره اسكندر لأنّه سلبنا والدتنا: طفولة اعتياديّة. ذلك الإحساس المطمئن بالأمن والحبّ والاستمراريّة تحصل عليه من أسرتك قبل أن تبلغ سنّ الرشد وتغوص في العالم الكبير بكلّ ما فيه من بؤس حقيقي. كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما فقد اسكندر عقله. وبعد ذلك، باتت الحياة التي كنت أعرفها قد تداعت وانهارت والألم الممضّ وجد له مأوًى في قلبي. وكان الأمر أشدّ وقعًا وسوءًا على أمّي.

لقد قتل اسكندر الكثيرين عندما قتل واحدة.

* * *

أتوجّه إلى شروزبيري وأمرّ بالحدائق المكسوّة بالعشب والرياض الخضر المتموّجة. الوقت يمرّ بطيئًا، ويعود عقلي إلى

Twitter: @ketab_n

يونس. بات اليوم مشهورًا. أخي الصغير. ويخبرني نادر أنّ تلاميذه يعرفون موسيقاه ويحبّونها. إنّني فخورة به. وفي تلك اللحظات التي أكون فيها صادقة مع نفسي، أشعر أنّني حسودة. وأتساءل إن كانت لعبة أخرى من أحبّ الخالق وقد تمثّلت في أنّني، أنا المبدعة انتهى بها المطاف إلى حياة متوسّطة، بيتيّة. في حين أنّ يونس، الهادئ والرابط الجأش يسير من وراء أحلامه حول العالم. أعتقد أنّها لن تنتهي، هذه الخصومة الأسريّة. فأنت تتنافس من أجل الحصول على حبّ الأبوين، حتى وإن لم يعد لهما أيّ وجود.

عندما أصل سجن شروزبيري، أنتظر خارج المبنى مندهشة لأنّني لم أجد أحدًا في الجوار. لا عمّي طارق ولا عمّتي ميرال ولا جيران أو أصدقاء أو أقرباء. أين هم؟ أصدقاء اسكندر القدامى لم يأتوا بدورهم. هل نساه الآخرون يا ترى؟

تمرّ ساعة. ثمّة برودة تزحف في الجوّ، تكبت كلّ صوت، فأشعر بالظمأ إلى حدٍّ ما. لو أنّني دخلت المبنى لقدَّم لي الضبّاط في كلّ الأحوال مقدارًا من الماء إنْ لم يقدّموا لي قدح شاي. وكان من شأني أن أسألهم ماذا يتوقّعون، وأن أعرف أشياء جديدة عن اسكندر، لكن من شأنه أن يظهر في مثل هذه الحالة، فيعانق أحدنا الآخر، أو نتصافح أمام أنظار الكلّ. يستحسن بي أن أنتظره في الخارج.

وأخيرًا تُفتح البوّابة المزدوجة. فيبدو من تحت هذا الضوء مرتديًا بنطالاً من الجينز وسترة من القطيفة المضلّعة، مختلفًا الاختلاف كلّه عن آخر مرّة شاهدته فيها. لقد اهتمّ بنفسه، ويبدو في لياقة بدنيّة عالية، ورشيقًا. تغيّرت مشيته، ولم يعد يدفع كتفيه

Twitter: @ketab_n

إلى الوراء أو يشرئبّ كعهده. وبعد أن يخطو بضع خطوات إلى أمام، يتوقّف ويرنو إلى السماء الباردة المكفهرّة، تمامًا مثلما توقّعت.

ثم تنبّه إليَّ. وجهي جامد الملامح. يتحرّك في بطء مانحًا إيّاي وقتًا كي أرجع إلى موقف السيّارات وأدير المحرّك وأمضي في سبيلي إن شئت. وعندما يقترب أتقدّم خطوة إلى أمام، يداي في جيبي.

يقول:

ـ مرحبًا بك يا أسماء.

وعلى حين بغتة، يساورني القلق بشأن نادر ويونس وكلّ الأرواح في العالم لأنّها أقنعتني بالمجيء إلى هذا المكان، ولكنّني أحاول أن أطرد الأفكار السود من رأسي. فأردّ عليه وأنا أشدّد على الكلمة الأخيرة:

ـ مرحبًا بك يا أخي.

ـ لم أتوقّع رؤيتك.

ـ آه، أنا شخصيًا لم أفكّر أنّني سأجيء إلى هنا.

فيقول:

ـ حسنًا. يسرّني أنّك جئت.

وفي السيّارة، أحسست بضرورة أن أقول شيئًا ما لملء الفراغ الذي يفصل بيننا.

ـ ظننت خالك طارق سيأتي.

ـ كان يريد أن يأتي، ولكنّني طلبت منه ألّا يحضر.

Twitter: @ketab_n

أشدّد من قبضتي على مقود السيّارة.

ـ حقًّا؟ هذا أمر مثير للاهتمام.

يميل اسكندر إلى أمام من دون أن يتفوّه بكلمة.

ـ كيف حال البنتين، ونادر؟

أخبره أنّ البنتين تدرسان في مدرسة الموسيقى في هذا الفصل الدراسي. وستكون ليلى هي السمكة المغنّية ولكنّنا لا نعرف أيّ نوع من السمك بعد. ربّما ستكون سمكة القدّ، وإن كانت تفضّل أن تكون سمكة الدولفين. أمّا البنت الصغرى فقد مُنحت دور زوجة صيّاد السمك، وهي شخصيّة مزعجة وجشعة ولكنّها مهمّة. إذًا ثمّة منافسة في البيت في هذه اللحظة. السمكة المغنّية مقابل زوجة صيّاد السمك.

أخبره بكلّ هذه الأمور من دون أن أذكر اسم جميلة وإن كان يعرف بطبيعة الحال. وأخلص إلى القول:

ـ إنّهما متحمّستان جدًّا.

فيقول مبتسمًا:

ـ بنات رائعات.

الصمت الذي أعقب هذا الكلام مقلق. لهذا السبب، أضع شريط أغاني فريق آبا الغنائي الذي أحضرته معي، ولكنّني خشيت أن أضغط على الزرّ لسبب ما.

ـ أتريد سيكارة؟

يهزّ اسكندر رأسه بالنفي.

ـ توقّفت عن التدخين منذ زمن.

Twitter: @ketab_n

ـ صحيح؟

أدرس ملامحه من طرف عيني.

ـ أرجو أن تسمح لي أن أسألك: ماذا ستفعل الآن؟

ـ أريد أن أرى ابني بأسرع ما يمكن.

لم أخبره أنّ كاتي اتّصلت بي قبل بضعة أيّام. لقد استقرّت في مدينة برايتون وتزوّجت بعرّاف، برجل يقرأ الكفّ ويزعم أنّه يرى المستقبل، وإن كنت أرتاب في أنّه تنبّأ بإطلاق سراح صديقها السابق من السجن. لديهما ثلاثة أطفال الآن. وبينما كنّا نتجاذب أطراف الحديث على الهاتف، لم أستطع منع نفسي من التفكير أنّها ما تزال تهتمّ بأخي، وربّما ما تزال تحبّه قليلاً.

ويسألني اسكندر في رقّة وكأنّه قرأ أفكاري:

ـ وكيف حال كاتي؟

ـ تزوّجت وهي سعيدة.

لو كان جوابي مؤلمًا، فإنّ اسكندر لم يظهر ما يشير إلى أنّه تألّم.

ـ عظيم. إنّني سعيد لأجلها.

فكّرت: هل تراه مخلصًا في كلامه؟

فيقول:

ـ لطيف جدًّا أنّك أتيت لتقلّينني. لن أمكث طويلاً، وسأعثر لي على مأوى. وعلى وظيفة. سامريّون طيّبون كثيرون يساعدون أمثالي من الناس. ثم...

ويتوقّف، ثم يضيف:

Twitter: @ketab_n

ـ أودّ الذهاب لزيارة ماما.

ثمّة توقّع تلا كلماته التي تفوّه بها، توقّع خيّم مثل بخار متصاعد من البورك الذي كانت تعدّه ماما. أبدّل من سرعة السيّارة وأقول:

ـ لقد توفّيت.

يلتفت إليَّ ويحدّق:

ـ لكن... لكن يونس أخبرني...

ـ أعرف ماذا قال لك. وتلك هي الحقيقة.

ثم أمسح عينيَّ.

ـ توفّيت قبل ستّة أشهر.

ـ وحيدة؟

ـ وحيدة.

لم أخبره كيف توفّيت، وسوف أخبره لاحقًا.

فيقول:

ـ كنت... كنت أودّ الذهاب إليها لأقبّل يدها.

وهنا تنبّهت إلى تلعثمه في الكلام.

ـ كان أملي أن توافق على أن أزورها.

ـ أنا متأكّدة من ذلك. ما زلت أحتفظ برسائلها، وسوف تقرأ بعضها، وسترى أنّها كانت تستفسر عنك على الدوام.

خفض اسكندر من رأسه وأنعم النظر في رسغيه وكأنّ الأصفاد ما تزال فيهما. يلتفت إلى النافذة ويتنهّد، فيملأ بخار أنفاسه

Twitter: @ketab_n

الزجاج، فيعمد إلى إنزال زجاج النافذة ويخرج رأسه منها ويتنفّس في صعوبة. ثم يخرج قصاصة ورق من جيبه ويلقي بها في الريح.

أقول بعد أن يغلق زجاج النافذة ثانية:

ـ شيء واحد آخر. زوجي نادر لا يعرف شيئًا.

ـ ماذا تعنين؟

ـ يونس وأنا لا غير. والآن أنت بطبيعة الحال. لا أحد من أفراد الأسرة يعلم أنّ ماما كانت حيّة ولا ينبغي لأيّ أحد أن يعرف ذلك. لقد أقسمت أنا ويونس. عندما أدركنا أنّ كلّ فرد بدأ يخلط بين الخالة جميلة وأمّي، حلفنا اليمين على القرآن الكريم ألّا نكشف الحقيقة لأيّ شخص. ولا حتى لأبينا. ولا حتى للعمّ طارق، أو العمّة ميرال، أو إلياس. ولا حتى لأزواجنا إن تزوّجنا يومًا ما. أنا وهو وحدنا سنحمل السرّ.

ـ لماذا أخبرتني إذًا؟

ـ الفكرة هي فكرة يونس وليست فكرتي، يظنّ أنّ الأوان قد آن لك كي تعرف. وكان الأمل يراوده في أنّكما، أنت وهو، سوف تلتقيان وتتصالحان. أعتقد أنّه يريد منك أن تستعدّ.

نمرّ من أمام قرية غافية من دون أن نشاهد أيّ مخلوق. وقت العصر يشارف على نهايته ويشعر العالم أنّه كامل ومطمئن. وعند إشارة حمراء، يلتفت إليَّ فتلتقي عيوننا.

ـ أنتِ تعيشين وسط أسرار كثيرة يا أختاه!

فأقول وأنا أفتح الجرّار الصغير:

ـ عن أيّها تتحدّث؟ هل في وسعك أن تأخذ هذا؟

Twitter: @ketab_n

وببطء يمسك الشيء الذي أشرت إليه. كتاب. عن آلاسكا.

ـ لديك ساعة ونصف الساعة لتتعلّم كلّ ما ينبغي لك أن تتعلّمه من الكتاب عن آلاسكا. لقد أخبرت بناتي أنّك كنت هناك طوال هذه السنين منهمكًا في العمل.

ابتسم اسكندر ابتسامة حزينة وبدأ يقرأ الكتاب. جبال تكسوها الثلوج، دببة شهباء، أسماك سلمون تتراقص في مياه باردة نقيّة. وعلى حين بغتة، لا يبدو المكان سيّئًا، ليس سيّئًا أبدًا. آلاسكا.

* * *

Twitter: @ketab_n

حلم داخل حلم

منطقة على مقربة من نهر الفرات، أيّار ١٩٩١

فتحتْ الخزانة وأخرجتْ سجّادة الصلاة ووقفتْ تصيخ السمع للأصوات القادمة من الوادي، خصوصيّة أخرى من خصوصيّات العيش في هذه المنطقة. وما دامت الريح تهبّ نحو الشمال، فإنّها تنقل أذان الصلاة من المسجد في القرية أسفل الوادي، ولكن عندما تغيّر الريح من وجهتها، تعجز عن معرفة الوقت. الساعة التي اشتريتها من لندن وأحضرتها معها توقّفت وتعطّلت وباتت تنتظر في ركن الغرفة مثل وجه ذابل موغل في القدم، بلغ به التعب والإعياء حدًّا لم يعد يقوى فيه على الكلام. بيد أنّها كانت بحاجة إلى معرفة الوقت كي تصلّي، لأنّ جعبتها كانت مملوءة بأشياء تريد أن تبّثها إلى الله.

لعلّ عمرها هو الذي جعلها دقيقة الملاحظة، وإن لم تكن قد تقدّمت بها السنون كثيرًا. فهي في منتصف الأربعينيّات، أو ربّما أصبح في حياتها الآن عدد كبير من الأشباح وعدد كبير من

Twitter: @ketab_n

الأشخاص الذين تحزن من أجلهم. ففي كلّ يوم كانت تتضرّع إلى الله كي يساعد ابنتيها التوأمين للعثور على مكان آمن في السماء، وهو المكان الأكيد الذي انتقلت إليه جميلة. وكانت في دعائها لا تنسى ذكر هديّة، الأخت ـ الأمّ التي تتذكّرها لا بوصفها كتلة مكتنزة من لحم أرجواني معلّق من السقف، بل بوصفها فتاة شابّة مرحة عرفتها منذ الصغر. ودعت لزوجها أيضًا، متأمّلة في كلّ ما أعطاه وما لم يعطه أحدهما للآخر، فضلاً على الدعاء من أجل والديها اللذين توفّيا منذ زمن طويل. وإذا بقيت لديها أيّ طاقة أخرى، فإنّها تذكر أسماء القرويين الثلاثة الذين بلغوا مائة عام ولفظوا أنفاسهم الأخيرة قبل وقت قصير، واحدًا إثر الآخر.

وعندما تفرغ من الدعاء للموتى تنتقل إلى الدعاء من أجل الأحياء، فتبدأ بحفيداتها في لندن الماطرة دائمًا والذين لا تعرفهنّ إلّا من الصور. وطلبت من الله أن يهدي ابنتها العنيدة وزوجها الرقيق، لتنتقل من بعد ذلك إلى دعاء مطوّل من أجل يونس (وأحيانًا من أجل فرقته الموسيقيّة) كي يتميّز وينطلق عاليًا من دون أن تغلبه تفاهات الشهرة. ثم استغرقت دقيقة واحدة وهي تدعو من أجل إلياس وأن يكون في خير وصحّة ورضا وأن يجد له فتاة يحبّها إن لم يجد حتى الآن. ثم وصلت إلى أطول الأدعية وهو من أجل اسكندر: سلطانها وأسدها وقرّة عينها.

أحيانًا فكّرت إن كانت قد اتّخذت القرار الصائب بعودتها إلى القرية. غير أنّ الهدوء التامّ الذي يخيّم عليها من كلّ الجوانب مثل شال تلتفّ به صباح كلّ يوم وقت الفجر، إنّما ينطوي على ما يكفي من التوكيد والإثبات في صواب قرارها. إنّ العيش في مثل هذه

Twitter: @ketab_n

الحياة المنعزلة والمستوحدة قد لا يكون سوى خطوة قصيرة نحو الجنون. فحاولت أن توازن نفسها بالتعبير عن شكرها لله على كلّ شيء وهبها إيّاه أو حرمها منه. يصعب على المرء أن يصاب بالجنون إذا كان ممتنًّا لله.

بدت بواكير الأيّام التي أنفقتها في إنكلترا بعيدة عنها الآن، مثل حلم متداخل. ففي المرّة الأولى التي استقلّت فيها الحافلة الحمراء الكبيرة، كان الأطفال ما زالوا صغارًا إلى جانبها، ولم يكن يونس قد وُلد بعد. ولن تنسى البهجة التي طغت عليها لدى مشاهدتها قصر الملكة من خلال شبابيك الحافلة المكسوّة بالضباب ولا جنود الملكة الذين يعتلون في رزانة ووقار صهوات جيادهم. واستحوذ عليها إحساس بالوحدة لدى وصولها حيّ هاكني الذي غمرت الأمطار شوارعه، والبيوت المتلاصقة المشيّدة بالآجر، والحدائق الصغيرة التي لا يتجاوز حجمها حجم الكشتبان. وكان المنزل الذي عثر عليه زوجها رثًّا وفي حاجة ماسّة إلى طلاء، ولكنّها لم تمانع، خاصّة أنّها كانت معتادة أن تبعث الألفة في روح الأماكن الصغيرة، ولكنّ الشيء الذي لم تستطع التأقلم وإيّاه هو الطقس. المطر. الكآبة. فالسحب ذات لون ملتبس على الدوام. صحيح أنّ نشأتها وترعرعها في منطقة على ضفاف نهر الفرات قد عوَّدها على تحمّل مصاعب فصول الشتاء القاسية والصيف الأشدّ قسوة، بيد أنّها لم تتكيّف تكيّفًا سهلاً على الاستيقاظ صباح كلّ يوم لتجد من فوقها سماء غائمة مكفهرّة على الدوام. ومع هذا، فقد كانت تهوى الذهاب إلى السوق الواقع في شارع ريدلي وتراقب الأهالي يساومون في الأسعار، والشارع يضجّ في حركة ذات معنى

Twitter: @ketab_n

وكأنّه خليّة نحل. صحيح أنّه لا يشبه السوق الكبير في اسطنبول وإن كان يعجّ بالحياة. فكانت تبتهج لذلك. يمكن للمرء أن يلتقي أناسًا من شتّى الأشكال والألوان، البيض والسود، ومن بلدان لا تعرف سوى أنّها أسماء على خارطة غير واضحة المعالم.

ولم تكن حركة السير القادمة من اليسار أو السائقين الجالسين في الجهة المعاكسة من السيّارة هو الذي كان يثير خوفها دائمًا بقدر ما كان يثيره أسلوب الحياة الذي دأب عليه أهل لندن، مثل تكلّف السيّدات العظمة وصفاقة الشبّان وحرّيّة ربّات البيوت ونمط الثقة التي لم تمتلكها ولم تفكّر يومًا أنّها ستحصل عليها. كانت ترقب النساء يرتدين القمصان الشفّافة التي تبدو من ورائها حلمات نهودهنّ، وشعرهنّ يتألّق تحت أشعّة الشمس، وكانت تتساءل كيف يمكن لهنّ أن يجعلن من أنوثتهنّ شيئًا وكأنّهنّ يرتدين ثوبًا من الأثواب. الشبّان والشابّات يتبادلن القبلات في الطرقات، ويدخّنون ويحتسون الخمرة ويتجادلون. لم تشاهد في حياتها قطّ مثل هؤلاء القوم المتحمّسين إلى أن يعيشوا حياتهم مكشوفة أمام الآخرين. إنّ القرويين الذين عرفتهم في أيّام طفولتها لم يكونوا من النماذج الأكثر لغوًا وثرثرة، كما أنّها شخصيًّا كانت ذات طبيعة صامتة متحفّظة في الكلام. إنكلترا، كما عرفتها أمّة كلمات، وبذلت قصارى جهدها كي تسبر غور المعاني الخفيّة لتلك الكلمات وظلال النكات والمفارقات.

غير أنّ الطيور هي التي أثارت دهشتها أكثر من أيّ شيء في المدن الكبيرة ـ إذْ كان وجودها يقتصر على الشقوق والثقوب، وغالبًا ما تكون غير مرئيّة، باستثناء الأوقات التي تتجمّع فيها

Twitter: @ketab_n

وتتدافع من أجل حفنة من الحبوب أو عندما تسقط ميتة على الأرصفة. ربّما لا توجد منها أنواع كثيرة، والمؤكّد أنّ أعدادها لا تصل إلى ما هي عليه في حديقة الحيوانات في لندن، ولكنّها حرّة ـ موضع ترحيب.

كانت تستاء عندما تشاهد حافّات النوافذ في لندن وقد ثبّتت عليها أبرٌ بارزة وكأنّها أبر حيوان من فصيلة القنفذ للحيلولة دون تربّع الطيور عليها وملئها بالقذارة. وذكّرتها بأسوار الحديقة ذات الكسر الزجاجيّة التي شاهدتها في اسطنبول، وهدفها إبعاد اللصوص كما قيل لها يومئذٍ. التفكير وحده بذلك الشأن جعلها تنكمش خوفًا. إنّ من يسكن في هذه البيوت لم يكن هدفه منع المتجاوزين من الدخول فحسب، بل كان يتمنّى أيضًا أن يجرح يده أو قدمه. حافّات نوافذ بإبر، وأسوار حديقة بزجاج ـ لم ترقها هذه الأشياء، ولم يرقها ما فعلته المدينة بأبنائها شيئًا فشيئًا.

* * *

لبثت بمبي بعد ارتكاب الجريمة في بيت الصبيان بضعة أشهر، وتناوب يونس وأسماء على زيارتها، حذرين محترسين كي لا يتفوّها بكلمة واحدة لخالهما أو خالتهما. ولكنّ اسكندر قُبض عليه وزُجَّ في السجن في حين كانت بمبي ما تزال مرتبكة ومضطربة لا تعرف هل تظهر للناس أم لا. في البدء. كانت تخشى أن يكتشف الصبيان السبب الذي يدفعها إلى الاختباء، لكنّ الشيء الذي كان في مصلحتها من هذه الناحية هو أنّ الصبيان نادرًا ما كانوا يطالعون الصحف أو يستمعون إلى الأقاويل التي يتداولها أهل الحيّ. غير أنّ هذا لا يعني أنّهم لم يتوجّسوا شرًّا، ولكنّهم تخيّلوا أنّ الأمر

Twitter: @ketab_n

يخصّ وزارة الداخليّة. ولمّا كان هؤلاء الشبّان يتمرّدون على كلّ شكل من أشكال السلطة، فقد شعروا بالسعادة وهم يوفّرون الحماية لها حتى بعد أن اكتشفوا السبب الحقيقي من وراء بقائها في بيتهم. وطلب يونس منهم مساعدة أمّه كي تغيّر من ملامحها، فما كان منهم إلّا أن انتهزوا الفرصة التي سنحت لهم. فقصّوا شعر بمبي وغيّروا لونه إلى أحمر خفيف يشبه شعر فتاة إيرلنديّة. وبعد أن ارتدت بنطالاً من الجينز ووضعت على عينيها نظّارات سميكة، أصبح الاستدلال عليها صعبًا.

وعلى الرّغم من كلّ ذلك، ومهما بذلت بمبي من جهود، لم تتمكّن من شقّ طريق حياتها في غمرة ظلام تلك الأيّام لولا مساعدة ابنتيها التوأمين. ففي منتصف ليلة من الليالي، كانت جالسة قرب النافذة في بيت الصبيان، لا تحدّق إلّا إلى ما تراه أمامها من خواء، تبيّنت شبحًا في الحديقة. كانت ناعسة إلى حدٍّ ما ولكنّها يقظة في الوقت نفسه. وتنبّهت. إنّها أختها. لكن جميلة لم تبادلها كلمة واحدة ولم تقترب منها. ولكن ظهورها بهذا الشكل كان كافيًا لكي يبعث الفرحة والبهجة في أوصال بمبي. ولكن سرعان ما تلاشت اللحظة، إذْ تحلّل الشبح في الجوّ مثل تحلّل قطرة حليب في ماء. بيد أنّ هذه التجربة أكّدت لبمبي أنّ أختها التوأم ليست متألّمة وأنّ المكان الذي هاجرت إليه ليس صعب الاحتمال. وبعد ذلك اليوم، كان الشبح نفسه يظهر لها بين حين وحين، يتواصل بين بمبي واسكندر الذي كان في السجن.

قبل وقت قصير على التحاق يونس وأسماء بالمدرسة الداخليّة في ساسكس، قرّرت بمبي أن ترجع بعد أن أدركت إدراكًا عميقًا

Twitter: @ketab_n

أنّها أكملت مدّتها في إنكلترا وأنّ عليها العودة إلى بلادها، إلى نهر الفرات، إلى المنطقة التي ولدت فيها لأنّها على العكس من إلياس ليست نباتًا من النباتات المتسلّقة في الهواء، وأنّها مضطرة إلى أن تحضن جذورها. وقد أيّد يونس وأسماء مشروعها ووعدا زيارتها في موسم الصيف.

كانا يحتفظان بالمحظيّة ذات اللون الكهرماني التي كانت جميلة قد أحضرتها معها بعد أن خبّأتها في كعب حذائها الخاوي وطلبت من أختها أن تحتفظ بها لأجلها. ولم يكن لأيّ واحدة منهما أدنى فكرة عن قيمتها أو كيفيّة بيعها. وفي نهاية المطاف، كانت السيّدة باول هي التي جاءت لإنقاذها رفقة الزعيم ممّا أثار حفيظة يونس. فقد بيعت الماسة عندما كانت السيّدة باول تعدّ ترتيبات سفر بمبي. وتأكّدت أيضًا من إيداع مبلغ من المال في أحد المصارف لكلّ من يونس وأسماء. أمّا بقيّة المال، فقد استخدمه الصبيان لإقامة حفلات صاخبة أضحت حديث حيّ هاكني على مدى الأشهر المقبلة. النقطة الوحيدة التي غابت عن ذهن بمبي عندما عقدت الصفقة في هاتون غاردن هو أنّ الماسة يمكن أخذها أو إعطاؤها هديّة وأنّها لا يمكن أن تعرض للبيع. لم يقل لها أحد عن اللعنة ولكن حتى لو أخبرها أحدٌ بذلك لما تردّدت في المضي قدمًا في خططها. لقد باتت بمبي المرأة التي لا حدود لخرافاتها، منهكة بسبب مخاوفها.

عندما توجّهت بمبي إلى كوخ شقيقتها في الوادي، لم تفزع فزعًا واضحًا بسبب ما رأته من دمار حلَّ بالكوخ. فقد دمّر مرور الوقت والرياح الأربع وقطّاع الطرق والإهمال العامّ تدميرًا جزئيًّا

Twitter: @ketab_n

ذلك المعتَزَل الآمن الذي شيّدته جميلة.

فرح الفلّاحون فرحًا لا يوصف لدى رؤيتهم القابلة العذراء وقد عادت إلى أحضانهم وإن ظلّوا لا يفهمون سبب رفضها حضور الولادات. ولكنّهم لبثوا يساعدونها في تنظيف كوخها وترتيبه، لكنّ المنطقة باتت اليوم خطرة، فالمتمرّدون الأكراد يقاتلون الحكومة والجنود ينتشرون في دوريّات ليلاً ونهارًا. غير أنّ بمبي ظلّت في خضمّ هذه الأوضاع كلّها لتحلّ محلّ أختها التوأم. أحيانًا كانت تتفادى المخاطر، ولكنّها لم تذكر شيئًا عنها في رسائلها. كانت تكتب عن الأشياء السارّة وحدها.

وكانت وعدت أطفالها أنّ انتقالها موقّت، وأنّها ستبقى مدّة محدودة من الزمان وتعود من بعد ذلك، امرأة جديدة، ولكن ما إن وطأت قدماها منزل أختها وبدأت ترتّب الأشياء حتى أدركت أنّها لن ترحل وهي في عجالة من أمرها.

* * *

Twitter: @ketab_n

أسماء

يقولون إنّك تبدأين فهم والدتك عندما تصبحين أمًّا بدورك. أمّا أنا، فإنّ رسائل بمبي هي التي ساعدتني لأفهمها فهمًا أفضل.

كانت تكتب لي الرسائل في انتظام، وفي صراحة، وتكشف لي عن خبايا نفسها أكثر ممّا كشفت لي وجهًا لوجه. وأصبح تسلّمي مظروف رسائلها الجوّي الأزرق اللون ضرورة لا أقدر على الاستغناء عنها، وحدثًا أسبوعيًّا بهيجًا. فكنت أعدّ الشاي وأجلس إلى طاولة المطبخ وأقرأ، مرّات، ومرّات وأعرف أنّها على ما يرام وناجحة.

ابنتي العزيزة، نور عيني في هذا العالم والعالم الآخر.

أفكّر فيكِ طوال الوقت. أرجوك أن تستمرّي في زيارة شقيقك. سامحيه يا أسماء. حاولي. أعرف أنّ هذا صعب، ولكن يجب عليك أن تحاولي. تأكّدي من أنّه يفهم أنّه ليس وحيدًا. فنحن لسنا وحيدين. أدعو الله أن يرسل له رفيقًا، شخصًا ما يؤنس أصحابه من بين البشر ويعرف مدى جهلهم ولكنّه يظلّ يغدق عليهم من حبّه على الرّغم من كلّ ذلك. إنّني أدعو الله يوميًّا أن يعثر له

Twitter: @ketab_n

على هذا الشخص ويرسله إلى السجن ليؤنس صحبة اسكندر.

لا تقطّبي وجهك يا حبيبتي. لا تقولي إنّني منحازة إليه حتى هذا اليوم. هل يمكنك أن تفضّلي إصبعًا على أخرى؟ هذا هو شعور الأمّ. لا يمكنك أن تنحازي إلى أيّ من أبنائك. اسكندر ويونس وأنت، أعزّاء على قلبي على نحو متساوٍ.

في هذه الأيّام بات يصعب أكثر من ذي قبل إرسال الرسائل. فلا تقلقي إن لم تأتك رسالة منّي. لقد راودني حلم ليلة أمس، هو الأكثر وداعة وسكينة. كنت هنا وهناك في لندن الملكة في الوقت نفسه. كان الجوّ مطيرًا إلّا أنّ المطر كان غريبًا بألوانه الزاهية وكأنّني كنت أشاهد ألعابًا ناريّة من دون نار. فاستيقظت وفكّرت، لكنّه حلم حقيقي. فأنا معك هناك. دائمًا.

أمّك الحبيبة، بمبي

كانت آخر رسالة أتسلّمها منها: الرسالة التي قرأتها مرّات ومرّات حتى إنّ ورقها تمزّق من حول حافّاتها وظهرت عليه آثار بصمات أصابع، أصابعي من فوق أصابعها، مثل خطوط رواية تتداخل وتفترق.

وفي وقت لاحق، ولمّا تمكّنت من السفر إلى تركيا، أخبرني القرويّون مفصّلاً كيف حدث كلّ شيء، وأكّدوا لي أنّها لم تشعر بألم، ولا أدنى ألم. جرثومة. وبدأ المرض ينتشر في هيأة طفح جلدي من حول الرقبة والذراعين، بقع ورديّة، لا تدعو إلى الخوف أو الفزع. وقبل أن يمضي وقت طويل، بدأت المريضة ترتعش وتتفصّد عرقًا، وإذا لم تعالج في تلك المرحلة فإنّها كانت تُصاب بحمّى شديدة وتنام نومًا تفقد فيه الوعي ممّا أضعف من عمل رئتيها

Twitter: @ketab_n

سريعًا، ولم يفلح الكثيرون في إيقاظها. وكان ذلك المرض قد ظهر في أواخر ربيع العام ١٩٩٢ وانتقل من الحيوانات إلى البشر وقضى على ستّة أشخاص في شهر واحد ـ ثم اختفى تمامًا وكأنّ شيئًا لم يكن. لعلّها أصيبت بالمرض من طريق العدوى لدى زيارتها قرية (منزل الرياح الأربع) للحصول على التموين وقبلت أن تتناول الشاي من امرأة أرادت أن تطلعها على السجّاد الذي نسجته في شبابها. وكان ابن المرأة البالغ ستّة أعوام قد أُصيب بالجرثومة وإن لم يكن أحد قد عرف به في ذلك الوقت. وقد عاش الولد، ولكن أمّي توفيت.

ولم أعرف أنّ أمّي ماتت للمرّة الثانية والأخيرة إلّا بعد أن توقّفت رسائلها إليَّ.

* * *

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

شكر وتقدير

أودّ أن أعبّر عن شكري لديفيد روجرز لقراءته المخطوطة الأوّليّة وتقديمه مقترحات قيّمة.

وأشكر وكيلي إليزابيث شينكمان لما وجدت فيها من تشجيع ومحبّة. وأتوجّه بشكر خاصّ إلى المحرّرين المدهشين بول سلوفاك وفينيشيا بترفيلد لما قدّماه من ملاحظة معمّقة واهتمام دقيق بالتفاصيل، وإلى دونا بوبي لإسهامها الفريد والمميّز.

أمّا شكري الأعظم، فإنّني أتوجّه به إلى زيلدا وزاهر اللذين أجابا عندما سُئلا في المدرسة عن العمل النموذجي الذي تؤدّيه الأمّهات في البيوت: إنّهنّ يوقّعن الكتب.

وإلى أيّوب، الزوج والحبيب وجوهر الصبر والحكمة، كلّ الشكر.

وإنّني ممتنّة أيضًا إلى النساء، شرقًا وغربًا، اللواتي سردن حكاياتهنّ الشخصيّة لي، وشاركنني في صمتهنّ أيضًا.

أليف شافاك

Twitter: @ketab_n

تصميم الغلاف نجاح طاهر

تغادر بمبي تركيا، تاركة وراءها أختها التوأم، وتابعة زوجها الحبيب آدم إلى لندن. وتحاول عائلة "طبَرق" الكرديّة، عبثًا، في المنفى الابتعاد عن التقاليد والمعتقدات، التي تبقى تلاحقهم حتى آخر نقطة دم.

يجد أولاد عائلة طبرق أنفسَهم عالقين في فخّ الماضي. ومصدومين بجريمة مروّعة تقلب حياتهم رأسًا على عقب. رواية قويّة تجري أحداثها بين تركيا ولندن، تحكي الفقدان والعذاب، الوفاء والخيانة، صراع الحداثة والتقاليد، فتمزّق العائلات إربًا إربًا.

أليف شافاك هي الروائيّة الأكثر مبيعًا في تركيا.
نالت جوائز أدبيّة عالميّة عديدة وتُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات.
صدر لها عن دار الآداب: "أربعون قاعدة للحبّ"، "لقيطة اسطنبول" و"شرف".

www.elifshafak.com

دار الآداب
هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-271-9